تفسير من هدى القرآن

الجزء الثالث عشر

سورة الدخان

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

قال الامام أبو جعفر الباقر (ع) : " من أدمن قراءة سورة الدخان في فرائضه و نوافله بعثه الله عز وجل من الآمنين يوم القيامة ، و ظله تحت عرشه ، و حاسبه حسابا يسيرا ، و أعطاه كتابه بيمينه. "

تفسير نور الثقلين / ج ٤ - ص ٦١٩

الإطار العام

عبر (59)آية قصيرة نسبيا تطالعنا سورة الدخان الكريمة بثلاث موضوعات أساسية : ليلة القدر ، و الفتن الكبرى ، و صور عن الجزاء الأوفى في الآخرة.

ماهي العلاقة بين هذه الموضوعات ؟

كل شيء في الخليقة مقدر سلفا ، و لكل جزيئة منها غاية محددة سلفا ، أو يمكن لهذا الانسان الأكمل خلقا بينها أن يترك سدى .. كلا .. الذرة المتناهية في الصغر - حسب علمنا - مخلوق مقدر بعلم ، و مسير لهدف ، و كذلك المجرة المتناهية في السعة - حسب علمنا - مخلوق مقدر بعلم ، و مسير لهدف .. أفلا يكون لهذا الانسان تقدير و هدف ؟

لعل عقلانية الخليقة هي محور السورة . تعالوا إذا نوصل فروع بصائر السورة بهذا المحور.

أولا :القرآن أنزل في ليلة القدر - المباركة - لانه ينذر باسم مقدر هذا الخلق ، و ألا يزيغوا عن ذلك التقدير الحكيم الذي قضي في ليلة القدر ، حيث يفرق فيها كل أمر حكيم . أمرا من عند الله ، الذي أرسل الأنبياء ينذروا الناس به.

وكانت تلك رحمة من الله ان ينذر الناس ألا يتجاوز تلك السنن و الأقدار ، فيتعرضوا للخطر.

و بعد أن يذكرنا بعظمة الخالق يقول : " بل هم في شك يلعبون (وهو سبب كفرهم بهذه الرسالة و سيبقى ضلالهم حتى يأتيهم العذاب) فارتقب (يوم العذاب (يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس (حيث يتساءلون ما هذا (هذا عذاب أليم * (فينادون) ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون * (و هيهات (أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه (بعد أن انذرهم بما فيه الكفاية) و قالوا معلم مجنون * (و يأتيهم الخطاب) إنا كاشفو العذاب قليلا انكم عائدون * (ولعل هذا العذاب هو العذاب الأدنى ، الذييأخذهم ليكون نذيرا للعذاب الأكبر ، وهذا بدوره من شواهد القيامة) يوم يبطش الله البطشة الكبرى (فيومئذ لا ينفع الاستغفار) إنا منتقمون. "

و يسوق القرآن قصة فرعون لتكون شاهدة على مجمل هذه البصائر التي سبقت . تقدير الله الحكيم - انذار الرسل ، نزول العذاب ، و الجزاء الحسن الذي أتاه بني اسرائيل. -

و تلك هي فتنة كبرى تعرض لها قوم فرعون فلم يفلحوا حيث جاءهم موسى بالبلاغ المبين ، فلما رجموه بالتهم دعا عليهم فجاءه النصر ، حيث أغرق الله فرعون و قومه ليتركوا وراءهم ثرواتهم دون أن تذرف السماء عليهم دمعة . أوليسوا كانوا خاطئين ، حيث زاغوا عن القدر الحكيم ، و الصراط المستقيم . تلك هي سنة الجزاء ،و دليل على ان الله خلق كل شيء بالحق ؟!

و كذلك فقد نجى الله بني اسرائيل من العذاب المهين ، و اختارهم على علم (و استحقاق لديهم) على العالمين.

كيف يترك الانسان سدى ، و بلا محاسبة ، و كيف تكون حياته الدنيا خاتمة المطاف ، و لقد أهلك الله قوم تبع ، حيث كانوا مجرمين - وفي هذا دليل على حكومة الله العادلة على مجريات التاريخ - كما انه يكشف عن جانب من عقلانية الخليقة ، وأن الله لم يخلق السماواتو الارض وما بينهما إلا بالحق ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، و عدم علمهم دليل جهلهم لا عدم صحة هذه الحقيقة.

و يفصل الذكر الحكيم جانبا من جزاء الله في يوم القيامة ، و يقول : " إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين " (في ذلك اليوم لا ينفع الأنداد الذين يشركون بهم " (يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا " (وحتى لو انهم نصروهم فانهم لا ينصرون. (

و بعد بيان طعام شجرة الزقوم ، و كيف يقيد المجرم الى عذاب النار ، يعرض الرب لنا جانبا من نعيم الله للمتقين ، و يختم القرآن السورة بأن تيسير الكتاب كان بهدف تذكيرهم (فمنهم من يتذكر ومنهم من ينتظر) فارتقب انهم مرتقبون.

وهكذا ينذر القرآن عباده بالجزاء الأوفى الذي هو رمز حقانية الخليقة ، و عدالة الله و تقديره الحكيم.

يوم تأتي السماء بدخان مبين

هدى من الآيات

إن الصيغة التي ورد فيها الحديث عن ليلة القدر لا يختص بها وحدها ، و إنما ينصرف الى حقيقة هامة أيضا ، و هي أن الانسان محاط بتدبير الله قضاءا و قدرا ، و هاتان الكلمتان تردان في كثير من النصوص الشرعية كتابا و سنة وعلى ألسن المؤمنين ، فماذا تعنيان ؟

القدر هو السنن الإلهية التي تحكم الكون ، فالنار تحرق ، و الماء يطفئ النار ، و .. و .. و أما القضاء فهو الحكم الإلهي القاطع بإجراء هذه السنن أو تعطيلها ، ففي هذه السنن يظل فراغ لا قانون فيه ، و هو ما نسميه اليوم بالصدفة ، ذلك أن إرادة الله فوق القانون ، وقد أثبت العلم بعد التجارب المتكررة على مختلف القوانين هذه الحقيقة.

فمن واقع الإنسان اكتشف العلماء دواءا لعلاج فيروس الانفلونزة ، و اعتقدواأنهم بواسطته يستطيعون السيطرة عليه سيطرة تامة ، و لكنهم وجدوا أن عشرات الألوف من الشعب الأمريكي يموتون بسببه بالرغم من تعاطيهم ذلك الدواء ، و السبب أن أجسامهم لا تستجيب لمفعوله .. فالدواء إذن ينفع ولكن ليس إلى الأبد إنما في حدود معينة.

و مثل آخر من واقع الطبيعة أن الخبراء بعد التفكير و التجريب و التخطيط أطلقوا (أبولو ١٣) الى الفضاء ، و بعد أن وصل الى المكان المعين تعطل عن العمل ، و عسكريا حاولوا غزو إيران ، مع الأخذ بعين الإعتبار كل الإحتمالات و الإستعداد لمواجهتها ، و لكنهم عند التنفيذ فشلوا ، و تهاوت طائراتهم كأوراق الخريف في صحراء طبس .. مما يدل على وجود هامش لا قدرة للانسان في السيطرة عليه ، بل قد يبدأ الهامش من الانسان نفسه فإذا به يفقد السيطرة على ذاته فضلا عن عمله ، فربما يختل توازنه الذهني

، و ربما يتعطل شيءفي جسده.

ومن المعايشات اليومية قد يرفع الإنسان صدقة أو يعمل خيرا في أول يومه ، فيعرض له حادث مميت ينجو منه ، بينما يموت في يوم آخر بسبب تافه . أليس كذلك ؟ إذن فهناك قوة غيبية تدبر شؤوننا ، ولا يوجد شيء في الحياة يسمى بالصدفة ، إنما هي تدابير إلهية فوق الإرادات و السنن.

و روي أن أمير المؤمنين (ع) عدل من حائط مائل الى مكان آخر ، فقيل له : يا أمير المؤمنين تفر من قضاء الله ؟ فقال (ع) : " أفر من قضاء الله الى قدره (1) "، فقدر الله أنه الجدار المائل يسقط ، و الذي يجلس عنده يتضرر ، و قد وهب الله للانسان العقل الذي يتعرف به على هذه الحقيقة ، أما قضاؤه فإنه تعالى يبعث في(١) بح / ج ٥ - ص ٩٧

عقل الانسان كشبه الهزة الكهربائية تثيره و تذكره ، و ابتعاد الإمام (ع) عن الجدار كان بقضاء الله عز وجل .

و نقل لي أحد الأشخاص قائلا : كنت واقفا في الشارع أبحث عن سيارة توصلني الى نقطة معينة في إحدى العواصم ، وفي الأثناء توقفت الى جانبي سيارة أجرة ، ولكن السائق رفض جلوسي في المقعد الأمامي الى جانبه ، الأمر الذي منعني عن الركوب في هذه السيارة ، فاستقليت سيارة أخرى ، و بينما كنا نسير رأينا جمعا من الناس و كأن حادثا ما وقع في الشارع ، و حيث نزلت لمعرفة الخبر وجدتها سيارة الأجرة التي رفض صاحبها ركوبي في المقعد الأمامي ، و قد تحطمت ومات السائق و الراكب الذي كان الى جانبه .. فالقدر الطبيعي لهذا الشخص أنه يموت ، و لكن القضاء يتدخل ليبدل الأمر ، و ينقذ هذا الانسان.

و أمثال هذه القصص و الحوادث تتكرر بكثرة في حياتنا اليومية ، و نحن نعايشها أو نسمع عنها ، ولكننا لا نبصر ولا نعتبر . وفي هذه السورة تركيز على هذا الوعي (أن في الكون يدا غيبية تدبر شؤونه) ، وذلك لا يعني أنها وحدها تفعل كل شيء مباشرة ، وأنه لا نظامفي الحياة ، كلا .. إنما النظام موجود ، ولكن هناك أيضا من يجريه و يهيمن عليه فيجريه أو يعطله متى شاء ، وهو الله عز وجل ، فإذا بالنار التي تحرق يتعطل قانونها في قصة إبراهيم (ع) ، وإذا بالعصا تصير حية كأنها جان ، وهكذا الكثير من الشواهد الأخرى.

بينات من الآيات:

[[1]حم]

بالإضافة الى كون الكلمات المقطعة رموزا و إشارات تهدينا الى القرآن ذاته ، أو أنها رموز بين الله و أوليائه (وهو أفضل ما قيل فيها) ، فإنها تنسجم بتناغمهاو أجراسها اللفظية مع طبيعة السورة ذاتها نفسيا و أدبيا.

[2-3]وفي هذه السورة يقسم ربنا بعد تلك الحروف بالقرآن نفسه ، والذي يتألف منها ومن أشباهها ، للدلالة على مدى عظمته و جلالة قدره.

]و الكتاب المبين * إنا أنزلناه في ليلة مباركة[

هي ليلة القدر في شهر رمضان ، التي عدلت بخيرها و بركتها ألفا من الشهور .. و إنما أنزل الله الكتاب لهداية الناس الى الحق بترغيبهم فيه و تحذيرهم من عواقب الضلال و الباطل.

وقد تساءل المفسرون : كيف نزل القرآن في ليلة القدر وقد تنزلت آياته على امتداد ثلاث و عشرين عاما ، وقد بين ربنا حكمة تنجيم القرآن بقوله : " و قالوا لولا نزل عليه هذا القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك و رتلناه ترتيلا " . (١)قالوا - حسب النصوص - : إنه أنزل جملة واحدة الى مقام سام في السماء

الرابعة جعله الله مسجدا لملائكته حيث يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه أبدا ، يسمى بالبيت المعمور ، وقد جعل الله الكعبة بازائه . (٢)وقالوا : إن الرسول كان على علم بما في الملأ الأعلى ، ولذلك أمره الله بألا يعجل في بيان القرآن " : لا تحرك به لسانك لتعجل به " . (٣)[إنا كنا منذرين[

(1)الإسراء / ٣٢

(2)راجع موسوعة بحار الانوار /ج ٩ - ص ١٦٣ وما بعد.

(3)القيامة / ١٦

و الإنذار هو هدف القرآن و سائر الرسالات الإلهية ، ذلك أن الأمم تبدأ بالإنحراف عن هدى الله حتى تقف على شفا حفرة من النار و العذاب ، فيبعث الله لها بمنذر و كتاب لإنقاذها.

[5 - 4]وقد شرف الله ليلة القدر بأمرين:

أولا : حيث أنزل فيها كتابه الكريم الذي بعث به الإنسانية مقاما محمودا أهلهم به لجناته و رضوانه و الزلفى من مقامه الأعلى.

و إنما شرف الزمان بما يقع فيه من حوادث عظيمة ، وهل هنالك حادثة أعظم من وحي رب العزة ؟! أوسمعت كيف كادت السموات يتفطرن من فوقهن لما مر بهن وحي الله العظيم ؟! أو ما قرأت أن القرآن لو أنزل على الجبال لتصدعت ؟!

حقا إنها ليلة مباركة عظمت و شرفت في السموات و الأرض ، و يحق لنا أن نكرمها بالعبادة.

ثانيا :لقد جعل الله ليلة القدر ليلة الوحي في كل عام حيث ينزل فيها ملائكته كل عام و الروح من كل أمر ، و حيث يستقبل الانبياء ومن بعدهم الأوصياء وصيا بعد وصي رسل الله الذين يفصلون لهم ما قدره الله لعباده جميعا.

]فيها يفرق كل أمر حكيم[

شؤون العباد ليست تماما بأيديهم ، بل لعل أغلبها بيد القدر .. و التفريق - حسبما قال البعض - هو تفصيل ما أجمله الله في غيب علمه من حكم الخلق و أهدافه.

]أمرا من عندنآ إنا كنا مرسلين[

فالأمر إذن يرسل من عند الله كما القرآن ، أي أن القرآن منهاج عملنا في عالم التشريع ، بينما قدر الله و قضاؤه يرسمان خريطة حياتنا في عالم التكوين ، فكما يقدر الله في ليلة القدر ما يتصل بحياتنا جزءا جزءا كذلك يرسل الأنبياء ليفصلوا منهاج حياتنا كلمة كلمة.

[6]وهذا التدبير الإلهي رحمة بالغة.

]رحمة من ربك[

إن اليد الإلهية التي تسير شؤون الكون يد رحيمة و كريمة ، ومن هنا كانت البصيرة القرآنية الى الحياة توحي بالإطمئنان و الثقة ، فالمسلم الصادق يسلم لله ، و تطمئن نفسه لقدره و قضائه : ألا بذكر الله تطمئن القلوب " فهو لا يخشى من الطبيعة و الناس من حوله ولا من المشاكل ، لذلك فهو ينفق في سبيل الله ما استطاع دون الخوف من الفقر ، و يرجو من الإنفاق زيادة الرزق ، و يقدم على الأمور ، ولا

يخشى العقبات و المشاكل ، بل و يرجو من ذلك تسخير الطبيعة في صالحه ، و لذلك فهو قليل الفشل ، لأن الفشل أكثر ما يأتي من خشيته.

ثم إن رحمة الله لا تنتهي عند حد معين ، إنما تتسع أيضا لحاجات الإنسان المتجددة التي تعكسها دعواته.

]إنه هو السميع[

الذي يسمع دعاء عباده.

]العليم[

بنواياهم ، ثم يستجيب لهم أولا يستجيب لحكمة يعلمها.

[8 - 7]و ربنا هو رب الكون بأسره ، و لكن بعض الناس يشرك به ، و يقسم الخليقة على آلهة شتى ، و هذه النظرة الضالة للحياة ليس سببها عدم ظهور آيات الربوبية في الكون من حولهم ، و إنما لأنهم لم يرتفعوا الى مستوى المعرفة العميقة و اليقين.

]رب السموات و الأرض وما بينهما إن كنتم موقنين[

بلى . إن الموقنين هم الذين ينظرون للحياة نظرة توحيدية خالصة من الشرك ، فلا يؤمنون بإله إلا الله عز وجل.

]لا إله إلا هو يحيي و يميت [

فهو المتصرف في مصائر الخلق ، ومن هذه صفته هو الإله ، و الأولى بالعبادة من كل أحد سواه ، ومادام ربنا هو الذي يملك الموت و الحياة فلماذا نخشى غيره و نخضع له ؟! لماذا نتبع الطاغوت ؟! و لماذا نقلد آباءنا ؟!

إنهم ليسوا بآلهة حتى نعبدهم ، إنما هم عباد مثلنا خلقهم الله.

]ربكم و رب ءابآئكم الأولين [

سواء عبده الآباء أم أشركوا به ، و نحن يجب أن نتخذ هذه الحقيقة مقياسا لتقييم الأجيال وليس العكس ، وذلك لكي لا يؤثر علينا انحراف الآخرين تأثيرا سلبيا .

[9]و السؤال الذي يطرح نفسه هنا : لماذا يضل البشر عن هذه الحقائق ، و يشركون بالله ؟

و الإجابة : لأنهم يظنون أن الحياة الدنيا هي نهاية المطاف ، فهي الهدف فياعتقادهم ، وهذا يقودهم الى الشك في المستقبل حيث الدار الآخرة ، ومن فرغ حياته من الآخرة فقد أفقدها هدفها ، و جعلها مجرد لعب.

]بل هم في شك يلعبون[

إن المؤمن لا يتخذ الدنيا دار لعب و لهو ، لأنه يعتقد بالمسوؤلية و الحساب عن كل قول و فعل يصدر منه ، بل عن كل حديث له مع نفسه ، بينما الذين يشكون في الآخرة يقودهم شكهم الى النظرة الساذجة و الهازلة الى الحياة الدنيا.

[10]و القرآن يحذر هؤلاء من العاقبة التي سوف يلاقونها نتيجة هذه النظرة للحياة ، فالشك في الآخرة

لن يلغي المسؤولية فيها.

]فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين[

فكأنها تشتعل نارا و لكن من دون ضياء ، و ذلك أن النار في يوم القيامة لا نور فيها و بالذات في جهنم ، إنما هي ظلمات فوق ظلمات ، وفي المجمع : إن رسول الله (ص) دعا على قومه لما كذبوه فقال : اللهم سنيا كسني يوسف ، فأجذبت الأرض ، فأصابت قريشا المجاعة ، وكأن الرجل لما به من الجوع يرى بينه و بين السماء كالدخان ، و أكلوا الميتة و العظام (١) . وقد وعد الله رسوله بانزال العذاب على المرتابين و المشككين في الجزاء.

[11]و حين ينزل هذا العذاب فإنه يغمر الناس من كل ناحية.

]يغشى الناس هذا عذاب أليم [

جزاءا لما قدمتموه في الدنيا من الأعمال و الإعتقادات المنحرفة ، فإذا بهم(١) مجمع البيان / ج ٩ - ص ٦٢

يستغيثون الله و يتضرعون إليه طمعا في النجاة ، ولكن دون جدوى.

] [12]ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون[

و هذه من طبيعة البشر . إنه لا ينتبه حتى يرى العذاب مباشرة ، بينما زود بالعقل لاستشفاف المستقبل ، و تجنب الخطر قبل فوات الأوان.

و سواءا أريد بهذه الكلمة المنذرة العذاب الذي يغشى المجرمين في الدنيا أو عذاب الآخرة فإن موقف الشاك في الآخرة منها واحد ، إذ أنه لا يتذكر إلا و العذاب يغشاه فلا تنفعه الذكرى ، على أن عذاب الدنيا لحظة بل لسعة بل ظلال من عذاب الله في الآخرة ، نعوذ بالله منهما.

وفي بعض التفاسير : إن الدخان هذا من أشراط الساعة ، حيث ذكر في الحديث المأثور عن أمير المؤمنين عليه السلام:

"عشر قبل الساعة لابد منها : السفياني ، و الدجال ، و الدخان ، و الدابة ، و خروج القائم ، و طلوع الشمس من مغربها ، و نزول عيسى ، و خسف بالمشرق ، و خسف بجزيرة العرب ، و نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس الى المحشر (1)(1) " عن بحار الانوار / ج ٥٢ - ص ٢٠٩

و ألا تعلوا على الله

هدى من الآيات

يتعرض البشر الى نوعين من الفتن في حياته:

الأول :الفتن اليومية ، وهي تشبه سائر متغيرات حياة الفرد التي تتكرر عليه ، فهو كما يجوع فيشبع ، و يظمأ فيرتوي ، و يضحى فيسكن الى مأوى ، فإنه يصطدم بهذا النوع من الفتن ، ومن طبيعة الحياة أنها تحد من جانب و استجابة للتحدي من جانب آخر ، و هنا يكمن الإبتلاء ، و إنما يكتسب الإنسان الخبرة و الإرادة و القوة ، كما ينمو و تنمو معه المواهب من خلال تحدي المشاكل و العقبات.

الثاني : الفتن الكبرى التي يتعرض لها الفرد أو المجتمع ، وهي تتجدد في كل عصر ، بيد أن قرار الانسان فيها يكون مصيريا ، فالفرد الذي ينتمي الى حركة إصلاحية ، و يتدرج في مراحل التوعية و التنظيم و العمل ، حتى يبلغ مكانا حساسا فيها . إن كل لحظة تمر عليهمن عمره الحركي تعتبر لحظة خطيرة تحمل الفتنة

و الإبتلاء ، و لكنه لا يتعرض للفتنة الكبرى إلا حينما يقع في قبضة السلطات الإرهابية ، فيتعرض لألوان التعذيب الوحشي أو الإنحراف الخادع ، فإن صمد ولم يكشف لهم عن أسراره كتب خلوده و مجده بألمه ، و ربما بدمه.

و صور اجتماعية لهذا النوع من الفتن نجدها في حياة الأمم ، ولكن ليس عند الفتن التي نسميها بالتحديات و التحديات المضادة التي تتعرض لها في اقتصادها وفي سياستها و تركيبتها ، و إنما عند المواجهة الحاسمة ، حين تقف هذه الأمة أمام عدو أقوى منها سلاحا ، و أرقى تقدما ، و أكثر عددا ، فإن صمدت فإنها تكتب مجدها ، وإن انهزمت فإنها تقرر مصيرها.

و كشاهد على هذا اللون من الفتن في التاريخ الفتنة التي تعرض لها موسى و قومه من جهة و فرعون و ملأه و جنده من جهة أخرى ، و التي انتهت بفشل هؤلاء الذين لم يرتفعوا الى مستوى تحدي الكبرياء الكاذبة في أنفسهم ، فانحرفوا و انتهت حضارتهم للأبد.

إذن فالفتن الكبرى مصيرية و حاسمة ، و السؤال هنا : كيف يصمد الانسان أو المجتمع أمامها ؟ إنه يحتاج الى إرادة قوية ، وهي لا توجد عند الانسان في لحظة واحدة ، و إنما بالتدريج و التربية ، فكما أن البحر الطمطام الذي يمتد طولا و عرضا يتكون من القطرات الصغيرة ، وهكذا الصحراء المترامية الأطراف تتكون من ذرات الرمل ، فكذلك إرادة الانسان تصنع من مجموع إرادات صغيرة ، هو يتمكن من اتخاذ الموقف الصعب إذا مارس المواقف الأقل منه في الحياة.

و كمثال على موقف الانسان من الفتنة الكبرى و اتصال ذلك بمواقفه السابقة دعنا نستعرض قصة رجلين : أحدهما سقط في الفتنة ، بينما انتصر الثاني ، فهذا هو عمرو بن العاص حسبما يقول عنه ابن قتيبة الدينوري في كتابه الإمامة و السياسة:

لما انتهى اليه كتاب معاوية وهو بفلسطين ، استشار ابنيه عبد الله و محمدا ، وقال : يا ابني ، إنه قد كان مني في أمر عثمان فلتات لم استقبلها بعد ، وقد كان من هروبي بنفسي حين ظننت أنه مقتول ما قد احتمله معاوية عني ، وقد قدم على معاومة جرير ببيعة علي ، وقد كتب إلي معاوية بالقدوم عليه ، فما تريان ؟ فقال عبد الله وهو الأكبر : أرى و الله أن نبي الله قبض وهو عنك راض ، و الخليفتان من بعده كذلك ، و قتل عثمان و أنت غائب ، فأقم في منزلك ، فلست مجعولا خليفة ، ولا تزيد على أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة ، أوشكتما أن تهلكا فتستويا فيها جميعا ، وقال محمد : أرى أنك شيخ قريش ، و صاحب أمرها ، فإن ينصرم هذا الأمر و أنت فيه غافل ، يصغر أمرك فالحق بجماعة أهل الشام ، و اطلب بدم عثمان ، فإنك به تستميل الى بني أمية ، فقال عمرو : أما أنت يا عبد الله فأمرتني بما هوخير لي في ديني ، وأما أنت يا محمد فقد أمرتني بما هو خير لي في دنياي ، ثم دعا غلاما له يقال له وردان ، وكان داهيا ، فقال له عمرو ، يا وردان احطط ، يا وردان ارحل ، يا وردان احطط ، يا وردان ارحل ، فقال وردان :أما إنك إن شئت نبأتك بما في نفسك ، فقال عمرو : هات يا وردان ، فقال : اعتركت الدنيا و الآخرة على قلبك ، فقلت مع علي الآخرة بلا دنيا ، ومع معاوية الدنيا بغير آخرة ، فأنت واقف بينهما ، فقال عمرو : ما أخطأت ما في نفسي ، فما ترى يا وردان ، فقال ، أرى أن تقيم في منزلك ، فإن ظهر أهل الدين عشت في عفودينهم ، و إن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك ، فقال عمرو :ألآن حين شهرتني العرب بمسيري الى معاوية ؟! (١)و ذهب عمرو الى معسكر معاوية تاركا آخرته لدنياه ، ثم لما دنت منه الوفاة وكان في فلسطين قال لمن حوله : احملوا جسدي الى صحن الدار ، فلما حمل و طرح على الأرض نظر الى السماء فقال : لست بذي عذر فأعتذر ، ولا بذي قوة فأنتصر ،(١) الامامة و السياسة / ج ١ - ص ٩٦

فافعل بي ما تشاء ، و مات .

و نجد في مقابل هذه الهزيمة صورة للصمود أمام فتنة الحياة ، عند عمار بن ياسر (رضي الله عنه) الذي وقف مع الحق في حرب صفين وهو يناهز التسعين من العمر ، و لما رأى الإمام علي (ع) شيخوخته أمره أن يشد ظهره ، و حواجب عينيه حتى لا يبدو للناس ضعيفا ، فبرز (رضي الله عنه)

للقتال ، وقال مخاطبا عمرو بن العاص : يا عمرو بعت دينك بمصر فتبا لك ، فطال ما بغيت الإسلام عوجا ، ثم قال : اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي هذا البحر لفعلت ، اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أضع ظبة سيفي في بطني ثم أنحني عليه حتى يخرج من ظهري لفعلت ، اللهم إني أعلم مما علمتني أني لا أعلم عملا هذا اليوم هو أرضى لك من جهاد هؤلاء القاسطين ، ولو أعلم اليوم عملا هو أرضى لك منه لفعلته . و حارب حتى استشهد مع الحق ، ولكن لماذا اختار عمار (رضي الله عنه) هذا الموقف ، بينما اختار ابن العاص الهزيمة أمام الفتنة و الجواب : لأن عمار كان دائما مع الحق ، وحتى في دقائق حياته ، و منذ إيمانه بالرسول (ص) ، حتى قال فيــه الإمام الصادق)ع) : " ما خير عمار بين أمرين (كلاهما في الله) إلا اختار أشدهما. "

و ربما عناه الإمام علي (ع) بقوله : " كان لي فيما مضى أخ في الله ، و كان يعظمه في عيني صغر الدنيا في عينه ... و كان إذا بدهه أمران ينظر أيهما أقرب الى الهوى فيخالفه " (١) فلا عجب إذن أن تنتهي حياة هذا العظيم بالشهادة ، بينما يموت ابن العاص على فراش الذنب و الرذيلة ، لأن ابن العاص كان يخشى من شهرة العرب - حسب قول ابن قتيبة - أكثر من خوفه من الله ، و كان يبحث عن الرئاسة قبل سعيه لرضا ربه ، إن تلك الصفات الرذيلة التي تكرست في نفسه عبر عشرات(١) نهج البلاغة / ص ٥٢٦ - حكمة ٢٨٩

من المواقف الإنهزامية أمام ضغوط الدنيا و إغراءاتها كونت أرضية هزيمته المصيرية باختيار الدنيا على الدين.

ومن هنا نعي أهمية المواقف اليومية و مدى تأثيرها على مستقبل الإنسان ، فلا ريب أن الاختيارات اليومية للأصعب في الله ، هي التي صنعت إرادة عمار حيث التزم بالخيار الصعب في نهاية الخط ، بينما صنعت الإختيارات البسيطة للخطأ الهزيمة الحاسمة أمام الفتنة الكبرى في حياة الآخر.

و فرعون مع ملئه و جنده - الذين تحدثت عنهم آيات هذا الدرس - إنما فشلوا في الفتنة الكبرى لأنهم كانوا ينهزمون أمام الفتن الصغيرة ، وهذه من أهم العبر التي نستفيدها من سورة الدخان.

بينات من الآيات

[14- 13]اختتم الدرس السابق بتصوير الكافرين يدعون ربهم لكشف العذاب عنهم زاعمين أنهم مؤمنون ، وهنا يؤكد ربنا انهم كاذبون ، أولم يكفروا بالنذير ؟ بلى . إنهم يعيشون اللحظة ، فإذا رأوا العذاب جأروا الى ربهم ، و إذا استجاب لهم تراهم ينكثون . إنهم أبناء الظرف الحاضر ، و ليسوا ممن يملك بصيرة المستقبل أو تجربة الماضي.

]أنى لهم الذكرى[

أي بعدت و استحالت بالنسبة لهم ، لأنهم حين رفضوا الايمان قبل العذاب لم يكن رفضهم منطقيا إذ لم يقصر الرسول في بيان الحق و الدعوة الى الله ، حتى عذرهم بأن الأمر كان غامضا.

]وقد جآءهم رسول مبين[

و لكنهم عصوه.

]ثم تولوا عنه[

إذ صاروا يختارون ما توحي به شهواتهم و مصالحهم و قيادتهم الباطلة على أمره ، و أكثر من ذلك اتهموه .

]و قالوا معلم مجنون[

فهو ينتمي الى الآخرين في نظرهم ، و هذه تهمة يوجهها الطغاة الى كل ثائر و مجاهد ، حيث يسمونه عميلا ، و يدعون عليه الارتباط بجهات خارجية ، ومن جهة أخرى اتهموه بالجنون لما يقدم عليه من أعمال جريئة . حقا إنهم اعترفوا بأنه عالم و شجاع ، ولكن منعهم غرورهم من الاعتراف بعظمته ففسروا حكمته بالتعلم ، و بطولاته بالجنون ، وإذا عرفنا أن رسالته لم تكن ناشئة من الثقافة المنتشرة في مجتمعه فان اعترافهم ماض في أنه رسول ، وحين عرفنا أن شجاعته كانت محسوبة فان كلامهم اعتراف بأنه توكل على الله فأيده ربه.

[15]ولكن مع ذلك قد يرفع الله العذاب عن عباده رحمة بهم ، ذلك ان من أهداف إنزاله على الناس إعادتهم للحق ، و تصحيح مسيرتهم الخاطئة ، عبر بعثهم نحو نقد الذات ، كما يقول تعالى : " فأخذناهم بالبأساء و الضراء لعلهم يتضرعون " (١) فاذا ما تضرعوا رفعه الله عنهم لاقامة الحجة التامة عليهم ، و بيان زيف ادعائهم بأنهم تائبون حقـا.

]إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون[

(1)الانعام / ٤٢

و ربنا يعلم بحقيقتهم ولكنه يرفعه عنهم بلطفه ، فاذا بهم يعودون لما نهوا عنه ، مما يجعلهم يستحقون أشد العذاب .

[16]و ربنا يؤكد بأن العودة الى المعصية و الانحراف تستلزم إرجاع العذاب ولكن بصورة أشد و أقسى ، و ليس بهدف هدايتهم ، بل انتقاما منهم هذه المرة.

]يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون[

إن العذاب الذي يراه الظلمة في الدنيا ليس سوى نفحة من العذاب الذي ينتظرهم بعد الموت.

[17]و وقوع هؤلاء طعمة للبطشة الكبرى نتيجة طبيعية لفشلهم أمام أعظم فتنة يتعرض لها البشر ، وهي فتنة التسليم للقيادة ، حيث تولوا عن الرسول و خالفوا أمره ، فلن يكون مصيرهم ولا مصير أمثالهم بأفضل من أسلافهم الذين تحدوا قيادة الرسل.

]ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون و جاءهم رسول كريم[

و انبعاث القيادة الرسالية المتمثلة آنذاك في موسى (ع) وضع المجتمع كله أمام فتنة كبرى ، فهو إما يختار الانحطاط و الدمار باتباع الباطل بقيمه و رموزه ، وإما يتبع الحق برسالته و قياداته.

[18]وقد بين موسى (ع) الهدف الأول من رسالته وهو تحرير الانسان من العبودية للطاغوت ، و قد أشارت آيات عديدة الى أن صبغة رسالة الله الى موسى كانت تحرير بني إسرائيل من طغيان آل فرعون ، إذ كانت هذه أعقد مشكلة حضارية في ذلك العصر ، وقد تحدت رسالات اللهجميعا بؤر الانحراف و عقد المشاكل ، فاذا كانت عقدة الحضارة العلو في الأرض ، كما نجده في مجتمع عاد ، فان أخاهم هودا نهاهم عن أن يبغوا الفساد في الأرض ، و أن يبطشوا بطشالجبارين ، أما إذا كانت العقدة الفساد الخلقي كما عند قوم لوط نهاهم رسولهم من ذلك ، و قال : " أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون " ، و هكذا.

و هكذا جاء موسى محررا لبني إسرائيل من طغيان فرعون ، وقال : " قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل " (١) وقال : " إنا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بني إسرائيل " (٢. (

وهنا يقول ربنا:

]أن أدوا إلي عباد الله[

يعني المستضعفين الذين استعبدتهم الفراعنة.

]إني لكم رسول أمين[

فلست أريد من تحرير المستضعفين شيئا لنفسي ، و إنما أنا أؤدي أمانة الرسالة ، و ألتزم بها كما يريد الله عز وجل.

[19]أما الهدف الآخر لموسى (ع) فهو القضاء على الاستكبار بكل أبعاده و صوره ، و إعادة الانسان الى واقعه الحقيقي ، وهو واقع العبودية لربه تعالى ، و تكبر فرعون و قومه على موسى لم يكن تكبرا عليه و حسب ، و إنما كان تكبرا على القيم الحقة ، و بالتالي طلباللتعالي حتى على الله ، و موسى (ع) أكد على هذه الفكرة في دعوته لهم.

(1)الاعراف / ١٠٥

(2)الشعراء / ١٦ - ١٧

]و أن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين[

و إذا كان فرعون قد نصب نفسه إلها أعلى للناس " فقال أنا ربكم الأعلى " (١ (، فان دعواه هذه باطلة يدحضها موسى بالحجج و البراهين الواضحة.

[20]وحيث يتوقع موسى (ع) موقف الرفض و الظلم ضد الدعوة الصادقة من قبل فرعون و قومه أكد بأنه لن يخشى أحدا ، لأنه يستعيذ بالله منهم.

]و إني عذت بربي و ربكم أن ترجمون [

و تكشف هذه الآية الكريمة عن سياسة الطغاة في مواجهة الرسالة ، و عموم الأفكار المخالفة لهم ، وهي سياسة القمة ، ذلك لأنهم لا يملكون قوة المنطق حتى يواجهونها ، فيواجهونها بمنطق القوة.

ولعل في الآية تحذير مبطن من قبل موسى ، حيث أنذرهم بأنه سوف يستعين بالله في مواجهتهم ، وهل تصل أيديهم له لو نصره الله ؟؟ بالطبع كلا..

و الرجم حسبما يظهر لي يستبطن معنى اغتيال شخصية الرسول بالاشاعات الباطلة ، ثم اغتيال شخصه بطريقة يساهم كل الناس في قتله فيضيع دمه بينهم حتى لا يترك مجالا لوليه بالثأر.

و هكذا تجمع بين معنين أشار اليهما المفسرون لكلمة الرجم :الرجم بالحجارة ، و الرجم بالشتم ، و الواقع أن الرجم الأول هو نتيجة الرجم الثاني.

[21]ثم إنه عليه السلام بين لهم خطأ منطق القوة في مواجهة المنطق الحق ، و أن المنطق الموضوعي هو قبول الرسالة و الايمان بها ، أو اعتزال صاحبها و تركه(١) النازعات / ٢٤

و الناس حتى يحكم الزمن بصدقه أو كذبه.

]و إن لم تؤمنوا لي فاعتزلون[

[22]و لكنهم رفضوا إلا منطق الجريمة.

]فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون[

فالذنب بالنسبة إليهم ليس عرضا يقعون فيه بسبب الغفلة أو النسيان ، و إنما هو أساس تقوم عليه حياتهم ، فهم مرتكزون في الجريمة.

وهذه الآيات و كثير مــن الآيات القرآنية التي تحدثنا عن معاناة الأنبياء مع أقوامهم ، تؤكد ثلاث مراحل تمر كل رسالة بها ، المرحلة الأولى هي بعث النبي و اختلاطه بالناس و سعيه لهدايتهم ، و المرحلة الثانية هي تكذيبهم له و اعتزاله عنهم ، أما المرحلة الثالثة فهي حلول العذاب عليهم من قبل الله مباشرة ، أو على أيدي المؤمنين بقيادة الرسول أو من يمثله في المجتمع ، وإنما ينبغي اعتزال المجتمع الكافر لكي لا يشمل العذاب المؤمنين ، أو للاعداد للصراع ضد الكافرين.

[23]وقد أمر ربنا موسى (ع) و الذين آمنوا معه بالانفصال عن فرعون و قومه تمهيدا لحلول العذاب عليهم ، و أكد ربنا على أن يكون الاعتزال في ظروف سرية حتى تتم العملية بنجاح ، فكان الليل أكثر مناسبة للحركة.

]فأسر بعبادي ليلا إنكم متبعون[

من قبل فرعون و جنده ، ذلك أنهم يرفضون أي حركة تحررية في المجتمع.

ولعل الحكمة من إضافة كلمة " ليلا " لجملة " أسر " التي هي تكفي دلالة على الحركة بالليل ، لتوضيح أن كل السفر ينبغي ان يكون بالليل.

[24]و حيث انفلق البحر لموسى و بني إسرائيل ، و عبروا من خلاله للطرف الآخر من اليابسة ، أمره الله أن يتركه على حاله منشطرا ، لكي يتبعهم الظلمة من خلاله فاذا توسطوا البحر جميعهم أغرقهم.

]واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون[

وقد ذكروا لكلمة الرهو معنيين : الواسع و الساكن (الخافظ و الوادع) و معنى ذلك أن يتــرك الطريق كما هو واسعا وادعا ليغري فرعون بالسير فيه تمهيدا لهلاكه و قومـه.

[27 - 25]و استجاب موسى لأمر الله فجمع بني إسرائيل و أخبرهم بالأمر ، فتحركوا ليلا ، و عندما وصلوا الماء ضربه موسى)ع) بعصاه " فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم " و سار بنوا إسرائيل بأسباطهم الأثنى عشر على الفروق ، وقد تبعهم فرعون و جنده ،فلما توسطوا البحر التقى الماء بأمر الله فأغرقوا بأجمعهم ، و خلفوا وراءهم كل ما جمعوه من حطام الدنيا الزائلة ، فخسروا بفشلهم أمام الفتنة الكبرى نعيم الدارين وهكذا ذهب آل فرعون و خلفوا وراءهم حضارتهم المادية التي أطغتهم عن القيم الالهية . لقد اجتهدوالاستصلاح الأراضي و إنشاء بساتين على جانبي النيل ، تجري فيها عيون الماء (من قنوات متصلة بالنيل) و وراء جنات الأشجار كانت الأراضي الخصبة التي تزرع فيها أنواع الحبوب ، وقد أعطتهم هذه الثروة الزراعية أموالا طائلة بنوا بها بيوتهم المرفهة المؤثثة بكل وسائل الراحة في ذلك اليوم ، وقد طار صيتهم في الآفاق ، و نالوا مقاما كريما.

وقد بلغت حضارتهم مستوى تجاوزت مرحلة الصعوبات ، و بلغت مرحلة التفكه و التلذذ فنقلوا جميعا الى النيل كعبة آمالهم ، و معبد غرورهم و كبريائهم ، و أهلكوا ثمة دون أن يمس حضارتهم سوء.

]كم تركوا من جنات و عيون و زروع و مقام كريم و نعمة كانوا فيها فاكهين [فأصبحوا عبرة لغيرهم عبر الأجيال ، بينما ينبغي للانسان أن يعتبر بغيره لا أن يكون نفسه عبرة للآخرين.

[29 - 28]ثم يقول ربنا:

]كذلك[

أي ان هذه سنة تجري في الحياة على كل من يترك القيم ، و يرفض هدى الله ، وما هذه النهاية المريعة التي صار اليها فرعون و جنده و ملؤه إلا صورة لعاقبة كل أمة ترفض قيادة الحق ، و تسلم زمامها لقيادة الطغاة.

]و أورثناها قوما ءاخرين[

و هؤلاء بدورهم ممتحنون بهذه الأشياء فلابد أن يتجاوزوا الفتنة بنجاح ، و إلا فلن يكون مصيرهم أحسن من سابقيهم ، الذين دمرهم الله . ولعل الآية تشير الى وراثة بني إسرائيل لأرض مصر بعد هلاك آل فرعون ، و تدل على ذلك آيات أخرى.

]فما بكت عليهم السماء و الأرض[

قد يصل الأمر بالانسان - و بالذات الحاكم - أن يعتقد بأن الحياة متوقفة عليه ، وأنه مركز الكون ، ولكن الحقيقة ليست كذلك ، فهو لو تغير من موقعه أو انتهى أجله لا يطرأ أي تغير على الطبيعة سوى ذهابه ، الذي لا يغير شيئا من سننها أو واقعها.

إن الكثير من الناس يريدون الطبيعة بقوانينها و سننها تتبع أهواءهم ، و تتكيفمع مصالحهم و طريقة تفكيرهم ، بينما العكس هو الصحيح ، لأنها تتحرك باتجاه الحق.

بلى . إن الحياة قد تتأثر لموت المؤمن الولي لله ، كما بكت على يحيى بن زكريا و الحسين بن علي (عليهما السلام) ، عن الامام الصادق (ع) قال : " بكت السماء على يحيى بن زكريا و على الحسين بن علي عليهما السلام أربعين صباحا ، قلت : فما بكاؤها ؟ قال:
كانت تطلع حمراء و تغيب حمراء " (١) . و قال عليه السلام : " بكت السماء على الحسين (ع) أربعين يوما دما " (٢)أما الطغاة فانهم لا يتأثر المجتمع بذهابهم حزنا ولا بكاء ، بل بالعكس يفرح الناس بموتهم لأنهم مصدر بليتهم و تخلفهم ، كما تبتهج الطبيعة ، لأنها لا تنسجم مع من يخالف الحق .. ثم إنهم عندما يحل بهم العذاب لا يعطون فرصة أخرى أبدا.

]وما كانوا منظرين[

(2) , (1)نور الثقلين / ج ٤ - ص ٦٢٨

فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون

هدى من الآيات

ينظر المؤمن الى الحياة نظرة عقلانية تنعكس على سلوكه الشخصي الاجتماعي وعلى تعامله مع الطبيعة ، فهو يؤمن بالعدالة الالهية التي تحكم الخلق جميعا ، و يرى أن لكل شيء هدفا خلق من أجله ، فللسماء هدف ، و للأرض هدف ، و لكل مخلوق هدف.

وان سنة الجزاء التي تتجلى في جميع أبعاد حياة البشر مظهر لتلك الهدفية ، التي يشير اليها ربنا الكريم ، ولكن في الجانب الاجتماعي منه ، مما يثير السؤال : لماذا لا يتركز الحديث عن الفرد ؟ و الجواب : لأن تفاعل الأفراد مع بعضهم ، و بالتالي انصهارهم في بوتقة المجتمع ، لا يدع المفسر أو الموجه يتحرك عن الفرد الواحد ، في تحليله أو توجيهاته ، فالمجرم لا يكون وحده مجرما ، إنما يمارس الجريمة ضمن مجموع متجانس و بنية اجتماعية معينة ، ولو حدث أن اقترف الجرم شخص واحد فانك تجد آثار المساهمة الاجتماعية واضحة فيه، بالسكوت و التشجيع تارة ، و بالتعاون تارة

أخــرى ، و لذلك فان الذي يتحمل الجزاء ليس الفرد في غالب الأحيان و إنما المجتمع بأكملـه.

و عندما يبين القرآن حكمة الجزاء يضرب لنا مثلا من واقع المجتمعات الغابرة التي جزيت بأفعالها على الرغم من قوتها و كيدها ، وهذا الجانب من التاريخ البشري يعكس هدفية الحياة و عقلانيتها.

إن الذي يعمل شيئا لا يستطيع الهروب من الجزاء ، فهو إن لم يلحقه عاجلا فسوف يلقاه آجلا ، وفي دعاء كميل نقــرأ تعبيرا عـن هذه الحقيقة عند قول الامام علي (ع) : " ولا يمكن الفرار من حكومتك " (١)و من فكرة الجزاء نهتدي الى أن الدنيا دار ابتلاء ، وأنه لابد من دار أخرى للجزاء ، ذلك أننا نجد البعض يموتون دون أن يلقوا جزاءهم في هذه الحياة ، أو يلقونه بأقل مما يستحقون .. فهل كان جزاء هتلر الذي جر العالم الى الحرب التي أدت الى مقتل أكثر من (٦٠ (مليون انسان أن يموت انتحارا ؟ وهل جزاء شمر الذي أدخل الحزن على قلوب الملايين عبر التاريخ بقتل سيد شباب أهل الجنة أن يقتل قصاصا و حسب ؟! كلا ..إن لهم جزاء أكبر من ذلك في دار أخرى يلقى فيها الجميع جزاءهم الواقعي.

إن منهج طرح القرآن للموضوعات المختلفة منهج حكيم للغاية ، فهو من جهة يحدثنا عن جزاء المجتمعات السابقة ، ومن جهة يحدثنا عن هدفية الخلق ، ثم يذكرنا بيوم القيامة ، وهذه الموضوعات الثلاثة حينما تتفاعل عبر النظرة الواحدة للحياة تنسجم مع بعضها ، و تصيرصورة واحدة متكاملة ، فربنا عاقب الأمم الغابرة مما يهدينا الى أنه خلق الخلق لغاية لو زاغوا عنها عوقبوا بشدة ، و يهدينا بالتالي الى(١) مفاتيح الجنان / دعاء كميل

أنه سوف يجازي الأفراد في الآخرة الجزاء الأوفى.

ولكن لماذا لا يضرب لنا القرآن أمثالا من حياة الأفراد ، كفرعون الذي أغرق في النهر ، أو قارون الذي خسف به و بداره الأرض ، أو إذا تكلم عنهم بمفردهم كان الحديث إشارة و حسب ؟

و الجــواب : إن النظـر الى جزاء أمة سيكون أجدى من النظر الى جزاء فرد واحد ، لأن جزاء الأفراد قد يفسر بالصدفة ، و لكن جزاء الأمم و بتلك الصور المتميزة دليل على حكمة الباري ، و أنه المدبر للخليقة .

بينات من الآيات

[31 - 30]بنو إسرائيل مثل حي لجزاء الأمم على أفعالهم خيرا أو شرا ، و القرآن ذكر هذا المثل لأن حياة بني إسرائيل تشبه الى حد بعيد مسيرة الأمة الاسلامية من حيث أنهم كانوا أمة مؤمنة بنو حضارة رسالية ثم انحرفوا كما هو حال المسلمين ، و إذا فضلهم الله على علم على العالمين فان هذه النعمة ليست من قبيل الرزق الذي يهبه الله بلا سعي ، و إنما هي من قبيل الكسب ، و بنو إسرائيل بلغوا هذه الدرجة السامية بعملهم لا بعنصرهم ، و هذا بدوره يؤكد عقلانية العالم ، و الحكمة الإلهية التي يقوم عليها ، و بالتالي يؤكد وجود الجزاء في الآخرة.

]و لقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين * من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين]و أي إهانة أعظم من أن يسلب الانسان حريته ، و يصير عبدا للطغاة ، يسحقونه لتعلو مكانتهم ، و يسلبونه لكي يبذروا و يسرفوا ؟!

إن فرعون هو الآخر لقي جزاءه العادل في الدنيا لضلاله و انحرافه ، فهو من جهةكانت علاقته مع الناس العلو و الاستكبار ، و كانت علاقته مع الطبيعة علاقة التبذير و الاسراف.

و كلمة " عاليا " لا تدل هنا على العلو في الاسراف ، و إنما العلو على الناس ، و ربنا عز وجل يبين ذلك في آية أخرى حين يقول : " تلك الدار الاخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا " (١. (

أي الذين لا تكون علاقتهم مع الآخرين الاستكبار و التعالي ، ولا مع الطبيعة الفساد ، وهكذا يفسر القرآن بعضه بعضا.

[32]أما النعم الإلهية الأخرى على بني إسرائيل بعد النجاة من حكم الطاغوت ، فهي تفضيلهم على سائر الأمم ، و اختيار الله لهم حملة لرسالته ، لا لشيء فيهم سوى أنهم تجاوزوا الفتنة الكبرى في الحياة ، و أثبتوا جدارتهم - بالسعي - لهذه المنزلة.

]و لقد أخترناهم على علم[

بجدارتهم ، و تميزهم بايمانهم و صالح أعمالهم.

]على العالمين[

إذن فعلينا وعلى الأمم التي تنشد التقدم أن لا تسعى للاستعلاء في الدنيا ، فلكي نحقق هذه الغاية علينا أن نوفر عوامل الحضارة في أنفسنا ، كالتزكية ، و التعاون ، و التعود على الخشونة ، و المثابرة في العمل ، و الصبر ، و الاستقامة على الحق ، و عندها سوف يوفقنا الله ، و يفضلنا على غيرنا ، و سنتقدم ، و معنى العالمين(١) القصص / ٨٣

-حسب المفسرين - الناس المعاصرين لهم ، إذ أن الله فضل المسلمين على غيرهم حين امتثلوا أحكام الله فقال : " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر و تؤمنون بالله " (١)[٣٣] و تفضيل الله لأمة من الناس على غيرهم لا يعني أنهم يبقون الأفضل للأبد ، أو أنهم يبعدون عن دائرة الامتحان و الابتلاء ، كلا .. فربنا أعطى بني إسرائيل آيات القدرة و العلم و الفضيلة ، و رزقهم النصر على عدوهم ، و واتر عليهم أنبياءه و رسله ، ولكنهذه النعمة كانت تحمل في طياتها ألوانا من الامتحان.

]و ءاتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين[

الابتلاء سنة ثابتة في الحياة لا يغيرها شيء ، بلى . قد ينتقل الانسان الفرد أو المجتمع من حال العسر الى حال اليسر ، و لكنه يبقى معرضا للامتحان في الحالين سواء ، فاذا كان القهر و العذاب الذي حل ببني إسرائيل بلاءا بالسيئة ، فان الإغراءات التي تنطوي عليها سائر النعم التي أعطيت لهم بعد النصر كانت بلاءا بالحسنة ، وقد قال ربنا سبحانه : " و بلوناهم بالحسنات و السيئات لعلهم يرجعون " (٢. (

و هذا النوع من الابتلاء قد يكون أعظم خطورة على الانسان من الأول ، وقد رأينا في تاريخ البشرية كيف أن الكثير من الناس يصمدون أمام الإرهاب و التعذيب ، و يتحدون الطاغوت بصلابة و استقامة ، و لكنهم ينهارون أمام الإغراء ، و لذلك يجب على الانسان أن يحذر النعم كحذره من النقم و أشد من ذلك ، و لن يفلح في حياته إلا إذا جعل حقيقة البلاء أمامه في كل حال ، وقد قال أمير المؤمنين(١) آل عمران / ١١٠

(2)الاعراف / ١٦٨

عليه السلام : " اتقوا سكرات النعمة ، و احذروا بوائق النقمة " (١) ، و قال " : أيها الناس ليركم الله من النعمة وجلين ، كما يراكم من النقمة فرقين " (٢. (

[35 - 34]وبعد هذه الأفكار التمهيدية ينتهي السياق الى البصيرة الأم في الدرس ليؤكد العدالة و الجزاء ، و يستنكر مزاعم الكفار و المشركين بأن الدنيا هي آخر المطاف.

]إن هؤلاء ليقولون * إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين]لأنهم لا يدرسون التاريخ ، ولا ينظرون الى الحياة نظرة موضوعية ، وإلا لاهتدوا الى حكمتها ، وأنها قائمة على أساس العدل ، مما يؤكد وجود الدار الآخرة ، و الموتة الأولى هي الوفاة التي زعموا أنها النهاية فلا نشأة بعدها ولا حياة ، كما قالوا : " إن هيإلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين " (٣. (

[36]وإذ أنكروا البعث و النشور حاولوا تبرير هذا الاعتقاد بطلب ، قالوا:

]فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين[

ولو أن الله يحيي آباءهم ما كان ذلك يجعلهم يؤمنون ، لأنهم يتشبثون بهذه الفكرة تبريرا لكفرهم ، ولو بطلت نظريا أو عمليا لبحثوا لهم عن تبرير آخر للاصرار على الضلالة.

[37]لذلك فان القرآن لا يجازيهم ، وهل يغير ربنا سنته في الكون للاجابة على(١) نهج البلاغة / خطبة 151

(2)نهج البلاغة / حكمة 358

(3)الانعام / ٢٩

تساؤل تافه للمشركين ؟ كلا .. و إنما يوجه أنظارهم الى الآيات الكفيلة بهداية من يريد الى الايمان بالبعث ، و ذلك باثارتهم نحو التفكير في سنة الجزاء الحاكمة في الكون من خلال دراسة شواهدها في التاريخ ، فهؤلاء قوم تبع ومن يسبقهم من الأقوام لقوا جزاءهم حينمااختاروا سبيل الضلال و الجريمة.

]أهم خير أم قوم تبع و الذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين]و تبع أحد ملوك اليمن الصالحين ، اقتفى آثار أحد الاولياء ، و تبعه في مسيرته ، وفي الأخبار نهي عن لعنه ، فعن النبي (ص) أنه قال : " لا تسبوا تبعا فانه كان قد أسلم " (١) و إنما الذين أجرموا قومه فأخذهم الله بالعذاب ، وحيث يندرج هذا الجزاء فيسنة الهية كونية فان العذاب قد ينال كل بشر إذا انتحل الاجرام.

[39 - 38]و سنة الجزاء ليست أمرا شاذا عن طبيعة الحياة ، إنما هي نابعة من صميم الخلق ، ذلك أن الله خلق السموات و الأرض لغاية سامية ، الأمر الذي يقتضي الجزاء و يحتمه.

]وما خلقنا السموات و الأرض وما بينهما لاعبين[

إنما خلق الله كل شيء لهدف محدد ، مهما كان ذلك الشيء صغيرا و تافها في نظر الانسان ، وقد تقرر في علم الفسيولوجيا (وظائف الأعظاء) أن كل شيء في الانسان يؤدي دورا معينا ، ولا يكون الانسان كاملا إلا به ، حتى الشعرة الواحدة ، بل حتى جزيء الخلية المتناهية في الصغر ، فهل يعقل إذن أن يكون ربنا قد خلق الانسان بأكمله عبثا ؟! كلا .. إن له هدفا في الحياة ، وهو مسؤول عن كل شيء(١) نور الثقلين / ج ٤ - ص ٦٢٩

أمام ربه ، ولكن هذه الحقيقة الواضحة تبقى غامضة لدى الجاهلين و الضالين.

]ما خلقناهما إلا بالحق[

وسيلة و غاية.

]و لكن أكثرهم لا يعلمون[

و عدم علمهم ليس لأنهم لا يرون الآيات الهادية الى هذه الحقيقة ، و إنما لأن هذه الآيات لا تتحول في ضمائرهم و أذهانهم الى بصيرة ، ذلك أن نظرتهم الى الحياة نظرة قشرية مجردة ، وإنما الذين ينظرون إليها ببصيرة الايمان يهتدون الى لبابها الحق.

[42 - 40]و حيث ميز الله الانسان عن سائر خلقه بالعقل ، و كرمه بالحرية ، فهو مسؤول أمامه عن العمل وفق الغاية التي خلق من أجلها ، فان تحمل مسؤوليته نعمه في الجنة ، وإن نكص عنها عذبه في النار.

ومع أنه تعالى جعل سنة الجزاء جارية في الحياة الدنيا ، إلا أنها أكثر تجليا في الآخرة ، حيث تنصب الموازين ، و يفصل بين الصالحين و الأشرار.

]إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين[

وهذا اليوم ضرورة حتمية تقتضيها عدالة الله ، وإذ يسميه ربنا " يوم الفصل " فلانه اليوم الذي يحكم فيه الحق بعيدا عن التبريرات أو التأجيل ، فهو يوم حاسم في حياة كل إنسان ، و يعتبر فيصلا يتقرر فيه مصيره الأبدي.

وإذا أعطى ربنا الحرية الكاملة للانسان في اختيار الحق دون أن تستطيع أيةقدرة سواه تعالى إكراهه باتجاه معاكس لما يريد ، كان من أبرز معاني الفصل أن يتحمل المسؤولية شخصيا حتى يكون يومئذ مفصولا عن سائر الناس.

]يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون[

بلى .قد يضغط من حول الانسان عليه باتجاه معين ، ولكن الموقف الحاسم يبقى رهن إرادته وحده ، ولكي يتجنب التأثر بالضغوط السلبية صوب الباطل يجب عليه أن يلقي نظرة الى الآخرة ، حيث يخذله الجميع و ينفصلون عن نصرته ، بل لا يجدون الى ذلك سبيلا ، و يقف هو وحده بعمله.

ثم إن السياق القرآني ينعطف بعد هذا التخويف ليثير فينا الأمل و الرجاء ، حينما يذكرنا برحمة الله الى جانب عزته ، فبعزته جعل سنة الجزاء ، و برحمته جعل الشفاعة و المغفـرة لهـذا الانسان الضعيف ، فقد استثنى من بين سائر الناس الذين تتقطع بهم الوشائج ، ويرتهنون بأعمالهم السيئة ، أولئك الذين تشملهم رحمته عز وجل فقال:

]إلا من رحم الله[

فهداه الى الايمان ، و وفقه للعمل الصالح في الدنيا ، و غفر له ذنوبه ، و شفع فيه أولياءه في الآخرة ، فانه تغنى عنه شفاعة الصالحين ، و ينصره الله على العقبات.

]إنه هو العزيز الرحيم[

قال الشحام : قال لي أبو عبد الله (ع) و نحن في الطريق في ليلة الجمعة " : إقرأ فانها ليلة الجمعة قرآنا " ، فقرأت : " إن يوم الفصل (الى قوله (إلا من رحم الله " فقال ابو عبد الله (ع " : (نحن والله الذين استثنى الله فكنا نغنيعنهم " (١. (

(1)نور الثقلين / ج ٤ - ص ٦٢٩

[46 - 43]و كنتيجة لحكم الله في يوم الفصل يحدثنا القرآن عن صورتين متناقضتين ، وهما صورة أصحاب النار الذين يعانون ألوان العذاب ، و صورة أهل الجنة الذين يتقلبون في نعيمها.

أما عن النار فان من أشد أنواع العذاب فيها شجرة تنبت في أصلها ، و يمتد منها غصن لكل شخص فيها ، اسمها الزقوم ، وهي تجسيد لذنوب أهلها و آثامهم . (١)[إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم[

وحيث يشعر أهل الجحيم بشدة الجوع يبحثون عن الأكل ، فيجدونه في هذه الشجرة ، ولا يجدون بدا من التقامه ، و بمجرد أن يصل الى جوفهم يصير كالرصاص و الصفر المذاب تنشوي منه وجوههم حتى تسقط أشفار عيونهم ، و تتقطع منه مصرانهم حتى يتقيحون دما ، و ربنا يشبه لنا الزقوم بالمهل لتقريب المعنى الى أذهاننا المحدودة ، وإلا فهي أشد و أعظم من ذلك.

]كالمهل يغلي في البطون * كغلي الحميم[

و الحميم هو الماء الحار جدا ، وحيث يصل المعدن كالرصاص أو النحاس الى حد من الغليان يصير فيه كالماء فان حرارته لا تطاق.

[47]و لون آخر من العذاب يتجرعه المجرمون حينما يأمر الله زبانية النار بسحبهم الى وسطها و إهانتهم .

]خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم[

و الاعتال هو السحب بغلظة و إيذاء ، وإن كان المعني من ظاهر الآية أبو جهل إذ(١) راجع تفسيرنا للآية (65)الصافات

جاءت الصيغة بالمفرد ، إلا أنها تشمل كل مجرم ، و صيغة المفرد بيان للخذلان الذي يلقاه أهل النار من أقرانهم و سادتهم في الدنيا حيث لا ناصر ولا معين لهم فيها.

[49 - 48]وبعد سحب كل واحد منهم الى سواء الجحيم ، يأمر الله ملائكة العذاب باهانته ماديا ، بصب العذاب على رأسه ، وهو أكرم موضع لدى الانسان ، و معنويا بالكلمات الجارحة ، وهذا جزاء الاستكبار في الدنيا على الحق و المؤمنين.

]ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم[

و حيث الدلالة في " من " تنصرف للتبعيض ، تدل الآية على أن العذاب لا يصب مرة واحدة ، و إنما مرات و مرات بلا انقطاع ، مبالغة في الايذاء ، وهل ينتهي الأمر الى هذا الحد و حسب ؟ كلا .. إنما يهان بالكلام أيضا فيقال له :

]ذق إنك أنت العزيز الكريم [

و روي في جوامع الجامع أن أبا جهل قال لرسول الله (ص) : ما بين جبليها أعز ولا أكرم مني . (١)وفي تفسير علي بن إبراهيم قال : أن ذلك رد على أبي جهل ، وذلك أن أبا جهل كان يقول : أنا العزيز الكريم فيعير بذلك في النار . (٢)وقال بعض المفسرين : إن ذلك إهانة و استهزاء الى جانب العذاب المادي ، وهو نظير لاكرام الله المؤمنين في الجنة بالسلام عليهم إضافة لنعيمها ، و استدلوا على ذلك بقوله تعالى : " وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين " (٣) ، وهذا تفسيرصائب ، ولكن يبدو لي تفسير آخر للآية وهو أن الله لم يخلق الانسان ليلاقي(١) ، (٢) نور الثقلين / ج ٤ - ص ٦٣٠

(3)الزمر / ٧٣

هذا المصير السيء ، و إنما خلقه ليرحمه فيعيش كريما معززا ، ولكنه اختار هذا المصير ، و اشتراه بعمله السيء ، إذ لم يستطع الاستقامة على الفطرة و الصبر على الحق ، و الآية جاءت تذكيرا لهذه الحقيقة.

[50]أما عن السبب الذي يوصل الانسان الى الذل بعد العزة ، و الى الهوان بعد الكرامة ، فهو شكه في الجزاء ، لأن الشك فيه يجعله يعيش بعيدا عن المسؤولية و الرقابة تجاه سلوكه و أعماله.

]إن هذا ما كنتم به تمترون [

أي تشكون و الشك أعدى أعداء الايمان ، لأنه ينتهي الى الكفر و الجحود ، و يعطل طاقات الانسان و قدراته أن يوجهها في صناعة المستقبل الأبدي ، فهو إنما يلتزم بالحق ، و يضحي من أجله بكل شيء ،

عند إيمانه بأن هذه التضحيات سوف ترد عليه في الآخرة في صورة الثواب ، فكيف يضحي إذا شك في الجزاء ؟؟

وقد حذر الامام علي (ع) من خطر الشك فقال : " لا تجعلوا علمكم جهلا ، و يقينكم شكا ، إذا علمتهم فاعملوا ، و إذا أيقنتم فأقدموا " (١) ، و مشكلة أكثر الناس أنهم يعلمون الحق و يؤمنون به ، و لكنه لا يتحول في حياتهم الى منهاج عمل ، لجبنهم و فرارهم من تحمل المسؤولية ، فاذا بهم يشككون أنفسهم.

إن على الانسان أن لا يشك بأن هواجس الشيطان تحيط به من كل جانب ، بل و يستعد لمواجهتها ، بخوف العاقبة السوء ، و عزيمة الايمان.

[53 - 51]وفي مقابل هذه الصورة يبين لنا القرآن الحكيم نعيم المتقين و كرامتهم عند الله ، و تختلف نعم الآخرة عن الأخرى الدنيوية . إنها خاصة بالمتقين ، وهم(١) نهج البلاغة / حكمة ٢٧٤

الذين يحفظون أنفسهم عن المحرمات ، و يؤلمون أنفسهم بترك الهوى ، و بالصبر على المصائب و ألوان الأذى في الله ، و أخيرا بالاستقامة على الحق حتى الموت ، ذلك أن طريق الجنة محفوف بالصعاب و المكاره ، يقول الامام علي (ع) وهو يوبخ الذين يريدون الجنة بلا ثمن : " أفبهذا تريدون أن تجاوروا الله في دار قدسه ، و تكونوا أعز أوليائه عنده ؟ هيهات ! لا يخدع الله عن جنته ، ولا تنال مرضاته إلا بطاعته " (١)نعم . إن الانسان لا يستطيع بلوغ طموحاته اليومية ، بالتمنيات و الأحلام ، فكيف يبلغ بها الجنة وهي أسمى الطموحات ، و أعلى الأهداف ؟! ثم إن الانسان يحقق طموحاته في الدنيا بالسعي ، بينما لا يكفي السعي وحده لدخول الجنة ، إنما لابد من العمل الصالح الذي يخلص صاحبه فيه نيته ، إذ لا يتقبل الله إلا من المتقين ، و الكثير من الناس يصلون و يصومون و يحجون و ينفقون ولكن عبثا ، ولا يبلغون بذلك جنات الخلد ، لأنها ليست خالصة لله ، و كيف ترفع الصلاة المحاطة بالشرك و السهو ؟! و كيف يتقبل الصيام رياء و سمعة ؟! و كيف يكون سعي الحاج مشكورا و حجه مبرورا و هو يخضع للطاغوت ؟! " انما يتقبل الله من المتقين " (٢) وفي الأخبار أن العبادة أو الشعيرة التي يمارسها صاحبها لغير وجه الله تصير يوم القيامة حجرا تصك بها جبهته.

و نتساءل : من هو المتقي إذن ؟

إن المتقي هو الذي يتحول فعل الخير في حياته الى سلوك مستمر ، أما الذي يفعل الخير إذا حقق مصالحه و أهواءه ، و أما إذا محص بالبلاء تركه ، فانه ليس بمتقي .. و ربنا وعد المتقين وحدهم بالمقام الأمين عندما قال:

(1)المصدر / خطبة ١٢٩

(2)المائدة / ٢٧

]إن المتقين في مقام أمين[

و الأمن و السلام من أهم الحاجات النفسية للبشر ، ولا يبلغ غاية الاطمئنان في الدنيا و الآخرة إلا المتقون ، ذلك أنه لا يحصل إلا بذكر الله عز وجل ، و باتباع منهاجه في الحياة ، فقد أسس الله الكون على الحق و العدالة ، و من يتبع المنهج الرباني وحده يستطيع العيش مطمئنا وفي مقام أمين من المكاره.

]في جنات و عيون * يلبسون من سندس و إستبرق متقابلين [تلك الأجسام النضرة الناعمة تميس في الجنان الخضرة بين العيون الرقراقة ، و عليها ثياب الزينة من سندس (حرير ناعم لطيف) ومن إستبرق (حرير ضخم يتلألأ) و تراهم يتقابلون في مجالس الأنس لا يشوب صفاء قلوبهم حقد أو حسد أو غل أو

كبر ، فهم إخوان متحابون كما كانوا في الدنيا ترفرف على رؤوسهم رحمات الله و بركاته ، و نعم أجر العاملين.

[54]و يستمر القرآن في بيان جزاء المتقين فيقول:

]كذلك و زوجناهم بحور عين[

و كذلك تكتمل نعم الجنة بالزواج من نساء جميلات يتجلى جمالهن في العيون الواسعة الحوراء ، و لعل صيغة الماضي في الزواج تدل على أن الله زوج الحور العين لأوليائه بعلمه في الدنيا ، بما قاموا به من عمل ، بلى . لكل زواج مهر ، و مهر زيجات الجنة الأعمال الصالحة في الحياة الدنيا.

[55]ومن نعيم الجنة أن يجد أهلها ما يطلبون دون أدنى تعب.

]يدعون فيها بكل فاكهة آمنين[

بعكس الدنيا تماما حيث لابد للانسان فيها من السعي لكي يصل الى رغباته ، و التنازل عن شيء للظفر بشيء آخر ، و صدق أمير المؤمنين (ع) حيث قال " : أيها الناس ! إنما أنتم في هذه الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا ، مع كل جرعة شرق ، وفي كل أكلة غصص ! لاتنالون منها نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يعمر معمر منكم يوما من عمره إلا بهدم آخر من أجله ، ولا تجدد له زيادة في أكله إلا بنفاد ما قبلها من رزقه ، ولا يحيا له اثر إلا مات له اثر ، ولا يتجدد له جديد إلا بعد أن يخلق له جديد ، ولا تقوم له نابتة إلا و تسقطمنه محصودة " (١) . أما في الجنة فالمتقون آمنون من كل هذه العيوب و النواقص.

] [56]لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى[

التي ذاقوها في الدنيا ، و هذه الآية اشارة لنعمة الخلود ، وهي من أعظم النعم و الغايات التي يتمناها البشر.

والى جانب هذه المنة يذكرنا ربنا بنعمة عظيمة أخرى ، وهي الوقاية من النار ، و التي يعدها القرآن في موضع آخر فوزا عظيما ، حيث يقول عز وجل : " فمن زحزح عن النار و أدخل الجنة فقد فاز " (٢. (

]و وقاهم عذاب الجحيم[

تلتقي كلمة " المتقين " مع تعبير " وقاهم " في نقطة هامة ، وهي أن التقوى التي كانت تحجز هؤلاء عن ارتكاب المعصية في الحياة الدنيا ، هي التي تكون واقية لهم من العذاب في الآخرة.

(1)نهج البلاغة / خ ١٤٥

(2)آل عمران / ١٨٥

[57]ومع ذلك يؤكد ربنا بأن هذا الجزاء ليس نتيجة التزام الانسان برسالة الله و تعالميه ، لأن ذلك واجب طبيعي عليه فطرة و عقلا ، فهو خالقه و رازقه و مالكه الذي يهب له الحياة لحظة بلحظة ، و يأتي هذا التأكيد و التذكير ليعين المتقين على مواجهة الغرور و العجب.

]فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم[

و بدون هذا الفضل الالهي لا يفوز بشر أبدا ، ولا ينجو من العذاب ، وفي الحديث القدسي قال عز من قائل : " فلا يتكل العاملون على أعمالهم التي يعملونها ، فانهم لو اجتهدوا و أتعبوا أنفسهم و أعمارهم

في عبادتي كانوا مقصرين غير بالغين ما يطلبون من كرامتي ، و النعيم في جناتي ، و رفيع درجاتي في جواري ، ولكن رحمتي فليبغوا ، و الفضل مني فليرجوا ، و إلى حسن الظن بي فليطمئنوا ، فان رحمتي عند ذلك تدركهم ، وهي تبلغهم رضواني و مغفرتي ، و ألبسهم عفوي ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء و الله سميععليم " (١) ، وحتى الأنبياء و الأولياء إنما يدخلون الجنة بفضل الله ، و حتى أعمالهم الصالحة ، إنما هي فضل من الله عليهم . أولم يقل ربنا مخاطبا سيد البشر محمد بن عبد الله (ص) : " إن فضله كان عليك كبيرا. (2) "

[58]و قبل أن يختم ربنا سورة الدخان يصف كتابه الكريم ، وهو المنهاج الذي يبلغ بالانسان درجة التقوى ثم الجنة ، و بالتالي هو فضل الله الذي ينجي به من النار إذا ما استذكر به و اتبع آياته الميسرة.

]فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون[

(1)بح / ج ٧٢ - ص ٣٢٢

(2)الاسراء / ٨٧

هكذا يلخص ربنا هدف كتابه في التذكرة ، لأنه بما فيه من مواعظ و معارف إنما جاء ليذكر الانسان بعهده مع ربه . أوليس أعدى أعداء البشر في الحياة الغفلة ؟ بلى . وما وظيفة الأنبياء و الرسل - عليهم السلام - سوى تبليغ هذه التذكرة و بيانها للناس .. ولولا أنالله سبحانه قد يسر القرآن لم يكن البشر يعقلون حرفا منه ، كيف وهو يذكرنا بالغيب المحجوب علمه عنا ، بتلك السنن الثابتة لحقائق الخلق ، بصفات الرب ، بأشراط الساعة ، بما في الحياة الآخرة التي قد تبعد عنا ملايين السنين ، وفي الحديث المأثور عن الامام الصادق(عليه السلام) : " لولا تيسيره لما قدر أحد من خلقه أن يتلفظ بحرف من القرآن ، وأنى لهم ذلك وهو كلام من لم يزل ولا يزال " (١. (

وقد نستوحي من هذه الآية بصيرتين:

-1إن الله جعل القرآن عربيا بلغة الرسول و قومه تيسيرا لفهمه ، و بالتالي التذكر به . أورأيت لو كان القرآن بلغة أخرى هل كان يفهمه العرب بيسر و سهولة ؟ ثم هل كانوا يتعظون به ؟ كلا .. ومن هنا فان المنهاج الأفضل لتيسير فهم القرآن للمسلمين غير العرب ليسترجمته ، وإنما تعليمهم لغة القرآن نفسه .

-2إن للرسول دورا هاما في بيان القرآن ، و تقريب الأذهان الى معانيه التي لا تتيسر إلا بكلامه (ص) ، ومن هنا فان أي منهج يبتعد عن السنة (احاديث الرسول و أئمة الهدى) في فهمه و تدبره لمعاني الوحي سوف ينتهي الى تفسيرات و تأويلات خاطئة أو قاصرة . أولميضل الكثير ممن حاولوا فهم القرآن من خلال الفلسفات البشرية في متاهات خطيرة.

[59]وكالكثير من السور يختتم الباري عز وجل هذه السورة ، بانذار مبطن(١) تفسير نمونه / ج ٢١ - ص ٢١٩ نقلا عن تفسير روح البيان / ج ٨ - ص ٤٣٣لأولئك الذين لا يستجيبون لدعوته ، ولا يتذكرون بآياته ، بأن تأخير الجزاء ينسجم و طبيعة الحياة الدنيا حيث أنها دار امتحان و بلاء ، فهو لا يعني بأن الله يهملهم ، بل العذاب آت و لابد من ارتقابه.

]فارتقب إنهم مرتقبون[

إرتقب نصر الله ، و ليرتقبوا خذلانه ، إرتقب بعملك الصالح جزاء الله الحسن ، و ليرتقبوا بسيئاتهم الانتقام ، بلى . إن الزمن في مصلحة الحق و أهله ، ولا يمر ردح منه إلا و يقرب أهل الباطل من العذاب.

سورة الجاثية

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة
عن أبي عبد الله الصادق (ع) قال : " من قرأ سورة الجاثية كان ثوابها أن لا يرى النار أبدا ، ولا يسمع زفير جهنم ولا شهيقها ، وهو مع محمد - صلى الله عليه و آله و سلم - "موسوعة بحار الانوار / ج ٩٢ - ص ٣١٠

الإطار العام
طف بفكرك آفاق السماوات ، و أقطار الأرض . ماذا ترى ؟ ألا ترى آيات الله تتجلى في كل شيء ؟ إذا لماذا يكفر هؤلاء الناس ؟! تجيب سورة الجاثية التي نستلهم من إطارها أنها تعالج حالة الإفك عند البشر - تجيب عن ذلك ببساطة : - إن الآيات ليست لكل الناس ، انماهي للمؤمنين ، و لقوم يوقنون ، و لقوم يعقلون (٥. (

و إذا كفروا بهذه الآيات فبماذا عساهم يؤمنون ؟ !انهم لا يؤمنون بشيء فويل لهم ، و لكل أفاك أثيم ، يسمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يصر مستكبرا (٨. (

وقد تنفذ آية في أفئدتهم ولكنهم لا يسعهم الاستكبار دونها ، هناك يتخذونها هزوا إيغالا في الجحود.

كيف نعالج هؤلاء ؟ لا بشيء يمكن شفاؤهم ، بل بشرهم بعذاب أليم و مهين (٩) في جهنم التي تأتيهم من ورائهم ، فلا يستطيعون لها ردا (١٠. (

ثم يذكرنا السياق بتلك الآيات التي تهمنا مباشرة : فهذا البحر كيف سخره الله مطية للسفن ، و مخزنا للطعام و الزينة ، و آية تبعث نحو شكره .. كما سخر لنا ما في السماوات و الأرض ، كل ذلك نعمة و فضل منه علينا ، لعلنا نبلغ هدفا ساميا هو التفكر.

ولكن كيف نفكر تفكيرا سليما ؟

الجواب :لابد أن نتجنب التأثر بالبيئة الضالة ، ولا نأبه بهؤلاء الذين يكفرون ، لانهم لا يرجون أيام الله ، فلهم أعمالهم التي سيجزون بها ، ولن تصلكم سيئاتهم ، كما لن تصلهم صالحاتكم.

و البعض ينتظر شيئا مجهولا حتى يهتدي ولكن عبثا . إذا لم تكن أنت الذي تبتغي الهدى فلن تنتفع بكل وسائل الهداية . و إليك مثلا من بني إسرائيل : لقد آتى ربنا بني إسرائيل الكتاب ، و الحكم ، و النبوة - من وسائل الهداية - و رزقهم من الطيبات - من النعم المادية - و فضلهم على العالمين ، و لكنهم - إذ اتبعوا شهواتهم - غرقوا في الخلافات ، و ضلوا عن الطريق بغيا بينهم.

وهذا الكتاب الكريم من عند الله ، الذي انزل ذلك الكتاب ، فلا فرق بينهما ، و الذي لا يؤمن بعد نزول هذا الكتاب ، و ينتظر مثل التوراة لن يبلغ الفلاح أبدا.

وفي هذا الكتاب بصائر و هدى و رحمة ، و لكن هل ينتفع به كل الناس ؟! لا بل الذين يريدون ذلك . (أي لقوم يوقنون. (

ومن التمنيات الباطلة : الوهم الذي يعيشه الكثير من الناس ، حيث يزعمون أنهم و المؤمنون سواء . كلا .. ليس الذين اجترحوا السيئات ، و الذين آمنوا و عملواالصالحات سواء . لا في الدنيا ولا في الآخرة ، أولا تعلمون ان الله خلق السماوات و الأرض بالحق ، فكيف يجعلهما سواء . أليس ذلك باطلا ؟! انه يجزي كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون.

و يبقى سؤال : لماذا ينتهي البعض الى هذا المصير الأسوأ ؟ لانهم يتخذون آلهتهم أهواءهم ، فتراهم لا يتبعون الهوى فقط بل و يطيعونها الى حد التقديس.

و حين يضل الله الذين يؤلهون اهواءهم يسلبهم مصادر العلم من العقل و الاحاسيس ، و آنئذ لا أحد قادر على هدايتهم .

و يتخبطون في ظنونهم خبط عشواء ، فاذا بهم يقولون : " ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت و نحيا وما يهلكنا إلا الدهر " و يتحدون النذر إذا قالوا لهم :احذروا الآخرة ، و يحتجون - إذا تليت عليهم آيات الله - " أن أتوا بآبائنا إن كنتم صادقين " وهكذا يحجبون أنفسهم عن الحقيقة ببعض الشروط التعجيزية ، و سواءا آمنوا أم لم يؤمنوا فان الجزاء واقع . الله يحييهم ثم يميتهم ثم يجمعهم إلى يوم القيامة لا ريب فيه.

وهل يضرون ربهم لو كفروا و لله ملك السماوات و الأرض ، و المبطلون يخسرون يوم تقوم الساعة.

هنالك يتزيل الكفار عن المؤمنين ، بل يتميز الكفار فيما بينهم - كما المؤمنون - إذ " ترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون . "

هنالك يتجلى الفرق بين الناس حسب أعمالهم : فاما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيدخلون الجنة ، بينما يحاكم الكفار ، و يسألون : لماذا استكبرتم عنالتسليم لآيات الله ، و كنتم قوما مجرمين ، و زعمتم انكم لستم على يقين من الساعة - بينما الساعة لا تحتمل الريب أنها حق - ؟ في ذلك اليوم تبدو سيئات أعمالهم ، كما ان الحقائق التي استهزؤوا بها تحيق بهم ، اما نسيانهم للحقائق - وهو واحد من الأفعال القلبية - فانه يقابل بنسيان مثله ، و يقال لهم : " اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا. "

وفي خاتمة السورة يعود السياق و يبين : ان جزاء اتخاذ آيات الله هزوا النار ، و سببه الاغترار بالحياة الدنيا ، و لله الحمد) أولا و أخيرا على رحمته و عدله) وله الكبرياء في السماوات و الأرض ، و هو العزيز الحكيم.

ويل لكل أفاك أثيم

هدى من الآيات

نقرأ في بداية سورة الجاثية أن هناك آيات في الكون لقوم يؤمنون ، و من ثم يوقنون بها ، و أخيرا بها يعقلون ، وهذا التدرج في هذه الآيات يزيدنا معرفة بمنهج التكامل ، ففي البداية يجب أن يؤمن الانسان بالآيات و يسلم لها ، و من ثم يتحول الى حالة اليقين بعدأن يرى آياته سبحانه في الكون ، و يرى الانسجام التام بين رسالة الله في الأرض و آياته في السماء و الأرض ، ومن بعد اليقين يتحول الى مرحلة العقل.

ومن معاجز القرآن الكريم تشابه الآيات ، و هذا يعني أن كل الآيات تسير في خطوط متقاربة ، تنتهي بالتالي الى هدف واحد ، فالتالي لآي الذكر الحكيم يتراءى له أن كل الآيات ذات بعد واحد ، إذ أن الكلمات هي الكلمات ، و الأهداف هي ذاتها الاهداف ، وحتى تركيب الكلمات و الموضوعات العامة التي توحي إليها العبارات و تشير إليها واحدة ، و لكن عند التدبر العميق يتبين لنا أن وراء هذهالوحدة وهذا التشابه حقائق متنوعة ، وليس معنى ذلك تناقضها ، أو أنها ليست من سنن الله التي تنبع من قاعدة واحدة و تنتهي الى هدف هو التوحيد.

و سميت هذه السورة بهذا الاسم لآية فيها تصور لنا منظر الأمم في يوم القيامة وهم يجثون على ركبهم خشعا خضعا لله ، كل أمة تدعى الى كتابها ، و آيات هذا الدرس وما بعدها تعمق فينا الايمان بالله سبحانه و تعالى و الايمان بالبعث ، و بالرغم من أن هذه الحقيقةواحدة في مختلف السور إلا أن كل آية من آيات القرآن الكريم في هذا الموضوع تثير في البشر إحساسا خاصا ، و تضرب على أوتار معينة في قلبه ، و بالتالي تعالج أمراضا محددة ، و لذا يجب قراءة القرآن كله ، و بالرغم من أن قراءة سورة واحدة أو مجموعة آيات تفيد الانسان و تنفعه إلا أن قراءة كل القرآن ضروري ، لأن نواقص البشر كثيرة و متنوعة ولا علاج لها إلا في القرآن.

بينات من الآيات

] [1]حم[

سبق و أن قلنا أن الحروف المقطعة ربما تكون إشارة للقرآن ذاته أو أسرارا بين الله و أحبائه ، و قال البعض : ان " حم " إسم للسورة ، و إشارة إليها.

] [2]تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم[

العزيز الذي لا يغالب ولا يقهر ، و الحكيم الذي لا يخطأ.

و بما أن الكتاب تنزيل من الله فلتخشع له الأفئدة ، و لتطأطأ أمامه الأفكار .أوليس ربنا عزيزا فكتابه تجل لتلك العزة ؟ وهل ينبغي للعاقل أن يغالب كتاب ربه ، ولا يخشى غضبته التي لا تحتملها السماوات و الأرض ؟!

و ربنا حكيم ، و كتابه آية حكمته ، أفلا ينبغي أن نستوحي الحكمة منه ؟

] [3]إن في السماوات و الأرض لآيات للمؤمنين[

إن الآيات الكثيرة المبثوثة في الكون تجعل الايمان عميقا في نفس البشر ، و المهم أن تزيدنا الآيات إيمانا به سبحانه ، إذ أن الله ضمن كل شيء حقيقة العبودية ، فإذا ما نظرنا فيه وصلنا الى تلك الحقيقة ، فنؤمن بالله ، و تخشع له قلوبنا.

ولكن يختص بمعرفة هذه الحقيقة المؤمنون الذين لا تمنع حجب الكبر و العناد قلوبهم عن معرفة ما تهدي إليه الكائنات من حقائق.

] [4]وفي خلقكم[

ألا ترى كيف يذرأ الله الخلق من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ، و كيف يطوره خلقا من بعد خلق ، نطفة فعلقة ثم مضغة ثم عظاما فكسى العظام لحما ثم أنشأه خلقا آخر ؟ ألا ترى كيف يخلقنا العليم القدير في بطون أمهاتنا خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ، و أجرىعلينا الغذاء ، و بعد أن ولدنا حنن علينا قلوب الآباء و الأمهات ؟ الا ترى كيف خلقنا تامين الخلقة ، في أحسن تقويم ؟

وليس خلقنا كذلك بل كل الأحياء ، إذ أن الله كما البشر خلقهم عبر الانسلال كذلك الشجر ، فالبذرة تنبت الشجرة ، و هذه الشجرة تحمل بذرا ، لو زرعت هذه البذرة لأنبتت شجرا .. وهكذا.

وحين خلق الله الانســان زوده بمختلف الحاجات ، و أودعه العقل ليسخر به الحياة ، و يتغلب على بعض قوانينها .

]وما يبث من دآبة آيات لقوم يوقنون[

فتجد في الأرض أحياء حسب طبيعة الأرض و حاجات تكامل الأحياء فيها.

إن طريقة بث الله للدواب و انتشارها و تكاثرها ، كل ذلك آيات لقوم يوقنون ، و اليقين درجة أعلى من الايمان ، و يبدو من الآية السابقة أنها تدعو إلى النظر في عموم الآيات و ذلك يؤدي الى الايمان ، بينما الآية هذه التي تدعو إلى اليقين تثير فينا التطلع إلتفصيلات الحياة.

] [5]و اختلاف الليل و النهار[

كذلك في اختلاف الليل و النهار آيات لمن يتبصر عبر الأحداث و الظواهر ، و يعقل ما وراء هذا التدبير الحكيم لتتابع الليل و النهار ، و كيف سخر الله الشمس و أقمارها لتخدم حياة البشر فوق هذا الكوكب ، دون أن يستطيع أي واحد منها تغيير مساره قدر بوصة أو يتقدم ساعة عن مواقيته أو يتأخر ساعة.

]ومآ أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها [تفيض أشعة الشمس بما تحمل من بواعث الحياة على الأرض الهامدة ، و ينهمر الغيث حاملا مواد أساسية من الفضاء المحيط ، و يرسل الرب الرياح لواقح ، فيرزق عباده بكل ذلك بقدر ما يشاء.

]و تصريف الرياح[

إن الله يصرف الرياح حيثما يريد ، بعضها مبشرات بالرحمة ، و بعضها بالعذاب ، و ينشر اللقاح أو يسقط الورق ، أو يحمل الغيث أو البرد ... و هكذا الرياح كما الغيث مسخرات بإذن الله ، تجري بأمره حيث أصاب ، كل ذلك:

]آيات لقوم يعقلون[

فالذين يستوعبون دروس الخليقة ، و يحفظون المعلومات ليضيفوها الى بعضها ، و يتفكرون فيها جميعا ليعرفوا السنن التي تجريها و الأنظمة التي تسيرها ، هم أولئك الذين يصلون عبر الآيات الإلهية الى الحقائق الكبرى.

ولعل هذا التدرج من الايمان الى اليقين الى العقل يوحي بأن الايمان هو تسليم النفس البشرية للحق ، و اليقين درء للشكوك و الظنون ، و ترسيخ للسكينة في النفس ، أما العقل فهو لوعي تفاصيل الحقيقة للمحافظة على اليقين و الزيادة فيه.

و بتعبير آخر : يكون الانسان ضالا ، فإذا أطاع القلب الشيطان يصبح كافرا ، وإذا خرج الملك حتى أتم الشيطان هيمنته على القلب فقد أمسى صاحبه جاحدا مطبوعا على قلبه بالكفر ، أما إذا هزم القلب شيطانه ، و اسلم لربه ، فقد آمن ، و إذا ازدادت هيمنة الملك على القلب حتى ثبته الله على الايمان ، و ألزمه كلمة التقوى ، و طرد الشيطان بما له من وساوس و شكوك ، فقد أصبح موقنا ، و اليقين درجات فكلما ازداد المؤمن عقلا عن ربه و علما بآياته سبحانه يزداد يقينا.

] [6]تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق[

الكون يدور كله حول الحق ، و القرآن يؤكد هذه الحقيقة فكل آيات الله في الطبيعة تقودنا إليه و لكن أذا لم يؤمن الناس بالحق..

]فبأي حديث بعد الله و آياته يؤمنون[

إنكار الله بعد عرض هذه الآيات ليس إنكارا لله فقط ، بل هو أيضا إنكار للآيات نفسها ، و هل في الكائنات شيء أشد ظهورا من تلك الحقيقة التي تشترك في الشهادة عليها و الدلالة إليها كل الكائنات ؟! و إذا أنكرناها فقد أنكرنا كل شيء . أوليس في كل شيء آية لله؟

هكذا جاء في دعـاء الامام الحسين عليه السلام : " عميت عين لا تراك عليها رقيبا " (١)[٧] وفي الآية التالية ينذر الله من لا يتبع هداه بالويل:

]ويل لكل افاك أثيم[

و يطرح السؤال التالي : ماهي علاقة هذه الآية بما تليها ؟ يبدو أن هنالك علاقة واقعية و نفسية:

ألف :فالعلاقة الواقعية أن الذين لا يؤمنون بالله و لا يغمر قلوبهم نور المعرفة الإلهية سيأفكون عن الحق ، و يقولون الكذب ، بل إن كل عمل يعملونه وكل خطوة يخطونها وكل هاجس من هواجسهم يحملهم إلى الإفك و الإثم ، و مثلهم مثل الآلة الحاسبة التي تركب على أساس خاطئ فإن كل عملياتها خطأ ، و كذا الآلة الطابعة التي تركب الحروف فيها على أساس خاطئ فكل كلمة تكتبها تخرج خاطئة ، ذلك أن الايمان بالله لا غيره هو الذي يحل طلاسم الحياة و أسرارها ، كيف وجد هذا الكون الهائل ، وإلى أين يصل ، وإلى أين ينتهي ، وما حكمةخلقه ، وما هي غاية وجودنا فيه ؟

بلى . ان الانسان الذي يسلب منه الايمان لا يستطيع أن يعرف طبيعة الحياة ، ولا يصمد أمام مشاكلها ، و يمضي حياته في الكدح العابث.

باء :العلاقة النفسية فهي أن قلب الانسان و عقله و فطرته قد خلق كل ذلك على أساس معرفة الله " فطرة الله التي فطر الناس عليها " (٢) ، و لكن بسبب العمل(١) دعاء عرفة / الامام الحسين (ع) / مفاتيح الجنان(٢) الروم / ٣٠

الفاسد الذي يرين على القلب ينتكس الانسان ، و تتراكم عليه حجب الضلالة و العصبيات و العقد فلا يرى الحقائق.

و لذلك جاء في الدعاء المأثور عن أمير المؤمنين - عليه السلام: -

]إلهي قلبي محجوب ، و نفسي معيوب ، و عقلي مغلوب ، و هوائي غالب ، و طاعتي قليل ، و معصيتي كثير ، و لساني مقر بالذنوب ، فكيف حيلتي يا علام الغيوب ، و يا ستار العيوب ، و يا كاشف الكروب ، إغفر ذنوبي كلها بحرمة محمد و آل محمد ، يا غفار يا غفار يا غفار" (١(

فقلب الانسان يحجب بالغفلة ، و سبب كل ذلك تراكم الذنوب ، لهذا يجأر المؤمن منها ، و يدعو الله بغفران ذنوبه ، متوسلا بحرمة محمد و آله ، حتى يعود القلب الى فطرته النقية . و يزيل الله سبحانه الحجب عن القلب بطرق شتى ، منها إثارة حب الذات عبر التخويف و الترهيب ، و بيان أن الابتعاد عن الحق لا ينفع الانسان شيئا ، بل هو الويل و عذاب الخزي لكل أفاك أثيم ، و الويل هو الهلاك ، وهو واد في جهنم ، ممتلئ قيحا ، و الويل في الآخرة تجسيد للويل في الدنيا ، وقد أعده الله المنتقم الجبار لكل أولئك الذين يأفكون الكذبباستمرار على الله عز وجل ، و يجترحون السيئات.

] [8]يسمع ايات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا[

يصر على كفره استكبارا على الحق الذي يسمعه . إنه يسمع آيات الحق و لكنه يمر..

]كأن لم يسمعها[

(1)دعاء الصباح / مفاتيح الجنان

و نستلهم من قوله سبحانه : " ثم يصر " أن شدة وضوح آيات الله هي إلى درجة تكاد تكره الانسان على الايمان ، و لكن المستكبر الذي عقد عزمات قلبه على الإفك العقيدي و الإثم العملي يستعمل شتى السبل ليستكبر على الحق ، و ليقاوم آثار الهداية ، كالذييحجب عن نفسه عبق الأزهار في فصل الربيع ، أو أشعة الشمس في ظهيرة يوم قائض إنه بحاجة الى مزيد من الجهد حتى يمكنه البقاء بعيدا عن تأثير أشعة الهدى في قلبه.

]فبشره بعذاب أليم[

يتناسب و الاصرار على الكفر و اجتراح الإثم.

[9]و بالرغم من أن الكافر يحجب نفسه عن آثار الهدى تدخل حريم قلبه ، الذي يغلفه بسور من استكباره و إفكه و إثمه ، فإن موجات من الهدى تخترق الحجب ، و تستقر في فؤاده ، و لكنه سرعان ما يتخذ منها موقف الاستهزاء و السخرية النابعة من احتقار الحق و أهله..
هنالك تتم حجة الله عليه إذ أنه استصغر الحق بعد علمه به.

]وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين]وهذا الجزاء ينسجم و الاستكبار أو الاستهزاء.

] [10]من ورآئهم جهنم[

أي أن جهنم تنتظرهم ، وإذا زعموا أن بمقدورهم النجاة من جهنم بأموالهم أو أولادهم فقد زعموا باطلا.

]ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئا[

ولن تغني عنهم آلهتم شيئا.

]و لا ما اتخذوا من دون الله أولياء[

فليس في يوم القيامة لهذه الاصنام الحجرية أو البشرية قيمة حتى ينقذونكم من النار.

]و لهم عذاب عظيم[

و العذاب العظيم يتناسب وما عبدوا من دون الله ، إذ أنهم اقترفوا جريمة عظيمة بالشرك فعاقبهم ربهم بعذاب عظيم .

] [11]هذا هدى[

الهدى هو الطريق المستقيم الذي ينجيك من عذاب جهنم.

]و الذين كفروا بايات ربهم لهم عذاب من رجز أليم]لماذا يكرر ربنا عز وجل موضوع العذاب خمس مرات : " ويــل لكل أفاك أثيم " ، " فبشره بعذاب أليم " ، "أولئك لهم عذاب مهين " ، " من ورائهم جهنم .. ولهم عذاب عظيم " ، "لهم عذاب من رجز أليم " ؟ لعل السببهو تراكم العقد النفسية على القلب ، التي يعتبر كل واحدة منها حجابا سميكا دون نفاذ نور الهدى ، ولابد من خرقها جميعا بالانذار الشديد بألوان العذاب و مراحله.

[12]وبعد أن يمطر الله الذين يكذبون بآياته بالانذار تلو الانذار ، لعل قلوبهم تخشع للحق ، يذكرهم بآياته في الآفاق ، و بنعمه التي أسبغها عليهم ، و إن التفكر في ذلك يهدينا إلى حسن التدبير ، و بديع الصنع ، و بالتالي : إلى أن خالق هذا الخلق و منظم أمرهعليم حكيم ، و أنه لم يبدأه عبثا ، ولا يتركه سدى ، و هنالك نبلغحقيقة الجزاء التي تحاول النفس البشرية الهرب منها خشية منها ، و إشفاقا من ثقلها.

و هكذا ينتقل المؤمنون من التفكر في خلق الله إلى خشية عقابه ، كما قال ربنا سبحانه و تعالى في سورة آل عمران:

"إن في خلق السموات و الأرض و اختلاف الليل و النهار لآيات لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياما و قعودا وعلى جنوبهم و يتفكرون في خلق السموات و الأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار * ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار " (١(

هكذا نرى كيف أن التفكر في الخلق أوصلهم الى خشية النار ، و هنا بعد أن ينذر الله الكفار المستكبرين

بالنار يعرج بنا إلى آياته فيقول:

]الله الذي سخر لكم البحر[

البحر على عظمته مسخر للانسان ، أفلا يدلنا على النظم و التدبير ؟

و لقد ذكرنا السياق بفوائد ثلاث لتسخير البحر:

أولا : الملاحة التي تنقل الناس و البضائع إلى الآفاق.

]لتجري الفلك فيه بأمره[

ثانيا : صيد الأسماك و استخراج الثروات الأخرى.

]و لتبتغوا من فضله[

(1)آل عمران / ١٩٠ - ١٩٢

ثالثا : الاهتداء من واقع تسخير البحر إلى رحمة الله بالانسان و كرامته له فينبعث لربه شكرا و خضوعا.

]و لعلكم تشكرون[

فالهدف من النعم تكامل روح الانسان ، و تسامي نفسه.

[13]ثم انظر الى ما في السموات من آيات القدرة ، و معالم الحكمة ، و كيف أن قانون الجاذبية و نظام الأفلاك و مجاري الشمس و أقمارها و النجوم وما حولنا يخدم حياة الانسان فوق الأرض . أفلا يهدينا ذلك إلى أن لوجود البشر هدفا لابد أن نتعرف عليه ثم نسعى لتحقيقه ؟

]و سخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه]و كذلك ما في الأرض من أوكسجين الهواء ، إلى أملاح الأرض ، ذلك ما فيها من معادن مختلفة تنفع الناس ، و إلى ما فيها من أحياء ، كلها تخدم حياة الانسان و سعادته . من الذي سخر كل ذلك للبشر ، أوليس الله ؟ أفلا نعبده ؟!

]إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون[

و التفكر هو إثارة العقل ، لكي يربط المعلومات ببعضها ، و يرتقي من خلالها إلى الحقائق الكبرى ، و بالرغم من أن ما في الحياة كلها آيات تشير إلى تلك الحقائق إلا أن من لا يستثير عقله لا يستفيد منها شيئا.

] [14]قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوما بما كانوا يكسبون [على المؤمن أن يعتبر نفسه أعلى من الذين لا يؤمنون ، لأنهم كالأعمى و الأصم ، فإذا قاموا بعمل سيء فعليه أن يغفر لهم ، ومن المعلوم أن ذلك لا يعني ترك المسؤولية تجاههم ، بل ينبغي ألا يسارعوا في محاربتهم ، بل يدعو ذلك الامام لكي يرى الظرف المناسب للمواجهة ، و يومئذ يجزي الله الذين كفروا بما كانوا يكسبون ، ومادام المجرم لا يفوت ربه فلماذا البدار إلى أخذه ، إذ قد تكون المبادرة سببا لفشل خطط كثيرة.

وهذا التفسير يتناسب وما ذكره المفسرون من سبب نزول الآية ، من محاولة البعض من أصحاب الرسول أخذ المخالفين بالشدة ، مما كان يسبب حرجا للرسول ، وعلى ذلك يمكن تفسير قوله سبحانه " ايام الله " بأنها أيام نصرة للمؤمنين ، حسبما احتمله البعض.

] [15]من عمل صالحا فلنفسه [

يجده في الجنة.

]ومن أسآء فعليها[

مغرما عليه يوم القيامة.

]ثم الى ربكم ترجعون[

ففريق في الجنة ، و فريق في السعير.

وهذه الآية تبين لنا أهمية المسؤولية ، وأن كلا مسؤول عن عمله ، فلا ينبغي البدار إلى العقاب ، ولا انتظار الثواب العاجل ، بل لابد أن يتمتع المؤمن برؤية مستقبلية تضفي عليه الطمأنينة و السكينة و الحكمة في التحرك.

ثم جعلناك على شريعة من الأمر

هدى من الآيات

تشتــرك الأمـة الاسلاميـة و بنوا إسرائيل في عهدهم الرسالي في القضايا الجوهرية ، بالرغم من بعض الفوارق ، فلقد فضل الله الأمة الاسلامية على سائر الأمم بالرسالة الخاتمة ، كما فضل الله بني إسرائيل على من عاصرهم برسالته التي أنزلها على موسى بن عمران)
عليه السلام) ، كما فضلهما على الناس ببينات من الأمر ، تبصرهم سبيلهم المستقيم ، و توفر لهم فرصة الوحدة ، ولكن لم تكن الرسالة لتعصم الناس عن أن يختلفوا لو لم يرد الناس أنفسهم ذلك ، و من هنا فقد اختلف الناس من بعد موسى كما اختلفوا بعد نبينا محمد) صلىالله عليه وآله) بغيا بينهم ، و ليس لنقص في عوامل الوحدة المتوافرة لديهم من عند الله سبحانه.

ولعل سبب المقارنة بين بني إسرائيل و الأمة الاسلامية يوجز في أمرين:

الأول :ما سبق من حديث الرسول الدال على أن الأمة الاسلامية ستحذو حذوبني إسرائيل حذو القذة بالقذة ، و النعل بالنعل ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه.

الثاني :للدلالة على أن ما جرى عند بني إسرائيل يشبه القانون الاجتماعي أو السنة الحياتية التي تتكرر عادة بين الأمم إلا من عصم الله.

و نستوحي من هذه الآيات بصيرتين:

الأولى :لقد وفر الله لبني إسرائيل كل أسباب السعادة ، فأعطاهم الكتاب و الحكم و النبوة ، و فضلهم على العالمين ، و آتاهم بينات من الأمر ، و أعطاهم العلم و الوعي ، ولكنهم اختلفوا من بعد ذلك بغيا ، و جروا على أنفسهم الويلات ، مما يدل على أن البغي ليسذا طابع فردي ، لأن من يظلم يشجع الآخرين على الظلم ، و تنتشر عادة البغي حتى يظن كل واحد أن من (لا يظلم الناس يظلم (أو (إذا لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب. (

ثـم إن الظالـم لا يلبث أن يبحث عن فلسفة لظلمه ، و محور يجتمع الظالمون حوله ، و ينظمون و يسنون شرائع له ، و ينصبون له اعلاما يدعون الناس الى الرضوخ له ، و هكذا يبدو الظلم عملا فرديا يرعاه الحرص و التعالي ، و سرعان ما يتحول الى تيار اجتماعي منظم ،له مؤسساته و قوانينه و دعائمه و قياداته و .. و.. ، حتى يصبح الناس فريقين : طبقة ظالمة مستكبرة متسلطة ، و طبقة مظلومة مستضعفة مقهورة ، و تلك الطبقة قد تختلف صورها ، و لكن جوهرها واحد ، كأن تتسمى باللوبي ، أو الاقطاعيين ، أو اتحاد الشركات ، او الحكومة، او .. او..

الثانية :و حينما ينحرف الناس ، و تتسلط عليهم طبقة مستكبرة مستضعفة ، تظلل الناس بسحابة سوداء من الارهاب و الاعلام المضلل ، لابد أن يقف الصالحون (أنبياء كانوا أم تابعين لهم) متسلحين بالشجاعة و الاستقامة ، و يرفعوا أصابعهم إلى السماء مشيرين إلى الله الواحد الأحد ، فإذا رأى الله منهم الصبر على

البلاء نصرهم بعزته.

بينات من الآيات

] [16]ولقد آتينا بني إسرائيل[

أولا:

]الكتاب[

التوراة ، و الانجيل ، و الزبور ، التي أثارت عقولهم ، و برمجت حياتهم.

ثانيا:

]و الحكم[

فلقد جعل الله في بني إسرائيل ملوكا حاكمين ولقد فسرنا ذلك في آية (٩٨) من سورة الأنعام.

ثالثا:

]و النبوة[

فقد جعل الله في بني إسرائيل أنبياء كثير منذ يعقوب (ع) حتى عيسى (ع) ، وهذا العدد من الأنبياء نعمة كبيرة لبني إسرائيل و فخر عظيم ، لأن عظمة الأمة تقاس بعدد و نوعية النخبة الطيبة فيها ، و عالمنا اليوم يقيس تقدم الأمم بنسبة الكفاءات فيها ، و هكذا أضحتبنو إسرائيل أمة متقدمة بالنسبة الى سائر الأمم في عصرهم ، ثم إن الله يحفظ الناس و يمنع عنهم العذاب بأنبيائهم و صالحيهم ، قال تعالى : " وما كان الله ليعذبهم و أنت فيهم (1)(1) . " الأنفال / ٣٣

و بالنسبة لنا كمؤمنين يجب أن نعرف أنه كلما كثر فينا الصالحون و العلماء الربانيون و الرساليون المخلصون كلما أمسينا أقرب الى الانتصار بإذن الله.

رابعا:

]و رزقناهم من الطيبات[

فقد رزق الله بني إسرائيل رزقا حسنا بعد أن أمرهم بدخول باب حطة إلى القرية المقدسة التي بارك فيها.

خامسا:

]و فضلناهم على العالمين[

في الحضارة عن غيرهم من سائر الأمم من قبلهم ومن كانوا في زمانهم ، ولعل في الآية إشارة الى أن هذا التفضيل كان بسبب تلك النعمة الآنفة ، فلما زالت زال فضلهم.

سادسا:

] [17]و آتيناهم بينات من الأمر[

يبدو أن الأمر في لغة القرآن يعني المسألة العامة ، قال تعالى : " وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به " (١) فقد أعطى الله بني إسرائيل بصيرة الأمر و بيناته (أي تفصيلاته) فعرفهم كيف يصرفون حياتهم ، و كيف يتعاملون مع غيرهم ، و كيف يرتبون اجتماعهم.

]فما اختلفوا إلا من بعد ما جآءهم العلم بغيا بينهم](١) النساء / ٨٣

اختلفوا ولم يكن اختلافهم لنقص في رسالتهم أو شحة طعامهم ، إنما كان ببغيهم بالرغم من وجود العلم الذي كان جديرا بفض خلافاتهم لو تجنبوا البغي ، و لقد كان العلم عند وصي موسى يوشع بن نون ، وكان الناس يعلمون ذلك ، إلا أن حب الرئاسة وهوى السلطة لعب دورا خبيثا في إزالة الحق عن مرساه ، و الولاية عن مستقرها ، فاختلفوا أشد اختلاف.

و يضرب القرآن صفحا عن ذكر ويلات الاختلاف ، من حروب داخلية تؤدي الى زعزعة أساس المدنية ، و غلبة الأعداء الخارجيين.

ولا ريب أن العلم هنا هو علم الدين الذي يقضي على الاختلاف بين أصحاب الرسالة ، ولا يعني أي معلومات كانت ، لان سلاطين الجور يحاولون أبدا الاستغناء عن علماء الدين بمن يسمى عالما من أصحابهم ، و يغرونهم ليصنعوا لهم فلسفة و مذهبا.

]إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون [إن الله سيقضي بينهم بالحق ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ولا تعجل عليهم ، و اطمأن إلى أن الحق باق برغم التشويش عليه.

] [18]ثم جعلناك على شريعة من الأمر[

الشريعة : الطريقة الواضحة ، فقد جعل الله الرسول (ص) على الطريق الحق ، و الدين الواضح.

]فاتبعها ولا تتبع اهوآء الذين لا يعلمون[

ومن لا يتبع شريعة الله فإنه يتبع " أهواء " قوم لا يؤمنون بالله ، وهذه مشكلةالعلماء الذين باعوا دينهم (شريعة الله) بالدنيا فاتبعوا أهواء الطغاة ، ومن هنا فإن مسؤولية العلماء الاستقامة على هدى الله ، بالرغم من كل الضغوط التي يمارسها أصحاب القوة و الثروة.

و إذا بقي العلماء صامدين أمام أهواء الجاهلين فإنهم يكونون مقياسا للحق ، و محورا لأهله ، و قيادة موثوقة للثائرين من أجله.

أما إذا اتبعوا أهواء أولي القوة و المال فسوف يضيع الحق ، و يختلف الناس من بعد ما جاءتهم شريعة الله بغيا بينهم ، كما فعلت بنو إسرائيل من بعد نبيهم ، و دالت دولتهم ، و زالت الفضائل التي فضلهم الله بها .

و نستفيد من الآية أن أهم بنود الشريعة هي التي تمنع الاختلاف ، و تحقق العدالة ، و تقاوم البغي ، و لا ريب أن كل ذلك موجود في نظام الحكم عند الدين.

[19]ثم يهدد ربنا هؤلاء العلماء الغاوين الذين يتبعون أهواء الظالمين:

]إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا[

يوم القيامة ، فلا يدفعون عنك العذاب ، إذا أطعتهم و صاروا يستغلونك من أجل تضليل الناس ، بل

دخولهم النار.

]وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض[

فالأفحش ظلما يتولى جمعهم ، و يذيقهم من ويلات ظلمه ما يشاء ، ثم يتسلسل الظلم نازلا حتى يصبح كل واحد منهم ظالما لمن دونه ، و مظلوما ممن فوقه ، لا يذوقون برد العدالة و الأمن أبدا.

ومن أيدهم دخل في حزبهم ، و احتمل وزر أعمالهم الذي يتجسد في الآخرة عذابا شديدا ، أما في الدنيا فيشمله ظلمهم الناشئ في مجتمعهم.

وقد دلت آية كريمة على أن الله يولي الظالمين بعضهم (قد يكون أشدهم ظلما (، حيث يقول ربنا : " و كذلك نولي بعض الظالمين بعضا " ، و في الحديث المعروف : " كما تكونون يولى عليكم " . (١)أما العلماء الذين يواجهون الظلم فإنهم ينجون من آثاره في الدنيا وفي الآخرة.

]و الله ولي المتقين[

فهو سبحانه يؤيد المتقين بنصره في مقاومة الطغاة.

] [20]هذا بصآئر للناس[

واضحة تهدي القلوب و العقول ، و طريقة للرؤية الصائبة ، و منهج للتفكير السليم.

]و هدى[

فالقرآن لا يكتفي ببيان البصائر ، بل و يقربنا حتى نلامسها ، و نتفاعل معها ، و نشهدها عن كثب ، وهذا هو الهدى.

]و رحمة لقوم يوقنون[

إذ أنقذهم من الغواية و الاختلاف ، و هداهم الى شريعته الواضحة السمحاء.

أما الذين لا يوقنون ، و بالتالي لا ينفذون أوامره في الأوقات الحرجة ، و بالذات عند اختلافهم ، فإن القرآن لا يغني عنهم شيئا ، ولعل الآية هذه تشير الى ما تدل(١) نهج البلاغة / ج ٢١١ - ص ٥٠٦

عليه الآية الكريمة : " فلا و ربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت و يسلموا تسليما " (١. (

[21]لان الدنيا دار ابتلاء فهي دار غرور يخيل للانسان ان المجرم و المحسن فيها سواء ، وما هي إلا فتنة قصيرة الأمد ، و بعده يتميز المحسن بالثواب ، و المجرم بعقاب شديد.

و يوغل البعض في التمني و الغرور حين يزعم أن الآخرة كما لبعض الحالات في الدنيا يتساوى بها المحسن و المسيء ، و هكذا تسول له نفسه الاسترسال في السيئات دون رادع ، كلا . إن ذلك حكم جائر بعيد عن سنن الله في الخليقة.

]أم حسب الذين أجترحوا السيئات[

و الاجتراح :الاكتساب ، و نستوحي من الآية ان اجتراحهم للسيئات هو الذي جعلهم يظنون هذا الظن السيء ، ذلك لأن الشيطان يزين للانسان عمله.

]أن نجعلهم كالذين آمنوا و عملوا الصالحات سواء محياهم و مماتهم]كلا فحياة المؤمن زاخرة بالاطمئنان ، و الفلاح ، و الأمل ، بينما يجعل الله صدر الكافر حرجا ضيقا ، و يمنع عنه الالتذاذ الكافي بنعيم الدنيا ، و يجعله يأكل كما تأكل الانعام ، و يجعله عرضة للعذاب.

أما بعد الموت فان الملائكة يستقبلون المؤمنين بالترحاب ، بينما يغلظون على المجرمين ، ثم يتميزون الى الأبد عن بعضهم ، فهؤلاء في الجنة منعمون ، و أولئك في العذاب الأليم.

(1)النساء / ٦٥

]سآء ما يحكمون[

وعند هذه الآية تتلاشى الاماني التي يعيشها بعض المسلمين ، و يبررون بها اجتراحهم للسيئات ، فبعض يقول : سيغفر لنا ، و بعض يزعم انه يتوب قبيل وفاته ، و بعض يتشبث ببعض الطقوس و يزعم انها تغنيه عن الالتزام بالواجبات .

كلا .. ان ربنا عدل لا يجور ، ولا يمكن أن يتساوى عنده المحسن و المسيء.

[22]حين نتفكر في خلق الله في السماء التي تظلنا ، في الأرض التي تقلنا ، في الظواهر الطبيعية ، في الدورات النباتية ، في التفاعلات الحياتية ، في كل شيء ، فان حقيقة واحدة تتجلى بوضوح وهي : أن كل شيء حق ، و يدبر بحق . أرأيت الذي يزرع الشعير هل يحصد حنطة . كلا .. ولماذا لا نتمنى للخامل ان يحصل على علم وافر ، و ثـروة طائلة ؟ وكيف لا يحلم أحد أن تلد البقرة حصانا ، او أن يطير الفيل في الجو كالغراب ؟

لماذا العلم يتوغل في عمق الاشياء لمعرفة الاسباب و النتائج ، أو خصائص المعادن و النبات ، أوليس لأن كل شيء خلق بحق ، و يجري ضمن سنة عادلة ؟!

فكيف نتمنى إذا ان نجترح السيئات و يكدح ذلك المؤمن في إقامة الصلاة ، و إيتاء الزكاة ، و الجهاد ، ثم نجني نحن وهو ثمرات متشابهة . هل رأيت مثالا واحدا في عالم الخليقة حتى تقيس نفسك به مثلا ؟

]و خلق الله السماوات و الأرض بالحق[

و يتجلى هذا الحق في حياة الانسان عبر سنة الجزاء.

]و لتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون[

بلى .قد يتأخر الجزاء أو تخفى علاقته بالعمل ، قد يشرب المرء ماءا ملوثا ثم يصاب بمرض خطير بعد مدة ، ولا يصدق أن شربه ذلك الماء كان سبب اصابته بالمرض . قد يعيش مجتمع التخلف ولا يعترف أن خموله ، و تمزقه ، و جهله سبب ويلاته ، و لكن سنة الجزاء جارية.
علمنا بها أم لا ، و صدقنا بها أم لا.

أرأيت من اتخذ إلهه هواه

هدى من الآيات

يستعرض السياق في هذا الدرس وبعده صفات الكفار ، كيف أنهم اتخذوا أهواءهم آلهة عبدوها من دون الله لما أطاعوها ، و كيف ختم الله على سمعهم و قلوبهم ، و جعل على أبصارهم غشاوة ، فمن يهديهم من دون الله ؟! و أنهم كفروا بما وراء الحياة حتى يحيي الله أمواتهمفيرونهم عيانا ، ولكن إذا قامت القيامة و جثوا على ركبهم ذلا و خشوعا فهل من محيص ؟!

بينات من الآيات

[23]هناك علاقة وثيقة بين العقل و الايمان ، فالعقل ينبعث من ذات المشكاة التي ينبعث منها الايمان ، فمن اتبع عقله هدي الى الايمان ، ومن آمن أنقذ عقله ، أما من اتبع هواه فقد عطل عقله ، ولن يهتدي الى الايمان ، ويكون كمن أوصد منافذ قلبه حتى لا يصل البالحقيقة ، ولن يصل إليها ، وحين يتبع الانسان هواه تكثرأنانيته و شهواته ، حتى لا يرى إلا نفسه وما يخدمها مباشرة ، و يبلغ به حب الذات حد العبادة ، إذ يجعل ما تشتهيه نفسه شرعا يلتزم به ، و حينئذ يسجن في زنزانة نفسه ، و لا يؤمن بغيرها ، ولا يقدر أن يسمو بها الى حالة الايمان برب العالمين.

]أفرأيت من اتخذ إلهه هواه [

لماذا يقول ربنا " : أفرأيت " ولا يخاطب من اتبع هواه مباشرة ؟

و الجواب:

أولا : لأن مثل هذا الانسان ليس من السهولة أن يميز خطأه ، بل هو كالميت لا يستحق خطابا.

ثانيا :لكي يتخذ المخاطب حذره ، فلا يقع فيما وقع فيه عابد هواه ، و يتعلم عبادة ربه من عابد هواه ، كما قيل لذلك الحكيم : من أين تعلمت الأدب ؟ قال :ممن لا أدب له ، عمل ما ساءني فلم أعمل مثله ؟ كذلك يكفينا عبرة النظر الى عاقبة من يعبد هواه ، فلا ندعشهواتنا الطاغية تستدرجنا الى هذا المصير ، بل نعتبر الهوى أشد أعدائنا ، و نعتبر الوقوف أمامه شجاعة بالغة .. على أن أكثر الناس يطيعون أهواءهم بقدر معين ، إلا أن من يتخذ هواه إلهه عبرة لهم ، ليعرفوا عاقبة الاسترسال مع الهوى.

]و اضله الله على علم[

إنه ما أضلهم إلا من بعد أن أعطاهم العلم ، فاختلفوا بغيا بينهم ، و قيل على علم من الله أنه يستحق الاضلال بسبب جحوده بعد اليقين ، و كفرانه بنعمة الهدى ، و يكون كلا التفسيران الى معنى واحد.

]و ختم على سمعه و قلبه[

فلا يسمعون ولا يعوون الحقائق ، لأن الله أبعدها عنهم ، و هل يعطي ربنا دينه من يعرف أنه يكفر به سلفا ؟!

]و جعل على بصره غشاوة[

فعندما يبصر الآيات لا يرى ما وراءها من العبر ، وما قيمة ظواهر الآيات إذا لم يهتد الانسان الى معانيها ، أو تنتفع من سماع لغة لا تعرفها ، أو ينتفع الأمي إذا نظر في كتاب ، و هل يهتدي غير الطبيب الى حقيقة المرض من رؤية أعراضه ؟

كذلك نظرات الذين يعبدون أهواءهم تذهب عبثا ، لأن تركيزهم إنما هو على ظواهر الأمور ، ولا يريدون بلوغ الحقائق فهم محجوبون عنها.

جاء في الحديث عن أمير المؤمنين - عليه السلام - في صفة هؤلاء:

"أقبلوا على جيفة (الدنيا) قد افتضحوا بأكلها ، و اصطلحوا على حبها ، ومن عشق شيئا أعشى بصره ، و أمرض قلبه ، فهو ينظر بعين غير صحيحة ، و يسمع بأذن غير سميعة ، قد خرقت الشهوات عقله ، و أماتت الدنيا قلبه ، و ولهت عليها نفسه ، فهو عبد لها ولمن في يديه شيء منها ، حيثما زالت زال إليها ، وحيثما أقبلت أقبل عليها " (١)[فمن يهديه من بعد الله[

لقد أنعم الله على الانسان بالعقل ، و آتاه البينات ، فإن اهتدى فلنفسه ، و إن أساء ، و اتبع هواه ، و

انحرف عن هدى عقله ، و كذب بالبينات ، سوف يضله الله.

(1)نهج البلاغة / خ ١٠٩ -ص ١٥٩

أرأيت من يعطيه العقل من بعد الله ، و من يمن عليه بهدى البينات.

و الآية تحذرنا من مغبة الاسترسال مع الذنوب الى أن تسد علينا منافذ الهدى كليا فلا مناص من النار ، وقد قال ربنا : " ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله و كانوا بها يستهزؤون " (١)و جاء في الحديث عن الامام الباقر - عليه السلام - : " ما من شيء أفسد للقلب من الخطيئة ! إن القلب ليواقع الخطيئة فما تزال به حتى تغلب عليه ، فيصير أسفله أعلاه ، و أعلاه أسفله " (٢. (

قال رسول الله - صلى الله عليه و آله و سلم - : ((إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب و نزع و استغفر صقل قلبه منه ، و إن زاد زادت ، فذلك الريـن الذي ذكره الله تعالى في كتابه : " كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون. (3) (("

و جاء في رواية أخرى عن الامام الصادق - عليه السلام " : - إن الله إذا أراد بعبد خيرا نكت في قلبه نكتة بيضاء ، و فتح مسامع قلبه ، و وكل به ملكا يسدده و إذا أراد بعبد سوءا نكت في قلبه نكتة سوداء ، و شد عليه مسامع قلبه ، و وكل به شيطانا يضله " (٤. (

]أفلا تذكرون[

بهؤلاء و تعتبرون بهم.

(1)الروم / ١٠

(2)روضة الواعظين / ص 414

(3)المصدر

(4)بحار الانوار / ج ٧٠ -ص ٥٧

[24]و يبرر هؤلاء عبادتهم لأهوائهم بقولهم:

]و قالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت و نحيا وما يهلكنآ إلا الدهر]لا شيء وراء ظاهرة الحياة و الموت ، ولا حتى الله الذي قدرهما ، وما الدهر سوى الطبيعة ، وهل للطبيعة إرادة و حكمة ؟! أفلا ينظرون الى السموات و الأرض وما فيهما من عظمة التدبير و دقة التقدير ؟! أفلا يهديهم العقل الى أن لكل تدبير مدبر ، و لكل تقدير مقدر؟!

و يبدو أن مرادهم من الموت فناء جيل ، و الحياة نشأة جيل من بعدهم ، فالزمان في زعمهم يميت الأولين ، و يحيي من بعدهم الآخرين ، و هكذا في دورة متتابعة لا يعرف مبتداها ولا منتهاها ، و تبقى الأسئلة حائرة : من أين جئت ، إلى أين أسير ؟ و ينادي ليس ادري!

و يبدو أن هذه النظرية يفرزها القلب المختوم عليه بسبب عبادة الهوى ، وهي تحلل الانسان من كل قيد ، و تطلق عنانه في اتباع الشهوات حتى النفس الأخير ، وهي نظرية قائمة على أساس الفراغ العقيدي.

]وما لهم بذلك من علم إن هم الا يظنون[

أي يتخيلون أن لا بعث ولا حساب ، أفينبغي أن نرسي بنيان أفكارنا و أساس مجمل ثقافتنا على قاعدة الظن بعيدا عن العلم ؟! ولكن ماذا يملك من عبد هواه ، و أضله الله ، سوى الظنون ؟! إن العلم أعظم نعمة ، وهو من عند الله ، فلو سلبه من أحد ، أترى يعرف شيئا ؟ هل يقدر الحائط - مثلا - أن يعي ما في الحقل ، أم المكيال ما في البيدر ؟! ولماذا ؟ مستحيل أن يعرفا . أوليس لأن الله لم يرزقهما العلم ؟ كذلك محال ان يعرف من عبد هواه بداية الخلق و نهايته ، لأنه قد سلب منهذا العلم ، وقد تم إضلاله على علم.

الذي يرى الرياض الجميلة تتوق نفسه إليها ، ولكن الأعمى يظل يتخيل ، و يقول ليس ثمة شيء أبدا . دعه في ضلاله أبدا.

] [25]وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات[

حتى تكاد تلزمهم بالحقيقة تهربوا منها دون أن يملكوا حجة ، بل:

]ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بابائنا إن كنتم صادقين]وهل إذا أحياهم يؤمنون ؟

كلا .. إنهم يبررون بذلك تهربهم من مسؤولياتهم.

] [26]قل الله يحييكم[

من بعد العدم ، بالقدرة التي خلق بها السموات و الأرض من العدم.

]ثم يميتكم[

وليس الدهر كما زعموا أنه يهلكهم.

و يبدو أن هناك فرقا بين الموت و الهلاك : فالموت هو انفصال الروح عن الجسد ، أما الهلاك فهو اندثار الشيء ، وهو يتناسب مع الزوال بعذاب ومع الظروف التي تمحي آثار الميت و كأنه قد تلاشى ، كما استخدم الهلاك في قوله سبحانه " :ولقد جاءكم يوسف من قبلبالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك

قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا " (١) ، و قوله تعالى " يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرء هلك " (٢) ، وقوله : " كل شيء هالك إلا وجهه " (٣) ، فهلاك يوسف اندثار رسالته ، و عدم التقيد بها ، و هلاك المرء انتهاء دوره حتى أنالكلالة يتقاسمون إرثه ، وكذا في الآية الثالثة حيث يتم تلاشي كل شيء إلا وجه الله ، كما قال ربنا سبحانه : " كل من عليها فان. "

و الله القادر على الاحياء و الاماتة هو القادر على البعث و النشور.

]ثم يجمعكم الى يوم القيامة لا ريب فيه و لكن أكثر الناس لا يعلمون]إذا كان يوم القيامة لا ريب فيه ، فلماذا نرى أكثرهم لا يعلمون بها ؟

بلى .يوم القيامة لا ريب فيه واقعا ، أي لا محالة واقع ، وليس في ذلك تردد ، و لكن اكثر الناس لا يعلمون بهذا الواقع ، ولا يغير جهل البشر من الواقع شيئا ، فنحن نجهل - مثلا - وجود منظومة شمسية في آخر آماد هذا الفضاء ، فهل يجعل جهلنا بها وجودنا عدما ؟
كلا .. ولعل هذه الآيات في القرآن تعالج حالة نفسية عند البشر أنه يزعم أن مجرد شكه في شيء يجعله في حل من الالتزامات المرتبة على وجوده ، و بالتالي يتجاهل أشياء واضحة بزعم أنه يدرأ عن

نفسه أخطارها ، كالنعامة التي تخفي رأسها زاعمة أنها إذا لم تر الصياد فإنه لا يراها ! كلا .. الواقع واقع ، سواءا آمنت بـه أو لم تؤمن ، فإذا كان ذلك الواقع كيوم القيامة الرهيب فإن تجاهله مأساة حقيقية للانسان .

] [27]و لله ملك السماوات و الأرض و يوم تقوم الساعة يومئذ يخسر(١) غافر (المؤمن) / ٣٤

(2)النساء / ١٧٦

(3)القصص / ٨٨

المبطلون[

أولئك الجاهلون يزعمون أن تكذيبهم بالساعة و استهزاءهم بها يكفيهم ، كلا .. يقول ربنا : إن ملك السموات و الأرض لله ، و الله لا يعطي شيئا منها لأحد باطلا ، و إنما رزقهم منها ما يمتحنهم به ، فإذا عملوا باطلا فإنهم يخسرون يوم القيامة . أوليست الدنيا مزرعة الآخرة ؟ أوليس ما بأيدينا من قوة و مال و بنين هو رأسمالنا الوحيد ، فإذا لم نصلح أمره بل جعلناه في يد اللهو و الباطل فإن ذلك الخسران ؟

[28]و يقص علينا حالة الأمم التي قالت و عملت باطلا في ذلك اليوم الرهيب ، و يقول:

]و ترى كل أمة جاثية[

الجثو : هو الجلوس على الركب بخشوع و ذل.

]كل أمة تدعى إلى كتابها[

إن الكتاب هو كتاب أعمال الأمم.

وهناك سؤال : لماذا يقول ربنا : " كل أمة تدعى الى كتابها " ، ولم يقل : (كل فرد يدعى ..) ؟

و لعل الجواب أن القرآن الحكيم يشير الى حس التوافق مع المجتمع في الانسان ، التي تجعل المجموع مسؤولا عن كل فرد ، كما أن الفرد له مسؤولية تجاه المجموع ، ذلك لأن كثيرا من أعمال الفرد و عاداته إنما المسؤول عنها المجموع ، و نستطيع أن نشبه التجمع بقافلةركاب ، فلو سقطت في الوادي لهلك أهلها جميعا.

و القرآن يسفه حالة الانسياق وراء المجتمع ، قال رسول الله (ص) : " لا يكنأحدكم إمعة ، يقول : إن أحسن الناس أحسنت ، و إن أساؤوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساؤوا أن تجتنبوا إساءتهم. "

و نستفيد من الحديث أنه لا يوجد في الاسلام حتميات إجتماعية ، ومن الممكن تغيير الثوابت و الحتميات الاجتماعية بإصرار أبناء المجتمع ، ولكن من عادة الناس اتباع الحالة الاجتماعية ، إلا من عصمه الله ، و لذلك فهم مشتركون في الجزاء.

]اليوم تجزون ما كنتم تعملون[

لو قال ربنا : (اليوم تجزون بما كنتم) لاحتمل أن يكون الجزاء من غير جنس العمل ، ولكن حذف الباء يؤكد أن الجزاء هو ذات العمل الذي اجترحه الانسان.

] [29]هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق[

نطق الكتب قد يكون بسبب وضوح الأعمال ، وقد يكون النطق بالمعنى الظاهر للكلمة ، أي أن الكتـاب يفرز الصوت ، وقد أشار القرآن الكريم إلى مثل هذا المعنى في قوله : " حتى إذا ما جاؤوها شـهد عليهم سـمعهم و أبصارهم و جلودهم بما كانوا يعملون * و قالوا لجلودهم لم شـهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شـيء ... " (١) ففي يوم القيامة تجسـيد حي لعمل الانسـان ، فربما عرض عليه الصوت و الصورة لعمله ، و الفرق بين كتابة العمل في الدنيا عنه في الآخرة أنه في الدنيا تكتب ظاهر الأعمال ، بينما في الآخرة تثبتبخلفياتها ، و بكل مقاديرها و نسـبها ، إذ تكتب صلاة الاثنين ، و لكن لكل صلاة خصوصياتها ، فصلاة هذا أكثر إخلاصا و خشوعا و تأن من الآخر ، وكذا في سائر الأعمال.

(1)فصلت / ٢٠ - ٢١

]إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون[

و الاستنســاخ هو إعادة كتابة الأصل ، فالأصل عند الانسـان ، و الكتبة من الملائكة يكتبون ما يعمل ، و يدل على ذلك قوله : " إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا " (١. (

وهذا يقودنا الى أن الأعمال تنعكس على ظاهر الانسـان في القيامة ، فقد جاء في القرآن عند بيان حالة المنافقين " : ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم و لتعرفنهم في لحــن القول " (٢) و يحفظ الله الأعمال أيضا على قلب الانسـان على شـكل نكت سـود لانراها ، ولكن الله يعلمها ، وقد ينطقها يوم القيامة ، كما ينطق الله أعضاء الانسـان ، و لعل هــذا أحد مصاديق الاسـتنساخ ، و العلم الحديث بدأ بمعرفة الحقائق عبر أعضاء الانسـان ، عبر بصماته ، و عبر ضغط الدم في جهاز كشـف الكذب ، و عبر تقاسيم الوجه ، و متى ما علم الانسـان أن أعماله تصور له في الآخرة و تجسـد فإنه قد يؤوب الى الله إذا كان غافلا ، لأن الكثير إنما يعملون السـيئات وهم في غفلة عن الآخرة.

(1)الإسراء / ١٤

(2)محمد / ٣٠

13 + 106

فلله الحمد و له الكبرياء

هدى من الآيات

كان الحديث في الدرس السابق عن جثو الأمم خضوعا و ذلة يوم القيامة ، منتظرة كتابها ، و يتصل الحديث هنا بذلك الدرس عبر بيان انقسـام الأمم يومئذ فريقين : مؤمنين و كافرين ، و نتسـاءل : لماذا يؤكد الله سـبحانه على تمايز البشر عند الحساب ؟ لبيان أن كل إنسـانيصنف حسـب عمله و سـلوكه ، لا حسـب صفاته أو لونه أو انتمائه أو حسـب وحدته الجغرافيـة أو حالته التاريخية أو حتى انتمائه الديني ، ولابد أن نعكس التمايز في الآخرة فــي الدنيـا ، بــأن نصنف الأمـم و المجتمعـات و الأفراد على أسـاس أعمالهم فقط (مؤمن و كافر. (

و تسـتعرض الآيات الأخيرة صفات الكفار ، كيف اسـتكبروا عن آيات الله و كانوا مجرمين ، و كذبوا بالسـاعة ، و اتخذوا آيات الله هزوا ، و غرتهم الحياة الدنيا ، و بالتالي اسـتحقوا عذاب الآخرة.

بينات من الآيات

[30]يميز الله الناس يوم القيامة فريقين:

]فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته]الرحمة في الدنيا بالنسـبة للمؤمنين تختلف عنها في الآخرة ، ففي الدنيا قد يشـوبها البلاء و الامتحان ، وفي الآخرة تأتيهم صافية من كل كدر

، ولعل هذا هو إيحاء كلمة " في رحمته " حيث تحيط بهم رحمة الله من كل صوب ، كما أن في قوله " ربهم " لمسة حنان و عطف ، و إشارة إلى رحمات الله في الدنيا.

]ذلك هو الفوز المبين[

الذي لا فوز فوقه ، فقد نجوا من عذاب شديد ، و ضمهم الرب في ضيافته ، و أدخلهم في بحار رحمته . أفيتصور القلب فوزا أعظم منه ؟ تعالوا نسمو الى حالة التطلع إلى هذا الفوز العظيم ، لعلنا ندركه بتوفيق الله.

] [31]وأما الذين كفروا[

فإنهم يدخلون النار ، و يطالبون بالاعتراف بجرمهم المتمثل في استكبارهم ذلك الذي أرداهم في جهنم.

]أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم و كنتم قوما مجرمين]في هذه الآية مصطلحات ثلاثة : الكفر و الاستكبار و الاجرام ، أما الاستكبار فهو منطلق الكفر ، بينما الجريمة عاقبته ، ذلك لأن الانسان إذا استقبل آيات الله من دون حجب ، ومن دون مفاهيم و عقائد مسبقة ، فإن فطرته و عقله يقودانه الى تقبلها ، ولكن إذا مااستقبل الانسان آيات ربه عبر نظارة الاستكبار السوداء ، و رأى نفسهأكبر من الحق ، أو أن ذاته هي المحور وليس الحق ، فإنه لن يتقبلها ، ومتى ما جعل الانسان نفسه فوق الحق أو اعتبرها هي الحق ، فإنه سوف يتجاوز الآخرين و يظلمهم و يجرم بحقهم ، و نقرأ في الروايات ما يهدينا إلى ذلك:

-1عن أبي عبد الله (ص (قال : " الكبر ان تغمص الناس ، و تسفه الحق " (١. (

-2وعنه (ع) : " قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن أعظم الكبر غمص الخلق ، و سفه الحق " ، قال (الراوي) : قلت : و ما غمص الخلق ، و سفه الحق ؟ قال : " يجهل الحق ، و يطعن على أهله ، فمن فعل ذلك فقد نازع الله رداءه" (٢. (

[32]و لكي نتخلص من الكفر و الاستكبار و الاجرام يجب أن نجعل الحق هو المحور ، و أن نتذكر بالآخرة ، و نخشى الجزاء فيها.

]وإذا قيل إن وعد الله حق و الساعة لاريب فيها[

لم ينكرون الآخرة على شدة وضوحها ، فالانسان يرى بفطرته أن الجزاء واقع ، كما يرى تحقيق ذلك في الدنيا ، فمن يظلم يبتليه الله ، بينما يحصل المحسن على جزاء حسن ، و لكنه يرى أن سنة الجزاء ليست دائمة في الدنيا ولا وافية مما يهديه الى يوم الجزاء الأوفى.

و حين يراجع قلبه يراه مقتنعا به ، إلا أنه يجحد به لاستكباره عنادا و عتوا ، و يتساءل : ما الساعة ؟ أيان مرساها ، وما أشراطها ، و كيف يبعث الله الرميم ، و كيف تتمثل الأعمال فيها تمثلا ؟

(1)بحار الأنوار / ج ٧٣ - ص ٢١٧

(2)المصدر / ص ٢١٨

]قلتم ما ندري ما الساعة[

كذلك يجعلون جهلهم بالساعة (كيف و متى ...) عذرا لانكارها ، بينما العقل يدعوهم الى الايمان بالحقيقة إذا توافرت لديهم الشواهد ، ثم السعي لمعرفة المزيد من تفاصيلها . أرأيت لو تكاملت الحجة

على وجود مدينة في أقصى الشرق ، ولكن لا تعرف عنها شيئا كثيرا ،فهل تنكر وجودها رأسا أم تعترف بها ثم تبحث عن التفاصيل ؟

و الواقع : إن كثيرا من الناس ينكرون حقائق الرسالة لأنهم لا يعرفون التفاصيل عنهـا ، بـل تراهم يعادونها بمجرد جهلهم بأبعادها ، و قد قال أمير المؤمنين - عليه السلام - : " الناس أعداء ما جهلوا. "

]إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين[

هكذا شككوا أنفسهم حتى زعموا أنهم لا يملكون إلا الظن دون اليقين ، ولكن هب أنهم يظنون أفلا تدعوهم عقولهم إلى أخذ الحيطة و الحذر ؟! فالظن ليس مبررا للجحود بالساعة . أوليس مجرد الظن بوجود أسد في الغابة كاف لأخذ الحيطة ؟ وكذا الظن بالساعة يجب أن يدفعناالى تجنب خطرها.

] [33]و بدا لهم سيئات ما عملوا[

و نتساءل : لماذا قال ربنا " : و بدا لهم سيئات ما عملوا " ، ولم يقل : (و بدا لهم سيئات عملوها) ؟

ربما لأنهم في الآخرة لا تبدو لهم الأعمال السيئة ، و لكن نتيجة عمل السيئات ، كالحيات و العقارب و الحميم و العذاب.

]و حاق بهم ما كانوا به يستهزؤون[

ففي الآخرة تنزل بهم نتيجة الاستهزاء ، و تحيط بهم إحاطة السوار بالمعصم ، وقد قال البعض أن كلمة " حاق " مشتقة من مادة الحق ، و يكون معناها آنئذ أن ذلك الذي سخروا منه - زعما بأن باستطاعتهم التهرب منه - قد نزل بهم ، و أصبح حقا واقعا لا مناصمن الاعتراف به.

] [34]و قيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقآء يومكم هذا]لقد تغافلوا عن الآخرة و نعيمها حتى كأنهم نسوها ، و هناك يغفل عنهم حتى لكأنهم منسيون ، فلا يقدر لهم خير ، ولا يدفع عنهم ضر ، جزاءا وفاقا لتناسيهم الحق ، و إمعانا في إذلالهم عقابا على استكبارهم.

و بالطبع لا يعني نسيان الله جهله بهم ، كما لا يدل نسيانهم جهلهم بالآخرة ، قد ذكر في الرواية أنه جاء بعض الزنادقة الى أمير المؤمنين - عليه السلام - وقال : لولا ما في القرآن من الاختلاف و التناقض لدخلت في دينكم ، فقال له علي - عليه السلام - : وما هو؟ قال : قوله : " نسوا الله فنسيهم " و قوله : " فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا " و قوله : " وما كان ربك نسيا " ... الخ.

قال أمير المؤمنين - عليه السلام - : " فأما قوله تعالى : " نسوا الله فنسيهم " يعني إنما نسوا الله في دار الدنيا ، لم يعملوا بطاعته ، فنسيهم في الآخرة ، أي لم يجعل لهم من ثوابه شيئا ، فصاروا منسيين من الخير ، و كذلك تفسير قوله عز وجل: " فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا " يعني بالنسيان أنه لم يثبهم كما يثيب أولياءه ، الذين كانوا في دار الدنيا مطيعين ذاكرين ، حين آمنوا به و برسوله ، و خافوه بالغيب.

و أما قوله " : وما كان ربك نسيا " فأن ربنا تبارك و تعالى علوا كبيرا ليس بالذي ينسى ولا يغفل ، بل هو الحفيظ العليم ، وقد يقول العرب : قد نسينا فلان فلا يذكرنا ، أي أنه لا يأمر لهم بخير ولا يذكرهم به " (١.)

]ومأواكم النار و مالكم من ناصرين[

و كثيرا ما يؤكد الله عدم النصرة في الآخرة ، لأنه لا ينجي من عذاب الله ناصر - إن وجد فعلا - فلا الطواغيت و الأخلاء ولا الثقافة الفاسدة و الأهواء تنصرنا من الله ، و تنجينا من عذابه ، وهذا غاية الضعف

و المسكنة في الآخرة ، فالانسان يقف فريدا ، و أمامه النار ، ولا يجد من يذب عنه ، فتراه مستسلما.

[35]لماذا يحيق بهم العذاب ، و ينساهم الله ، ولا يجدون لهم نصيرا ؟

أولا:

]ذلكم بإنكم اتخذتم آيات الله هزوا[

ثانيا:

]و غرتكم الحياة الدنيا[

و تصورتم أنكم فيها ماكثون ، و كفرتم بآخرتكم.

]فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون[

إنهم لا يخرجون من النار لأنها حاقت بهم ، و صارت مأواهم ، ولا يعاتبهم الله لأنه لا داعي للعتاب ، مادام قد أدخلهم النار ، و العتاب نوع من الاكرام وهم(١) بحار الانوار / ج ٩٣ ، ص ٩٨ - ٩٩

لا يستحقونه ماداموا قد استهزؤوا بالحق.

[36]فلله الحمد رب السماوات و رب الأرض رب العالمين]ربما لأن الله أراد أن ينهي سورة الجاثية التي كانت شديدة الوقع على النفوس بما فيها من آيات الانذار و العذاب بإعطاء الأمل ، فلله الحمد لأنه تعالى يفعل ما يستحق الحمد ، وله الحمد لأنه رب السموات و الأرض ، إذ بث فيهما آياته ، و جعلها هدى للمؤمنين ،و لأنه يمسك السموات و الارض أن تزولا ، وله الحمد رب العالمين لأنه خلقهم و رزقهم ، و فطرهم على الايمان ، وهو بهم رحيم.

[37]وكما أن له الحمد في السموات و الأرض فله السلطان و الملك.

]و له الكبرياء في السموات و الأرض[

فلماذا تتكبرون عن آياته ، مادام هو واسع الكبرياء ، و إن آيات كبريائه سبحانه تتجلى في كل شيء في السموات و الأرض.

]وهو العزيز[

فهو المقتدر القاهر على عباده ، يجري فيهم سننه ، و يمضي فيهم قدره ، شاؤوا أم أبوا ، و لكنه لا يفعل إلا ما تقتضيه حكمته البالغة.

]الحكيم[

فلا يظلم ولا يجور ، و يعطي كل ذي حق حقه ، سبحانه.

سورة الأحقاف

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

قال الامام ابو عبد الله الصادق (ع) : " من قرأ كل ليلة أو كل جمعة سورة الأحقاف لم يصبه الله عز وجل بروعة في الحياة الدنيا ، و آمنه من فزع يوم القيامة إن شاء الله. "

تفسير نور الثقلين / ج ٥ - ص ٧

الإطار العام

لكي نبصر حقيقة الأشياء لابد أن نعرف الحقائق الكبرى التي هي غيب كل حقيقة وهي:

أولا : حقيقة الخلق ، و أن كل شيء قد أنشأ و قدر و دبر أمره من لدن عزيز حكيم.

ثانيا : حقيقة الواقعية ، و أن الأشياء حق لا وهم ولا خيال.

ثالثا : حقيقة الزمن و أن لكل شيء أجلا.

و لكن لماذا لا يفقه أكثر الناس هذه الحقائق الواضحة ، وحتى حين ينذرهم الله عبر الرسل تراهم يعرضون عنها ؟

لعل أهم قضية تعالج في القرآن هي هذه القضية ، لأنه من دون معالجتها لا يبلغ الإنسان علما و لا حكمة.

و السؤال : ماهي الحجب التي تغشى أبصار الخلق عن رؤية هذه الحقائق ؟

إنها عديدة ، و لعل السياق في سورة الأحقاف يعالجها مع التركيز على بعضها ، شأنها شأن سائر السور .

أولا : الشرك بدعوة غير الله ، و يتساءل السياق : ترى هل خلقوا ما يدعونهم شيئا من الأرض أم لهم مساهمة في إدارة السماوات ؟

كلا .. ثم أنهم لا يستجيبون لهم بشيء إلى يوم القيامة ، و يعادونهم يوم الحشر.

ثانيا :كيل التهم (و الأحكام المسبقة و الباطلة) على الرسالة و الرسل ، مما يحجبهم عن معرفة حقيقتهما ، فقالوا أنها سحر و أنه مفتر.

و كيف يكون مفتر و الله يحيط قدره بمن يفتري ، و يحيط بكل شيء علما ، وهو شهيد على صدق الرسالة ؟! وهذا الرسول ليس بدعا فلقد بعث الله أنبياء سابقين.

ثم أن الرسول متمحض في رسالته فما عليه إلا البلاغ ، ثم أن بعض علماء بني إسرائيل قد شهد بصدقه ، بينما استكبر الجاهلون.

وقد يكون الحسد و الضغينة و العصبية تجاه صاحب الدعوة سببا للكفر بها ، ولكن لماذا يحرم الإنسان نفسه من الحق لموقفه الشخصي ممن يدعوه إليه ، وأساسا : لماذا هذا الموقف الظالم الذي يصد الإنسان عن الهدى ، ذلك أن الله لا يهدي القوم الظالمين ؟

و كتاب موسى (الذي يتعصب البعض له ، و يصدون عن النسخة الأكمل منه) ما نزل لتأييد الظلم ، بل رحمة ، وهكذا القرآن ، فهو نذير للظالمين ، و بشرى للمحسنين.

و أصحاب الرسالة بحاجة الى الإستقامة لمواجهة تلك العقبات ، و آنئذ لا خوفعليهم ولا هم يحزنون.

و الموقف السليم من الجيل الماضي يساهم في توفير فرص الإيمان ، و يبين السياق وصية ربنا بالوالدين ، كما يبين التطلع المشروع عند الانسان في إنشاء ذرية صالحة.

و يعـد التائبيـن في سن الأربعين المسلمين لربهم غفران الذنوب ، و دخول الجنات.

أما المتمرد على والديه وهما يدعوانه للإيمان ، لأن وعد الله حق ، فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين فانـه مثل لمن أعاقته نزوة الشباب عن اتباع الحق الذي يدعو إليه آباؤه (وهو بالتالي مثـل للظالم الذي منعه تمرده على أبيه عن اتباع الحق لمجرد أنه دعوة أبيه. (

وبعد أن يبين القرآن ان درجات الناس على قدر أعمالهم ، يعرض لنا صورة أهل النار تستقبلهم جهنم بلظاها ، وهم يحاكمون هنالك لأنهم أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا ، (و يبدو أن الإسراف في اللذات عقبة أخرى في طريق الإيمان) ، و لعل الإسراف في الإستمتاع بالطيبات سببه الإستكبار في الأرض ، و عاقبته الفسق عن حدود الشريعة.

و أية عقبة كأداء كالإسترسال مع العادات البالية و التقاليد الباطلة ، كما فعلت عاد حيث أعرضوا عن أخيهم هود وهو ينذرهم بالأحقاف و يستعجلونه العذاب ، ولكن حين استقبلهم عارض في الأفق زعموا من فرط غفلتهم أنه عارض ممطرهم ، بينما كان ريحا تدمر كل شيء بأمرربها.

لماذا كفرت عاد ، هل لفقر و حاجة ، أم لنقص في وسائل المعرفة من السمعو الأبصار ؟ كلا .. إنما لجحود آيات الله و الإستهزاء بها ، فكانت عاقبتهم الدمار.

أفلا نعتبر بمصيرهم قبل أن نصبح عبرة لمن يتعظ من بعدنا ؟ أفلا نزور الأطلال التي بقيت من القرى الهالكة ، و ننتفع بالآيات التي صرفها الله لإيقاظنا من الغفلة ؟

إن هذه الآية التي يعتمد عليها الإنسان في كفره بربه ، و يزعم أنها مانعته من عذاب الله ، هلا منعت عن تلك القرى العذاب.

و ترى بعضهم يستعيذون بالجن ، و يزعمون أنهم يكفونهم العذاب ، بينما الجن كما الإنس أنذروا بالرسالة ، و لقـد صرف الله نفرا منهم فاستمعوا للقرآن فأصبحوا منذرين ، و دعوا قومهم للاستجابة للرسالة ، و بينوا لهم أن من لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض.

و تبين الآيات الأخيرة من السورة قدرة الله على إحياء الموتى ، و أن الكفار يؤمنون بذلك حين يرون العذاب ، و أن على الرسول الصبر في دعوته دون أن يستعجل لهم ، لأنه مهما طال بهم العمر فان مكثهـم فـي الدنيا يشبه ساعة إذا قيس بالخلود في النــار.

و الذين كفروا عما أنذروا معرضون
بينات من الآيات
[1]تبدأ هذه السورة المباركة بكلمة قصيرة ، مقطعة تشبه سائر المقطعات القرآنية التي مررنا بها في السور المتقدمة ، و سبق الحديث عن تفسيرها ، وهي:

]حم[

] [2]تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم[

سمـي الكتاب كتابا لأنه مكتوب مثبت ، و كذلك القرآن ، فهو مكتوب و دائم و ثابت ، و لهذا سمي باسم " الكتاب " ، و ثبات القرآن يختلف كثيرا عن سائر الكتب لأنه كما قال الرسول الأعظم (ص) : " فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه " (١. (

و السؤال : لماذا لا يقاس القرآن بالكتب البشرية ؟ لماذا بينهما مسافة لا تحد ؟

(1)بحار الانوار / ج ٩٥ - ص ١٩

و الجواب : لأنه نزل من الله ، و الله هو العزيز الحكيم ، فبعزته يفرض الكتاب على الانسان و الطبيعة فرضا ، و بحكمته يجعله كتاب هداية و بصيرة ، و مصدر توجيه للانسان الى الحق و إلى ما فيه صلاحه.

و فيما يلي من الآيات يحدثنا القرآن الحكيم عن تجليات اسمي العزة و الحكمة في الكون ، و عن الظواهر ذات الدلالة الواضحة على عزة الرب و حكمته ، و نحن لابد ان نفقه تلكم التجليات و هذه الظواهر ، لأن فهمنا للخليقة من حولنا لا يكون فهما عميقا إلا إذا كان فهما مترابطا متفاعلا ، فلابد أن نربط - مثلا -بين ارتفاع القمر و نزوله و بين المد و الجزر في البحر ، كما نربط بين طلوع الشمس و بين التفاعلات الكيماوية التي تحدثها في أوراق الأشجار ، فالكائنات حقائق مترابطة يتصل أدنى شيء منها بأقصاها ، و الكبير و الصغيرو القريب و البعيد في ذلك سواء ، كلهم متفاعلون مع بعضهم يجري ربنا عليهم حكما واحدا و نظاما مطردا ، ولا نستطيع أن نفهم القوانين الثابتة التي تجري في الخلق إلا بفهم ذلك التفاعل ، فالقانون الذي تتحرك على أساسه أكبر مجرات الفضاء هو نفس القانون الذي تتحركوفقه الكريات المتناهية في الصغر داخل الذرة المتواضعة ، ثم إن كل ذلك التواصل و التفاعل و الخضوع للسنن الواحدة يهدينا إلى الحقيقة العظمى الا وهي التوحيد : ان ربنا العزيز الحكيم هو الخالق لها جميعا ، وهو المدبر لها.

و يبدو أن منهج القرآن لانماء هذا الوعي الشمولي للكائنات الذي يشكل مستوى رفيعا من تكامل عقل الانسان يتمثل في ان القرآن يذكرنا باسم من اسماء الله الحسنى ، ثم يتدرج نازلا من ذلك الاسم الى مختلف الظواهر التي يتجلى فيها ذلك الاسم الكريم ، في عالم الطبيعة (الآفاق) و عالم الانسان (الأنفس) ، في حاضر الانسان أو ماضيه أو مستقبله ، لكي تتماوج بنور الله اشعة فكره صاعدة من بعض ظواهر الخلق الى اسماء الخالق ، و نازلة من اسماء الرب الى سائر الظواهر ،ومن ماضي البشرية الى حاضرها و إلى مستقبلها ، فتتسع آفاق معرفته ، و تغور في أعماق الغيب بصائر وعيه ، و يسمو في درجات اليقين عقله ، و تـزكـو بنور الايمان نفسه ، و يهديه الله الى نوره الأبهى ، قويا عزيزا كما أن ربه قوي عزيز ، و يصبح حكيما خبيرا كما أن ربه حكيم خبير ، كل ذلك بمعرفة أسماء الله الحسنى.

و ربما تدرج المنهج القرآني بصورة عكسية ، فيبين ظاهرة في آفاق العالم أو أغوار النفس أو أبعاد التاريخ ، ثم يذكر إسما من أسمائه الحسنى ، و نهايات الآيات القرآنية مثل : " و الله عليم حكيم ، و الله الغني الحميد ، و إن الله غفور رحيم ، ... " مفيدة جدا لو تدبرنا فيها ، لأن الرب يذكرنا بظاهرة ثم يربط بينها و بين إسم من أسمائه الحسنى ، فاذا وعيناه حق الوعي عرفنا تجلياته في سائر الظواهر أيضا .

و حيث ذكر السياق في الآية الثانية أن هذا الكتاب منزل من الله ، و الله هو العزيز الحكيم بين في الآية الثالثة بعض تجليات العزة و الحكمة ، فقال:

]ما خلقنا السماوات و الأرض وما بينهما إلا بالحق و أجل مسمى]لقد خلقها على عظمتها الهائلة فهو إذا قوي عزيز ، و لأن بناءها كان قائما على أساس الحق فهو إذا حكيم.

و نستوحي من هذه الآية أن حكمة الله اقتضت محدودية الخليقة ، فلكل شيء فيها أجل معدود ، و حد محدود ، و هكذا يكون الزمان جزء من حقيقة الخليقة ، و ربما انفتحت أمامنا آفاق واسعة لو تدبرنا أكثر فأكثر فـي حرف الباء الذي يستخدم للاستعانة ، و تساءلنا : لماذا ذكره السياق فيما يتصل بالأجل كما ذكره عند الحديث عن الحق ، فهل يمكن أن نستنتج أن الحق و الأجل هما ركيزتا الخلق ، على أن يكون الحق هو المعبر عن النظام الحق الذي يسير الخليقة ، و الأجل هو الجانبالمادي للخليقة ، ثم هل نستطيع أن نقول أن الحق تجل لاسم الحكمة ، و الأجل لاسم العزة ؟ أنى كان فان الله يشير في مواقع عديدة من القرآن الى مثل ذلك ، فيقول - مثلا - في سورة الأعراف (آية ٥٤) : " إن ربكم الله الذي خلق السماوات و الأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا و الشمس و القمر و النجوم مسخرات بأمره " ، و يقول في سورة فصلت) آية ٩ - ١٠) : " قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين و تجعلون له أندادا ذلك رب العالمين * و جعل فيها رواسي من فوقها و باركفيها و

قدر فيها أقواتها في اربعة أيام سواء للسائلين. "

ولابد أن نعيش هذه الحقيقة فيما يتصل بموقفنا من الوقت الذي هو جزء من حقيقتنا ، وأن وعي الزمن ركيزة أساسية في حكمة البشر ، و سلامة عقله ، و تنامي حضارته.

لابد أن نعرف أننا - نحن البشر - كسائر الأشياء الأخرى ، يحدونا الليل و النهار ، و يتعقبنا الموت ، و إذا ينبغي علينا أن نخاف و نخشى ، ليس لأن حياتنا الدنيا ستنتهي و يقفل الموت أبوابها ، بل لأن النهاية ستلقي بنا و إلى الأبد في واحدة من اثنتين إما روضات النعيم و إما حفر الجحيم.

و لأهمية العلم بهذه الحقيقة كان الامام علي - عليه السلام - يذكر بها أبناءه و أنصاره في مواعظه البليغة ، فترى يذكر بها - مثلا - في وصيته لابنه الحسن - عليه السلام - حيث يقول في أولها:

"من الوالد الفان ، المقر للزمان ، المدبر العمر ، المستسلم للدنيا ، الساكن مساكن الموتى ، و الظاعن عنها غدا ، إلى المولود المؤمل مالا يدرك ، السالك سبيل من قد هلك ، غرض الأسقام ، و أسير الموت ، و حليف الهموم ، و قرين الأحزان ،و نصب الآفات ، و صريع الشهوات ، و خليفة الأموات " . ثم يشرع فيها (ع) و كان مما قاله خلالها : " و ذلّه - قلبك - بذكر الموت ، و قـرره بالفناء ، ..، و حذره صولة الدهر ، و فحش تقلب الليالي و الأيام " ، " و اعلم أن مالك الموت هو مالكالحياة ، و أن الخالق هو المميت ، و أن المفني هو المعيد " ، " و اعلم أن أمامك عقبة كؤودا ، المخف فيها أحسن حالا من المثقل ، و المبطئ عليها أقبح حالا من المسرع ، و أن مهبطك بها لا محالة اما على جنة أو على نار ، فارتد لنفسك قبل نزولك ، و وطئ المنزل قبل حلولك ، فليس بعد الموت مستعتب ، ولا إلى الدنيا منصرف " ، " و اعلم يا بني أنك انما خلقت للآخرة لا للدنيا ، و للفناء لا للبقاء ، و للموت لا للحياة ، و أنك في قلعة ، و دار بلغة ، و طريق الى الآخرة ، و أنك طريد الموت ، الذي لا ينجو منه هاربه ، و لا يفوته طالبه ، ولابد أنه مدركه ، فكن منه على حذر أن يدركك و أنت على حال سيئة ، قد كنت تحدث نفسك منها بالتوبة ، فيحول بينك و بين ذلك ، فاذا أنت قد أهلكت نفسك " ، " يا بني أكثر من ذكر الموت ، و ذكر ما تهجم عليه ، و تفضي بعد الموت إليه ، حتى يأتيك وقد أخذت منه حذرك ، و شددت له أزرك ، ولا يأتيك بغتة فيبهرك " ، " رويدا يسفر الظلام ، كأن قد وردت الأظعان ، يوشك من أسرع أن يلحق ! و اعلم يا بني أن من كانت مطيته الليل و النهار ، فانه يسار به و إن كان واقفا ، و يقطع المسافةو إن كان مقيما وادعا " ، " و اعلم يقينا أنك لن تبلغ أملك ، و لن تعدو أجلك(1) " هكذا أشبع (ع) وصيته بتلك الحقيقة ، ولو نظرنا في خطبه و رسائله و حكمه في نهج البلاغة لرأينا أن أغلبها يركز على تلك الحقيقة و تحوم حولها.

و هكذا القرآن الحكيم يذكر البشر بالموت و النشور و الحساب و الجزاء ، و أن الانسان محدود ، و أنه إذا جاءه أجله لا يستأخر ساعة ولا يستقدم ، ولكن أكثر(١) نهج البلاغة / رسالة ٣١

الناس لا يعقلون هذه الحقيقة ، سادرين في الغفلة حتى ينتهي أجلهم ، و يفاجئهم الموت.

]و الذين كفروا عما انذروا معرضون[

و العلاقة متينة بين خاتمة الآية و فاتحتها ، حيث ان الذين كفروا يعلمون أن الله لم يخلق السماوات و الأرض وما بينهما إلا بالحق و أجل مسمى ، ثم تترى عليهم نذر ربهم فيعرضون عنها.

[4]وقد يتهرب الانسان من هذه الحقيقة بالشرك الذي هو حجاب بين الانسان و بيـن فهم الحقائق ، فيزعم بأن شيئا ما يستطيع إنقاذه من قبضة الموت أو الحساب من بعـده.

قال الامام علي (ع) : " ما رأيت إيمانا مع يقين أشبه منه بشك على هذا الانسان ، إنه كل يوم يودع الى القبور و يشيع ، و إلى غرور الدنيا يرجع ، و عن الشهوة و الذنوب لا يقلع " (١. (

و قال الامام الصادق (ع " : (لم يخلق الله عز وجل يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت " (2) .

إن الناس كلهم يموتون ، و هذه حقيقة لا شك فيها ، و لكن أغلبهم يتصورون في خبيئة أنفسهم أنهم يبقون و يخلدون في الدنيا ، و لعل سبب ذلك هو فضاعة تصور الموت وما وراءه من حساب دقيق و جزاء أوفى ، ولذلك تراهم يتشبثون بأي تبرير ليقنعوا أنفسهم بأنهم لا يموتون أو لا يحاسبون ، وهنا تنعقد نطفة الشرك و التوسل بغير(١) بحار الانوار / ج ٦ - ص ١٣٧

(2)المصدر / ص ١٢٧

الله ابتغاء إنقاذهم من مصيرهم المحتوم ، فقد يتصورون المال منقذا لهم من الموت ، فتراهم يجمعون البلايين من الدولارات ، و يحرصون في الحصول على الأكثر ، بالرغم من أن تلك الأموال الهائلة تكفيهم و تكفي ذرياتهم الى عشرات الأجيال ، و لكنهم لا يريدون المال للعيش به ، و إنما لسد النقص الذي يشعرون به في أنفسهم ، إنهم فعلا يفتشون عن الخلود ، و يخافون العاقبة المرة ، يقول تعالى موضحا هذه الحقيقة : " الذي جمع مالا و عدده * يحسب أن ماله أخلده " (١) ، " و تتخذون مصانع لعلكم تخلدون " (٢) ، و قد يتصورون السلطة سببا للفرار من الموت ، و وسيلة للهروب من الفناء ، قال تعالى عن فرعون : " و استكبر هو و جنوده في الأرض بغير الحق و ظنوا أنهم إلينا لا يرجعون " (٣) ، و قد يتصورون أن القوة المحدودة التي يملكونها تحجز عنهم أمر الله فيهم بالموتأو الحساب أو العذاب ، قال تعالى : " و ظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله " (٤. (

ولكن كل تلك التصورات زائفة ، و لهذا يقول الرب : " أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة (5) "، و يقول عز وجل : " و جاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد (6) " ، فأنت كنت تخاف من سكرة الموت ، و حتى تخلص نفسك منها ولو عبر عملية الخداع الذاتي أشركت بالله ماليس لك به علم ، و الآن هل يمكن أن يغني عنك ذلك الشريك شيئا ؟ كلا .. فهي قد جاءتك ، و ستذوق مرارة الموت ، و تتحسس عنفه و فظاعة نزعاته.

(1)الهمزة / ٢ - ٣

(2)الشعراء / ١٢٩

(3)القصص / ٣٩

(4)الحشر / ٢

(5)النساء / ٧٨

(6)ق / ١٩

وفي الحقيقة : لو يتفكر الانسان و يعمق في واقع أمر الشركاء يعلم بفطرته أنهم لا يغنون عنه شيئا ، و لكنه يشبه ذلك الغريق الذي يتشبث بكل حشيش ، مع علمه بعدم جدوائيتها ، و إنما يريد أن يقنع نفسه بأنه يعمل على إنقاذها.

كلا ..إن فطرة الانسان تهديه الى أن الشريك الذي يتخذه من أجل إنقاذ نفسه لابد أن يكون ذا قوة كافية ، لابد أن يخلق شيئا في الأرض (حتى يتساوى مع خالق الكائنات و لو بقدر محدود) أو يمتلك سلطة ما في إدارة السماوات.

]قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الارض أم لهم شرك في السموات]وهم يعرفون - حقا - أن شركاءهم ليسوا كذلك ، ولا لهم علاقة بالله يوظفونها لمصلحة المشركين إذا فأين حجتهم في ذلك ؟

]ائتوني بكتاب من قبل هذا[

فأي كتاب من الكتب السماوية دل على أن لله شريكا ؟

]أو أثارة من علم[

و أي بقية من بقايا العلم ، دلت على أن له شريكا ؟

]إن كنتم صادقين[

إذا كان بإمكانكم أن تأتوا ببرهان فأتوا به ، من كتاب يتلى أو حديث يروى ؟

ولكن من لا برهان له يتشبث بأفكار باطلة ، مع علمه بكذبها ، و إنما لكي يخلص نفسه من مواجهة الحقيقة المرة ، وهذه ضلالة خطيرة ، فهو كمن يفقد عزيزاو يصعب عليه امتصاص صدمة فقده فيبادر قائلا : كلا .. إنه غير ميت.

] [5]و من أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون]هكذا هم الشركاء . إنهم لو دعاهم الانسان إلى يوم القيامة لما استجابوا له ، بل هم غافلون عن دعائه يشغلهم شأنهم الخاص عن شؤون الداعين ، و سواءا كان الشركاء الحجرية ، أو الاموات ممن يزعم الشركاء المشركون انهم شفعائهم يوم القيامة ، أو الأصنام البشرية التي تعبد من دون الله ، فان لكل واحد منهم سببا لغفلته عمن يدعونهم ، أما الاحجار فانها لا تعي شيئا ، و أما الأموات فهم عند ربهم مجزيون بأعمالهم ، و أما سلاطين الجور و المترفون و أشياعهم فهم لاهون بمصالحهم عن مصالح من يشرك بهم.

] [6]و إذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين]و يوم القيامة يكفر المشركون بشركائهم ، و يعادونهم ، و يقولون لهم : أنتم الذين ضيعتمونا ، و أدخلتمونا النار ، وقد قال ربنا سبحانه في آية كريمة يصور لنا العلاقة بين الطرفين يوم القيامة : " إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا و رأوا العذاب و تقطعت بهم الأسباب * و قال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا " (١. (

[7]و أما الرسالة ، فكيف كانوا يتعاملون معها ؟

(1)البقرة / ١٦٦ - ١٦٧

و الجواب : إنهم من أجل رفض الأفكار القرآنية السليمة كانوا يلفقون تهما و يلصقونها بها.

]و إذا تتلى عليهم آياتنا بينات[

إنها واضحة بينة ، حتى لتكاد تكرههم بقبولها ، و لكنهم يصدون عنها بقوة ، و يمنعون عن أنفسهم نورها باصرار ، كالذي يهرب من الغيث أن يصيبه رذاذه أو الشمس أن تحوطه أشعته.

]قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين[

حينما يأتيهم الحق يقولون بكل وقاحة : إنه سحر مبين . لماذا ؟ لأنه يهيمن عليهم ، ولا يدعهم يواجهونه بدليل و برهان.

إنهم يقولون : هو سحر ، فيقال لهم : ماهو دليلكم على بطلانه ؟ فيقولون : ليس عندنا دليل ، و لكنه سحر!

هكذا يعادي الانسان الحق ، حتى أنه يتهم نفسه بفقدان الارادة و الوعي و يقول : أنا أصبحت مسحورا ، كل ذلك ليخلص نفسه من مسؤولية الايمان بالرسالة.

[8]و البعض الآخر يقول : إنه إفتراء على الله ، و إذا كان قولهم أنه سحر دل بوضوح على مدى تأثير الرسالة عليهم و أخذها بمجامع قلوبهم ، و سد الطريق أمام تخرصاتهم ، حتى أنهم اعترفوا بقدرتها و بعجزهم عن مقاومتها ، فان كلمتهم التي زعموا بها أن الرسالة افتراء دلت على أن الرسول لم يكن يدعو الناس إلى نفسه بل إلى ربه ، مما دعاهم الى اتهامه بأنه مفتر.

]أم يقولون افتراه[

ولكن الرسول (ص) هو أول من كان يعلم بوخامة الافتراء ، و أنه لو افترى حديثا على الله فسوف يعذبه عذابا شديدا ، و كان يعترف بذلك عبر ذكر آيات القرآن ..فكيف يدين نفسه بنفسه ؟! كيف يفتري على الله الكذب ، ثم يقول : إن جزاء الذين يفترون على الله الكذب أنهم لا يفلحون ، و لهم عذاب شديد ؟!

]قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا[

فالرسول)ص) يعلم يقينا بأن الله محيط به علما ، و إنما يفتري على الله الكذب من لا يؤمن به ، ومن لا يعلم بأنه يحيط به علما ، و يعلم ما يدور بينه و بين الآخرين من حديث ، علنا أو سرأ.

]هو أعلم بما تفيضون فيه[

من تخرصات أو تهم حول الرسالة ، و هو يحاسبكم عليها جميعا.

]كفى به شهيدا بيني و بينكم[

و يبدو أن هاتين البصيرتين (علم الله بما يسترسلون فيه من كلام ، و شهادته عليه) هما العلاج النفسي و الحجة البالغة عليهم . أوليس كل واحد منهم يؤمن في قرارة نفسه بكذبه ، و لكنه غافل عن أبعاد جريمة نكرانه للحق ، فيذكرهم القرآن بالله الذي يحيط علما بما يقولون ، و يشهد عليهم شهادة تتمثل بنصره للحق و خذلانه للباطل و أهله.

]وهو الغفور الرحيم[

ماهي العلاقة بين المقطعين " : كفى به شهيدا بيني و بينكم " و " و هو الغفورالرحيم " ؟

ربما العلاقة هي أن الله شهيد على الانسان ، يعلم انحرافه و ضلاله ، ولا يرضى عنه و يبغضه ، ولكن لانه غفور رحيم فهو يمهله لفترة معينة.

إذا لا تقل أيها الانسان : أنا سأكفر بالله و ليأخذني إن كان يحب رسالته ، لأنه غفور رحيم ، يتركك تعصي لمدة معينة رحمة بك ، و إذا لم ترعو ولم تراجع نفسك ولم تعد الى الحقيقة فانه يأخذك أخذ عزيز مقتدر .

قل ما كنت بدعا من الرسل

هدى من الآيات

الحق هدفنا ، و الحق القديم الذي يصدقه الرسول الجديد يتبع ، بينما الباطل المبتدع لابد من نبذه ، حتى ولو احتفظ بطراوة الحداثة.

يبدو أن هذه الحقية هي محور الدرس الذي يفتتح بأن نبينا الأكرم جاء خاتما لسلسلة الأنبياء الكرام فهو ليس بدعا ، وهو لا يدعي الالوهية إنما إبلاغ رسالات ربه ، و يصدقه شاهد من بني إسرائيل (فكتابه امتداد لتلك الرسالة التي أوحيت الى موسى عليه السلام) ،و إنما استكبر عنه البعض لظلمهم و الله لا

يهدي القوم الظالمين.

و حين يبادر الصالحون للاسلام يرفضه المستكبرون ، و يقولون : لو كان خيرا ما سبقونا إليه ! ثم يتهمون الرسالة بأنها إفك قديم ، لأنهم لم يهتدوا بها.

و فعلا الرسالة ذات امتداد في عمق التاريخ لأنها تصدق ما نزل على موسى إماماو رحمة.

ثم يأمر القرآن بالاستقامة على التوحيد (و مواجهة البدع) وهي ثمن الجنة.

بينات من الآيات

[9]للناس في الرسالات و الرسل مذاهب ثلاث:

الأول : النفي المطلق ، و إذ لم يعرف هؤلاء كيف يبعث الله الرسل اتبعوا جهلهم و أهواءهم و أنكروا الرسالة رأسا .

الثاني : إن صلة الرسل بربهم صلة تكوينية ، بمعنى أن الرسل - عليهم السلام - هم قطعة منفصلة عن الإله و نازلة الى الدنيا.

و بهذا يزعمون أنهم يحلون المشكلة و يعرفون كيف يتم الاتصال بين الخالق و المخلوق ، إذ أن هذه الصلة كانت قديمة ، وهي أساسا صلة تكوينية ، فكيف يكون واحد منهم يأكل الطعام ، و يمشي في الأسواق ، و يشبههم في كل شيء من حياته ، كيف يكون أعلى و أفضل منهم ؟
!لابد أن يكون جنسه مختلفا عن جنسهم ، و ذاته غير ذواتهم ، ولابد أن يكون من أنصاف الآلهة ومن طبيعتها.

الثالث :أن الأنبياء و الرسل هم مثل سائر البشر ، و لكن الله تعالى ميزهم بالرسالة ، حيث جعلها فيهم جعلا ، و لو شاء لسلبها منهم ، فهي تشبه المصابيح في الغرفة فإن لم يكن وهاجا لن يحول الغرفة الى واقع نوراني ، إنما سينعكس النور عليها مادام الضوء متقدا.

هكذا الرسالة ، فمادام روح القدس مؤيدا للنبي فهو نبي ، فاذا افترضنا - جدلا - ان ربنا أراد - بمشيئته المطلقة - أن يسلب روح القدس منهم فأنهم يصبحونكسائر الناس.

و علم الرسل هكذا ، ليس علما ذاتيا ، و إنما هو مضاف اليهم من عند الله الذي يهب لهم موجات من المعرفة تلو موجات من العلم بقدر ما شاء ، و إذا أراد أن يسلبها منهم فانه على ذلك قدير .. و لهذا ينبغي أن لا نذهب بعيدا فيما يتصل بالأنبياء عليهم السلام ، بلنعرف أنهم يعلمون ما يشاء الله و يجهلون ما سوى ذلك ، فكيف لم يكن يعقوب (ع) وهو من أنبياء الله العظام يعلم بمكان يوسف (ع) ؟! و كيف لم يكن ابراهيم (ع) يعلم بأن السكين الذي وضعه على أوداج إسماعيل لا يفريها ؟! الجواب ببساطة : لان الانبياء بشر ، و الله يغيب عنهم ما يشاء من العلم.

وهذا يفسر قوله تعالى : " عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول " (١) فغيب الله له وليس لأحد ، وهو علام الغيوب ، و عنده مفاتح الغيب ، و لا يعلم الغيب إلا هو ، و لكنه يعطي قدرا منه لأنبيائه لحكم معينة.

وهكذا تحل عقدة الغرابة من ابتعاث الرسل ، و تعالج المعضلة التي يتشبث بها الكافرون ، و التي كانوا يعودون إليها كلما بعث إليهم نبي جديد مع أنه سبقه إخوانه في الرسالة.

]قل ما كنت بدعا من الرسل[

إن بعض الظواهر الكونية تتكرر كل يوم ، و بعضها كل اسبوع ، و بعضها تتكرر كل سنة ، و بعضها كل قرن ، و من الظواهر التي تتكرر بين فترة و أخرى الحروب ، فهي إحدى الظواهر الاجتماعية التي تقع عادة بين الحين و الآخر ، و نحن نعترف بوجودها بالرغم من غرابتها الشديدة ، لأنه واقعة و تقع في المستقبل

.

(1)الجن / ٢٦ - ٢٧

وهكذا بالنسبة للرسل ، فهم حتما و جزما يرسلون من قبل الرب ، مادامت العوامل المؤيدة لإرسالهم متوفرة.

و هنا يأمر الله عز وجل رسوله الأكرم (ص) بأن يوضح للناس هذه الحقيقة ، فكونه رسولا مبعوثا من قبل الله ظاهرة متكررة و سنة جارية ، ولا داعي للغرابة.

و لكن - من جهة أخرى - ليس علم الرسول من ذاته.

]وما أدري ما يفعل بي ولا بكم[

فهو لا يعلم ما يفعل به ولا بهم إلا بقدر ما يشاء الله ، بمعنى أنه لا يدري كل ما يفعل به و بهم إلا في حدود رسالته ، لأن الرسول (ص) بشر كسائر الناس لا يعلم ماذا سيحدث مستقبلا بذاته بلى . إن الرسول - مثلا - يعلم أن الناس جميعا سيموتون و نحن كذلك نعلم ذلك ، أما معرفة التفاصيل و الاطلاع على دقائق الأمور فان الله سبحانه يزيده منها بقدر مشيئته الحكيمة.

و الرسول - كما يبدو من هذا المقطع من الآية - لا يعلم كل التفاصيل المستقبلية ، و إنما عليه أن يتبع الوحي الذي ينزل عليه حسب الحكمة الالهية.

]إن أتبع إلا ما يوحى إلي[

وقد ذهب المفسرون مذاهب شتى في تفسير هذه الآية ، و يبدو لي أنها ظاهرة بل صريحة فيما قلناه آنفا ، فان عدم معرفة الرسول بما يفعل به أو بهم لا يشمل ما يوحى إليه ، ولا ريب أنه سبحانه أوحى إليه أن له عند ربه مقاما محمودا ، و أن المجرمين من أعدائه في سقر.

]وما أنا إلا نذير مبين[

فانا لست كفيلكم ، ولا وكيلا عنكم.

و هذه الفكرة تتكرر كثيرا في القرآن الحكيم ، وذلك لما لها من أهمية في دفع الانسان للايمان بالرسالة و تحمل المسؤولية ، لأن الانسان الذي تدعوه الى الله لو علم بحقيقة أنك لست مسؤولا عنه ، و أنه هو المسؤول عن نفسه ، فانه ربما يكون ذلك مشجعا له على التحرك الذاتي ، و بالتالي يهتدي إلى الحق.

[10]عندما يكون الخطر كبيرا يكفينا أدنى احتمال في وقوعه لكي نتخذ التدابير اللازمة لدرئه . أرأيت لو خشيت من انفجار يقع في بيتك أفلا تتركه فورا ، حتى ولو كان افتراض وقوعه بنسبة ٥% فقط ؟

إن أكثر إجراءات السلامة في أوقات الحرب بل حتى أيام السلم تهدف درء احتمالات ضئيلة ، إلا أن أهميتها تنبع في أن الأخطار التي تهدف درءها عظيمة.

إننا لا نتخذ إجراءات وقائية كبيرة إذا خشينا الاصابة بنزلة برد طارئة ، حتى ولو كان الخوف بنسبة ٥٠% ، و لكننا نتقي خطر الموت حتى ولو كان بنسبة ١٠% أو حتى . 1%أليس كذلك ؟

وكما في الجانب السلبي كذلك في الجانب الايجابي ، فلا ريب أننا لا نعير اهتماما لاحتمال حصولنا على ربح ضئيل ، و ان كانت إمكانية ذلك كبيرة مثلا بنسبة ٩٠% ، ولكن كلما ازداد الربح فان اهتمامنا

باحتمالاته يزداد حتى يصل الى الاهتمام به إذا كان بنسبة ٠١,٠% الا ترى كم هي نسبة حصولك على الجائزة في عملية اليانصيب ، لا ريب أنها أقل من واحد بالألف ، ولكن لماذا تهتم بها ؟ اليس لان الجائزة كبيرة يسيل لها اللعاب ؟

و الآن دعنا نتساءل : أولا تستحق الحياة الأخرى ، بما تحمل من إنذار بعذابشديد خالد ، ومن بشارة بنعيم عظيم دائم ، الاهتمام بها و بامكانية وقوعها حتى ولو كان بنسبة ضئيلة جدا ؟! كيف و أن نسبة احتمالها مرتفعة حتى عند الجاحدين بها لتواتر الأدلة عليها ؟!

]قل أرأيتم إن كان من عند الله و كفرتم به[

فكم تكون خسارة البشر عظيمة عندما يكفر برسالة ربه ، و يتحدى خالقه و رازقه ومن إليه مصيره ؟!

إن هذا التساؤل يهزنا من الأعماق و يجعلنا نبدأ مسيرة الشك المنهجي فيما نسترسل فيه من الأفكار و القناعات .

وحتى بالنسبة إلى المؤمنين برسالات الله ينبغي أن يكسروا حالة الجمود الفكري ، و يتساءلوا في أنفسهم : كم هي عظيمة رسالات ربهم ، وكم حظهم عاثر لو استخفوا بها أولم ينفذوا كل تعاليمها ؟ حقا : إنه يسقط عنا - نحن المؤمنين -حجاب العادة التي تمنع إيماننا من التسامي ، كما يسقط عن الآخرين حجاب الاستكبار الذي يمنعهم عن رؤية شواهد صدق الرسالة ، فتراهم - مثلا - يغفلون عن شهادة العلماء بصدق الرسالة ، ولا يسألون أنفسهم : كيف أسلم علماء بني إسرائيل للرسالة الجديدة ، كأمثال عبد الله بن سلام الذي كان معروفا عندهم بالصدق و النزاهة.

]و شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فأمن[

بالرغم من مخالفة الايمان ظاهرا لمصلحته . أليس يفقد مكانته عند قومه كقائد ، و يصبح جنديا في جيش الاسلام ؟

]و استكبرتم[

عن الحق ، فلم تؤمنوا به بالرغم من البينات التي تواترت على صدقه.

بلى إن الحجاب الكبير الذي يحجز نور الايمان عن قلوبهم هو استكبارهم في الارض ، و ظلمهم للناس . أوليس الظلم ظلاما دامسا ؟

]إن الله لا يهدي القوم الظالمين[

[11]ما الذي يمنع الظالمين من الايمان بالرسالة ؟ إنه استكبارهم على الناس ، و اعتقادهم بتميزهم عنهم ، حتى لو سبق طائفة منهم إلى الايمان بالرسالة كفروا بها ترفعا عن التساوي معهم ، وقالوا : كيف نسمح لأنفسنا أن نكون عند الناس من اللاحقين ، بينما يسبقنا الى الرسالة من هم أدنى منا ؟ إذا دعنا نكفر بها خشية العار!

]و قال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه]لقد كانت القبائل العربية في الجاهلية شديدة الخلاف بينها ، تتعالى على بعضها ، ولا ترضى أن تعترف بأية فضيلة لبعضها ، فاذا آمنت قبيلة كفرت المنافسة لها حتى لا تسجل لخصمها نقطة عليها.

مثلا كانت قبيلة غفار البدوية تستصغر من قبل قريش ، و تسميها الحلفاء استهانة بها ، فلما أسلم أبوذر الغفاري و أسلمت معه قبيلته قالت قريش : غفار الحلفاء !! لو كان هذا خيرا ما سبقونا إليه . (١)(١) قال ابن المتوكل أن الآية نزلت فيهم (تفسير القرطبي / ج ١٦ - ص ١٨٩)وهكذا كفرت بنو عامر و غطفان و تميم و اسد و حنظلة و أشجع ، و قالوا لمن أسلم من غفار و جهينة و مزينة و خزاعة : لو كان ما جاء به

محمد خيرا ما سبقنا إليه رعاة البقر البهم إذ نحن أعز منهم . (١)كما أن اليهود الذين استوطنوا الجزيرة العربية بزعم انتظارهم للنبي الموعود فيها كفروا بالنبي بعد إيمان العرب به ، و قالوا : لو كان خيرا ما سبقونا إليه.

كما أن قريشا كفرت بالرسالة حين رأت مبادرة الموالي من أمثال بلال و صهيب و عمار إليها . إنهم كانوا يبحثون عن دين يقوي نفوذهم في الطبقات الدنيا لا أن يساويهم بها.

وهكذا اليوم نجد الدعوات الاصلاحية التي يستجيب لها المحرومون و المستضعفون تلقى الصد من قبل المترفين و المستكبرين ، بدعوى أننا أعرف منهم و أعلى مقاما فلا يجوز أن نعترف بحقوقهم أو بميزتهم علينا في السبق إليها . أوليس السابقون هم المقربون ؟!

كما ان بعض السفهاء يخالفون الحق و يمنعون عن أنفسهم خيراته لمجرد أن منافسيهم سبقوهم إلى الايمان به . إن ذلك من بقايا العصبيات الجاهلية التي تمنع نور الهدى.

]وإذ لم يهتدوا به[

بسبب عصبياتهم و ظلمهم و استكبارهم فانهم يبحثون عن تبرير لجحودهم يقنعون به الضعفاء منهم ، بل و يريحون نفوسهم التي تلومهم أبدا على ترك الحق ، فتراهم يتهمون الرسالة بالإفك.

(1)قال الكلبي والزجاج وحكي عن ابن عباس ان الآية نزلت فيهم (المصدر / ص ١٩٠)[فسيقولون هذا إفك قديم[

وهكذا يتسافل الجاهل في دركات الكفر ابتداءا من ظلمه للناس و استكباره عليهم ، و مرورا بالتشبث بدليل ضعيف أنه لو كان خيرا ما سبقونا إليه ، و انتهاءا بوضع نظرية معادية و اتهام الرسالة بأنها إفك قديم ، كما قالوا بأنها أساطير الأولين.

[12]كلا .. إنها رسالة الله الواحدة التي تشهد حقائق التاريخ بصدقها ، و أعظم ما يصدقها أن بعضها مصدق البعض.

]و من قبله كتاب موسى إماما و رحمة[

فهو برنامج للاقتداء ، و رحمة لمن اقتدى به.

]وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا[

فهو ليس إفكا قديما كما زعموا ، بل صدق شهدت أحداث التاريخ على نفعه العام للانسانية . أفلا ترون كيف كان كتاب الله النازل على موسى لبني إسرائيل ، أنقذهم من الضلالة و الاستضعاف و الحرمان حين طبقوه ؟

]لينذر الذين ظلموا[

فالطغاة و المستكبرون و المترفون الذين ظلموا الناس لا يمكنهم اتخاذ القرآن وسيلة لاستثمار الآخرين كما تهواه أنفسهم ، بل جاء الكتاب لانذارهم ولانقاذ المحرومين من ظلمهم.

]و بشرى للمحسنين[

من اية طبقة كانت ، فاذا آب اولئك إلى رشدهم و تابوا و احسنوا فان لهم البشرى كما للمحرومين.

[13]التوحيد هو عبادة الله أبدا ، و عدم التسليم للآلهة المزعومة التي تعبد من دون الله باسم السلطة السياسية أو النظام الاقتصادي أو الضغوط الاجتماعية ، و إنما يتبين توحيد الانسان عندما يتعرض لارهاب السلطة و ترغيب الثروة و مقاطعة المجتمع إذا استقام على الدين ، و الكتاب بشرى للمحسنين الذين يتحدون كل تلك الصعاب.

و لعل سياق الآية يدل على ضرورة الاستقامة أمام البدع الجديدة التي تخلقها القوى المتسلطة ، و تتهم الرسالة بأنها إفك قديم سعيا وراء تغيير بعض بنودها الذي يخالف مصالحها ، كلا .. لابد من الاستقامة على احكام الدين بلا تحريف أو تأويل أو نقص أو زيادة.

]إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون][١٤ [بالرغم من إرهاب الطغاة فانه لا خوف عليهم ، لأن العاقبة لهم ، و غدا حين ينتصر الحق لا يحزنون على ما فاتهم من الخيرات.

]أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون]و حين يدخلون الجنة يعلمون أن الثمن الذي قدموه لها كان زهيدا نسبة بما حصلوا عليه من ثواب الله العظيم.

و نستوحي من كلمة " جزاء " هنا أن الجنة لا تعطى بالتمنيات ، إنما هي ثمن الاستقامة و الصبر و التحدي.

و وصينا الانسان بوالديه إحسانا

هدى من الآيات

لكي ينظم الانسان علاقة سليمة مع والديه و الجيل السابق لابد أن يختار الرشد الذي يدعونه إليه ، و يترك الغي ، أما التمرد الذي يحدو إليه النزق ، و الذي يدفع بعض الأبناء إلى اتهام آبائهم بالرجعية ، و الافتراء على الدين الذي يدعون اليه بأنه من أساطير الأولين ، فانه سفه و طيش لا يقل سوء عن تقديس الآباء و تقليد عاداتهم ، و رد الدعاة الى الاصلاح.

في هذا الدرس يوصينا الرب بالإحسان إلى الوالدين الذي هو عنوان العلاقة السليمة ، حيث أنه الطريق القويم بين التقليد الأعمى و التمرد الطائش.

كما يذكرنا بأن عاقبة الطيش و التمرد النزق على الآباء هي الخسران.

بينما نقرأ في الدرس التالي قصة الذين اتبعوا آباءهم الضالين ، ولم يستجيبوا لداعي الله هود الذي أمرهم بالاصلاح ، فكانت عاقبتهم الدمار.

و تعتبر العلاقة السليمة مع الآباء سمة إيمانية ، كما أن العلاقة الشاذة عقبة كأداء في طريق الايمان.

بينات من الآيات

[15]بما تتميز الوصية عن الحكم ؟ و لماذا نجد في القرآن التعبير بالوصية حينا و بالحكم حينا ؟ لعل الوصية تتصل بالقيم التي هي محتوى الأحكام ، بينما يعبر عن النظام ، و الذي هو منهج تطبيق القيم ، فاذا كان التعبير بالحكم فلابد من الالتزام بحدوده و حروفه و تفاصيله بدقة و صرامة ، بينما اذا جاء التعبير بالوصية فلابد من الالتزام بالقيم بأية طريقة ممكنة ، و بالمنهج الذي يراه العرف مناسبا.

و حين يأمر ربنا بالعدل فان التعبير يأتي بصيغة الأمر : " إعدلوا هو أقرب للتقوى " ، ذلك لأن العدالة قيمة تتحقق بالأحكام المفصلة ، و النظام الشامل ، أما إذا كان الحديث عن الإحسان فانه يأتي بصيغة الوصية ، لأن الإحسان يتحدد بالعرف و حسب ظروف كل شخص و منهجه.

]و وصينا الإنسان بوالديه إحسانا[

لابد أن يهتم الانسان - أي انسان - بوالديه أنى كانا إهتماما يبلغ درجة الاحسان ، و هي فوق إداء

حقوقهم القانونية.

و يختلف الأمر بالإحسان عن الأمر بالطاعة اختلافا كبيرا ، ذلك أن الإحسان ينبعث من اليد العليا ، بدافع الاحساس بالاستقلال و القدرة ، و صاحبه يقدر متى و كيف و بأي قدر يمارسه ، بينما الطاعة حالة التسليم و الخضوع و فقدان الاستقلال و حسب الأمر الموجه إليه دون أن يكون لصاحبه الحق في تقدير أي أمر منه.

و لم يأمر الاسلام بطاعة الوالدين بل بالإحسان إليهما ، لأن الطاعة لله و للرسولو لأولي الأمر ، ولا يستطيع الوالدان أن يحرما حلالا أو يحللا حراما ، بل أمر بالإحسان إليهما ، وقد يتجلى الإحسان في قبول أمرهما فيما لا يخالف الشرع و العقل ، و يكون فيه فائدة عائدة إليهما .

و الدليل الذي يبينه السياق للوصية بالاحسان إلى الوالدين يعم المؤمنين و الكافرين ، البرين و الفاجرين ، حيث يعزي السياق ذلك إلى الجهود الكبيرة التي بذلاها في سبيل تنشئة الولد.

]حملته أمه كرها[

فمنذ الساعات الأولى من الحمل يمتص الجنين طاقات الأم مما يعرضها للارهاق و الأخطار ، و كلما تقدم بها الحمل كلما زادت الصعوبات الجسدية ، كما تزيد عندها المخاوف و الهموم.

]و وضعته كرها[

و قد تكون الولادة عسرة مما تجعل الأم تقول : يا ليتني مت قبل هذا اليوم و كنت نسيا منسيا.

ثم أن ذلك لا يتم عبر فترة بسيطة ، بل يمتد أشهرا عديدة ، مما يجعل دين الأم عظيما في ذمة الولد.

]و حمله و فصاله ثلاثون شهرا[

فخلال تسعمائة يوم تقريبا تنشغل الأم بوليدها . أفلا ينبغي للولد بعد أن يشتد عوده و تخور طاقات أمه أن يحسن إليها ؟

بلى . وهذا من ديدن الرجل الصالح الذي قد تستمر رعاية الوالدين إليه حتىيبلغ أشده ، بل و يبلغ أربعين سنة و تكتمل رجولته.

]حتى إذا بلغ أشده و بلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي و على والدي]و متى يبلغ الانسان أشده ، هل عندما يصل الى سن البلوغ الشرعي الذي هو عند الفتى كمال سن الخمسة عشر أو الاحتلام ، و عند الفتاة كمال التاسعة من عمرها ، أم عندما يبلغ سن الرشد الذي قيل أنه بلوغ الثامنة عشر ؟

قال البعض : إن الانسان لا يبلغ أشده إلا عند سن الأربعين ، بيد أن الأقرب الى ظاهر الآية هو بيان نوعين من البلوغ : الأول :البلوغ الأولي الذي يجعل الفرد مستعدا لدخول الحياة ، الثاني : البلوغ الأتم الذي يحدث عند سن الأربعين حيث يكتمل نمو خلايا المخ ،و تتراكم تجارب الحياة ، و يكون الانسان في قمة عمره حيث ينحدر من بعدها شيئا فشيئا الى نهايته ، و من هنا جاء في الحديث أن الشيطان يمسح يده على وجه من زاد على الأربعين ولم يتب ، و يقول : بأبي وجه لا يفلح.

و يؤيد ذلك أن الانسان يمثل في العقد الأربعين من عمره دور الولد الذي أكمل الوالدان دورهما في نموه و تطوره ، كما يمثل الوالد الذي ذاق - بدوره - الصعوبات التي تحملها والداه في أمره فعرف قدرهما ، و وعي قدر النعم التي أسبغها الله عليه . فطفق يشكر اللهشكرا جزيلا ، و لكنه كلما ازداد وعيا بالحياة و مشاكلها كلما عرف عجزه عن إداء شكر الله فأخذ يدعو الله أن يوفقه لشكرهما بفضله ، لأن منبعث الشكر الرؤية الايجابية الى الحياة ، وهي تطلق قدرات الانسان من عقال اليأس و التشاؤم و السلبية ، و تزرع في قلبه حب السعي ، و روح النشاط ، و همة التقدم ، و التطلع إلى الأهداف السامية.

]و أن أعمل صالحا ترضاه[

و نستوحي من الآية مقياسين لصلاح العمل : المقياس الذاتي الذي يتمثل في فائدة العمل و صحته بحكم العقل و العرف ، و المقياس الشرعي الذي يتمثل في مرضاة الله التي نعرفها بالقيم الدينية .. و المؤمن يتطلع لتحقيق العمل الصالح في ذاته الذي يقربه شرعا الى الله ، وهو بالطبع ليس كل عمل صالح ، بل الذي يقع ضمن استراتيجية الرسالة ، فمثلا : تعبيد الطرق عمل صالح ، إلا أنه قد لا يكون مرضيا عند الله ، كما لو ابتغى الفرد منه علوا في الأرض أو فسادا ، كذلك حين يكون هذا الفعل الصالح معارضا لعمل أولي كالدفاع عن الوطنأو مقاومة الطاغية.

وهكذا يدعو الانسان السوي ربه التوفيق للقيام بعمل صالح مرضي عنده وليس كل عمل صالح ، كما يدعو إلى أن يكون امتداده في الحياة و ذريته من الصالحين . لقد سهر الآباء لتربية هذا الجيل على الفضيلة و التقوى ، و أنفقوا في سبيل إنشاء المدارس و المعاهد ، و توفير الثقافة الحكيمة ، و بناء الجوامع و مراكز التوعية و التوجيه ، وقد أثمرت جهودهم في بناء هذا الجيل الصالح . أفلا نسعى نحن في سبيل بناء الجيل الصاعد على ذات الأسس الصالحة ؟ بلى . إن ذلك هو الشكر العملي على نعمة الصلاح التي أسبغها علينا الرب.

]و أصلح لي في ذريتي[

إن صلاح الذرية يكرس مكاسب هذا الجيل الحضارية ، و يبقى لهم الذكر الحسن ، ويكون بمثابة صدقة جارية تغدق عليهم الثواب وهم مستريحون في أجداثهم ، و لعله لهذه الأسباب جاء التعبير القرآني " لي " ، بلى . إن فائدة صلاح الذرية لي قبل غيري.

]إني تبت إليك[

فخلال رحلة العمر ذات الأربعين ربيعا أزاغته الذنوب عن صراط ربه العزيز الحميد ، و قد ذهبت الآن شرة السهو عنه ، كما تلاشت لذات الشهوات ، و أزالت طوارق الزمن سكرة الشباب ، و اكتمل عقله ، و عرف أن طريق الفلاح ينحصر في التوبة إلى الله عز وجل.

لقد قرأت أخيرا في مجلة غربية واسعة الانتشار مقالا يدعو من بلغ الأربعين ألا يحاول تغيير عاداته ، و يبدو أن الكاتب كان يعتمد في ذلك على أن الانسان في مثل هذا الوقت لا يملك إرادة التغيير ، و هذا ينسجم مع النظرة المادية الى الانسان ، و تلخيص دوافعه فيالشهوات الدنيوية التي تتراجع عند سن الأربعين و يتلاشى بعضها مما لا يجد دافعا نحو التغيير ، بينما البصيرة القرآنية تدعونا إلى التوبة عند سن الأربعين ، حيث يكتمل العقل ، و تلتهب جذوة الضمير ، و تتهيأ فرصة الاصلاح ، و تتنامى دواعي الخير و بواعث الفضيلةفيه.

وهكذا يكون عقد الأربعين أفضل مناسبة للثورة الذاتية ، بالتوبة الى الله ، و التسليم للشريعة التي تخاطب العقل ، و تذكي دواعي السعي للآخرة التي يكون صاحب الأربعين أقرب إليها من غيره.

]و إني من المسلمين[

فاذا دعتني سكرة الشباب الى التمرد ردحا من الزمن فها أنا ذا اليوم أعترف بالذنب ، و أخضع لك يا رب خضوعا تاما ، و أفتش في صفحات تاريخي ، فاذا وجدت فاحشة هنا و خطيئة هناك ، و ظلما للناس ، و غصبا للحقوق ، و انحرافا في العقيدة و زيفا في الثقافة ، و عادات سيئة و ما أشبه ، فاني اسعى لتغييرها و التخلص من وزرها و تبعاتها بتوفيقك . أوليس كل ذنب و زيغ و انحراف يخلفأثره في قلب الانسان ، دعنا إذا نتخلص منه بالتوبة ، لنطهر القلب من أدرانه ، و السلوك من سيئات العادات ، و نترك جانبا الاستخفاف بالقيم ، و التهاون بالواجبات و السهو عن الصلاة و الزكاة و .. و..

[16]و بالرغم من ابتعاد هذا الفريق من الناس حينا عن الصراط السوي فان توبتهم مقبولة ، و يتقبل الله حسناتهم ، و يتجاوز عن سيئاتهم ، و يدخلهم الجنة مع الصالحين من عباده.

]أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا[

و إنما يتقبل الله من المتقين ، و قد يتقبل من غيرهم بعد توبتهم حيث يعتبرهم كالذين لم يذنبوا أبدا وهم المتقون من عباده.

وقال المفسرون : إن المراد من أحسن الأعمال الواجبات و المندوبات ، بينما المباحات لا ثواب عليها بالرغم من حسنها.

وقد يقال : إن لقبول الحسنات أيضا شروطا لا تتوافر فيها جميعا فلا يتقبل الله منها إلا الأحسن ، مما يبعث الانسان الى السعي لتحقيق كل شروط العمل الصالح . مثلا لا يقبل الله من الصلاة إلا ما التفت العبد فيها إليه ، فلنقم الصلاة بحيث يتقبلها الله جميعا لا جزء منها هو الأحسن.

]و نتجاوز عن سيئاتهم[

أوليسوا قد تابوا إلى الله منها توبة نصوحا ، و الله سبحانه هو التواب الرحيم ؟

]في أصحاب الجنة[

أولئك الصالحين الذين أخلصوا لله حياتهم ، و أية كرامة أعظم لأمثالنا أنيدخلنا الله في الصالحين من عباده و نحن ممن خلط عملا صالحا و آخر سيئا ؟!

]وعد الصدق الذي كانوا يوعدون[

[17]و يضرب القرآن مثلا من واقع الصراع بين الأجيال ، حيث يتمرد الجيل الصاعد على قيم الحق و تقاليد الصلاح عند الجيل السائد ، لنعتبر به ألا نهلك بأتباعه.

]و الذي قال لوالديه أف لكما[

بينما الدين أوصانا بالإحسان إليهما نجد هذا الفاسق يضجر من والديه اللذين هما أصل وجوده وكل خير فيه ، و يقول لهما : أف لكما.

و كلما يحذره الوالدان من مغبة الإيغال في الخطيئة ينهرهما ، و يكفر بالجزاء قائلا:

]أتعداانني أن أخرج[

بعد الموت للحساب ، كلا .. إنه وعد مكذوب ، ثم يستشهد بما درج عليه الجاحدون للجزاء : بأن القرون المتطاولة قد مضت ، و لما يخرج منهم أحد . أرأيت ميتا أحياه الله بعد أن أقبر و أوقفه للجزاء ؟! كذلك لا أخرج أنا.

]وقد خلت القرون من قبلي[

أفلا يعلم أن الحياة الآخرة تأتي بعد انقضاء الحياة الأولى ، و يومئذ يبعث الله الأولين و الآخرين معا ، و يحقق وعده الحق ؟

وهكذا يتمرد الفاسق على تربية الوالدين وهما يبذلان كل جهد ممكن لاقناعهبالحق ، فاذا شعرا بالفشل استغاثا بالله أن يعينهما في إصلاح ابنهما الضال.

]و هما يستغيثان الله[

و التربية الحق هي التي تزرع في قلب الولد خشية الله ، إذ ما قيمة السعادة في الدنيا إذا أعقبها الشقاء الأبدي ؟!

]ويلك ءامن إن وعد الله حق [

و نستلهم من هذه الآية المنهج السليم لتربية الطفل الذي كان يتبعه الوالدان المؤمنان ، و الذي أنشا الله به ذلك الجيل الصالح الذي احترم الجيل الماضي بالاحسان إليه و الاستغفار له ، كما عمل في سبيل إنشاء جيل صالح بالدعاء و العمل . وهذا المنهج قائم على أساس توسيع رؤية الطفل ليرى الحياة الأخرى فيوازن بينها و بين الدنيا في قراراته ، فيسعى لهما سعيا عادلا ، ولا يترك إحداهما للأخرى ، لأنهما في الواقع حياة واحدة ممتدة من اليوم حتى يوم الجزاء.

بيد أن بعض الآباء يخفقون في هذا السبيل ، و عليهم ألا يقلقوا فقد أدوا مسؤوليتهم ، وما جعل الله لهما سلطانا يكرهان به ولدهما على اتباع الحق . كيف وقد خاطب الله رسوله الكريم : " لست عليهم بمسيطر " ، و قال : " لا إكراه في الدين قد تبينالرشد من الغي. "

وقد خلق الله الناس أحرارا يبتليهم ، و لعلنا نستفيد من هذه الآية أن مسؤولية الدعاة و حملة الرسالة تقتصر على البلاغ ، و حتى لو كانت لديهم قوة رادعة فلا يستحسن التوسل بها لاكراه الناس على اتباع الرشد ، فبالرغم من أن للوالدين السيطرة الطبيعية على الولد إلا أنهما حين يقومان بدور الداعية يستفرغان الجهد في إقناعه بالحجة ، وليس باكراهه ، و عادة ينجحان ، أما إذا فشلا فذلك أمر يعود الوجود حرية القرار عند الولد الذي قد يتمرد على الحق بحجة أنه تقاليد بالية و أفكار رجعية.

]فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين[

و يبدو من هذه الكلمة أنه متمرد على الماضي ، و يتهمه بانه يمثل الخرافة و الدجل ، و هذا شأن صراع الأجيال الذي يحرم الجيل الصاعد من ثقافة الجيل السائد و تجاربه و عبره و عظاته ، و يقضي على التواصل الحضاري الذي هو عنوان تقدم الأمم.

وقد كان لهذا النفس المشؤوم آثاره السيئة علينا نحن المسلمين في العصر الحديث ، حيث لم يميز الشباب بين السمين و الغث من تجارب آبائهم فرفضوها ، و سعوا نحو تقليد الأجانب ، فكانوا كالغراب الذي حاول تقليد الطاووس في مشيته فلم يفلح فضيع المشيتين!

إن من لا يملك إصالة لا يستطيع الانتفاع بتجارب الآخرين ، لأنه لا يملك مقياسا سليما يميز به ما ينفعه من تجاربهم وما يضره ، فيكون كمن يبني على الرمال سرعان ما ينهار بناؤه.

وقد دلت تجارب التاريخ على أن الأمم ذات الإصالة هي الأقدر على احتواء تجارب غيرها من الأمم المتمردة على تاريخها و مكاسب حضارتها.

و نحن اليوم بانتظار ذلك الجيل المؤمن الذي يعيش بثلاثة أبعاد : متفاعلا مع حاضره ، مستفيدا من ماضيه ، متطلعا لمستقبله.

[18]الدين و الكفر قديمان عند البشر ، فكما كان منذ القدم رجال صالحون ملتزمون بالدين كان آخرون يكفرون به ، فاذا كان كل قديم رجعية فان الكفر هوالآخر قديم ! وهذه الأفكار التي يروجها الجاهليون باسم التقدمية موغلة في الرجعية ، إذ أنها تدعو الى حالة البدائية حيث لم يكن لدى أهلها التزام بالقيم و العادات الصالحة ، وهذا الذي يكفر بالبعث و يدعي أنه من أساطير الأولين سوف يحشر مع أولئك الكفار من الأولين ، حتى يتبين له أن الكفر - وليس الدين - هو من أساطير الأولين.

]أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن و الإنس]و كيف حق القول عليهم ؟

لقد كفروا فطبع الله على قلوبهم ، و سلبهم توفيق الايمان ، فظلوا كافرين حتى أدخلهم الله النار في الأمم الغابرة.

]إنهم كانوا خاسرين[

و علينا أن نعتبر بمصيرهم فلا نبادر إلى الكفر فيغلق الله علينا باب التوبة إلى الأبد ، و لا يقولن الواحد : أكفر الآن فاذا أردت الايمان فالطريق مفتوح أمامي . كلا .. إن فرصة الايمان محدودة ، وقد تسلب منك حتى الأبد.

وفي هذا درس للداعية ألا يهلك نفسه اسفا على بعض الناس إن لم يؤمنوا ، فلعلهم ممن طبع الله على قلبه فلا يستطيع الايمان أبدا.

[19]ولكي لا يزعم الانسان أن تقسيم الناس على الجنة و النار اعتباطي ، يزيدنا السياق هدى بأن أعمال الناس هي التي تسوق أصحابها الى المصير النهائي إما الجنة أو النار ، و تأكيدا على ذلك أن للجنة درجات كما للنار دركات ، و منازل أهل الجنة أو أهل النار تحدد بأعمالهم ايضا ، حتى لا يدع للشك مجالا في أنهم لايظلمون ، بل هم يجزون بما كانوا يعملون.

]و لكل درجات مما عملوا[

يبدو أن المراد من " و لكل " أهل الجنة و أصحاب النار لكل درجته و منزلته حسب عمله.

]و ليوفيهم أعمالهم[

أي ليجزيهم أعمالهم جزاءا تاما وافيا.

]وهم لا يظلمون[

فمن يعمل مثقال ذرة خيرا هنا ، يره هناك بدرجاته المتعالية في الجنة ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا هنا ، يره هناك بعذاب دركات النار.

[20]ولا يدع كتاب ربنا الحكيم الانسان في غمة من أمره بل يكشف له أسباب الكفر فيبين له علاجها ، لكي لا تكون للناس حجة بعد البيان ، ذلك أن النار شيء عظيم ، فكيف يلقي رب الرحمة عبده العاصي فيها دون أن يتم عليه الحجة كاملة .

]و يوم يعرض الذين كفروا على النار[

هنالك حيث تستعد النار لاستقبال أفواج الكفار و العصاة بألسنة اللهب المتصاعدة و الشهقات الواسعة التي تبتلع الملايين ، هنالك إذ تتوضح الحقائق ، فلا غفلة ، ولا استرسال ولا تبرير ، ولا إهمال ، هنالك تقال لهم كلمة الحق التي لو عرفوها في الدنيا إذا ما أهملوا ، ولا تشبثوا بالأعذار التي لا تغني شيئا.

]أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها]فهذا هو السبب المباشر للمأساة . الوقت و الطاقة و الفراغ و سائر النعم هي ذخيرة الانسان ليوم الحساب ، فمن بذرها للمتعة العاجلة في الدنيا فماذا يبقى له ليوم فاقته ؟

إنما السعيد من قدم شيئا مما عنده لحياته الخالدة ، و قسم وقته و طاقاته بين السعي للدنيا و العمل للآخرة ، ولم يكن همه التمتع بكل ما يملك في دنياه فيكون مثله كذلك الشاب الذي أبلى شبابه في اللذات فاذا تقدم به العمر إلى خريف الحياة لم يجد إلا الحرمان والألم و الحسرات.

و لكن ما الذي يدعو الانسان إلى التبذير بالطيبات في الدنيا ، هل الحاجة الضرورية ؟ كلا ..ذلك أن

حاجات الانسان محدودة ، و يمكن له توفيرها ببعض قدراته . إنه يوفر لقمة عيشه و سكناه و امتعته بأيسر الجهد ، إنما لهث البشر يكون عادة وراء الكماليات . إنه يختار ألذ الطعام ، و أرفه المساكن ، و أرقى المتاع ، حتى ولو كان على حساب آخرته ، فيظلم الناس بالسرقة و الغش ، و قد يصبح أداة للطغاة من أجل الحصول على الكماليات ، ولأن الكماليات بدورها درجات ولا يمكنه أن يبلغ مداها فانك تراه دائب اللهث وراءها ، فاذا بنى قصرا و وجد قصر صاحبه أفخم عقد العزم على بناء ماهو أعظم من بناء صاحبه ، و إذا اقتنى سيارة و علم أن أخرى خيرا منها دخل السوق سعيا نحو شرائها بكل وسيلة ممكنة ، وهكذا..

وهنا نتساءل : ماهو جذر التنافس على الكماليات بهذه الشدة ، مع أن بعضها لا يمس شهوات الانسان من قريب ؟!

الجواب :إنه الاستكبار . حيث يبحث الانسان أبدا عن التعالي على أقرانه بحق أو بباطل ، وإذا نزع الانسان رداء الكبرياء ، و تسربل بالخشوع و القنوع ، فانه يقتلع جذر الانحراف من نفسه ، هناك يكتفي بالضرورات وما يتيسر له من زينة الدنيا ،فيقسم طاقاته بعدالة بين حياته هنا و حياته الأبدية هناك . أما إذا استكبر فانه يشتري هوان العذاب في الآخرة ، و يقال لمثله:

]فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق و بما كنتم تفسقون]و الفسق هو الخروج عن الحدود ، مما يدل على أن المستكبر بغير حق يتجاوز حدود الشرع مما يوجب له أليم العذاب.

الحياة بين الحكمة و المتعة :

إن حياتنا في هذه الدنيا ذات حكمة تنبسط على كل ممارستنا فيها ، مما يجعل لكل بعد منها هدفا محددا لو سعينا نحوه كانت الحياة شريفة . أما إذا فرغنا أعمالنا من أهدافها ، و مارسناها لذاتها ، فإنها تصبح متعة زائلة ، فمثلا :الطعام سبيلنا الى القوة فمنطعمه لشهوة الأكل (لا لبلوغ سلامة البدن و قوته) كان ممن أذهب طيباته ، و الثياب وسيلة للستر و الزينة فمن استهدف المفاخرة بها أذهب طيباته ، و هدف التعلم العمل فمن تعلم العلم للعلم دون أي هدف آخر ضل سبيله و اضل عمله ، و ليس صحيحا أن نجعل الفن للفن ، إنما لتوعية الناس ، و تحسيسهم بالحقائق ، و إثارة حوافز الخير فيهم ، و من دون ذلك يصبح الفن هراء ، و يذهب بطيباتنا.

و حين يفقه الانسان حكمة الحياة و مفرداتها يعتدل سلوكه فيها . يبصر الهدف من طعامه فيزهد فيما لا ينفع جسده ، و يعرف الهدف من ثيابه فلا يفاخر ولا يبذر ، و يضع علمه في خدمة قيمه ، و إذا مارس الفن حقق أهداف أمته من وراءه.

ألا ترى كيف كان يعيش رسول الله و الأئمة الصالحون من خلفائه عليهم جميعاصلوات الله.

روي في الحديث أن عمر ابن الخطاب قال : استأذنت على رسول الله (ص) فدخلت عليه في شربة أم إبراهيم ، وإنه لمضطجع على خصفة و إن بعضه على التراب ، و تحت رأسه وسادة محشوة ليفا ، فسلمت عليه ثم جلست فقلت : يا رسول الله أنت نبي الله و صفوته و خيرته من خلقه ،و كسرى و قيصر على سرر الذهب و فرش الديباج و الحرير ؟!! فقال رسول الله (ص) : " أولئك قوم عجلت طيباتهم ، و هي وشيكة الإنقطاع ، وإنما أخرت لنا طيباتنا " (١. (

أما الإمام أمير المؤمنين فيقول عنه حفيده الإمام الباقر (عليهما السلام: (

و الله ان كان علي يأكل أكلة العبد ، و يجلس جلسة العبد ، و إن كان يشتري القميصين فيخير غلامه خيرهما ثم يلبس الآخر ، فإذا أجاز أصابعه قطعه ، و إذا جاز كعبه حذفه ، و لقد ولي خمس سنين ما وضع آجرة على آجرة ، ولا لبنة على لبنة ، ولا أورث بيضاء ولا حمراء، و إن كان ليطعم الناس خبز البر و اللحم ، و ينصرف إلى منزله فيأكل خبز الشعير و الزيت و الخل ، و ما ورد عليه أمران كلاهما لله عز وجل فيه رضا إلا أخذ بأشدهما على بدنه ، ولقد أعتق ألف مملوك من كد يمينه ، تربت منه يداه ، و عرق فيه

وجهه ، وما أطاق عمله أحد من الناس ، وإن كان ليصلي في اليوم و الليلة ألف ركعة ، و إن كان أقرب الناس به شبها علي بن الحسين ما أطاق عمله أحد من الناس بعده " (٢. (

و هكـذا كان يربي النبي أصحابه . فقد ورد في الحديث أنه (صلى الله عليه و آله) دخل على أهل الصفة وهم يرقعون ثيابهم بالأدم (٣) ما يجدون لها رقاعا ، فقال:

(1)نور الثقلين / ج ٥ - ص 15

(2)المصدر / ص ١٦

(3)الجلد المدبوغ

"أنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحدكم في حلة و يروح في أخرى ، و يغدى عليه بجفنة و يراح عليه بأخرى ، و يستر بيته كما تستر الكعبة ؟ قالوا : نحن يومئذ خير ، قال : بل أنتم اليوم خير " (١. (

[21]عذاب الدنيا أهون من جهنم ، ولكنه شاهد عليها ، ولقد استمتع الكفار بدنياهم ، و أذهبوا فيها طيباتهم ، فابتلوا بعذاب بئيس هنا قبل الآخرة . ألا يكفينا ذلك عبـرة ؟

هؤلاء قوم عاد ملأ قلوبهم حب الدنيا حتى حجبهم عن فهم حقائق الآخرة ، فإذا بهم يعرضون عن النذر بالرغم من بلاغ إنذارهم.

و يبدو أن السياق يضرب لنا من قصة عاد مثلا على جملة البصائر التي تقدمت في هذا الدرس ، و التي منها : تشبث الإنسان بالتقاليد ، و توغله في شهوات الدنيا.

]واذكر أخا عاد[

دعنا نذكرهم لنتعظ بمصيرهم.

وكان هود من ذات القبيلة فكان إنذاره بليغا . أوليس يتحدث بلسانهم و حسب مستواهم العقلي ؟ و بالإضافة إلى ذلك هو من أنفسهم يحب لهم الخير.

]إذ أنذر قومه بالأحقاف[

قالوا : الأحقاف هي الكثبان الرملية التي تتجمع هنا و هناك.

و قالوا : إنها كانت وسط الجزيرة العربية بين نجد و الأحساء و حضرموت(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص 17

و عمان.

و قال بعضهم : كانت جنوب الجزيرة باتجاه اليمن أو في سواحل بحر العرب بين عمان و عدن ، و قيل أنهم كانوا مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر(1) . و يبدو أن ذكر الأحقاف هنا للدلالة على أن الله أسبغ عليهم نعمة الماء و الكلأ في موقع يندران فيه أي بين التلال الرملية المتحركة ، و كان عليهم أن يشكروا نعمة الله ، و يستجيبوا للنذر . أولا يرون طبيعة الأرض من حولهم ، و كيف تكاد الرمال المتحركة تبتلـع حضارتهم الهشـة ، و لكنهم اغتروا ، و تجبروا ، و استكبروا في الأرض بغير الحق ، و فسقوا عن أمر ربهم فجاءتهم عاصفة رملية دمرت حياتهم.

]و قد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه[

لعل المراد من هـذه الكلمة : أن النذر توالت عليهم في فترات متعاقبة قبل بعثة هود ، فبعضهم كانوا قريبين من عصره " من بين يديه " ، بينما كان بعضهم بعيدين من عصره " من خلفه " ، و الله العالم.

]ألا تعبدوا إلا الله[

هذه هي الرسالة بصورة مختصرة ، وهي تحتوي على سائر التعاليم ، فمن عبد الله وحده تعبد بالشريعة التي أمر بها ، و من عبد الله وحده كفر بالطاغوت وكل مستكبر و ظالــم ، و رفض التبعية ، و من عبد الله وحده لم يسترسل مع شهوات الدنيا حتى الهــلاك.

]إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم[

(1)راجع التفاسير و بالذات تفسير القرطبي / ج ١٦ - ص ٢٠٤ و تفسير نمونه)بالفارسية) ج ٢١ / ص ٣٥١[٢٢] أما عاد فقد تشبثوا بالواقع الراهن رغم فساده ، لأنهم زعموا أن مصالحهم تتعرض للخطر لو آمنوا بربهم.

]قالوا أجئتنا لتأفكنا عن ءالهتنا[

و كأن آلهتهم التي كانت رمزا لقوى الظلم و الإستكبار هي المقدسات التي أراد هود أن يصرفهم إفكا عنها.

و ربما يوحي الإستفهام بأنهم لم يصدقوا أنفسهم كيف يجرأ أحد على مقاومة تلك الآلهة ، لذلك تحدوا هودا بكل صلافة قائلين:

]فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين[

وهكذا الذي يركن الى المادة يستبد به الغرور الى درجة تراه يتحدى من ينذره ، و يستعجل لنفسه العذاب.

[23]و كعادة الكفار بالغيب زعمت عاد أن هودا هو الذي ينزل عليهم العذاب ، و أن بيده أمره ، فنفى ذلك بصراحة:

]قال إنما العلم عند الله[

و إنما هو رسول يبلغهم أمر الله.

]و أبلغكم ما أرسلت به[

وهذه مسؤولية أصحاب الرسالة الأساسية ، بيد أن ذلك لا يعني أنه مجرد ساعي بريد ، كلا .. بل له بدوره كلام ينصحهم به ألا يكذبوا بالرسالة:

]و لكني أراكم قوما تجهلون [

ذلك أن تحدي جبار السماوات و الأرض ، و استعجال عذاب الإبادة و التدمير ، لا يكون إلا عن جهل مطبق .

[24]وها هي إرهاصات العذاب تلوح في الأفق . أرأيت الأعاصير الترابية كيف تبدو من بعيد ؟ كأنها سحابة سوداء ، و بما أنهم قد منع عنهم الغيث لفترة حتى أجدبت أرضهم استبشروا خيرا بما رأوا ، و

زعموا أنه غيث يستقبل أوديتهم العطشى.

]فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا [ولعل تأخر المطر عنهم كان بهدف إنذارهم عمليا لعلهم يتضرعون إلى ربهم ، كما كانت بين يدي غرق فرعون و جنوده آيات تهدف إيقاظهم من سباتهم ، ولكنهم أصروا على كفرهم ، فجاءهم النداء:

]بل هو ما استعجلتم به[

من العذاب.

]ريح فيها عذاب أليم[

[25]]إنها عاصفة رملية مأمورة من عند الله بأن تدمر كل شيء مما عند قوم عاد في الوقت المحدد ، فهي إذا ليست هوجاء تمضي من دون أمر.

]تدمر كل شيء بأمر ربها[

تتصل ظواهر الطبيعة بعمل الانسان حتى لا تكون حادثة صغيرة أو كبيرة إلا ولها علاقة بما يختلج في قلبه أو تكسبه يداه ، أو تبلو به سرائره و تختبر إرادته ، فحتىالأمواج الهادرة التي تحيط بالسفن الشراعية وهي تمخر عباب البحر ليست بعيدة عما يجري في داخل السفينة . أرأيت كيف تتساقط أغشية الشرك عن أبصارهم فيهرعون إلى الدعاء لكي ينقذهم الله من ورطتهم ، كما يصف ربنا ذلك بقوله : " هو الذي يسيركم في البر و البحر حتى إذا كنتم في الفلك و جرين بهم بريح طيبة و فرحوا بها جاءتها ريح عاصف و جاءهم الموج من كل مكان و ظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين " (١. (

بلى . إن هذه البصيرة تجعل الإنسان يزداد تحسسا بالمسؤولية ، و اتقاءا للأخطاء ، و انضباطا في أعماله و أقواله و نياته ألا تفسق عن الحدود التي رسمها له الله . أوليس كل شيء يحدث بأمر ربه ؟ أوليس الله حكيما لا يقضي بشيء من دون استحقاق ؟ إذا دعنا نكن حذرين ، نتورع عن ما يغضب الرب ، و نعتبر بمصير الغابرين.

إن الجهل و العناد و الجحود لا تنفعنا شيئا ، بل هي مسؤولة عن وقوع أكثر الناس في المهالك . أنهم يزعمون أن الطبيعة عمياء تصيب ضحاياها بلا قانون !كلا .. إنها مأمورة ، و ربها الذي يدبرها عليم حكيم.

وها قد نزلت الكارثة بقوم عاد بأمر الله ، و اجتاحت العاصفة ديارهم و دمرتهم.

]فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم[

و دليل أن الريح كانت مأمورة أنها لم تأخذ إلا المجرمين منهم.

]كذلك نجزي القوم المجرمين [

(1)يونس / ٢٢

فهي سنة عامة لا تخص عادا وحدهم ، فأي قوم مجرمين لابد أن يحيق بهم عملهم يوما.

أما هود و المؤمنون معه فقد أنجاهم الله . قالوا : إنهم اعتزلوا في حظيرة ، ما يصيبه ومن معه إلا ما يلين أعلى ثيابهم ، و تلتذ الأنفس به ، بينما كانت تمر من عاد بالظعن بين السماء و الأرض و تدمغهم بالحجارة حتى هلكوا(1) . وقد جاء في التاريخ : أن الخليفة العباسي المهدي أمر بحفر بئر بقرب قبر

العبادي (وهو حسب قول الحموي : منزل في طريق مكة من القادسية الى العذيب (لعطش الحاج هناك ، فحفروا أكثر من مأة قامة ، فبينما هم يحفرون إذ خرقوا خرقا و إذا تحته هواء لا يدرى قعره ،وهو مظلم ، و للريح فيه دوي ، فأدلوا رجلين فلما خرجا تغيرت ألوانهما فقالا : رأينا هواءا واسعا ، و رأينا بيوتا قائمة ، و رجالا و نساءا ، و إبلا و بقرا و غنما ، و كلما مسنا شيئا رأيناه هباء ، فسألنا الفقهاء عن ذلك فلم يدر أحد ما هو ، فقدم أبو الحسن موسى بن جعفر - عليه السلام - على المهدي فسأله عن ذلك فقال : " هؤلاء اصحاب الأحقاف وهم بقية من قوم عاد ، ساخت بهم منازلهم " و ذكر على مثل قول الرجلين . (٢)(١) تفسير القرطبي / ج ١٦ - ص ٢٠٧

(2)تفسير نور الثقلين / ج - 5ص ١٨ نقلا عن الخزايج و الجرايح.

فاصبر كما صبر أولو العزم

هدى من الآيات

يستمر السياق في الحديث عن سنة الله في الخليقة التي تتجسد في بعث الأنبياء - عليهم أفضل الصلاة و السلام - كلما انحرف الناس عن المسيرة ، و إنذارهم بمصيرهم المرتقب ، و يشير الى القرى التي انذر أهلها بالأنبياء ، و أنزل لهم الكتب لعلهم يهتدون ، و لكنهمبدل أن يعبدوا الله و يعتمدوا عليه إذا بهم يعبدون الأنداد من دونه ، فلم يغنوا عنهم - ساعة الإنتقام - شيئا.

و يقص علينا ربنا في هذا السياق كيف صرف إلى الرسول نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما آمنوا به ولوا إلى قومهم منذرين ، و لعل سبب ذكر هذه القصة في هذا السياق أن الكفار كانوا يزعمون بأن الجن أنصاف آلهة ، و أنهم يدفعون عنهم الضراء . أولم يقل ربنا سبحانه : " و أنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن " ، فجاءت هذه القصة لبيان حاجة الجن أيضا الى الرسالة.

بينات من الآيات

[26]عندما يفر الجاحد - لآيات الله - من مسؤولية الاعتراف بالحق ، و التسليم له ، يلجأ - في زعمه - إلى ركن الغرور بالقوة و العلم ، و يعتقد أن ما يملكه من أموال ، ومن كيد ، ومن مكر تغنيه شيئا عندما يحدق به خطر الدمار ، بسبب كفره بالله و رسالته.

كلا .. إن مصير الغابرين من عاد ، و ثمود ، و فرعون و هامان و جنودهما ، و غيرهم يكفينا عبرة بأن قدراتنا المادية و العلمية إن هي إلا غرور.

]و لقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه[

قال المبرد : " ما " في قوله : " فيما " بمنزلة (الذي) و " إن " بمنزلة (ما (و التقدير : و لقد مكناهم في الذي ما مكناكم فيه ، و المعنى : أنهم كانوا أقوى منكم ، و أكثر منكم أموالا (١) و كذا في قوله تعالى : " كانوا أكثر منهم و أشد قوة و آثارا في الأرض"

و هكذا كانت الإمكانات التي سخرت لهم أكثر مما سخرت لقريش ، و ربما لكل قوم يتلون الكتاب من بعدهم.

]و جعلنا لهم سمعا و أبصارا و أفئدة[

و بما أنهم كانوا مزودين بهذه الأجهزة زعموا بأنها تنقذهم من عذاب الله . ذلك أن الانسان يهلك إذا كان ضعيفا ، أو جاهلا ، أو غافلا ، ولم يكن أولئك القوم كذلك ، ومع ذلك أهلكوا عندما أراد الله.

(1)يمرط : ينزع.

]فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء]و انما ينتفع الانسان بهذه الجوارح إذا

كان مؤمنا بآيات الله ، أما إذا كفر بها فإنه سوف يخطأ المنهج السليم للانتفاع بها .. أرأيت الذي يملك أفضل وسيلة سير ثم يخطأ السبيل فهل تنفعه وسيلته لبلوغ غايته إذا كانت وجهة سيره خاطئة ؟ ! كذلك الذي لا يؤمن بالحقائق الكبرى ثم لا يستفيد من معرفته بالحقائق الجزئية التي تقع في اطارها و يكون مثله كالذي لا يعترف أن عدوه يمتلك قنبلة نووية ، ثم يجد في معرفة عدد دبابات العدو .. انه سيخسر المعركة قطعا حتى إذا عرف كل حقيقة في سلاح المدرعات عند العدو.

هكذا من لا يعتقد بقوة الله التي ارسلت على قوم عاد تلك العاصفة الهوجاء ، التي دمرت كل شيء بإذن ربها ، أو التي أخذت فرعون و جنوده و نبذتهم في اليم نبذا . إن مثل هذا الرجل لن ينتفع شيئا بمعرفته مثلا بأصول الهندسة ، أو كيفية تنظيم الجيش ، لأن كل ذلك وضع في مواجهة أخطار بسيطة ، أما مقاومة تغيير طبيعي هائل فانه فوق قدراتنا المنظورة .. تماما كالذي يجهد نفسه في بناء خندق عميق في مواجهة سلاح ذري .. إنه مغرور لأن الخندق انما انشئ لمواجهة سلاح تقليدي وليس سلاحا ذريا.

وهكذا السمع و الأبصار و الأفئدة انما هي أدوات لمواجهة أخطار عادية ، ولا تنفع الذي يخالف إرادة الله شيئا .

]إذ كانوا يجحدون بآيات الله و حاق بهم ما كانوا به يستهزؤون]من الحقائق الكبيرة التي جحدوها ، و سخروا منها . انها نزلت بهم كالصاعقة ، و تنزل بمن يسير في خطهم الباطل.

[27]لا تزال على الطبيعة من حولنا آثار تنطق بسنن الله في التاريخ ، فهذه القرى من حولنا قد أهلكت بفعل ضلالتهم عن الحق . ولكن هل أهلكوا فجأة ومن دون نذر ؟ كلا..

و كانت قريش تمر على قرى مدين و ثمود عند رحلتهم صيفا نحو الشمال ، وعلى قرى الأحقاف عند رحلتهم شتاءا نحو الجنوب ، و جاء القرآن يبصرهم بعبر تلك القرى الخاوية على عروشها ، و تلك الآبار المعطلة ، و آثار القصور المشيدة .

و هكذا يستنطق كتاب الله حوادث التاريخ و آثار الغابرين ، و يجعلها تحكي للإنسانية عبر أسلافهم لعلهم يسعدون بتجاربهم.

]ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى[

و في أي بلد كنت طف على القرى الغابرة من حولك . قف على أطلالها ، واستنطق آثار الأولين ، و سائلهم : لماذا أهلكوا ، فاستوعب عبر حياتهم قبل أن تكون عبرة لمن يعقل من بعدك ، ذلك أن البلاد جميعا لا تخلو من آثار الغابرين الذين كتبوا عليها دروسا لم يتعلموها من أحد ، ولو تعلموا بعضها إذا ما أهلكوا.

]و صرفنا الأيات[

لنا كما لأولئك الغابرين ، فلم تدمر حياتهم بلا سابق إنذار ، و كانت النذر تترى عليهم بهدف صرف العذاب عنهم إذا اتبعوا النذر و عادوا إلى الرشد.

]لعلهم يرجعون[

و نستوحي من كلمة " يرجعون " أنهم كانوا مستبصرين في أول حياتهم ، ماضين على الفطرة الأولى ، فلما انحرفوا انذروا بالعذاب لعلهم يرجعون الى فطرتهمالأولى.

[28]فلماذا تولوا عن النذر ، ولم يستجيبوا لداعي الله ، و لماذا لم يعتبروا بمصير من سبقهم ؟

لأنهم اتخذوا من دون الله قربانا آلهة فزعموا أنهم ينصرونهم من عذاب الله ، ولكن هيهات.

وهكذا يزعم الإنسان أن بمقدوره التمسك بذيل من يزعم أنهم مقربون إلى الله ، من آبائه أو عظماء قومه لينجونه من مصيره ، و هكذا يخدع نفسه و يظل في غروره حتى يأتيه العذاب فيكتشف متأخرا أنه كان في ضلال بعيد ، و أنهم لا يستطيعون نصره أبدا.

]فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا ءالهة]و كما أنهم لم يقدروا على نصرهم في الدنيا من الدمار فإنهم لا ينصرونهم في الآخرة من عذاب النار.

]بل ضلوا عنهم[

لقد ضلت الآلهة عنهم فلم يجدوا لها أثرا عند نزول العذاب ، شأنهم شأن كل دجل و خداع ترى له صورا ، و تسمع جلبة ، و تستقبل وعودا في الرخاء ، أما عند الشدة فهي تتلاشى كما يتلاشى السراب عندما تقترب منه.

ولكن من المسؤول : الآلهة التي طالما وعدت أنصارها بالنصر ثم ضلت عنهم عندما دقت ساعة الإنتقام ، أم أولئك الذين خدعوا بهم ؟ لا ريب أن الذين قبلوا الإنسياق مع ضلالات الآلهة هم المسؤولون ، لأن الآلهة من دون الأنصار لا تعنيشيئا . أرأيت لولم يعبد أحد صنما هل يختلف الصنم عن أية حجارة أخرى ؟ أورأيت إن لم يتبع الناس الطغاة هل هم يتميزون شيئا عن غيرهم ؟

إذا المسؤول أولا الانسان الذي يصنع الإفك ، و يفتري على الله.

]و ذلك إفكهم[

قالوا : الإفك الكذب ، و كذلك الأفيكة ، و الجمع الأفائك ، و إفك الجماعة كان يتمثل في تقديس الآلهة و الإعتقاد بقوتهم.

]وما كانوا يفترون[

ولعل المراد من ذلك الأنظمة الفاسدة التي كانت تترتب على هذا الإفك ، و التي كانوا يفترونها على الله كذبا.

وهكذا تكون الحالة الشركية و الفساد العريض الذي يؤدي إليه نتيجة ثقافة الضلالة ، و فساد الأخلاق و الأنظمة و العادات ، و يزعم البسطاء أن الكيان السياسي الفاسد و النظام الإقتصادي و الإجتماعي المنحرفين قادرين على المحافظة على مصالحهم ، و لكنهم يصطدمونفجأة بالواقع المرير الذي يفرزه هذا الإفك الكبير حين لا ينفعهم الندم.

وقد نستلهم من الآية أن الأصنام التي كانت تعبد من دون الله ، و كذلك الطغاة و المترفين الذين كانوا يسيطرون على مقدرات الناس ، إنما هم جميعا صورة مجسدة لمجمل ضلالة المجتمع و انحرافه.

[29]و من الناس من يتخذ الجن آلهة من دون الله ، و يأفك القداسة لهم ، فلا ينتفع بعبر الغابرين اتكالا عليهم ، و قد يستعيذ بهم من دون الله ، و يزعم أنهميمنعونه عن سيئات عمله ، و يغنون عنه من الله شيئا.

كلا ..الجن كالإنس خلق برأهم الله ، و هم بحاجة الى الرسالة ، و ان الرسل الذين يبعثون إلينا هم النذر المرسلون إليهم أيضا .. و إذ يحدثنا السياق هنا عن قصة استماع الجن للقرآن و ايمان نفر منهم ثم انصرافهم الى قومهم منذرين فإنه يصحح بذلك تلك الصورة المشوهة عنهم في أذهان كثير من الناس حيث يزعمون بأن الجن مصدر كل شر و خبث ، كلا .. بل منهم المؤمنون الذين يحملون رسالات الله إلى قومهم.

و يبدو من خطاب القرآن إليهم في آيات عديدة أنهم مكلفون به ، وأنهم متعايشون معه ، و لكننا حتى الآن محجوبون عنهم ، كما يظهر أنهم مجزيون على إيمانهم و أعمالهم كما الإنس سواءا بسواء ، فلا

يجوز أن يستعيذ بهم الإنس لأنهم يزيدونهم رهقا.

]و إذ صرفنآ إليك نفرا من الجن[

أي ألهمنا نفرا من الجن الحضور عندك ، أو حملناهم على المرور بك من دون تقدير منهم.

]يستمعون القرآن[

قالوا :في أثناء عودة الرسول (ص) من سوق عكاظ نزل بمكان يقال له : مجنة ، نسبة إلى الجن ، فبات فيه ، و كان من عادته (ص) أنه يبيت لربه ساجدا قائما ، يتلو أجزاء القرآن يرتلها ترتيلا ، و بينما كان يتلو القرآن مر به نفر من الجن قالوا كانوا من اهل نصيبين، فإذا بهم يسمعون ذكرا عجبا.

]فلما حضروه قالوا أنصتوا[

دعونا نستمع لهذا الذكر!

وقد ذكر المفسرون هنا قصة رحلة النبي (ص) إلى الطائف التي التقى في العودة منها بالجن ، وهي رحلة حافلة بالدروس و العبر ، بالذات فيما يتصل بالصبر و الإستقامة اللذين أمرنا بهما في نهاية السورة ، و لهذا نجد من المفيد بيان أبعاد هذه الرحلة الجهادية العظيمة.

قال المفسرون (ابن عباس و سعيد بن جبير و مجاهد و غيرهم) : لما مات أبو طالب خرج النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) وحده الى الطائف يلتمس من ثقيف النصرة ، فقصد عبد ياليل و مسعودا و حبيبا و هم إخوة بنو عمرو بن عمير - و عندهم امرأة من قريش من بني جمح ، فدعاهم الى الايمان ، و سألهم أن ينصروه على قومه ، فقال أحدهم : هو يمرط (١) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ! و قال الآخر :ما وجد الله أحدا يرسله غيرك ! وقال الثالث : و الله لا أكلمك كلمة أبدا ، إن كان الله أرسلك كما تقول فأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، وإن كنت تكذب فما ينبغي لي أن أكلمك . ثم أغروا به سفهاءهم و عبيدهم يسبونه و يضحكون به ، حتى اجتمع عليه الناس و الجؤوه الى حائط لعتبة و شيبة ابني ربيعة ، فقال للجمحية : " ماذا لقينا من أحمائك " ؟ ثم قال : " اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، و قلة حيلتي ، و هواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستتضعفين ، و أنت ربي ، لمن تكلني ! إلى عبد يتجهمني ، أو إلى عدو ملكته أمري ! إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بي غضبك أو يحلعلي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك " ، فرحمه ابنا ربيعة ، و قالا لغلام لهما نصراني يقال له عداس ، خذ قطفا من العنب و ضعه في هذا الطبق ثم ضعه بين يدي هذا الرجل ، فلما وضعه بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم (قال النبي

)صلى الله عليه وآله وسلم) : " باسم الله " ثم أكل ، فنظر عداس الى وجهه ثم قال : و الله إن هذا الكلام ما يقولـه أهـل هذه البلدة ! فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : " من أي البلاد أنت يا عداس وما دينك " ؟ قال : أنا نصراني من أهل نينوى ، فقال له النبي)صلى الله عليه وآله وسلم) : " أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى " ؟ قال : وما يدريك ما يونس أبن متى ؟ قال : " ذاك أخي كان نبيا و أنا نبي " فانكب عداس حتى قبل رأس النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و يديه و رجليه ، فقال له ابنا ربيعة : لم فعلت هكذا !؟ فقال : يا سيدي ما في الأرض خير من هذا ، أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي . ثم انصرف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حين يئس من خير ثقيف ، حتى إذا كان ببطن نخلة قام من الليل يصلي فمر به نفر من جن أهل نصيبين ، و كان سبب ذلك ان الجن كانوا يسترقون السمع ، فلما حرست السماء و رموا بالشهب قال إبليس : إن هذا الذي حدث في السماء لشيء حدث في الأرض ، فبعث سراياه ليعرف الخبر ، أولهم ركب نصيبين و هم أشراف الجن إلى تهامة ، فلما بلغوا بطن نخلة سمعوا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يصلي صلاة الغداة ببطن نخلة و يتلو القرآن ، فاستمعوا له و قالوا : أنصتـوا . (١)[فلما قضي[

حين انتهى الرسول من قرائته ..

]ولوا إلى قومهم منذرين[

(1)تفسير القرطبي / ج ١٦ ، ص ٢١٠ - ٢١١ . وما نقله القرطبي قد يتعارض مع ظاهر الآيات التالية . من أن إبليس قد بعث بسراياه ليعرفوا ما الخبر من حراسة السماء . لأنهم أولا : وكما أكدت الآيات التالية انهم مؤمنون بموسى (ع . (وهذا يتناسب و الآية (١٠) من ايمانبعض علماء بني إسرائيل بالنبي (ص) ، و ثانيا : هذه الحادثة (أي ارسال ابليس لسراياه ليعلموا ما الخبر) ذكرها المفسرون في بعثة النبي (ص) و بعض ذكرها في مولده الشريف (ص. (

يبدو أنهم كانوا ذاهبين إلى مهمة ما ، ولكنهم حينما استمعوا إلى القرآن عادوا دون أن يقوموا بمهمتهم ، لكي ينذروا قومهم.

[30]و فيما يلي من الآيات نص الإنذار الذي حمله الجن إلى قومهم:

]قالوا يا قومنآ إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى]قالوا : إن الرسالة الحقيقية من بعد رسالة إبراهيم (ع) كانت رسالة الله إلى عبده و كليمه موسى)ع) ، وأما الإنجيل فقد كان تكميلا للتوراة ، كما قال الله عن لسان عيسى)ع) : " و لأحل لكم بعض الذي حرم عليكم " (١) ، و استمرت رسالة موسى الى أن بعث الله نبينا الأكرم (ص) ، و خلال هذه الفترة - بين الرسالتين - بعث الله أنبياء ولكن ضمن رسالة موسى (ع. (

]مصدقا لما بين يديه[

إن وحدة القيم و المبادئ و التعاليم و المناهج و الشرائع في الرسالات الربانية شاهد صدق على أنها من عند الله الواحد ، ولولا ذلك كيف تتناغم هذه المنظومة المتكاملة من المعارف و الأنظمة عبر العصور المختلفة و البلاد المتفاوتة و الرجال المتباعدين عن بعضهمفي أكثر الأبعاد المادية ؟

وهكذا اهتدى الجن إلى صدق الرسول من خلال النظر العميق في رسالته و أنها تنسجم مع جوهر رسالات الله السابقة ، فهي صادقة كما أن ما سبقتها كانت صادقة.

ويا ليت شعري كيف كان يكفر بالقرآن من آمن حقا بالتوراة ، و القرآن هو(١) آل عمران / ٥٠

الصيغة الأكمل للتوراة ؟!

]يهدي إلى الحق[

و الحق هو ذلك النور الذي يسطع على كل قلب سليم ، وكل عقل متحرر ، وكل فطرة نقية ، وحين يذكر القرآن به لا يجد الإنسان مبررا للكفر به ، إذ يتوافق الكتاب مع حقائق العقل.

وهكذا استدل الجن على صدق الرسالة بمحتواها الحق ، فعرفوا الرسول برسالته فصدقوا به.

]و إلى طريق مستقيم[

ليس في الكتاب آية إلا و تهدينا إلى ما يحكم به العقل ، إلا أن العقل لا يقدر على معرفة الشرائع الواضحة لتحقيق الحق ، فمثلا عبادة الله و التحرر من الطاغوت و العدالة و التقدم و التعاون و السلام تلك هي الحقائق التي يذكر بها الشرع ، و يشهد بها العقل ، ولكن كيف نحققها ؟ إن الإجابة عن ذلك نجدها في الرسالة التي تهدينا إلى السبل الواضحة و القويمة لبلوغ الأهداف السامية ، تلك التي نسميها

بالشريعة و الأحكام.

[31]وما لبث المنذرون من الجن أن تحملوا مسؤولية الدعوة بإصدار الأمر بطاعة الرسول بعد أن عرفوا صدقه قائلين:

]يا قومنآ أجيبوا داعي الله [

و أشاروا بكلمة " قومنا " أنهم يريدون لهم الخير باعتبارهم من قومهم ، ثم أمروا بطاعة الرسول لأنه يدعو إلى الله ، و هكذا يؤدبنا القرآن ألا نكرم أحدا أو نطيعه إلاباسم الله و باعتباره داعيا إليه.

]وءامنوا به[

لعل الإجابة هي التسليم له بصورة مجملة ، بينما الإيمان هو العمل برسالته.

]يغفر لكم من ذنوبكم[

تلك الذنوب التي تراكمت علينا قد ذهبت لذاتها و تلاشت دوافعها ، بينما بقيت تبعتها و آثارها على القلب ، و عواقبها على المستقبل ، لعلنا نسيناها ، بيد أن كتاب ربنا قد أحصاها ، لذلك كان الخلاص منها غاية منى الموقنين ، و أعظم باعث لهم نحو الطاعة للقيادةالشرعية ، و الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الحق ، و ربما الشهادة في سبيل الله.

و تساءل المفسرون : لماذا قال " من ذنوبكم " ، أوليس الإسلام يجب ما قبله ، مما يعني أن الله يغفر كل الذنوب السابقة عليه ؟ ومن هنا قال بعضهم : إن " من " زائدة.

ولكن قال الآخرون : إن " من " ليست زائدة ، وإن مجرد الإسلام لا يطهر صاحبه من تبعات كل الذنوب ، بل كلما عمل الإنسان ببعض الواجبات كلما سقطت عنه طائفة من الذنوب حتى لا يبقى منها إلا النزر اليسير ، و انطلاقا من هذا التفسير الموافق لظاهر القرآن (حيث أن الظاهر ألا تكون أية كلمة أو حرف زائدة (يجتهد المؤمنون في الأعمال الصالحة لتذهب بالسيئات.

]و يجركم من عذاب أليم[

و من ذا الذي يجير العبد من ربه المحيط به علما و قدرة ؟! و إذا كان الجنبحاجة الى من يجيرهم من عذاب الله ، فهل يقدرون على إجارة أحد من الإنس ممن يستعيذون بهم ؟!

حقا : إننا جميعا نبحث عن الأمن فهل نجده إلا عند ربنا الكريم ، ولكن هل يجيرنا الرب من دون طاعة رسوله الداعي إليه ؟

[32]وهل يستطيع أحد أن يهرب من حكومة الله ، و يخرج من حدود سلطانه ؟ أنى له ذلك وكل ذرة في وجوده قائمة به سبحانه.

]ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض[

فلا يستطيع هربا من عاقبة كفره أنى مضى من أطراف هذه الأرض التي هي في قبضة ربها . إنه لا يعجزه فرارا كما يعجز أحدنا الآخر بالإنتقال من حدود سيطرته أو علمه.

]وليس له من دونه أولياء[

ينصرونه ، بالرغم من أن الإنسان يزعم أن عشيرته أو اسرته أو حزبه و ناديه يهرعون إلى مساعدته عندما يتعرض للعذاب ، ولكن ذلك لا ينفعه أمام عذاب الله الذي قد يشملهم جميعا.

بلى . الخلاص من العذاب ممكن بالهرب إلى الله من عذابه ، و الإلتجاء إلى فناء عفوه ، فرارا من سطوة انتقامه ، ولكن ذلك مشروط بإجابة داعي الله.

]أولئك في ضلال مبين[

قد يضل الإنسان وهو يزعم أنه على هدى ، و لكن ضلال البشر عن ربه لا يمكنتبريره أو إخفاءه أنه ضلال مبين ، لأن القياس باطل تماما بين الله و خلقه . أليس كذلك ؟ فكيف يمكن للانسان أن يزعم ان من خلقه الله بقادر على إنقاذه من غضبة ربه الخالق الجبار ؟!

[33]و العذاب الأدنى في هذه الحياة شاهد صدق على العذاب الأكبر في الآخرة ، أولا : لأنه ينسف بنى التبرير ، و التشبث بالأعذار ، و الغرور بنعم الله ، و الإعتقاد بأن الله لا يعذب أحدا ، كلا .. أوليس قد عذب عادا الأولى ، و ثمود فما أبقى ؟ ، و ثانيا : لأنه يرينا صورة واضحة عن شدة عذاب الله ، فإذا كان العذاب الأدنى ريحا تدمر كل شيء بإذن ربها فكيف بالعذاب الأكبر ؟! إذا فإن ما أنذر به المرسلون من عظيم العقاب في اليوم الآخر حق لا ريب فيه ، ثالثا : حينما نشهد عذاب الله للأمم الغابرة تلين القلوب ، و تستعدلتقبل المواعظ الربانية ، و كانت من قبل سادرة في غفلتها ، محجوبة بغرورها و بانشغالها بالشهوات العاجلة و الأماني و الأحلام ، لذلك كانت تلجأ إلى كهف التكذيب بالآخرة ، و اختلاق الشبهات حولها ، فرارا من ثقل المسؤولية ، و مسارعة في اللذات ، و مضيا مع الشهوات حتى الثمالة.

و أكثر الشبهات شيوعا عندهم ما قالوا : كيف يعيد الله هذه الأعظم البالية وقد أضحت رميما تذروه الرياح ؟! و كيف يحيي الله الموتى وقد فسد نظام اجسادهم ، و ماتت خلايا المخ عندهم ، ولم نر أحدا منهم عاد إلى الحياة أبدا ؟!

وهذه الشبهة تافهة جدا ، إلا أنها تستمد قوتها من عزم البشر على التهرب من الايمان بالآخرة خشية تحمل مسؤولياته الثقيلة ، و لولا ذلك فإنها تتلاشى كما يتلاشى ظلام الليل حينما ينبلج فجر الحقيقة ، بشرط ألا يحتجب الانسان عنه بغشاوة الشهوات ، دعنا نستمع إلى القرآن وهو يبدد هذه الشبهة بتساؤل يمس أوتار

الفطرة النقية مسا رقيقا:

]أولم يروا[

إنها حقيقة ترى ليس بالعين وحدها ، فإن البصر قد يزيغ ، ولكن بالقلب الذي تجتمع لديه أحاسيس كل الجوارح.

]أن الله الذي خلق السموات و الأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى]بلى . لأننا نشهد في كل أفق من آفاق هذه الخليقة الواسعة تجدد الحياة بعد الموت ، فهذا الربيع حيث تحيا الأرض بعد موتها ، و تستيقظ الأشجار بعد همودها ، تشهد بقدرة البارئ التي تحيط بكل شيء.

إن التنوع الهائل الذي يعجز البشر عن إحصائه في الخلق : من أقسام الأحجار و المعادن و الأتربة و صنوف الأحياء ، ومن الفيروس حتى الفيل ، و من أصغر خلية حية في البحر حتى الحوت العظيم ، ومن أصغر حشرة طائرة حتى النسور و العقبان.

و اختلاف البشر خلقا ، و تقلبهم من حالة النطفة حتى بلوغ مرحلة الإكتمال.

ثم ما أوتينا علمه من عظيم خلق السماوات التي لو قيست أرضنا بها لكانت كحبة رمل في صحراء واسعة.

كل ذلك يرينا جانبا من قدرة الله ، و أنه سبحانه لا يعجزه شيء أبدا .. فهل يستحيل عليه أن يحيي الموتى ؟!

]بلى إنه على كل شيء قدير[

و قدرة الله تنبسط على الخليقة ، حتى لا تدع شيئا يتصوره البشر إلا وقد خلقه ربنا ، و أكمل خلقه ، و خلق له صنوفا و أنواعا . سبحان ربنا و تعالى!

[34]وما عسى أن ينفع التكذيب ؟ هل يذهب نور الشمس لو احتجبت عنه ؟! هل يدرأ خطر الموت عن نفسه من يكذب به ، أم أنه بتكذيبه يقربه إلى نفسه أكثر فأكثر ؟!

هكذا من يكذب بالآخرة لا يدرأ عن نفسه عذابها ، بل يزداد إثما بتكذيبه و استحقاقا للعذاب أكثر فأكثر.

وحين يحس جحدة البعث بحرارة النار ، و يرون بأم أعينهم جبالا من اللهب الذي يتميز من الغيظ في جهنم حتى لتكاد قلوبهم تنخلع من شهيقها و زفيرها ، يومئذ يؤمنون بالعذاب ، ولكن بعد فوات الأوان.

]و يوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى و ربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون]إنها عاقبة من كفر بالعذاب ، و جحد بالبعث ، و تساءل مستنكرا :كيف يحيي الله الموتى ؟!

حقا : مجرد تصور تلك اللحظة التي يأتي الله بالكفار ليشهدوا جهنم و نيرانها الملتهبة يكفي للتصديق بها . أوتدري لماذا ؟ لأن أساس الكفر بالآخرة قائم على الغفلة ، و الإسترسال مع الهوى ، و الإستهزاء بالحق ، فيكون تصور هذا العذاب المهيب كافيا لزعزعة أساسالكفر ، و تنبيه الإنسان إلى ضرورة التفكر الجدي ، و إيقاف استرساله الخطير مع الشهوات ، و بالتالي إسقاط حجب الغرور عن عينه ليرى بها الحقائق مباشرة.

[35]لكي تمضي سنة الإمتحان في الكافرين كما أرادها الله بحكمته البالغة ، لابد أن يكتفي المنذرون بالبلاغ ، و يصبروا على أذى قومهم دون أن يستعجلوا لهم العذاب.

ولكي لا يتحول الصراع مع الكفار إلى صراع ذاتي بين طائفة و أخرى ، بل يبقى نقيا عن أية مصلحة مادية لأهل الحق حتى تتم الحجة على أعدائهم ، لابد من الصبر.

]فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل[

أوليس الرسول (ص) منهم وهو أفضلهم ، فيصبر كما صبر نوح (ع) عندما دعى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما فلم يؤمن به إلا نفر قليل ، وكما صبر إبراهيم (ع (عندما ألقي في النار ، و عندما هاجر إلى ربه ، و عندما أسكن من ذريته بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم ،و عندما حاول ذبح ابنه استجابة لأمر ربه ، و كما صبر موسى (ع) في مواجهة أعتى طاغوت مع شعب خائر العزيمة كبني إسرائيل ، و كما صبر عيسى (ع) على مكاره الدنيا بزهده و مقاومته لعتاة بني إسرائيل.

هؤلاء هم أولوا العزم من الرسل الذين أخذ الله منهم ميثاقا غليظا ، لأنهم كانوا أصحاب شريعة جديدة ، لكل أهل الأرض ، و كانوا بحاجة إلى صبر عظيم لتبليغها إلى الناس.

فقال ربنا سبحانه عنهم " : وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم و منك ومن نوح و إبراهيم و موسى و عيسى ابن مريم و أخذنا منهم ميثاقا غليظا " . (١)(١) الأحزاب / ٧

وهذه الآية تشهد على مدى الأذى الذي كان ينتظر هذه الصفوة الخالصة من الأنبياء فأخذ منهم ميثاقا غليظا على ضرورة الصبر عليه.

و قال ربنا وهو يبين أن هؤلاء الخمسة المطهرين هم أصحاب شريعة : " شرع لكم من الدين ما وصى به

نوحا و الذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم و موسى و عيسى " (١. (

و هكذا جاء في الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام: (

"سادة النبيين و المرسلين خمسة ، وهم أولوا العزم من الرسل ، و عليهم دارت الرحى : نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمد " (٢. (

أما عن سبب تسمية هؤلاء الخمسة بأولي العزم فقد جاء في حديث مروي عن الإمام الصادق (ع) قال:

"لأن نوحا بعث بكتاب و شريعة ، وكل من جاء بعد نوح أخذ بكتاب نوح و شريعته و منهاجه ، حتى جاء إبراهيم بالصحف و بعزيمة ترك شريعة نوح لا كفرا به ، فكل نبي جاء بعد إبراهيم أخذ بشريعته و منهاجه و بالصحف ، حتى جاء موسى بالتوراة و شريعته و منهاجه و بعزيمة ترك الصحف ، فكل نبي جاء بعد موسى أخذ بالتوراة و شريعته و منهاجه ، حتى جاء المسيح بالإنجيل و بعزيمة ترك شريعة موسى و منهاجه ، فكل نبي جاء بعد المسيح أخذ بشريعته و منهاجه ، حتى جاء محمد فجاء بالقرآن و بشريعته و منهاجه ، فحلاله حلال الى يوم القيامة، و حرامه حرام الى يوم القيامة ، فهؤلاء أولوا العزم من الرسل " (٣)(١ (الشورى / ١٣

(2)تفسير نمونه / ج ٢١ - ص ٣٨٠ نقلا عن الكافي / ج ١ - باب طبقات الأنبياء و الرسل.

(3)نور الثقلين / ج ٥ - ص 22

]ولا تستعجل لهم[

لأن العذاب الذي يرونه يكفيهم ، و الأجل الذي يتمتعون فيه لا يسوى شيئا إذا قيس بذلك العذاب الرهيب الخالد.

]كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار]فإذا كان اليوم الواحد في الآخرة ألف عام ، فما قيمة سبعين عاما إذا قيست بسني تلك الأيام ؟! إنها في أفضل حال لحظات من نهار في عمر طويل ، وهل يسعد من خسر كل عمره لقاء لحظات تمتع فيها ؟!

وهكذا ينبغي أن يتسلح المؤمن بحسابات أخروية ، فلا يجزع من تأخير النصر ، و يقول : كم سنة مرت ولما ينصرنا الله ! بل يحسب سنواته قياسا على أيام الآخرة و سنينها ، هنالك يستطيع أن يتبع خطى أولي العزم من الرسل في الصبر و الإستقامة . أليس يتبعهم في مسؤولية إداء الرسالة و بلاغها ؟

كذلك نجد في النصوص الإسلامية التوصية بالصبر اتباعا لنهج الأنبياء ، ففي رسالة مفصلة إلى أصحابه يقول الإمام الصادق (عليه السلام: (

))إنه لا يتم الأمر حتى دخل) يدخل) عليكم مثلما دخل على الصالحين قبلكم ، وحتى تبتلوا في أنفسكم و أموالكم ، و حتى تسمعوا من أعداء الله أذى كثيرا و تصبروا و تعركوا (١ (بجنوبكم ، و حتى يستذلوكم و يبغضوكم ، و حتى تحملوا الضيم ، فتحتملوه منهم ، تلتمسون بذلك وجه الله و الدار الآخرة ، وحتى تكظموا الغيظ الشديد في الأذى في الله جل و عز ، يجترمونه إليكم ، و حتى يكذبوكم بالحق ، و يعادوكم فيه ، و يبغضوكم عليه ، فتصبروا على ذلك منهم.

(1)عرك الأذى بجنبه أي احتمله.

و مصداق ذلك كله في كتاب الله الذي أنزله جبرئيل على نبيكم . سمعتم قول الله عز وجل لنبيكم : " فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم](1) ((" بلاغ[

ألا يكفينا هذا البلاغ ؟ بلى .لمن يأخذه مأخذ الجد.

]فهل يهلك إلا القوم الفاسقون[

الذين يتجاوزون الحدود بأعمالهم.

(1)نور الثقلين / ج ٥ - ص 23

سورة محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

قال الأمام أبو عبد الله الصادق (ع) : " من قرأ سورة الذين كفروا لم يرتب أبدا ، ولم يدخله شك في دينه أبدا ، ولم يبتله الله بفقر أبدا ، ولا خوف سلطان أبدا ، ولم يزل محفوظا من الشرك و الكفر أبدا حتى يموت ، فاذا مات وكل الله به في قبره ألف ملك يصلون في قبره ، و يكون في أمان الله و أمان محمد)ص(" .

تفسير نور الثقلين / ج ٥ - ص ٢٥

و عنه (ع) انه قال " :من أراد أن يعرف حالنا و حال أعدائنا فليقرأ سورة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فإنه يراها آية فينا و آية فيهم.

المصدر

لإطار العام

الإسم الآخر لهذه السورة هو : القتال ، و بين الطاعة لمحمد - صلى الله عليه وآله -الذي ذكر اسمه المبارك في فاتحة السورة و للقيادة الشرعية عموما و بين القتال ضد الكفار الذي يحتاج إلى الطاعة التامة للرسول تدور محاور هذه السورة التي تميز بالتركيز على بيان الأمثال للناس .. حيث تتوالى آياتها ، تضرب مثالب الكفار و المنافقين ، و تقارنها بصفات المؤمنين و لعل ١٧ مفارقة بين الفريقين تنطوي عليها السورة مما يثير التساؤل لماذا هذا التركيز في سورة القتال على الفرق بين الفريقين ؟ الجواب لسببين:

ألف /ربما لأن قلوب المؤمنين تعتمر بالرحمة الإيمانية ، ومن الصعب تعبئة هذه القلوب بروحية الحرب إلا ببيان صفات الكفار السلبية ، ليكون عداءهم للكفر و مثالبه قبل أن يكون لأشخاص الكفار.

باء / لأن القتال أفضل ميزان يعرف به الرجال ، و يتميز به المؤمنون عمن فيقلوبهم مرض.

-1في مستهل السورة يصرح السياق ببيان أن الله يضل أعمال الكفار ، بينما يصلح بال المؤمنين ، و يغفر ذنوبهم .لماذا ؟

-2لأن أولئك اتبعوا الباطل ، بينما سلم هؤلاء للحق ، وهنا يؤكد ربنا ما يبدو أنه المحور الأساسي للسورة حيث يقول : " و كذلك يضرب الله للناس أمثالهم. "

و بعد أن يأمر بقتال الكفار بلا هوادة ، و استمرار ذلك حتى تضع الحرب أوزارها - بظهور الحق كله على الباطل كله - و يختصر تبيان حكمة القتال في كلمة (الإبتلاء) بعدئذ يبين فضائل الشهداء في سبيل الله حيث يحفظ الله دماءهم ، و سيهديهم ، و يصلح بالهم ، و يدخلهم الجنة.

-3و ينصر الله الذين آمنوا إن هم نصروا دينه و رسوله ، بينما يفشل الكفار ، و يضيع جهودهم . أوليس قد كرهوا ما أنزل الله ؟! (فلهم التعس و الفشل) و أحبط الله أعمالهم (حتى تلك التي تبدو صالحة) و حوادث التاريخ تشهد بهذه السنة . أفلم يسيروا في الأرضفينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم من الكفار كانت عاقبتهم ؟ ان دمر الله عليهم ، حتى ما بقي منهم شيء ، وهذه سنة الله تجري فيمن يأتي بمثل ما جرى فيمن مضى ، و لذلك كان للكافرين أمثالها.

-4و الله مولى الذين آمنوا (يؤيدهم بنصره و يرعى شؤونهم) و ان الكافرين لا مولى لهم (بالرغم من ولايتهم للأصنام و الأنداد إلا أنها ليست بشيء. (

-5الذين آمنوا و عملوا الصالحات يسيرون عبر منهج سليم نحو اهداف سامية ، ولذلك يدخلهم الله الجنة ، بينما الكفار يتمتعون بالدنيا بلا أهداف ،و يأكلون كما تأكل الأنعام ، و النار مثوى لهم ، لأنهم لم يسعوا في الدنيا لاتقائها.

و ينسف القرآن أساس الأفكار على القوة الظاهرية التي يملكها الكفار ببيان : ان هناك قرى كانت أشد من قرية مكة أهلكها الله فلم يكن لها ناصر.

-6المؤمنون على هدى من ربهم لا يمارسون عملا إلا بحجة واضحة من الله ، بينما الكفار يتبعون أهواءهم التي زينت لهم و ليسوا سواءا أبدا . هؤلاء يمضون على شريعة من الأمر واضحة ، بينما أمر أولئك فرط ، لأنهم يميلون مع رياح الهوى أنى اتجهت.

-7قرار المؤمنين و عاقبة أمرهم الجنة بانهارها المتنوعة التي تعطيهم الرواء ، و القوة ، و النشاط ، و اللذة ، و بثمراتها المتنوعة ، و بما فيها من نعمة روحية متمثلة في مغفرة الله ، بينما ليس للكفار إلا النار بما فيها من ماء يغلي يقطع أمعاءهم.

-8كل ذلك لأن الكفار أصموا آذانهم عن الحق ، بينما اهتدى المؤمنون فزادهم الله هدى ، و علمهم كيف يتقون النار .

اولئك لا يؤمنون حتى تأتيهم الساعة التي ظهرت علاماتها ، بينما هؤلاء يستغفرون لبعضهم لأنهم يعلمون ألا إله إلا الله ، و يستغفرون لذنوبهم ، كما للمؤمنين و المؤمنات.

بعد بيان هذه الصفات التي تبصرنا الفروق بين المؤمنين و الكفار ترى السياق ينعطف لبيان المنافقين ، حيث بين أمثالهم أيضا و يجعل القتال في سبيل الله محك التجربة لهم ، فحين ينتظر المؤمنون حقا . و بفارغ الصبر الأوامر الإلهية بالقتال ترى أولئك إذا نزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال ينظرون نظر المغشي عليه من الموت (خوفا و حزنا (وهكذا يخرج الجهاد أضغانهم ، و يظهر مرض قلوبهم.

وقد كان خيرا لهم لو أنهم صدقوا الله في ساعة الجد ، و إذا ملكوا السلطة - وهي مختبر آخر بعد الجهاد لحقيقة أنفسهم - تراهم يفسدون في الأرض ، بمنع اعمارها ، و نشر الرذيلة ، و الفسق ، و الظلم بين أرجائها ، و يقطعون أرحامهم ، كما فعلت بنو أمية و بنو العباس بآل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم . (

أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم (عن سماع الحق) و أعمى أبصارهم (عن رؤية شواهده. (

)و القرآن ميزان لمعرفة حقائق الناس ولكن لمن تدبر فيه) " أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها " (فلا تنفذ بصائر القرآن إلى أفئدتهم. (

و يهدينا السياق إلـى سبب الضلالة بعد الهدى عند هذا الفريق مـن مـرضى القلوب ، الذين سقطوا في وهدة النفاق و يقول : إن هؤلاء الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد أن عرفوا السبيل فانما الشيطان سول لهم (بأن زين لهم الضلال) و أملى لهم.

و إن من مثالب المنافقين و مؤامراتهم القذرة انك تراهم يقولون للذين كرهوا ما نزل الله من الهدى نحن معكم ، و سوف نطيعكم في بعض الأمر ، و نتعاون على ضرب الاسلام (و الله يعلم اسرارهم - كما يعلم اعلانهم. (

وانهم يزعمون أن اتصالهم بالعدو يوفر لهم الحماية ، و لكنهم ماذا يصنعون غدا حين تضرب ملائكة الموت وجوههم و ادبارهم (ولا ينفعهم يومئذ أعوانهم من المشركين بل لا ينتفعون حتى من أعمالهم الصالحة) ذلك لأنهم اتبعوا ما أسخط الله ، و كرهوا رضوانه) المتمثلفي طاعة الرسول ، و النصح للقيادة الشرعية ، و التسليم لأوامر القتال الصادرة منها) فأحبط الله أعمالهم.

كلا .. و يعتمد المنافقون على مبدأ السرية ، ولكن أيحسبون أن الله لن يخرج أضغانهم ، و يظهر مرض القلب الذي تنطوي عليه أنفسهم بالأمر بالقتال ؟!

بلى . ربنا قادر على كشفهم الآن ، بتغيير صورهم ، بل انك قادر على معرفتهم من خلال تضاعيف كلماتهم ، أو من ملامح صورهم.

و يعود القرآن الى الحديث عن القتال ببيان حكمته المتمثلة في الإبتلاء ، و يؤكد : أن الكفار لن يضروا الله شيئا ، و سيحبط أعمالهم . و يأمر المؤمنين بطاعة الله و الرسول و التسليم لأمره بالقتال ، ولا يبطلوا أعمالهم.

أما الكفار الذين يموتون وهم كفار فلن يغفر الله لهم.

و يشحذ الله عزيمة الاستقامة عند المقاتلين ، و يدعوهم الى الصمود ، و ألا يهنوا ، و يدعوا إلى السلم (الذليل) وهم الأعلون (بايمانهم) و ان الله لن يترهم أعمالهم.

و يهون شأن الدنيا في أعينهم ، و يبين أنما الحياة الدنيا لعب و لهو (إلا ما طلب بها الآخرة) ففيه الجزاء بشرطين) الايمان و التقوى) و إذا آمنوا و اتقوا يؤتهم الله أجورهم ، ولا يطلب منهم أموالهم.

وفي خاتمة السورة يذكرنا السياق بضرورة الانفاق في سبيل الله - خصوصا وان القتال بحاجة إليه - و إذا طلب الله كل أموالكم - وهذا امتحان صعب - لانكم تبخلون ، و يخرج الله أضغانكم (و مدى تشبثكم بالدنيا . (

كيف و انتم حين تدعون لإنفاق بعض أموالكم فان منكم من يبخل ، و من يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، و الله الغني و انتم الفقراء.

وفي نهاية السورة نجد إنذارا للمؤمنين بأنهم إن لم يتحملوا مسؤولية الرسالة ، و يتولوا ، يستبدل الله بهم قوما غيرهم.

إن تنصروا الله ينصركم

هدى من الآيات

هل يكفي الإنسان مكسبا أن يمارس العمل أنى كان ؟ كلا .. بل لابد أن يكون العمل على أساس الإيمان بالله و برسله ، و التسليم لما جاءت به الرسالة . أما الذين يكفرون بذلك فإن الله يضل أعمالهم.

هكذا تذكر آيات الدرس الأول من سورة القتال بالأسس الثابتة للعمل المقبول ، وهي:

أولا : الإيمان بما نزل على محمد (صلى الله عليه وآله) دون تمييز أو انتقاء.

ثانيا : اتباع الحق ، و نبذ الباطل.

ثالثا : الجهاد في سبيل الله .

وعن الأساس الثالث الذي يمحص الله به قلوب المؤمنين ، و يطهر صفوفهم منالمنافقين ، يفصل السياق انسجاما مع الإطار العام للسورة المباركة ، و يبين هنا درجات الشهداء حيث يتقبل الله أعمالهم ، و يهديهم ، و يصلح بالهم ، و يدخلهم الجنة التي وعدهم إياها و عرفهم بها.

و يحرض ربنا على الجهاد الذي يعتبره نصرا لدين الله ، بأن يعد المؤمنين بالتأييد الظاهر المتمثل في النصر ، و الباطن المتمثل في الحق تثبيت الأقدام.

كما ينذر الكافرين (الذين رفضوا قبول الرسالة ككل ، فلم يتبعوا الحق ، ولم يجاهدوا في سبيل الله) بزلزلة المواقف ، و عدم ثبات القدم ، كما بضياع الجهود ، و ضلال الأعمال ، كما ينذرهم بإحباط العمل جزاء كرههم لما أنزل الله ، و يأمرنا بالسير في الأرض لنرى بأنفسنا هذه الحقيقة ، و كيف أن مخالفة الحق سببت في هلاكهم و تدميرهم كليا.

بينات من الآيات

[1]لماذا يضل الله أعمال الكافرين ؟ و كيف تتلاشى جهودهم ، و تنهار مقاومتهم للرسالة الإلهية ؟ أرأيت الذي يجد السير في اتجاه الشرق وهو يبتغي مدينة في الغرب ، هل يبلغ هدفه يوما ؟ كذلك الذي يعاكس حركة التاريخ ، و يخالف سنن الله في الحياة ، ألم يخلق الله السموات و الأرض بالحق ، فكيف يحقق من ينشد الباطل هدفه ؟

لقد جاهد المترفون من النصارى أكثر من ألف عام ليثبتوا للناس أن الجنس لعنة ، فهل استطاعوا تمرير ذلك ؟ و حاول الماديون أن يلغوا الجانب الروحي في الإنسان ، فهل قدروا ؟ لماذا فشل هؤلاء و أولئك ؟ لأنهم ساروا في الإتجاه المعاكس لسنن الله ، لأن الله أودعفي البشر الجنس ، كما فطره على الإيمان ، فهو لا يستطيع أن يتجرد عن المادة كليا ولا عن المعنويات ، فذهبت جهود القوم سدى ، لأنهارامت الباطل ، و هكذا قاوم الجاهليون على امتداد الزمن بعثة الرسل فأضل الله أعمالهم ، لأنها لم تكن في الإطار الصحيح.

]الذين كفروا و صدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم[

فلأنهم كفروا فقد أضل الله أعمالهم التي كانت ظاهرة الصلاح ، فحتى لو سقوا الحاج ، و عمروا المسجد الحرام ، فإنها لم تكن نافعة ، لأنها كما البناء الذي زلزل أساسه أو الشجرة التي اجتثت من فوق الأرض.

فمن كفر بالله يكفر بقيم الرسالات ، بالحرية و الإستقلال و العدالة و المساواة و المنهجية العلمية و .. و .. ، و هذه القيم أساس كل عمل صالح.

و هكذا لا ينبغي أن نغتر بظاهر التقدم الذي يحرزه هذا الفريق من الناس ، لأنه ينطوي على تخلف خفي ، و لا يزال بنيانهم على شفا جرف هار.

أرايت كيف وظفوا تقدمهم في انتهاب ثروات الشعوب ، و استعباد المحرومين ، و العلو في الأرض بغير الحق ؟

أرأيت كيف أشعلوا نار الحروب ، و دمروا الديار لكي يحركوا عجلة اقتصادهم ببيع الأسلحة ؟

ألم تر كيف تسابقوا في صناعة اللعنة ، و ملأوا ترساناتهم بأدوات التدمير ذات الشر المستطير ؟

أليس ذلك شاهدا كافيا على تلك الحقيقة ، أن أعمالهم قد ضلت عن طريقها ، ولم تحقق أهدافا في رفاه الإنسانية و خيرها ؟

كما أنهم حين صدوا عن سبيل الله ، و قاوموا الرسالات الإلهية و امتداداتها ، فشلوا و ذهبت مساعيهم سدى ، و هل ينفع سعي من أراد حجب ضوء الشمس بيده ؟!

[2]أما الذين آمنوا بالله ، و آمنوا بكل تلك السنن الماضية في الكائنات و القيم المنبعثة منها ، فإنهم اختاروا الإطار المناسب لعملهم ، و بالتالي وفروا الضمانة المناسبة لبقاء أعمالهم ، كمن يبني في الصحراء سورا منيعا يحفظ أرضه من الرياح السافيات و العواصف الهوج ثم يزرع ما يشاء.

]و الذين ءامنوا و عملوا الصالحات[

ضمن إطار الإيمان ، و على أساسه ، و انطلاقا من قيمه.

]و ءامنوا بما نزل على محمد [

الرسول الذي أكمل الله به رسالاته ، فلم يفسدوا قلوبهم بالعصبية و الحقد و العداء للرسول و التكبر عليه.

و تشير الآية الى ضرورة الإيمان بالنبي محمد (صلى الله عليه و آله) بصورة كاملة ، فمن يزعم بأنه نبي العرب دون غيرهم ، أو أنه قائد بشري لا يتميز بالعصمة الإلهية ، أو أنه قد ينطق عن الهوى ، أو يهجر حسب الظروف ، أو ما أشبه ، فإنه لم يؤمن حقا بمحمد (صلى الله عليه وآله) ، وقد قال الله سبحانه : " ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا " (١) ، وقال " : و إنك لعلى خلق عظيم " ، و قال : " ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين. "

(1)الحشر / ٧

الإيمان بمحمد (ص) دليل لصدق الإيمان بالله ، فمن استكبر عن هذا الإيمان فإنه قد كفر بالحق وهو أساس كل إيمان.

]وهو الحق من ربهم[

فلأنه حق من الله لابد من التسليم له ، لا على أسس باطلة ، فلأن محمدا (ص) خليفة الله في الأرض لابد من طاعته و التسليم له ، لا لأنه قائد عربي أو سيد قرشي أو عظيم من بني هاشم.

ومن آمن بالرسول انطلاقا من هذه القيمة -قيمة الحق - آمن كذلك بخلفائه الأئمة الأبرار ، لأنهم الإمتداد الصادق له ، و من آمن بالأئمة على هذا الأساس فإنه يؤمن بالفقهاء الصالحين ، الذين هم ورثة الأنبياء و حجج الله بالنيابة .. وهكذا لا يجد المؤمن بالحقحرجا في نفسه من طاعة أولي الأمر الشرعيين ومن التسليم لكل ماهو حق ، لأن مقياسه في كل ذلك سواء.

اما من آمن بالرسول بحوافز مادية فإنه ينفصل عن خط الرسول ، و يمضي أنى اتجهت حوافزه ، فإذا وجد قائدا عربيا مخالفا للرسول أو سيدا قرشيا عاصيا لله أو عظيما هاشميا فاسقا فإنه لا يجد حرجا في أتباعه ، بينما الله يأمره بالكفر بالطاغوت و الثورة عليه.

]كفر عنهم سيئاتهم[

يبدو أن هذا جزاء إيمانهم . أتدري لماذا ؟ لأن الهدف الاسمى من تشريع الأحكام إبتلاء الإنسان في

مدى طاعته للحق و تسليمه لمن أرسل به ، فإذا أطاع الإنسان ربه ، و سلم للقيادة الشرعية ، فقد ابتلي بأصعب الأمور ، ذلك لأن الطاعة في المسائل السياسية و الإجتماعية ، وحيث تعصف رياح الفتن ، و تغتلم

العصبيات ، و يعلو غبار الشبهات . إن هذه الطاعة هي صعب مستصعب لا يحتمله إلا من امتحن الله قلبه للإيمان .

و إن كثيرا من الناس ممن سكن شيطان الكبر و العصبية في قلوبهم يفضلون إداء أحمز الأعمال الصالحة على لحظة واحدة من التسليم للقيادة الشرعية فيما يخالف أهواءهم أو يعارض أراءهم.

من هنا يكفر الله سيئات من أطاع الله و رسوله و أولي الأمر الشرعيين تسليما لله و رضا بما فرضه عليه .

]و أصلح بالهم[

قالوا :البال هو الحال أو الشأن ، و أمور الإنسان ، و أهم أحواله ، وقال بعضهم :هو القلب ، من قولهم : ما يخطر ببالي . (١)و إصلاح البال : رخاء الحال بما يرضي القلب.

و يبدو أن ذلك يتعلق بالأعمال الصالحة التي أدوها ضمن إطار الإيمان فأثمرت صلاحا في أنفسهم وما يتعلق بها من شؤون ، لأنها كانت في الطريق السليم ، ولو كانت في سبيل الكفر فإنها لن تثمر بل كان الله يضلها.

[3]كيف نقيم الناس ، و على أي مقياس ، هل بلغتهم أو وطنهم أو أنسابهم أو بقدر ما يملكون من مال و جاه و سلطة ؟ كلا .. لأن كل ذلك جاهلية و تخلف ، فهل تصادق كل من يتحدث العربية ولو كان خائنا شقيا ؟ و إيهما أفضل لك من يسكن بلادا بعيدة و يسدي إليك خدمة أو جارك السيء الذي دائما يؤذيك ؟ وهل

(1)القرطبي / ج ١٦ - ص 224

هما سواء عندك ابن عمك الذي يأكل أموالك بالباطل و القاضي الذي يرد حقك إليك ؟ وماذا ينفعك غنى الثري الذي يمتص دماء المحرومين ؟ و ماذا يضرك فقر البائس الذي يعيش إلى جنبك بوداعة و طيبة ؟

العقل يحكم بفساد تلك المقاييس جميعا ، و إنما المقياس هو الحق ، فمن اتبعه صاحبناه ، و من خالفه عاديناه ، أنى كانت سائر الوشائج بيننا و بينه.

وبما أن الكفار اتبعوا الباطل بما يحمل من أخطار عليهم وعلى الإنسانية فإننا نعاديهم ، حتى ولو كانوا ينطقون بلغتنا ، و يسكنون وطننا ، أو كانوا من ذوي أقاربنا.

بينما المؤمنون الذين يتبعون الحق نستريح إليهم ، لأن الحق ينفعنا جميعا ، حتى ولو كانوا من الأبعدين لغة ، و وطنا ، و قرابة.

]ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل و أن الذين ءامنوا اتبعوا الحق من ربهم [و العقل يعرف الحق ، و لكن ليس بذلك الوضوح الذي يجعله مطمئنا بكل تفاصيله ، بينما الوحي الذي يهدينا إليه العقل يفصل مجملات العقل تفصيلا مبينا . العقل يحكم - مثلا - بحسن العدل ، و لكنه قد يتشابه عليه العدل في قضية فيقف حائرا ، وهنا يفصل الوحي حكم العدل فيها بما يستثيره من دفائن العقل ، و يكشفه من خبايا العلم ، وما يبينه من أحكام الشرع.

]كذلك يضرب الله للناس أمثالهم[

المثال :مجموعة الصفات التي يجسدها الشخص ، فإذا قلنا : مثال فلان ، أيجملة نعوته الحسنة أو السيئة ، مما تستصحب على من يشابهه فيها ، وهي في مقابل الذات ، و الذات لا تهمنا (لأن الناس في الذات لا يختلفون) ، إنما يهمنا الصفات التي تحيط بهذه الذات ، وهي مثالهم.

و حين يعطينا القرآن مقياس الحق و الباطل فإنه يبين لنا أمثال الناس ، و جملة صفاتهم ، و التي بها نستطيع أن نعرف كيف نتصرف مع هذا و ذاك ، فمن اتبع الحق والياه ، لأنه (مثل حسن) ، و من اتبع الباطل عادياه ، لأنه (مثل سيء. (

[4]و لأن هنالك مثالين : مثال الحق المتجسد في المؤمنين ، و مثال الباطل المتجسد في الكفار ، فإن الصراع قائم بينهما ، و يتحول إلى قتال ، و على المؤمنين أن يستعدوا نفسيا للمواجهة.

]فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب[

اللقاء هنا هو لقاء المواجهة الدامية ، ولا يعني - فيما يبدو من سياق الكلمة في سائر الآيات - أي لقاء بين مؤمن و كافر.

و ضرب الرقاب : تعبير عن أشد أنواع القتل و أوضح صوره ، و به يتجلى الغضب المقدس الذي تمتلأ به روح المؤمن المخلص للحق.

و قالوا : معناه : اضربوا ضرب الرقاب.

و لعل الكلمة توحي بضرورة حسم المعركة بأقوى الأسلحة ، مما تسمى بالحرب الصاعقة التي عادة تقلل من الخسائر في الطرفين ، بعكس حرب الإستنزاف التي قد تكون وبالا على الطرفين.

و لعل الحرب الصاعقة هي المرادة أيضا من آيات أخرى في الكتاب ، كقولهسبحانه : " فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم . "

]حتى إذآ أثخنتموهم[

قالوا :الثخن بمعنى الغلظة ، و يطلق على الغلبة ، و نقل عن لسان العرب اثخن إذا غلب و قهر ، و قال البعض : أنه بمعنى تراكم القتلى و الجرحى فوق الأرض.

]فشدوا الوثاق[

أي قيدوهم بحبل أو ما أشبه بشدة كناية عن أسرهم.

و يستوحى من الآية أن مرحلة أخذ الأسرى متأخرة عن مرحلة القتال ، فلا ينبغي أن ينشغل الجيش قبل قهر عدوه بالأسرى.

]فإما منا بعد و إما فدآء[

هنالك يختار القائد بين أن يمن على الأسير بإطلاق سراحه ، حين لا يرى في إبقائه مصلحة أو يرى في إطلاق سراحه مصلحة هامة للمسلمين ، و بين أن يقبل الفدية التي قد تكون قدرا من المال يفرض على العدو بإزاء كل أسير ، و قد تكون بعض التنازلات و الضمانات أو ماأشبه ، و لعل من معانيه القيام بتبادل الأسرى مع العدو.

و قال الفقهاء تبعا للنصوص الشرعية : إن هنالك خيارا ثالثا هو استرقاق الأسرى.

]حتى تضع الحرب أوزارها[

و الوزر هو الثقل ، و الحرب ثقيلة على الأمة بما فيها من مشاكل ، كما أنساحات القتال تشهد الأسلحة و الأدوات و الأجهزة القتالية و إذا توقف القتال أعيدت كليا إلى المخازن ، و هذه كناية عن توقف الحرب ، و لكن متى تتوقف حرب المسلمين مع أعدائهم بصورة كلية ؟

إن من السذاجة الركون إلى السلم في عالم تحكمه شريعة الغاب ، يأكل القوي الضعيف ، و ينفق الأعداء قسما كبيرا من مواردهم في الإستعداد للحرب ، بالرغم من أن النفوس تكره الحرب بطبعها ، و تميل إلى الخفض و الدعة ، و قد ينخدع الإنسان بمظاهر الود و الموادعة الحاكمة على الأجواء ، فلا يعد نفسه للقتال ، فيؤخذ على غرة.

لذلك أمرنا القرآن بالإستعداد أبدا للدفاع عن أنفسنا وعن الرسالة التي نحملها إلى الإنسانية المعذبة ، فقال : " و أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل " . فمادام المسلمون يرفضون التخلي عن قيمهم و استقلالهم و حقوقهم فلابد أن يستعدوا للدفاع المقدس ، و قد يكون الإستعداد التام للدفاع أفضل وسيلة لتجنب ويلات الحرب ، لأنه يردع الأشرار من الإعتداء.

لذلك جاء في الحديث المأثور عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) : " و الجهاد ماض مذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال " . (١)[ذلك ولو يشآء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض]فالله سبحانه الذي دمر عادا الأولى بالريح الصرصر ، و أهلك ثمود فما أبقى ، و لم يذر أحدا من القرى المؤتفكة من قوم لوط ، أوليس بقادر على أن يبعث على كل طاغية و مستكبر صاعقة من السماء فيهلكهم ؟ بلى . وقد يفعل بهم عندما يبلغون(١) مجمع البيان / ج ٦ - ص ٩٨

آجالهم ، لأنه ينصر دينه بما يشاء ، كيف يشاء.

بيد أن حكمة الحرب التي يخوضها المسلمون تتلخص في إظهار خبايا المسلمين ، و إبلاء سرائرهم.

أولا : بفصل الصادقين منهم عن الكاذبين.

ثانيا : بتطهير قلوب الصادقين منهم من شوائب النفاق و المصلحية.

وقد قال ربنا سبحانه (وهو يبين الهدف الأول) : " أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم و يعلم الصابرين " (١) ، و قال تعالى) وهو يشير إلى الهدف الآخر) : " و ليمحص الله الذين آمنوا و يمحق الكافرين (2) . "

و إذا كانت الحــرب بوتقة تطهر المجتمع الإسلامي من العناصر الضعيفة و المنافقة ، كما تطهر قلب كل من يخوضها من أدرانه ، فإن علينا أن نتخذ منها مدرسة للبطولة و الإيثار ، لا ننشد منها فخرا ولا نصرا ، و إنما نسعى لتزكية أنفسنا فيها ، و تربيتها على الشجاعة و الفداء ، و نتبع في ذلك الإمام علي (عليه السلام) حيث يقول : " و الله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها " (٣) ، و يقول وهو يوصي نجله محمد بن الحنفية حين يدفع به في أتون المعركة : " تزول الجبال ولا تزل عض على ناجذك . أعر الله جمجمتك . تد في الأرض قدمك . إرم ببصرك أقصى القوم ، و غض بصرك ، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه " (٤. (

(1)آل عمران / ١٤٢

(2)آل عمران / ١٤١

(3)نهج البلاغة / كتاب ٤٥

(4)المصدر / ص ٥٥

و إذا كان الهدف من الحرب الأساسي إبتلاء المؤمنين فإن النصر من عند الله ، ينزله عليهم متى تمت حكمة الإبتلاء ، و علم منهم الصبر و الإستقامة ، سواءا توافرت عوامل النصر المادية ، أم لا ، و معرفة هذه الحقيقة تزيد الجيش الإسلامي بطولة و استبسالا و صبراو استقامة.

]و الذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم[

لأنهم مضوا على النهج الإلهي ، و استشهدوا في سبيل الله ، فإن الله الذي لا تضيع عنده الودائع ، الله الذي له ملك السماوات و الأرض . إنه سبحانه يحفظ أعمالهم ، و يؤيد بقدرته القضية التي ضحوا من أجلها ، و هذا هو أهم ما ينشده العاملون في سبيل الله.

و نستوحي من هذه الآية أن الدم المقدس الذي يرخصه صاحبه في سبيل الله هو السياج المنيع لقيم الرسالة.

و ربمـا اشار الى ذلك الحديث المأثور عن الإمام الصادق عن آبائه (عليهم السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) في فضل الجهاد في سبيل الله:

"للجنة باب يقال له باب المجاهدين ، يمضون إليه فإذا هو مفتوح ، و هم متقلدون سيوفهم ، و الجمع في الموقف ، و الملائكة ترحب بهم ، فمن ترك الجهاد ألبسه الله ذلا في نفسه ، و فقرا في معيشته ، و محقا في دينه . إن الله تبارك و تعالى أعز أمتي بسنابك خيلها ، و مراكز رمحها(1) "

[5]الأمة التي تجاهد في سبيل الله لا تضيع جهودها ، و لا تضل أعمالها .إنها سوف تحقق أهدافها ، ولا يستطيع أحد أن يصادر حقوقها ، و ينهب ثرواتها.

(1)بحار الأنوار / ج ٩٧ - ص ٩

أليست تقاوم المعتدي ، و تصنع حول حقوقها و جهودها سورا منيعا من بطولات أبنائها و دماء شهدائها ؟

و هذه الأمة لا تضل طريقها ، لأن الله يهديها بفضل جهادها في سبيله.

]سيهديهم[

إن الجبن أكبر حاجز دون فهم الحقائق ، و كثير من الناس يبررون الفساد و التبعية جبنا و فرارا من مواجهة السلطات الطاغية ، و هكذا يخدعون أنفسهم ، و يسلب الله عنهم نور الهداية ، و يذرهم في ظلمات الجهل ، أولم يقل ربنا سبحانه : " و الله لا يهدي القومالظالمين " ؟

بينما المجاهدون الذين يتقدمون بخطى شجاعة حتى الشهادة في سبيل الله ، يتبصرون الحقائق بوضوح كاف ، لأنهم مستعدون لمواجهتها أنى كانت عواقب المواجهة.

وهذه الهداية التي يورثها الشهداء لأمتهم تتصل بالهداية في الآخرة حيث تبلغ بهم منازلهم في الجنة.

]و يصلح بالهم[

إن الشهادة عنوان الإستقلال ، و سور التقدم ، و طريق الغنى ، و سبيل العزة ، و أمة تملك الشهداء لا تعدم هذه المكاسب.

إن الحياة السعيدة المطمئنة الصالحة رهينة الدماء التي تراق في سبيل الله.

و صلاح البال و رفاه الحال في الدنيا يتصل بصلاح بال الشهداء في الآخرة) بلو صلاح بال من هم في خطهم و على خطاهم من أنصارهم ومن تجري فيهم شفاعتهم (حيث هم أحياء عند ربهم يرزقون.

وهكذا نستوحي من الآية أن المعني بها ليس فقط الشهداء أنفسهم ، بل أمتهم ايضا و ليس في الآخرة فحسب ، بل في الدنيا أيضا ، أوليست الآخرة امتدادا للدنيا ، و هما بالتالي حياة واحدة أولها هنا و آخرها هناك ؟

و إننا نجد في النصوص الإسلامية التي وردت في فضل الجهاد توضيحا لهذه الشمولية (للدنيا و الآخرة) ، لأن المجاهدين كلمة تعم الشهداء منهم و الأحياء المنتظرين للشهادة ، كما قال ربنا سبحانه : " من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه و منهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا " . (١)[٦] [و يدخلهم الجنة عرفها لهم[

تلك الجنة التي طالما اشتاقوا إليها بما عرفها ربهم لهم ، و ربما شاهد كل واحد منهم منزله في الجنة قبل خروج روحه لينتقلوا الى الدار الآخرة بكل رضا و طمأنينة ، فقد جاء في حديث مفصل مأثور عن أمير المؤمنين عن النبي (صلى الله عليه و آله و سلم: (

"و إذا زال الشهيد عن فرسه بطعنة أو ضربة لم يصل إلى الأرض حتى يبعث الله عز و جل زوجته من الحور العين فتبشره بما أعد الله له من الكرامة ، فإذا وصل إلى الأرض تقول له : مرحبا بالروح الطيبة التي أخرجت من البدن الطيب . أبشر فإن لك ما لا عين رأت ،ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

و يقول الله عز و جل : أنا خليفته في أهله ، و من أرضاهم فقد أرضاني ، و من أسخطهم فقد أسخطني ، و يجعل الله روحه في حواصل طير خضر تسرح في الجنة(١ (الاحزاب / ٢٣

حيث تشاء ، تأكل من ثمارها ، و تأوي إلى قناديل من ذهب معلقة بالعرش ، و يعطى الرجل منهم سبعين غرفة من غرف الفردوس ما بين صنعاء و الشام ، يملأ نورها ما بين الخافقين ، في كل غرفة سبعون بابا ، على كل باب سبعون مصراعا من ذهب " (١. (

[7]و يحرض القرآن الذين آمنوا ، و استعدوا لتنفيذ أوامر الرسالة ، و عرفوا قيم الحق الذي أنزل من ربهم ، يحرضهم على الجهاد في سبيل الله بنصر دينه ، و يبشرهم لقاء ذلك بالفتح و الثبات.

]يا أيها الذين ءامنوا إن تنصروا الله ينصركم و يثبت أقدامكم]ذلك أن الإيمان ليس مجرد العمل بالإسلام في حدود القضايا الشخصية ، و إنما ايضا تحمل مسؤولية الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله في الأرض.

و ربما جاء التعبير بنصر " الله " مع أن الله غني عن العالمين ، ليكون شاملا لنصر كل ما يتصل بالإيمان بالله ، في كل حقل ، وفي كل عصر و مصر ، حتى يكون المؤمن قواما لله ، مستعدا للدفاع عن الحق أبدا في مواجهة أي شخص أو قوة.

و إنما جزاء النصر نصر مثله ، فمتى نصرت الله بتطبيق دينه على نفسك و أهلك و الأقربين منك و مجتمعك ، و دافعت عنه ضد أعداء الله ، فإن الله ينصرك بذات النسبة . أما إذا اقتصر نصرك على بعض المجالات فلا تنتظر نصرا شاملا.

و هكذا تتسع آفاق هذه الآية لكل جنبات الحياة ، و لا تختصر في الجهاد المقدس ، بالرغم من أنه المثل الأعلى لها.

(1)راجع موسوعة بحار الأنوار / ج ١٠٠ - ص ١٣

و ثبات القدم هو التأييد الرباني الأسمى ، لأن هزيمة النفس أنكر هزيمة ، و الحرب صراع إرادات قبل أن تكون مقارعة الأسلحة ، و من كان أكثر صبرا ، و أمضى إرادة ، و أعظم ثباتا ، فإنه يكون أقرب إلى النصر.

و صراع الإنسان مع هوى نفسه أعظم من صراعه مع أعدائه . ألم تكن مخالفة الهوى هي الجهاد الأكبر ؟ و الله سبحانه قد وعد المؤمنين بأن يعينهم في جهادهم مع أنفسهم إن هم نصروا دينه و جاهدوا أعداءه ، و هذه أعظم نعمة من نصرهم على عدوهم الظاهر.

و الواقع : إن سنة الله قد قضت بأن القيم و الشرائع التي أريقت الدماء من أجل تكريسها أشد ثباتا في النفوس و في المجتمع من غيرها ، و هكذا في كل أمر ، فكل مكسب حصلت عليه بصعوبة لابد أن تتشبث به بشدة ، أما الذي ملك البلاد بغير حرب فإنه يهون عليه تسليمالبلاد.

[8]أما الكفر الذي يتشعب إلى شعب ، فمنه الكفر بالله ، و منه الكفر بالرسول ، و منه الكفر ببعض ما أرسل به كالجهاد في سبيل الله ، فإنه يؤدي الى زلزلة الموقف ، و ضياع الجهد.

]و الذين كفروا فتعسا لهم[

قالوا : التعس هو الوقوع على الوجه ، و كأنه تعبير عما يقابل ثبات القدم.

]و أضل أعمالهم[

حتى الذي يبدو صالحا من أعمالهم ، لأنه لم يكن على الطريق السوي.

[9]ما هو سبب كفرهم و هلاكهم ؟ إن جذر ذلك كرههم لرسالة الله المنبعثمن كبرهم و تعصبهم و تقليدهم لآبائهم ، فاتخذوا موقفا سلبيا من الرسالة.

]ذلك بأنهم كرهوا مآ أنزل الله[

و بالذات فيما يخالف هواهم ، أو يعارض مصالحهم كالسياسة و الإقتصاد.

]فأحبط أعمالهم[

فإذا لم يسلموا لولاية الله في السياسة و الإقتصاد و سائر الأمور الأساسية لم تنفعهم صلاتهم و صدقاتهم ، لأنها لم تكن ضمن الإطار الصحيح ، و كان مثلهم كالذي زرع في غير أرضه أو سعى بغير هدى أو سار على غير طريقه.

إن عشرات السنين من الجهد قد تذهب بها ساعة من التهور أو الجبن أو اتباع الشهوة ، كالذي يبني أعظم عمارة فوق أرض رملية ! أرأيت كيف يقود طاغية مهووس بالسلطة باحث عن الكبرياء في الأرض شعبه الذي سلم له خوفا و طمعا في حرب طاحنة ، تهدم البلاد ، و تقتل الملايين ، و تضيع مساعي عشرات السنين في بضعة أيام ؟ أو ما سمعت ما حدث في المانيا على عهد الطاغية هتلر ، و كيف أنهم بخضوعهم لذلك الديكتاتور أحبطت أعمالهم ، و تلاشت جهودهم ؟

وكم من مثل يتجلى لنا في صفحات التاريخ لهذه المعادلة.

وليس الإقتصاد الفاسد بأقل خطرا من السياسة الفاسدة ، فإن الإستغلال قد يذهب بمكاسب الملايين من البشر ، و لا يدعهم يستفيدون من مكاسبهم . أليس من الحكمة أن يصلحوا اقتصادهم حتى لا تحبط أعمالهم ، ولا تذهب جهودهم سدى ؟

قالوا :إن الجسم الذي يبتلى بالطفيليات لا تنفعه المقويات ، إذ أنها بدل أن تقوي الجسد تقوي عدوه المتمثل في الطفيليات ، و كذلك الإقتصاد المبتلى بالمستغلينلا ينشط إلا لمصلحتهم ، و باعتبارهم أعداء الإقتصاد فإن دورة نشاطه لا تزيده إلا تخلفا ، وهذا أحد معاني الإحباط.

وفي الأخلاق -كما في السياسة و الإقتصاد - تصدق هذه المقولة ، فإنك تجد البعض من الناس يفقدون في لحظة تهور أو نزق ما اكتسبوه من سمعة حسنة خلال عشرات السنين . أليس ذلك يعني الإحباط ؟

و بكلمة : إنما ينفع العمل إذا كان أساسه سليما ، أما العمل القائم على أساس منهار فإنه ليس لا ينفع فقط ، بل وقد يصبح خطرا على صاحبه.

و أساس العمل الصالح : السياسة الصالحة ، الإقتصاد الصالح ، القيم الراشدة في السلوك.

[10]و التاريخ أفضل مدرسة ، و السير في الأرض لدراسة تجارب الأولين على الطبيعة أفضل منهج في هذه المدرسة ، إذ يجعلنا نلمس الحقائق بصورة مباشرة بعيدا عن تفسيرات المتخلفين ، و خرافات الأولين.

]أفلم يسيروا في الأرض[

دعنا نسير في مناكب الأرض لنبحث عن آثار الأولين فيها ، بشرط ألا تستوقفنا الآثار بل العبر التي وراءها .

]فينظروا[

بأم أعينهم على الطبيعة ، دون وسائط نقل ، و تفسيرات خاطئة.

]كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم[

كان الدمار شاملا فوقهم ، فلم يبق من أنبائهم و أموالهم و ديارهم شيء ، و هذه ليست خاصة بعصر دون عصر ، إنما هي شاملة لكل العصور.

]و للكافرين أمثالها[

فكل كافر لابد أن ينتظر شيئا مشابها لذلك العذاب ، لأن سنن الله لا تتغير.

[11]ما الذي يضمن أعمال المؤمنين ؟ إيمانهم بالله ، و دخولهم في حصن ولايته ، وهي الولاية الحق التي تشمل الخليقة . أما الكفار فهم بقوا خارج هذا الحصن المنيع فضاعت جهودهم ، و تلاشت مساعيهم.

]ذلك بان الله مولى الذين ءامنوا[

و قد زعم الكفار بأن الآلهة المزيفة تحفظهم و تحفظ أعمالهم فخاب سعيهم ، لأن الآلهة ليست أبدا موالي بحق . إنهم ضعفاء مثلهم ، وهل يحمي ضعيف ضعيفا ؟

]و أن الكافرين لا مولى لهم [

مثل الجنة التي وعد المتقون

هدى من الآيات

لكي لا تتميع الحدود بين الحق و الباطل ، بين الكفر و الايمان ، و بالتالي بين الكافرين و المؤمنين ، تتوالى آيات الذكر ببيان الفروق الكبيرة بين الفريقين في الدنيا و في الآخرة.

و لكي يستعد المؤمنون لمواجهة الكفار عسكريا ، بالرغم من اعتمار قلوبهم بالرحمة الإيمانية ، لابد أن يعرفوا ماذا يعني الكفر ، وما مصير الكفار ؟

ألف / إن الله يدخل المؤمنين الجنة لماذا ؟ لأنهم عرفوا حكمة الخلق فحققوها بأفعالهم ، بينما استمتع الكفار بالحياة الدنيا ، و أكلوا بلا هدف ، كما تأكل الانعام ، فكان مصيرهم النار.

باء / و الله ولي المؤمنين ينصرهم ، بينما الكفار لا ناصر لهم ، و شاهد ذلك أنهم أهلكوا فلم ينتصر لهم أحد.

جيم / و المؤمنون على هدى و بينة من ربهم . أما الكفار فقد زين لهم سوء أعمالهم ، و اتبعوا أهواءهم.

دال /وفي الجنة أنهار مختلفة ، تروي عطش المؤمنين ، و تعطيهم القوة و النشاط و اللذة ، بينما الكفار يخلدون في النار ، و يسقون ماءا حميما يقطع أمعاءهم.

هاء / و بينما طبع الله على قلوب الكفار حتى أنهم لا يفقهون ما يقال لهم فاتبعوا أهواءهم ، نجد المؤمنين قد اهتدوا بضياء الوحي فزادهم الله هدى ، و زودهم بالتقوى حتى يتبعوا الحق من ربهم.

و ترى الكفار ينتظرون ، بينما المؤمنون يهتدون ، و لكن ماذا ينتظرون ؟ الساعة . فهذه علاماتها وقد جاءتهم ، و إذا نزلت بهم فجأة ماذا ينفعهم الهدى ؟

و ينتهي الدرس بالتذكرة بالله الذي لو علم الانسان أنه الله الواحد الأحد استغفر لذنبه (ولم يتشبث بالأنداد من دونه ليخلصوه من ذنوبه) كما استغفر للمؤمنين و المؤمنات الذين سوف يرتبط بهم إيمانيا ، و يتخذ منهم موقفا لا عداء فيه و لا تقديس ، و الله يعلمأطوار حياة البشر و تقلباتهم ، كما يعلم مثواهم.

بينات من الآيات

[12]من يؤمن بالله ، ولا يكتفي بالايمان وحده ، بل يجعل من صبغة حياته تفيض على سلوكه ، فله أجره عند ربه ، و ما أعظمه من أجر!

]إن الله يدخل الذين امنوا و عملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار [تعالوا إلى حيث رسول الله يرغبنا بكلامه الصادق العذب في جنات ربنا ،حيث أعدها الله دارا لضيافته ، و دعا إليها كرام خلقه ، وها هو الرسول يحدثنا ألا تسمعون : " فيدخل (المؤمن الجنة) فاذا هو بشجرة ذات ظل ممدود ، و ماء مسكوب ، و ثمار مهدلة ، يخرج من ساقها عينان تجريان ، فينطلق إلى إحداهما فيغتسل منها فيخرج عليــهنضرة النعيم ، ثم يشرب من الأخرى فلا يكون في بطنه مغص ولا مرض ولا داء أبدا ، و ذلك قوله : " و سقاهم ربهم شرابا طهورا " ، ثم تستقبله الملائكة فتقول : طبت فادخلها مع الخالدين ، فيدخل فاذا هو بسماطين من شجر ، أغصانها اللؤلؤ ، و فروعها الحلي و الحلل ، ثمارها مثل ثدي الجواري الأبكار ، فتستقبله الملائكة معهم النوق و البراذين و الحلي و الحلل فيقولون : يا ولي الله اركب ما شئت ، و البس ما شئت ، و سل ما شئت ، قال : فيركب ما اشتهى ، و يلبس ما اشتهى ، و هو على ناقة أو برذون من نور ، و ثيابه من نور ،و حليه من نور ، يسير في دار النور ، معه الملائكة من نور ، و غلمان من نور ، و وصائف من نور ، حتى تهابه الملائكة مما يرون من النور ، فيقول بعضهم لبعض : تنحوا فقد جاء وفد الحليم الغفور ، قال : فينظر إلى أول قصر له من فضة مشرفا بالدر و الياقوت فتشرف عليهأزواجه فيقولون : مرحبا مرحبا إنزل بنا ، فيهم أن ينزل بقصره ، قال : فتقول الملائكة : سر يا ولي الله فان هذا لك و غيره ، حتى ينتهي الى قصر من ذهب مكلل بالدر و الياقوت فتشرف عليه أزواجه فيقلن : مرحبا مرحبا يا ولي الله إنزل بنا ، فيهم أن ينزل به فتقول لهالملائكة : سر يا ولي الله فان هذا لك و غيره.

قال : ثم ينتهي إلى قصر مكللا بالدر و الياقوت فيهم بالنزول بقصره فتقول له الملائكة : سر يا ولي الله فان هذا لك و غيره ، قال : ثم يأتي قصرا من ياقوت أحمر مكللا بالدر و الياقوت فيهم بالنزول بقصره فتقول له الملائكة : سر يا ولي الله فان هذا لك و غيره ،قال :فيسير حتى أتي تمام ألف قصر ، كل ذلك ينفذ فيه بصره ، و يسير في ملكه اسرع من طرف العين ، فإذا انتهى إلى أقصاها قصرا نكس رأسه ،

فتقولالملائكة :مالك يا ولي الله ؟ قال : فيقول : و الله لقد كاد بصري أن يختطف ، فيقولون : يا ولي الله أبشر فإن الجنة ليس فيها عمى ولا صمم ، فأتى قصرا يرى باطنه من ظاهره ، و ظاهره من باطنه ، لبنة من فضة ، و لبنة ذهب ، و لبنة ياقوت ، و لبنة در ملاطه المسك ،قد شرف بشرف من نور يتلألأ ، و يرى الرجل وجهه في الحائط.

قال : و إن في الجنة لنهرا حافتاه الجواري ، قال : فيوحي اليهن الرب تبارك و تعالى : أسمعن عبادي تمجيدي و تسبيحي و تحميدي ، فيرفعن أصواتهن بألحان و ترجيع لم يسمع الخلائق مثلها قط ، فتطرب أهل الجنة ، و إنه لتشرف على ولي الله المرأة ليست من نسائه من السجف فملأت قصوره و منازله ضوءا و نورا ، فيظن ولي الله أن ربه أشرف عليه ، أو ملك من ملائكته ، فيرفع رأسه فاذا هو بزوجة قد كادت يذهب نورها نور عينيه ، قال : فتناديه : قد آن لنا أن تكون لنا منك دولة ، قال : فيقول لها : ومن أنت ؟ قال : فتقول : أنا ممن ذكرالله في القرآن : " لهم ما يشاؤون فيها و لدينا مزيد " ، فيجامعها في قوة مائة شاب ، و يعانقها سبعين سنة من أعمار الأولين ، وما يدري أينظر الى وجهها أم إلى خلقها أم إلى ساقها ؟ !فما من شيء ينظر إليه منها إلا رأى وجهه من ذلك المكان من شدة نورهاو صفائها ، ثم تشرف عليه أخرى أحسن وجها و أطيب ريحا من الأولى ، فتناديه فتقول : قد آن لنا أن يكون لنا منك دولة ، قال : فيقول لها : ومن أنت ؟ فتقول : أنا من ذكر الله في القرآن : " فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءا بما كانوا يعملون."

قال : وما من أحد يدخل الجنة إلا كان له من الأزواج خمسمائة حوراء ، مع كل حوراء سبعون غلاما و سبعون جارية كأنهن اللؤلؤ المنثور ، كأنهن اللؤلؤ المكنون (و تفسير المكنون بمنزلة اللؤلؤ في الصدف لم تمسه الأيدي ، ولم تره الأعين ، و أما المنثور فيعني في الكثرة) وله سبع قصور في كل قصر سبعون بيتا ، في كل بيت سبعونسريرا ، على كل سرير سبعون فراشا ، عليها زوجة من الحور العين ، " تجري من تحتهم الأنهار " " أنهار من ماء غير آسن " صاف ليس بالكدر ، " و أنهار من لبن لم يتغير طعمه " لم يخرج من ضرر المواشي ، " و أنهار من عسل مصفى "لم يخرج من بطون النحل ، " و أنهار من خمر لذة للشاربين " لم يعصره الرجال بأقدامهم ، فاذا اشتهوا الطعام جاءهم طيور بيض يرفعن أجنحتهن فيأكلون من أي الألوان اشتهوا جلوسا إن شاؤوا أو متكئين ، و إن اشتهوا الفاكهة تسعبت إليهم الأغصان فأكلوا من أيها اشتهوا ، قال : " الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار " (١. (

هذا و طبيعة المتقين في الجنة تختلف عنها في الدنيا اختلافا شاسعا ، فقد روي عن الإمام أبي جعفر الباقر)ع: (

"إن أهل الجنة جرد مرد مكحلين مكللين مطوقين مسورين مختمين ناعمين محبورين مكرمين ، يعطى أحدهم قوة مائة رجل في الطعام و الشراب و الشهوة و الجماع ، قوة غذائه قوة مائة رجل في الطعام و الشراب ، و يجد لذة غذائه مقدار أربعين سنة ، و لذة عشائه مقدار أربعين سنة ، قد ألبس الله وجوههم النور ، و أجسادهم الحرير ، بيض الألوان ، صفر الحلي ، خضر الثياب. "

"إن أهل الجنة يحيون فلا يموتون أبدا ، و يستيقظون فلا ينامون أبدا ، و يستغنون فلا يفتقرون أبدا ، و يفرحون فلا يحزنون أبدا ، و يضحكون فلا يبكون أبدا ، و يكرمون فلا يهانون أبدا ، و يفكهون ولا يقطبون أبدا ، و يحبرون و يسرون أبدا ، و يأكلون فلا يجوعون أبدا ، و يروون فلا يظمؤون أبدا ، و يكسون فلا يعرون أبدا ، و يركبون و يتزاورون أبدا ، و يسلم عليهم الولدان المخلدون أبدا بأيديهم(١) بحار الأنوار / ج ٨ - ص ٢١٢

أباريق الفضة و آنية الذهب أبدا ، متكئين على سرر أبدا ، على الأرائك ينظرون أبدا ، يأتيهم التحية و التسليم من الله أبدا ، نسأل الله الجنة برحمته . إنه على كل شيء قدير " (١. (

أما الكافرون فليس لهم سوى النار مثوى و حصيرا.

]و الذين كفروا يتمتعون و يأكلون كما تأكل الأنعام و النار مثوى لهم]و السبب في دخولهم النار بدل الجنة هو أنهم استنفذوا طيباتهم في حياتهم الدينا ، و غاروا في أوحال الشهوات ، و لم يستهدفوا من وراء النعم الوصول الى الغاية الأسمى (الدار الآخرة) ، و هذا ما بينته الآية العشرين من سورة الأحقاف

: " و يوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا و استمتعتم بها. "

و نتساءل : ما معنى " يأكلون كما تأكل الأنعام " ؟

الجواب :المؤمن يأكل ليعمل ، و يعمل للهدف ، و يبتغي الهدف لله ، " و أن إلى ربك المنتهى " ، بينما القضية معكوسة عند الكافر الذي يعمل ليحصل على متعة الأكل (و سائر الشهوات) ، فالهدف عنده الذي تتمحور حوله سائر نشاطاته هو الأكل . أليس ذلك حالة الأنعام ؟

[13]تلك كانت النار وهي موعدهم (في الآخرة) ، أما في الدنيا فقد يصيبهم الله بعذاب من عنده اليم.

]و كأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك

(1)بحار الأنوار / ج ٨ - ص ٢٢٠

أهلكناهم فلا ناصر لهم[

كانوا يبنون بكل ريع آية يعبثون ، و يتخذون مصانع لعلهم يخلدون ، و إذا بطشوا بطشوا جبارين ، و كانوا ينحتون من الجبال بيوتا فارهين ، و كانت الأنهار تجري من تحتهم ، و كانوا يستخفون بالمؤمنين ، و يقولون : إنهم لشرذمة قليلون .. ولكن ألم تر كيف فعل ربك بهم ، ألم يصب عليهم سوط عذاب ؟! بلى . فهل وجدوا لهم نصيرا ؟!

ومن هذا السياق (علاقة الآية ١٢ بالآية ١٣ (نستوحي الحقيقة التالية : ان المؤمنين يتعاملون مع الأشياء - كل الأشياء -باعتبارها وسائل للوصول إلى الأهداف ، فهم لا يعتمدون عليها ، ولا يتخذونها أندادا لله ، و لا يحجبهم حبهم لها أو تعاملهم معها عن اللهو رسالاته و أحكامه ، و بكلمة واحدة : إنهم يجعلونها وسيلة يسخرونها لتحقيق الحكمة من خلقهم ، ولا يجعلون أنفسهم سخرة لها ، بينما الكفار ينظرون إلى الأشياء نظرة ذاتية ، فيغترون بها ، و يعتمدون عليها ، و لكنها لن تغني عنهم شيئا.

[14]حين يفصل الكتاب بين المؤمنين و الكافرين لا يفصل بينهما كعنوانين ظاهرين ، بل كقيمتين واقعيتين ، ينفصل على أساسهما من يتظاهر بالإيمان عن الفاسق و المنافق.

ذلك أن القرآن يتحدث غالبا عن الحق ، و ليس عن مظاهره ، و لذلك فالكافر في آياته ليس دائما الذي يتظاهر به ، بل قد يكون الذي يكفر - مثلا - بآية في القرآن أو يكفر عمليا بفريضة إلهية ، لأن الحديث القرآني هو عن واقع الكفر لا ظاهره ، مما يشمل كل من يوجد لديه هذا الواقع.

و هذه السورة تتميز بالصراحة في هذا الفصل ، و لذلك جاء في الحديث المروي عن أبي عبد الله الصادق (ع " : (من أراد أن يعرف حالنا و حال أعدائنا فليقرأ سورة محمد (صلى الله عليه و آله و سلم) ، فإنه يراها آية فينا و آية فيهم " (١) أي أنها تتحدثبوضوح تام عن منهاج محمد و آله الحق ، و المنهاج الباطل المخالف لهم.

]أفمن كان على بينة من ربه [

فدار مع الحق أينما دار ، و لم يجعل ذاته أو هواه محورا لقراراته.

]كمن زين له سوء عمله و اتبعوا أهواءهم[

كلا .. لا يستويان ، إنه لفرق كبير بينهما ، فأولئك محورهم الحق ، و هؤلاء محورهم الهوى.

إن المؤمن يفكر ثم يتحدث ، و يخطط ثم يعمل ، بينما الكافر و المنافق يتحدث بلا روية ، و يعمل بلا هدف سليم ، لأنه لا يعتمد الحق مقياسا لشؤون حياته .أولم يقل الامام علي (ع) : " لسان العاقل وراء قلبه ، و قلب الأحمق وراء لسانه " ؟ (٢. (

إن المؤمن يعلم أنه قد يخطئ صراط الحق ، ومن هنا فهو لا يتحرك إلا عن بينة ، فلا يخطو خطوة إلا وهو يعلم أنه سيضعها في الموقع السليم ، كمن يحمل مصباحا و يقدمه أمامه ثم يبدأ المشي ، و بالعكس الكافر و المنافق . إنه يتخبط في ظلمات الباطل ، لأن الدافع الأساسي له الهوى " و كم من عقل أسير ، تحت هوى

(1)نور الثقلين / ج ٥ - ص 24

(2)نهج البلاغة / حكمة ٤٠ -ص ٤٧٦

أمير ! " (١. (

و إن المؤمن يعيش حياة الصدق ، لأنه يعيش في إطار الحق فلا يحتاج إلى التبرير و التلبيس و الدجل ، بينما يعيش أصحاب الهوى الالتواء و الأعذار و الزيف . إن ضمائرهم ترفض باطلهم لولا أنه يزين لهم ، و يلبس بالحق ، و يبرر بصنوف المعاذير . أرأيت الذي يطعم العسل لا يحتاج إلى خلطه بمادة أخرى ، بينما الذي يجترع العلقم لا يستسيغه إلا إذا وضع فيه قطعة حلوى , كذلك الحق و الباطل . فهل الحاكم المنتخب بنزاهة ، العامل بالعدل ، الحكيم ، الصادق ، الصالح ، بحاجة الى الاعلام كالطاغية الظالم الطائش الفاسد ؟

وهكذا نجد الدول كلما توغلت في الظلم كلما أنفقت على الدعاية.

كما نجد أكثر الفلسفات البشرية جاءت لتبرير واقع فاسد للناس فرادى أو جماعات ، ففي العهد الماضي ابتدعت نظريات كثيرة كالمرجئة و القدرية لتبرير الواقع الفاسد للافراد و حالات الترهل و الكسل ، كما انتشر في العصر الحديث الفساد الجنسي ، و غطت أوروبا الميوعة و المجون ، فجاء فرويد بنظريته الجنسية المعروفة.

[15]لكي يتعمق الفصل بين فريقي المؤمنين و الكافرين في أعيننا حتى لا نزعم أنهما سواء ، و نستدرج - بسبب هذا الزعم - نحو الكفر ، و لكي نرغب في الايمان بما يلقيه على عواتقنا من مسؤوليات ، و نحذر من الكفر بالرغم مما حفت به من شهوات ، لكل ذلك يذكرنا السياق بمصير الفريقين ، و يبين صفات الجنة و النار:

]مثل الجنة[

(1)نهج البلاغة / حكمة - 211ص ٥٠٦

هذه هي صفة الجنة.

]التي وعد المتقون[

الذين يتبعون الحق ، و يتجنبون ما يسخط ربهم ، و يحفظون أنفسهم من النار ، و ما يوجبها من سيئات.

]فيها أنهار[

متنوعة أولا.

]من مآء غير آسن[

غير متغير لطول المقام كما تتغير مياه الدنيا ، ذلك أن الجنة طاهرة من النجاسات و الجراثيم و الأدران . وقال بعضهم : إن هذا النهر وضع لرفع عطشهم . و أقول : بلى . و ايضا لتطهير أجسادهم و أرواحهم من شوائب الحياة الدنيا فاذا شربوا منها نظفت ابدانهم من كلجرثومة أو مرض كما طهرت قلوبهم من كل غل .. و نستوحي ذلك من عدم قابلية الماء للأسن و التغيير . و إذا عرفنا ان الماء بذاته مطهر ، فان مقاومته للتأثر تعني أنه ماء مطهر لكل نجاسة ، لأنه لولم يكن كذلك إذا كان يتأثر بها ، و يدل على ذلك أيضا الحديث الذي مضآنفا عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم.

]و أنهار من لبن لم يتغير طعمه[

فلا يعتريه شيء من العوارض التي تصيب الألبان في الدنيا ، و نحن نعرف أن اللبن شراب يقوم بدور الطعام ، أو طعام متكامل في صورة شراب سائغ إلا انه قد يتغير بسبب سرعة اجتذابه للجراثيم . بيد أن لبن الآخرة يقاوم الجراثيم ، فهو إذا غذاء سائغ هدفه بعث القوةفي أبدانهم.

]و أنهار من خمر لذة للشاربين[

يتلذذون بشربها ، و لا يتأذون بها ولا بعاقبتها ، بخلاف خمر الدنيا التي لا تخلو من المرارة و السكر و الصداع ، فاذا شربوها ازدادوا نشاطا و حيوية.

]و أنهار من عسل مصفى[

خالص من الشمع و الرغوة و القذى ومن كل ما يقلل من قيمته ، ومن جميع العيوب التي تكون لعسل الدنيا ، فهو حلوى يتذوقونها . أوليس تشتهي النفس بعد الطعام الى الحلاء ؟

هكذا تجري في الجنة هذه الأنهار تبعث البهجة و الطمأنينة في نفوس أهل الجنة حيث لا يبقى في نفوسهم خوف من الجوع مستقبلا ، أو حرص على الطعام في الحاضر . أرأيت من يعيش على شاطئ الفرات الفائض هل يخشى العطش أو يحرص على تخزين الماء لمستقبله ؟ كلا . هكذا أهل الجنة يبعث الله في نفوسهم الغنى بما تراه أعينهم من وفور النعمة.

]و لهم فيها من كل الثمرات [

لا يتناولونها بعد جهد و عناء كما في الدنيا ، لانها متهدلة عليهم . يقول الرسول الأكرم (ص) بعد تلاوته للآية الكريمة : " و دانية عليهم ظلالها و ذللت قطوفها تذليلا " : " من قربها منهم يتناول المؤمن من النوع الذي يشتهيه من الثمار بفيه ،و هو متكئ ، و إن الأنواع من الفاكهة ليقلن لولي الله : يا ولي الله ! كلني قبل أن تأكل هذا قبلي " (١) و حيث كان يتحدث عن شجرة طوبى قال (ص) : " أسفلها ثمار أهل الجنة ، و طعامهم متذلل في بيوتهم ، يكون في القضيب منها مأة(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص ٢١٦

لون من الفاكهة ، مما رأيتم في دار الدنيا و مما لم تروه ، وما سمعتم به وما لم تسمعوا مثلها ، و كلما يجتني منها شيء نبتت مكانها أخرى ، لا مقطوعة ولا ممنوعة " (١. (

و بالرغم من وجود لحم الطير مما يشتهيه الانسان فانه لم يذكر في هذا السياق ، و لعل منشأ ذلك شمول كلمة الثمرات لمثله إذ ان الثمرة هي التي تفرزها الارض أو النبات ثم ينتفع بها الانسان بلا صعوبة ..و لحوم الطير من هذا النوع و الله العالم.

]و مغفرة من ربهم[

حيث لا يبقى بينهم و بين معرفة الله و الانس بحضرته حجاب من ذنوب ، و هذا أعظم نعمة إذ ان لذة الروح أعمق من لذة الجسد ، و إن من عرف الله و ناجاه و ازداد معرفة به بلغت به الراحة ، و الطمأنينة و الانس ، و الحب ، و انشراح القلب ، و لذة الروح أبعد مداه.

روي عن علي بن الحسين) عليهما السلام) : " إذا صار أهل الجنة في الجنة ، و دخل ولي الله الى جنانه و مساكنه ، و اتكأ كل مؤمن منهم على أريكته ، حفته خدامه ، و تهدلت عليه الثمار ، و تفجرت حوله العيون ، و جرت من تحته الأنهار ، و بسطت له الزرابي ،و صففت له النمارق ، و أتته الخدام بما شاءت شهوته من قبل أن يسألهم ذلك ، قال : و يخرج عليهم الحور العين من الجنان فيمكنون بذلك ما شاء الله.

ثم إن الجبار يشرف عليهم فيقول لهم : أوليائي و أهل طاعتي و سكان جنتي في جواري ألا هل أنبئكم بخير مما أنتم فيه ؟ فيقولون : ربنا و أي شيء خير مما نحن فيه ؟ نحن فيما اشتهت أنفسنا ، و لذت أعيننا من النعم في جوار الكريم . قال:

(1)المصدر

فيعود عليهم بالقول فيقولون : ربنا نعم فاتنا بخير مما نحن فيه فيقول لهم تبارك و تعالى : رضاي عنكم و محبتي لكم خير و أعظم مما أنتم فيه . قال : فيقولون :نعم يا ربنا رضاك عنا و محبتك لنا خير لنا و أطيب لأنفسنا . ثم قرأ علي بن الحسين (عليهما السلام) هذهالآية : " وعد الله المؤمنين و المؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها و مساكن طيبة في جنات عدن و رضوان من الله اكبر ذلك هو الفوز العظيم " . (١)إن الله خلق الانسان وهو يحمل في جوانحه طموحا لا حدود له ، فكلما حصل على نعمة هفت نفسه نحو نعمة أخرى ، و الرب يذكر النعيم الاخروي الذي وعده المتقين ، و يعلم ان الانسان لا يكتفي به ، لهذا يعقب : " و مغفرة من ربهم " أوليس الله و رضاه غاية آمال العارفين ، و منتهى طموح الراغبين ؟

و نتساءل : أيهما أفضل أن ننتقل من الدنيا الى الآخرة فنحصل على ذلك النعيم العظيم المعنوي و المادي ، أو أن نلقى في النار على وجوهنا أذلاء خاسئين ، مهانين مخزيين ؟!

]كمن هو خالد في النار[

روي عن أمير المؤمنين علي)ع) حديث طويل ، قاله للأحنف بن قيس ، يصف فيه أهل النار:

"فكم يومئذ في النار من صلب محطوم ، و وجه مهشوم ، و مشوه مضروب على الخرطوم ، قد أكلت الجامعة كفه ، و التحم الطوق بعنقه.

فلو رأيتهم يا أحنف ينحدرون في أوديتها ، و يصعدون جبالها ، وقد ألبسوا(١) بحار الأنوار / ج ٨ - ص ١٤٠

المقطعات من القطران ، و أقرنوا مع فجارها و شياطينها ، فاذا استغاثوا بأسوء أخذ من حريق شدت عليهم عقاربها و حياتها ، و لو رأيت مناديا ينادي وهو يقول : يا أهل الجنة و نعيمها و يا أهل حليها و حللها ، خلدوا فلا موت ، فعندها ينقطع رجاؤهم و تنغلق الأبواب ، وتنقطع بهم الأسباب ، فكم يومئذ من شيخ ينادي ، وا شيبتاه ! وكم من شاب ينادي وا شباباه ! وكم من امرأة تنادي وا فضيحتاه ! هتكت عنهم الستور . فكم يومئذ من مغموس ، بين أطباقها محبوس ، يا لك غمسة البستك بعد لباس الكتان ، و الماء المبرد على الجدران ، و أكلالطعام ألوانا بعد الوان . لباسا لم يدع لك شعرا ناعما كنت مطعمه إلا بيضه ، ولا عينا كنت تبصر بها إلى حبيب إلا فقأها " (١)[و سقوا ماءا حميما[

إنهم لا يستسيغونــه بل يضطرهم عطشهم الشديد الى شرب الماء الذي يغلي حرارة.

]فقطع أمعاءهم[

وهنا ننقل حديثا رهيبا مأثورا عن الإمام الباقر (عليه السلام) يصف فيه بعضا من عذاب الكافرين:

"ثم يضرب رأسه ضربة فيهوي سبعين ألف عام حتى ينتهي الى عين يقال لها آنية ، يقول الله تعالى : " تسقى من عين آنية " وهو عين ينتهي حرها و طبخها ، و أوقد عليها من خلق الله جهنم ، كل أودية النار تنام و تلك العين لا تنام من حرها ، و يقول الملائكة : يا معشر الأشقياء ادنوا فاشربوا منها ، فإذا أعرضوا عنها ضربتهم الملائكة بالمقامع ، و قيل لهم : " ذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت(١) بحار الأنوار / ج ٦٨ - ص ١٧٢

أيديكم و أن الله ليس بظلام للعبيد " . قال : ثم يؤتون بكأس من حديد فيه شربة من عين آنية ، فإذا أدني منهم تقلصت شفاههم ، و انتشر لحوم وجوههم ، فإذا شربوا منها و صار في أجوافهم يصهر به ما في بطونهم و الجلود " (١)و المتقون لهم من كل الثمرات ، اما هؤلاء المجرمون فليس لهم سوى الزقوم مطعما .. يقول الإمام الباقر (ع: (

"ثم يضرب على رأسه ضربة فيهوي سبعين ألف عام حتى ينتهي الى شجرة الزقوم ، شجرة تخرج في أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين ، عليها سبعون ألف غصن من نار ، في كل غصن سبعون ألف ثمرة من نار ، كل ثمرة كأنها رأس الشيطان قبحا و نتنا ، تنشب علـــى صخرة مملسة سوخاء كأنها مرآة ذلقة ، ما بين أصل الصخرة (الشجرة خ ل) سبعون الف عام ، أغصانها يشرب من نار و ثمارها نار ، و فرعها نار ، فيقال له : يا شقي إصعد ، فكلما صعد زلق ، و كلما زلق صعد ، فلا يزال كذلك سبعين الف عام في العذاب ، و إذا أكل منها ثمرةيجدها أمر من الصبر ، و أنتن من الجيف ، و أشد من الحديد ، فاذا واقعت بطنه غلت في بطنه كغلي الحميم ، فيذكرون ما كانوا يأكلون في دار الدنيا من طيب الطعام " . (٢)هل نختار هذا المصير السيء على عاقبة المتقين ؟ وهكذا يبين القرآن مدى الفرق بين المؤمن و الكافر ، لكي لا ننظر الى ظاهر الأمر و نزعم انه يستوي هذا و ذاك ، أو تستوي حالة الايمان و حالة الكفر ، فننجر الى الكفر باهمالنا و غفلتنا ، نعوذ بالله منه ومن مصير الكافرين.

(1)بحار الأنوار / ج ٨ - ص ٣٢١

(2)المصدر

[16]ولا تعي القلوب المحاطة بالهوى بصائر القرآن ، أما من اتقى حجب الشهوات تلقى أنوار الهدى . أولم يقل : " إنما تنذر من اتبع الذكــر و خشي الرحمن بالغيــب. "

وهذه البداية ، و علينا أبدا العودة الى المبادئ لحل الغاز الحياة . فاذا كنت تبحث عن الجنة اصلح اولا منهج التفكير في نفسك ، فلا تتبع الهوى و استمع الى الحق و تفكر في آيات الله.

]و منهم من يستمع إليك[

لا لكي يفقه ، و إنما ليجادل في آيات الله بغير هدى.

]حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا]عن ماذا تحدث ؟ و الى أي شيء أشار ؟ وماهي الأفكار التي ذكرها ؟ وماهي الأوامر التي كلفنا بها ؟ يقول ذلك فور خروجه من بيت الرسالة ، لماذا ؟ لانه لم يقتنع بما قيل له فحاول أن يجد له تفسيرا و تأويلا . إنه لفرط عقده النفسية لا يرى الأمور إلا بصورة معكوسة ، ولا يعتقد صدق متحدثيه ، بل يبحث في أحاديثهم عن زوايا مبهمة يجعلها مادة

تساؤله ، و مناقشاته ، و جدلياته ، و يزعم ان ذلك من العلم و لا يعرف انه دليل جهله و إنغلاق قلبه.

]أولئك الذين طبع الله على قلوبهم[

فاصبحت لا تعي ولا تعقل . مضوا قدما في طريق الهوى.

]و اتبعوا أهواءهم[

لأن الانسان لا يمكن أن يخضع لشهواته ، و يركب مطية أهوائه ، و هو واع بصير . إذ إنه آنئذ سيهتم بتزكية نفسه و ترويضها ، كما الامام أمير المؤمنين علي)ع) الذي قال وهو يحكم إمبراطورية عريضة : " وإنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر ، و تثبت على جوانب المزلق ، و لو شئت لاهتديت الطريق ، الى مصفى هذا العسل و لباب هذا القمح ، و نسائج هذا القز ، و لكن هيهات أن يغلبنــي هواي ، و يقودني جشعي الى تخير الأطعمة..

إليك عني يا دنيا ، فحبلك على غاربك ، قد انسللت من مخالبك ، و أفلت من حبائلك ، و اجتنبت الذهاب في مداحضك .. اعزبي عني ! فوالله لا أذل لك فتستذليني ، ولا أسلس لك فتقوديني ، و أيم الله يمينا أستثني فيها بمشيئة الله - لأروضن نفسي رياضة تهش معها الى القرص إذا قدرت عليه مطعوما ، و تقنع بالملح مأدوما ، و لأدعن مقلتي كعين ماء نضب معينها ، مستفرغة دموعها [17](1) . " ومن أراد ان يعي الحقائق ، و يزداد بصيرة و هدى ، و يستقيم على المنهج السليم ، فعليه أن يسعى بنفسه نحو الهداية ، لأن على الانسان الخطوة الأولى و على الله التوفيق.

]و الذين اهتدوا[

بحثوا عن الحق بأنفسهم ، وسعت قلوبهم نحو البصيرة ، أولئك الذين يأخذ ربهم بأيديهم في طريق الهداية ، فيزيدهم هدى كما يثبت أقدامهم أن تزل بفعل عواصف الشهوة و رياح الفتن.

(1)نهج البلاغة / رسالة - 45ص ٤١٧

]زادهم هدى و آتاهم تقواهم [

تماما بعكس أولئك المنافقين الذين سبق الحديث عنهم ، فبينما طبع الله على قلوب اولئك ، زاد هدى هؤلاء . و بينما يتبع أولئك اهواءهم ، أتى هؤلاء التقوى بتنمية معارفهم و وعيهم ، و تنبيههم في أوقات الغفلة ، و تنمية إرادتهم و عزمهم ، و إغنائهم بنعمة الحلالعما حرم عليهم . و بكلمة : توفيقهم لتجنب ما يسخط ربهم.

[18]لماذا - إذا - لا نخطو نحو ربنا الخطوة الأولى ليزيدنا هدى و يؤتينا التقوى ؟ إنه الانتظار الساذج ، و التسويف الخادع ، كأننا نتوقع أن تكون الخطوة الأولى من غيرنا ، و ننتظر و الى متى ننتظر ؟ هل الى قيام الساعة ، حيث لا تنفع التوبة . فقد توافرت علائمها أفلا نبادر بالتوبة قبل فوات أوانها ؟

]فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة[

قد تتمثل الساعة في يوم القيامة ، أو عندما ينزل الله عذاب الاستيصال ، أو عندما يفاجئ الانسان أجله الذي لا مفر منه . المهم انها تباغت البشر ، بيد أنها ليست مفاجئة تماما إذ ان علاماتها قد ظهرت مما تكفينا دلالة عليها.

]فقد جاء أشراطها[

أشراط الساعة ، أي علائمها فما هي علائمها ؟

لقد اختلف المفسرون في تأويلها قال بعضهم : إنها بعثة الرسول أولم يقل صلى الله عليه و آله : بقيت أنا و الساعة كهاتين و ضم السبابة و الوسطى . أولم يخطب في أصحابه قبل الغروب و قال : و الذي نفس محمد بيده ، مثل ما مضى من الدنيا فيمابقي منها ، إلا مثل ما مضى من يومكم هذا فيما بقي منه ، وما بقي منه إلا اليسير " (١) مما يدل على إننا نعيش في نهايات الدنيا .. ومن علامات ذلك بعثة خاتم الرسل الذي لا نبي بعده الى يوم القيامة.

و قال بعضهم : إن أشراط الساعة هي ما ذكر في النصوص من انتشار الفساد ولا ريب أن ذلك ايضا من علامات قيام الساعة التي تقوم على شر خلق الله.

بيد أن أشراط الساعة - حسبما يبدو - تعم كل الشواهد التي تهدينا الى قيامها ، و تختلف الشواهد حسب الأشخاص و الأمم و العصور . فلا ريب أن ما جرى على الأمم الماضية من عذاب التدمير من أشراط الساعة التي تهدينا الى وقوعها ، وحتى موت الأعزاء و رحيلهم الأبديعن الدنيا يمكن أن يكون منذرا لنا حتى نبادر بالتوبة.

بلى . هناك علامات الساعة ذكرت في النصوص توحي بضرورة انتظار قيام الساعة عندما ينتشر الفساد و ينحسر الصلاح كما جاء في الحديث المأثور عن عبد الله بن عباس قال : حججنا مع رسول الله صلى الله عليه و آله حجة الوداع ، فأخذ بحلقة باب الكعبة ثم أقبل علينا بوجهه فقال :ألا أخبركم باشراط الساعة ؟ و كان أدنى الناس منه يومئذ سلمان رحمه الله فقال : بلى يا رسول الله . فقال : من اشراط القيامة إضاعة الصلوات و اتباع الشهوات ، و الميل مع الأهواء ، و تعظيم أصحاب المال ، و بيع الدين بالدنيا ، فعندها يذاب قلب المؤمنفي جوفه كما يذاب الملح في الماء مما ترى من المنكر ، فلا يستطيع أن يغيره . قال سلمان : و إن هذا لكائن يا رسول الله ؟ قال : اي و الذي نفسي بيده يا سلمان إن عندها يليهم أمراء جورة ، و وزراء فسقة ، و عرفاء ظلمة ، و أمناء خونة . قال سلمان : وان هذا لكائنيا رسول

(1)تفسير نمونه / ج ٢١ - ص ٤٥١ نقلا عن روح المعاني.

الله ؟ قال : اي و الذي نفسي بيده يا سلمان ، ان عندها يكون المنكر معروفا و المعروف منكرا ، و يؤتمن الخائن و يخون الأمين ، و يصدق الكاذب و يكذب الصادق ، قال سلمان : و إن هذا لكائن يا رسول الله ؟ قال : اي و الذي نفسي بيده يا سلمان ، فعندها ستكون إمارة النساء و مشاورة الإماء و قعود الصبيان على المنابر ، و يكون الكذب ظرفا ، و الزكاة مغرما و الفيئ مغنما ، و يجفو الرجل والديه ، و يبر صديقه ، و يطلع الكوكب المذنب . قال سلمان :و إن هذا لكائن يا رسول الله ؟ قال : اي و الذي نفسي بيده يا سلمان ، و عندها تشارك المرأة زوجها في التجارة ، و يكون المطر قيظا ، و يغيظ الكرام غيظا ، و يحتقر الرجل المعسر ، فعندها تقارب الأسواق إذ قال هذا لم أبع شيئا وقال هذا لم اربح شيئا ، فلا أرى إلا ذاما لله . قال سلمان : و إن هذا لكائن يا رسول الله ؟ قال : اي و الذي نفسي بيدهيا سلمان ، فعندها يليهم أقوام إن تكلموا قتلوهم ، و إن سكتوا استباحوهم ليستأثرون بفيئهم وليطأن حرمتهم ، و ليسفكن دماءهم ، و لتملئن قلوبهم غلا و رعبا فلا تراهم إلا وجلين خائفين مرهوبين . قال سلمان : و إن هذا لكائن يا رسول الله ؟ قال : اي و الذي نفسيبيده يا سلمان ، إن عندها يؤتى بشيء من المشرق و شيء من المغرب يلون أمتي فالويل لضعفاء أمتي منهم و الويل لهم من الله لا يرحمون صغيرا ولا يوقرون كبيرا ولا يخافون (١) عن مسيء ، جثتهم جثة الآدميين و قلوبهم قلوب الشياطين . قال سلمان : وإن هذا لكائن يا رسولالله ؟ قال : اي و الذي نفسي بيده يا سلمان ، و عندها يكتفي الرجال بالرجال ، و النساء بالنساء ، و يغار على الغلمان كما يغار على الجارية في بيت أهلها ، و تشبه الرجال بالنساء و النساء بالرجال ، و تركبن الفروج السروج ، فعليهن من أمتي لعنة الله . قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله ؟ فقال : اي و الذي نفسي بيده يا سلمان إن عندها تزخرف المساجد كما تزخرف البيع و الكنائس ، و تحلى المصاحف ، و تطول المنارات ، و تكثر(١) وفي نسخة البحار " :ولا يتجاوزون"

الصفوفات بقلوب متباغضة ، و السن مختلفة . قال سلمان : و إن هذا لكائن يا رسول الله ؟ قال : اي و

الذي نفسي بيده يا سلمان ، و عندها تحلى ذكور أمتي بالذهب و يلبس الحرير و الديباج ، و يتخذون جلود النمور صفاقا . قال سلمان : وإن هذا لكائن يا رسول الله ؟ قال :اي و الذي نفسي بيده يا سلمان ، و عندها يظهر الزنا و يتعاملون بالعينة و الرشى و يوضع الدين و ترفع الدنيا . قال سلمان : و إن هذا لكائن يا رسول الله ؟ قال : اي و الذي نفسي بيده يا سلمان ، و عندها يكثر الطلاق . فلا يقام لله حد . ولن يضروا الله شيئا.
قال سلمان : وإن هذا لكائن يا رسول الله ؟ قال : اي و الذي نفسي بيده يا سلمان ، و عندها تظهر القينات (1)و المعازف و يليهم أشرار أمتي . قال سلمان : وإن هذا لكائن يا رسول الله ؟ قال : اي و الذي نفسي بيده يا سلمان ، و عندها تحج أغنياء أمتي للنزهة ، و تحجأوساطها للتجارة ، و تحج فقراؤهم للرياء و السمعة ، فعندما يكون أقواما يتعلمون القرآن لغير الله ، و يتخذونه مزامير ، و يكون أقواما يتفقهون لغير الله ، و تكثر أولاد الزنا ، و يتغنون بالقرآن و يتهافتون بالدنيا . قال سلمان : وإن هذا لكائن يا رسول الله ؟ قال : اي و الذي نفسي بيده يا سلمان : ذاك إذا انتهكت المحارم و اكتسبت المآثم و تسلط الاشرار على الأخيار و يفشو الكذب و تظهر اللجاجة و تغشو الفاقة و يتباهون في اللباس ، و يمطرون في غير أوان المطر و يستحسنون الكوبة (٢) و المعازف ، و ينكرون الأمر بالمعروفو النهي عن المنكر حتى يكون المؤمن في ذلك الزمان أذل من الامة ، و يظهر قراؤهم و عبادهم فيما بينهم التلاوم فأولئك يدعون في ملكوت السماوات و الأرجاس الانجاس . قال سلمان : وإن هذا لكائن يا رسول الله ؟ قال : اي و الذي نفسي بيده يا سلمان ، فعندها لا يحضالغني على الفقير حتى أن السائل يسأل فيما بين الجمعتين لا يصيب أحدا يضع في كفه شيئا . قال سلمان : وإن هذا لكائن يا رسول(١) القينات : المغنيات.

(2)الكوبة : كالشطرنج و الطبل الصغير.

الله ؟ فقال : اي و الذي نفسي بيده يا سلمان ، فعندها يتكلم الروبيضة ، فقال سلمان : وما الروبيضة يا رسول الله فداك أمي و أبي ؟ قال صلى الله عليه و آله : يتكلم في أمر العامة من لم يكن يتكلم ، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى تخور الأرض خورة فلا يظن كل قوم إلا انها خارت في ناحيتهم ، فيمكثون ما شاء الله ، ثم ينكثون في مكثهم فتلقى لهم الارض أفلاذ كبدها ذهبا و فضة - ثم أومأ بيده الى الاساطين - فقال : مثل هذا ، فيومئذ لا ينفع ذهب و لا فضة ، فهذا معنى قوله " فقد جاء أشراطها " . (١)و لعل هذا النص و النصوص المشابهة تحثنا على مقاومة الفساد و مناهضة الانحراف حتى لا تبغتنا الساعة بدمارها سواءا كانت الساعة النهائية للعالم (يوم القيامة) أم ساعة أمتنا أم ساعة الأفراد.

]فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم[

هل ينتفع التلميذ في المدرسة حين يجيب على الأسئلة خارج قاعة الامتحانات ؟ كلا .. و هكذا لا تنفع التوبة بعد قيام الساعة ، كما قال تعالى : " يومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون. "

[19]إذا كان الانتظار و التسويف ، و تجاهل الحقائق و اتباع الهوى ، و الإنغلاق دون هدى الله ، انها جميعا ينهار بأهله في نار جهنم!

فكيف النجاة ؟

العلم و التوحيد و الاستغفار .. ركيزة النجاة ، لأن العلم بالتوحيد يجعل العبد(١) نـور الثقليـن / ج ٥ - ص ٢٤ . نقلا عن تفسير القمي / ج ٢ - ص 303وهي أصح . نقلها صاحب نور الثقلين بأغلاط كثيرة ، و صححت على أساس المصدر الأساسي.

يتحسس بضآلته أمام جبار السماوات و الأرض فيستغفر لذنبه ، و لشفقته على أحبائه من المؤمنين يستغفر لهم أيضا.

]فاعلم إنه لا إله إلا الله و استغفر لذنبك و للمؤمنين و المؤمنات]و ربنا يقول : " فاعلم " لأن العقبة التي تعترض الانسان أمام التوحيد هي الجهل ، أولم يقل عز وجل : " و حملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا "

(١) و لهذا كرر القرآن الحكيم كثيرا ذكر هذا العامل الذي يصرف الناس عن الايمان و الهدى . قالعز من قائل : " قال إنكم قوم تجهلون " (٢) ، " قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون " (٣) ، " و لكن أكثرهم يجهلون " (٤) ، " و لكني أراكم قوما تجهلون " (٥) ، " و أعرض عن الجاهلين " (٦) ، " بل أنتم قوم تجهلون " (٧. (

و كلما ازداد البشر علما ازداد تواضعا ، لأنه يعرف حجمه بازاء سائر ما يعلم من مخلوقات ، بينما الجهل سبب التكبر ، و لذلك يقول ربنا سبحانه وهو يعالج صفة التكبر في النفس : " ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا " (٨. (

و كلما ازداد البشر علما ازداد خشوعا لربه أليست الكائنات مرآة أسماء الله ،(١) الاحزاب / ٧٢

(2)الاعراف / ١٣٨

(3)الزمر / ٦٤

(4)الانعام / ١١١

(5)الاحقاف / ٢٣

(6)الاعراف / ١٩٩

(7)النمل / ٥٥

(8)الاسراء / ٣٧

و تجليات خلقه و قدرته و حكمته ؟

وهكذا تتصل كلمات هذه الآية ببعضها ، فالعلم يهدينا الى التوحيد ، و التوحيد يهدينا الى الاستغفار ، لأن الاستغفار هي حالة النفس عند معرفة الرب ، و وعي قدرته و هيمنته و عظمته ، إنه الإحساس بالتقصير في مقام الألوهية ، إنه الإحساس بالذنب المقرون بالتطلعنحو الاصلاح ، و أي سلم أفضل لبلوغ درجة القبول عند رب العزة من معراج التوبة ، أم اي تحية أكرم عند لقاء العبد بربه من التسليم ، و أي حالة تسليم أفضل من الاستغفار . ثم إن الكبر هو الحجاب الأكبر الذي يمنع إشراقة نور الحق على جنبات الفؤاد ، و أي علاج أنجح من الاستغفار لاقتلاع جذوره.

ليس من اليسير القضاء على كبر النفس ، لأن منشأ الكبر هو الجهل ، و الجهل هو من ذات النفس ، و مرتكز في صميم خلقته ، و إنما بدوام الاستغفار من الذنب نستطيع القضاء على الجهل و مظهره المتمثل في الكبر.

و الذي يستغفر لذنبه يزداد تقوى و ورعا من العودة اليه ، كما يزداد عزما لتنفيذ واجبات الدين و اجتناب محرماته.

و يتساءل البعض : كيف أمر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بالاستغفار ؟ أوليس هو المعصوم من كل ذنب ؟ بلى .و لكن:

أولا : ليكون قدوة لأمته في الاستغفار.

ثانيا :لأن الحضور في مقام الرب يستدعي الاستغفار ، لأنه المعراج الى المزيد من الكمال ، و لأنه بالتالي الحبل الممتد بين الرب و العبد . و حتى لو كان الفرد غير مذنب بالذنوب المعروفة ، و لعل التعبير

بالذنب دون الذنوب يشير إلى إن المراد منه هو مجمل القصور و التقصير الذي لا يخلو منه العبد.

ثالثا : إن القرآن نزل على لغة إياك أعني و اسمعي يا جارة ، فالرسول هو المخاطب و الأمة مقصودة بذلك.

و نتساءل - مرة أخرى - عن معنى الاستغفار للمؤمنين و المؤمنات في هذا السياق ؟

و الجواب:

أولا : إنه فيما يتصل بالرسول يعني الشفاعة ، لأن حقيقة الشفاعة هي طلب المغفرة من الله للمذنبين .

ثانيا :إن الاستغفار يعبر عن العلاقة الحميدة مع سائر المؤمنين ، فهي ليست عدائية بدليل طلب الرحمة لهم ، و ليست تابعية بحيث يسترسل المؤمن مع إخوته باعتقاد انهم كلهم معصومون من الخطأ ، لأنهم بالتالي بشر ، و البشر يخطأ و يصيب ، و إذا بالغ المؤمن في حبه لإخوانه و إكرامه لهم الى درجة الاعتقاد بقداستهم ، فإنه سوف يعطل عقله في تقييمهم و إصلاحهم.

بلى إن لهم ذنوبا ولكنها لا تدعونا الى قطيعتهم بل إلى إصلاحهم ولو بالإستغفار.

]و الله يعلم متقلبكم و مثواكم[

إنه سبحانه يعلم حركات الانسان و سكناته في نهاره و ليله ، كما يعلم تقلباته الروحية من الكفر و النفاق و الكبر إلى الاسلام و الايمان و التقوى..

فلابـد من الحذر الشديد لكي لا نفكر في الخداع ، فان الانسان إذا لا يخدع إلا نفسـه.

افلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها

هدى من الآيات

كيف يتميز المؤمنون عن المنافقين ومن في قلوبهم مرض ؟ و كيف يخرج الله أضغان القلوب ؟ و كيف يبلو المجاهدين و الصابرين ؟

يضرب لنا القرآن الأمثال لنعرف هذه المقاييس الحق في ذلك.

أولا :المؤمنون يتطلعون الى آيات الجهاد ، و يستجيبون لها ، أما الذين في قلوبهم مرض فتراهم في حالة المحتضر إذا سمعوا آيات القتال.

ثانيا :المؤمنون يطيعون الله و يقولون قولا معروفا و يصدقون الله في المواقف الصعبة . بينما المنافقون يولون الأدبار و يفسدون في الأرض و يقطعون أرحامهم تماما في الجهة المعاكسة للمؤمنين.

ثالثا : يتدبر المؤمنون في القرآن ليجدوا فيه شفاء دائهم ، بينما على قلوب أولئكاقفالها ، و يرتدون على أدبارهم و الشيطان يقول لهم و يملي لهم ، بينما القرآن يشفي قلوب هؤلاء و يهديهم.

رابعا : ترى المنافقين يبحثون عن أمثالهم و يتآمرون معهم لضرب القيادة الرشيدة . و الله لهم بالمرصاد حين يتوفاهم ملائكة العذاب يضربون وجوههم و أدبارهم ، و يحبط الله أعمالهم لأنهم اتبعوا الشيطان ، و رفضوا ولاية الرحمن.

وهكذا يخرج الله أضغان أولئك المنافقين (بآيات القتال) و يفضحهم ، وكما يبلي حقيقة المجاهدين و الصابرين و يرفع مقامهم.

بينات من الآيات

[20]يستقبل المؤمنون الحقائق بأذن واعية ، و بصائر نافذة من دون حجاب ، و بقلوب طاهرة من الجهالة و العناد و التكبر ، بلى . إن مثل حقائق الرسالة و مثلهم كما الأرض الموات تستقبل زخات الغيث المباركة ، فاذا نزلت عليهم سورة وعوها و استعدوا لتنفيذ أحكامها، وإذا لم تزل تراهم يتساءلون أفلا حبينا بها ، أفلا قرت أعيننا بالنظر الى آيات جديدة ؟!

]و يقول الذين ءامنوا لولا نزلت سورة[

لما يغمر قلوبهم من اللهفة إليها ، و لما تنطوي جوانحهم من العزم الشديد للعمل بكل ما فيها من أوامر . أما الذين في قلوبهم مرض ، فانهم على العكس تماما ، إذ يتخوفون أن تنزل عليهم أوامر جديدة ، تأمرهم بالقتال مع العدو ، لأنهم لا يملكون الإستعداد الكافيلتطبيق الأحكام.

]فإذا أنزلت سورة محكمة[

لا يمكن الجدال لأنها واضحة لا تحتمل التأويل.

]و ذكر فيها القتال[

آنئذ تبلى حقائق الرجال.

]رأيت الذين في قلوبهم مرض [

من نفاق ، أو شك ، أو جبن.

]ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت[

وهكذا يمتاز المؤمنون عن هؤلاء الذين في قلوبهم مرض ، لأن المؤمنين يثبتون في مختلف الظروف ، بينما هؤلاء في حالة من الرعب تشبه حالة المحتضر الذي يشخص ببصره فزعا ، وهو فاقد لقدرة التركيز و ربما قال ربنا : " الذين في قلوبهم مرض " ولم يقل) :
الذين نافقوا) لأن الخط المنحرف لا يقتصر على المنافقين ، بل يضم الكثير ممن يزعمون أنهم مؤمنون ولكن وجود المرض فيهم يجرهم الى خط النفاق ، و يتوضح لنا من بعض الآيات ان الذين في قلوبهم مرض هم طائفة أخرى غير المنافقين ، يقول عز وجل : " لئن لم ينته المنافقون و الذين في قلوبهم مرض و المرجفون في المدينة لنغرينك بهم. "

يهدد القرآن هؤلاء ، و يوعدهم العاقبة السوءى قائلا:

]فأولى لهم[

تستخدم هذه الكلمة في اللعن ، و اختلفوا في معناها الدقيق ، هل هو بمعنى : يليه مكروه ، أو لهم الويل أو الموت أولى لهم ، و يبدو أن هذه الكلمة تأتي بعد بيان سيئة من سيئاتهم فعلا أو قولا فيكون معناها إنهم يستحقون تلك السيئة وهم أحق بها ، و أولى من غيرهم ، وفي المقام يكون المعنى أن هذه العاقبة السيئة التي انتهوا اليها منرفضهم لسورة القتال يستحقونها لما كان في قلوبهم من مرض ، ذلك لأن النفاق و الخوف الذي يحول الانسان عن قتال الأعداء ، جرم كبير و ضلالة بعيدة ، لأنه يجر صاحبه الى الاستسلام للطاغوت و فقدان استقلاله أمام الغزاة ، و التنازل عن قيمه و شخصيته خشية بطش الجبارين ، و كل من ارتد عن الدين أو أتبع الظالمين انساق الى مصيره الأسود بسبب تلك الامراض الخطيرة التي تمكنت من قلبه.

[21]بينما لو أطاعوا أوامر الرسالة ، و استقبلوها برضى ، و طهروا قلوبهم من الأمراض الفتاكة ، و صدقوا في الظروف الصعبة ، لكانوا يعيشون العزة و الكرامة و الاستقلال.

]طاعة و قول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم]عزم الأمر ، يعني بلغ الموقف حدا يستدعي الهزيمة و الارادة النافذة ، و قال البعض معناه : جد القتال.

و نستوحي من هذه الآية بصيرتين- :

الأولى :إن قول المعروف عند صدور أوامر الرسالة و برامجها بعد التسليم و الطاعة مؤشر واضح على تفاعل الانسان مع الرسالة ، و صدق انتمائه لها ، و خلو قلبه من حسكة النفاق و أي مرض آخر ، كالجهل و الجبن و التكبر ، لأن هذه الأمراض تجعل الانسان يعيِش حالة التقزز و الإشمئزاز و الضجر مما يظهر على فلتات لسانه ، فلا يقول قولا معروفا عند المواقف الصعبة.

و بالرغم من أن المنافقين قد يعيشون هذه الحالة ، و لكن الظرف قد يستدعي منهم أن يكتموها ، بيد أنه عندما يعزم الأمر لا يمكنهم كتمان واقعهم.

إن مرضى القلوب هم الذين يؤدون الطاعات ، و يعملون الصالحات على كره ،فلذلك تراهم يرفقونها بالحديث السلبي معها ، و لذلك تراهم لا يقضون صلاتهم إلا و يتبعونها بالقول تضجرا ، كم هي ثقيلة هذه الصلاة ؟! ولا ينهون صوم يوم من أيام رمضان إلا و يقولون كم هو مرهق هذا الصيام ؟! ولا يزكون و يخمسون إلا و يضجون : لقد أفقرنا هذا الدين.. في حين كان عليهم أن يتحسسوا هذه النعم الجسام ، و يحمدوا الله عز وجل على أن وفقهم لها ، و لكنه الجهل و التكبر و النفاق و حب الدنيا كل أولئك لا يدع الانسان يعرف قيمة الرسالة ، و نفعها العميم للانسان.

الثانية : نستشف من هذه المقطوعة الرائعة " : طاعة و قول معروف " ان علينا أن ننفذ الأوامر الرسالية و نسعى جاهدين من أجل تحقيقها دون نقاش أو تبرير أو جدال أو معارضة ، لأنها صادرة من الله تبارك و تعالى . و الواجب علينا أن نروض أنفسنا لتستجيبو نتفاعل مع الأحكام الالهية . ولكن كيف ؟

من شاء أن يكون صادقا في المواقف الصعبة ، مستعدا لتحمل المسؤوليات الجسام ، فعليه أن يتدرج في تربية نفسه شيئا فشيئا ، فأولا يعودها على تأدية الأعمال الصغيرة بصدق و جدية ، ثم الأكبر منها فالأكبر ، حتى يرتقي الى مستوى عال فيؤدي الأعمال الكبيرة بكل صدقو رضى.

[22]]إنهم يهربون من القتال ، و إنما فرض الله القتال من أجل إصلاح الأرض ، و تكريس قيم المحبة ، فمن يتول عنه فسوف يقاتل ، ولكن في صفوف المنافقين ومن أجل نشر الفساد في الأرض و قطع الارحام (و مخالفة قيم الخير و الفضيلة) . أوليست الحياة صراعا ، ولا مفر منه ، ومن لم يقدم على اختيار جبهة الخير انساق الى جبهة الشر ، ولا مسافة بين الحق و الباطل ، فمن لم ينفعه الحق أضره الباطل.

أولئك الذين يزعمون أن القتال شر مستطير ، وأنهم دعاة السلام ، تراهم وقود معارك الباطل ضد الحق . ألم تقرأ في التاريخ : كيف أن أهل الكوفة رفضوا القتال مع الامام الحسين عليه السلام ضد الأمويين باسم الخروج من الفتنة ، ثم استخدمهم يزيد في قتال السبط الشهيد كرها.

إن لحكم القرآن ثمنا من لم يدفعه راضيا ابتلي بحكم الطاغوت و دفع اضعاف ذلك الثمن مكرها.

]فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض و تقطعوا أرحامكم]كلمة عسى تدل على التوقع .. فهذه هي العاقبة المتوقعة لمن يتولى عن الحق!

ولان الحديث في هذه السورة عن الحكم الالهي و الولاية الشرعية و تحمل مسؤولياتها في طليعتها الدفاع عن الدين ، فان معنى التولي هنا الانسحاب من ساحة المواجهة و ترك القيادة الرشيدة وحدها في الميدان ، ولذلك فسر البعض هذه الكلمة ، بأنه بمعنى الولاية أي إذا أصبحتم حكاما ، و أوله البعض في بني أمية استنادا الى ما رواه عبد الله بن مغفل قال سمعت النبي صلى الله عليه و آله و سلم يقول : فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض .. ثم قال : هم هذا الحي من قريش أخذ الله عليهم إن

ولوا الناس ألا يفسدوا في الأرض ولايقطعوا أرحامهم . (١(

و الفساد في الأرض ، هو النتيجة الطبيعية للنظام الذي لا يستلهم من الدين أحكامه .. فيفسد الإقتصاد و الإجتماع كما يفسد الأخلاق و الآداب ومن أبرز مظاهر إفساده تفريق الكلمة ، و اشاعة الفساد في الخلق ، الذي يؤدي الى تفكك الأسرة و قطع الأرحام . و يبدو أنقطع الرحم هو آخر عروة ينقض من عرى

(1)تفسير قرطبي / ج ١٦ - ص ٢٤٥

المجتمع ، لأن الفساد إذا بلغ الأسرة فقد أتى على آخر قلعة من قلاع الاستقلال عند البشر.

[23]و إذا بلغ الانسان هذا الدرك فقد كل فرصة له للهداية ، لأن الله يلعنه و يسد عليه أبواب الهدى.

]أولئك الذين لعنهم الله[

و طردهم من رحاب رحمته.

]فأصمهم[

فلم ينتفعوا بتجارب غيرهم.

]و أعمى أبصارهم[

فلم يعودوا ينتفعون حتى بتجاربهم ، و هكذا يستمرون في الهبوط حتى الدرك الأسفل .و هذه عاقبة الدول و التجمعات التي لم تقم على أساس الوحي . و هكذا نعرف ان بداية السقوط الكبير قد يكون زللا بسيطا يستهين به صاحبه ، كما قد تكون بداية رحلة الموت ميكروبا يستخف به المريض .. و استخفاف الانسان بالدفاع ، و بخله بنفسه و ماله عن الانفاق في سبيل الله ، هو بداية رحلة السقوط الكبير .. وهو بدوره ناشئ من الأمراض القلبية التي لابد من المبادرة بعلاجها.

[24]و السؤال العريض كيف إذا نعالج أمراض القلب ، الكبر ؛ المرض المستفحل الذي جعل إبليس يرفض السجود لآدم ، و جعل أبناء آدم يرفضون التسليم للقيادة الشرعية عبر التاريخ ؟

الحسد ذلك الذي أوقد نار الحرب بين هابيل و قابيل ، و لا يزال يجعلنا في صراعدائم.

الجبن الذي هدم حضارات عظيمة لم يدافع أهلها عنها أمام الغزاة البرابرة . و غيرها من أمراض القلب ؟

و يجيب القرآن .. بالتدبر في القرآن.

]أفلا يتدبرون القرءان[

و التدبر أن نسير بافكارنا الى عاقبة الأمور أو دبرها . و حين نتدبر في القرآن فاننا نتفكر في تطبيقات الآيات الكريمة ، و تجسدها في الواقع العملي ، و حسب التعبير القرآني في تأويلها.

الذين يتدبرون في القرآن يطبقون آيات القرآن على واقعهم ، فاذا قرأوا فيها آية تذكرهم بسنن الأولين ، بقوم عاد و ثمود . يتساءلوا ماذا لو فعلوا مثل فعلتهم . أفلا يكون جزاؤهم الدمار ايضا ؟ و إذا سمعوا موعظة زجروا أنفسهم بها أو سمعوا مرضا قالوا لعله موجود فينا دعنا نفتش في أوضاعنا عن آثاره ، فان وجدناه سارعنا لمحاربته و هكذا..

و لأن مثل القرآن مثل الشمس فان يطبق كل يوم على أهل ذلك اليوم ، فلابد أن نفتش في الواقع

الخارجي ، وفي أنفسنا عمن يجري فيهم القرآن باعينهم و صفاتهم . فمن هم المنافقون اليوم ومن هم المؤمنون ؟ ومن هو الطاغوت الذي أمرنا لنكفر به ؟ ومن هو الامام الذي تجب طاعته ؟ وما هي الدول التي تنتظر عاقبة قوم عاد ؟ وما هي الحضارات التي تمثل حضارة ذي القرنين أو داود و سليمان ؟ وهكذا .. و حينما تعصف بالأمة الفتن حتى تدع الحليم حيرانا ، هنالك لابد من التدبر في القرآن لمعرفة السبيل الى الخروج منها . هكذا أمرنا الرسول الأكرم

صلى الله عليه و آله حين قال : " فاذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن " (١) و قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : " عليكم بكتاب الله فانه الحبل المتين ، و النور المبين ، و الشفاء النافع ، و الري الناقع ، و العصمة للمتمسك ، و النجاة للمتعلق " . (٢(

و المتدبر في القرآن يطبق آياته على نفسه ، و يتساءل عن أية عائبة فيها ليصلحها ، أو عارفة ناقصة عنده ليكملها ، أو طريقة رشد فيتبعها ، أو منهج ضلال فيتركه.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وهو يصف المؤمنين:

"أما الليل فصافون أقدامهم ، تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلا ، يحزنون به أنفسهم ، و يستثيرون به دواء دائهم . فاذا مروا بآية فيها تشويق ، ركنوا إليها طمعا ، و تطلعت نفوسهم إليها شوقا ، و ظنوا أنها نصب أعينهم ، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا اليها مسامع قلوبهم ، و ظنوا أن زفير جهنم و شهيقها في أصول آذانهم " . (٣)و بكلمة : إن ما أفهمه من التدبر هو البحث عن تطبيقات الآيات سواءا على أنفسهم أو على الخليقة .. ولكن للتدبر أيضا شرطه المتمثل في الانفتاح على القرآن بعيدا عن حجب القلب و أقفاله ، عن تلك الأحكام المسبقة ، و القوالب الفكرية الجاهزة ، و التأويلات القائمة على أساس الهوى و الشهوات.

]أم على قلوب أقفالها[

(1)بحار الانوار / ج ٩٢ - ص ١٧

(2)المصدر / ص ٢٣

(3)نهج البلاغة / الخطبة رقم ١٩٣

قالوا :القفل من القفيل ، الذي هو ما يبس من الشجر ، فكان القلب يعشو فلا يستقبل نور القرآن و يكون كالشجرة اليابسة التي لا تستفيد من الماء و الأشعة . و قال البعض : إنه من القفول بمعنى الرجوع ، فكان القلب المنصوب عليه القفل لا ينفذ فيه الهوى ، بل يرجع عنه كما يرجع من واجه بابا مقفلا ..و يبدو إن أقفال القلب هي الأهواء المطاعة ، و الرذائل الراسخة فيها ، و ما يسبب قسوتها أو الختم عليها . ومن أراد فهم القرآن زكى نفسه ، و طهرها من الشكوك و الريب و حب الشهوات و من الكبر و الحقد و الحسد و الجبن و ما أشبه ، فانئذ ينساب نور الهدى فيه بلا حجب ولا موانع.

جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السلام : ((إن لك قلبا و مسامع و إن الله إذا أراد أن يهدي عبدا فتح مسامع قلبه ، و إذا أراد به غير ذلك ختم مسامع قلبه ، فلا يصلح أبدا وهو قول الله عز وجل " أم على قلوب أقفالها ")) . (١)[٢٥] و لأن هذه الفئة تركت أمراضها القلبية تتراكم ، فقضت على بقايا نور الايمان في أنفسهم ، كانت عاقبة أمرهم الردة عن القيادة الشرعية ، و بالتالي عن الدين.

و كثير أولئك الذين ارتدوا عن الدين بسبب بعض هذه الأمراض ، و نحن نشير الى بعضهم لنعتبر بهم . فأولهم قابيل الذي طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فاصبح من الخاسرين ، و كان مرضه الحسد إذ تقبل قربان أخيه ولم يتقبل منه ، و كذلك كان مرض عابد بني إسرائيل المعروف بـ (بلعم باعورا) الذي بلغ درجة عالية من الايمان و التقوى حتى استحق أن يعطى الاسم الأعظم ، وكان يدعو به فيستجيب الله

له ، ولكنه حين اختار الله موسى عليه السلام مال الى فرعون وارتضى لنفسه أن(١ (نور الثقلين / ج ٥ - ص ٤١

يكون بمثابة الكلب ، كما قال تعالى " : و أتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين * و لو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض و اتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث " . (١)أما الزبير بن العوام الذي كان له تاريخ نضالي حافل ، و ملاحم بطولية رائعة ، ولقد كان يكشف الكرب بسيفه عن وجه رسول الله (ص) ، إنه الآخر انحرف ، إذ أسرته الدنيا بمناصبها الحقيرة و زينتها الفانية .. فدفعه حب الرئاسة الى محاربة إمام عصره أمير المؤمنينعلي عليه السلام.

]إن الذين ارتدوا على أدبارهم[

و تراجعوا عن العهود و المواثيق التي الزموا أنفسهم بها تجاه الرسول ألا يخونوه ، و ألا يخذلوه عند لقاء العدو.

]من بعد ما تبين لهم الهدى [

و علموا أن الرسول على حق ، و لكنهم جبنوا عن مواجهة الأعداء ، و بحثوا عن السلطة و الثروة.

]الشيطان سول لهم[

رغبهم في ذلك عندما زين لهم الدنيا و غرهم بما فيها من فتنة ظاهرة ، و كلمة سول من السؤل أي الحاجة ، و كأن الشيطان جعلهم حريصين على هذه الحاجة ، و أثار فيهم الرغبة فيها.

]و أملى لهم[

(1)الاعراف / ١٧٥ - ١٧٦

قالوا : الكلمة من الأمل بمعنى مناهم بطول الأمل ، فأنساهم الحساب.

[26]لقد رغبوا في البقاء لينعموا بالرئاسة ، كما إنهم انضموا الى ركب الرسالة من أجلها . لقد كانت حساباتهم تدعوهم الى مواكبة هذا التيار الاجتماعي الصاعد ليرثوا مغانمه ، فمادام الخيرة يتنافسون على نيل الشهادة فسوف يصفو لهم الجو ، و تتاح لهم الفرصة للسيطرة على الناس ، و حكمهم باسم الرسالة ..لذلك ما كانوا ينفكون عن المؤامرة ضد السلطة الشرعية ، و قد بلغ بهم الأمر الى التخابر مع الاعداء (اليهود و المشركين) لجلب تأييدهم !! و أعطوهم وعدا بطاعتهم في بعض القضايا التي تهمهم .

]ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر]ولعل الآية تشير الى مؤامرة كان بعض المرتدين يحيكونها في عهد الرسول صلى الله عليه و آله لينفذوها من بعده ، و الفئة الكارهة كانت القوة العربية المعارضة للاسلام وهي قوة بني أمية التي عارضت الرسول منذ البداية وحتى استسلامها في فتح مكة ، حيث غيرت استراتيجيتها فقط فعملت سرا بعدما كانت تعمل جهرا . و يشير الى ذلك حديث مأثور عن الامام الصادق عليه السلام قال : " دعوا بني أمية الى ميثاقهم ألا يصيروا الأمر فينا (أهل بيت الرسالة) بعد النبي ولا يعطونا من الخمس شيئا " . (١)[و الله يعلم إسرارهم[

و يمكر بهم وهو خير الماكرين ، و هكذا ذهبت جهود بني أمية هباء ، و بقي الدين خالصا لله عبر القرون بالرغم من ان هدف بني أمية و حلفاءهم كان طمس(١) نور الثقلين / ج ٥ - ص ٤٢

معالمه.

[27]إن نجحت مؤامرتهم ضد الولاية الإلهية ، و أفلتوا من عقاب الدنيا ، فهل يهربون من عذاب الله الذي يفاجئهم منذ خروج أرواحهم من الدنيا ؟

]فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم و أدبارهم]تلك الوجوه التي كلحت في وجه الحق ، و تلك الأدبار التي تولت عنه ، ولكن أين أعمالهم الصالحة ؟ أن صلاتهم و زكاتهم و حسناتهم التي اقترفوها ؟ إنها تحبط لأنهم خالفوا الله في أعظم أوامره و اتبعوا أهواءهم.

] [28]ذلك بأنهم اتبعوا مآ أسخط الله[

من أهواء ، و إذا صلى العبد و صام و قام ، و لكنه اتبع هواه فماذا ينفعه عمله ؟ أوليست حكمة هذه الفرائض ترويض النفس حتى لا تتبع هواها و تزكيتها من كبرها و حسدها و غلها الدفين فيها ، بينما مثل هؤلاء يكرسون بصلاتهم و أعمالهم كبرهم و عنادهم بل يجعلون صلاتهم وسيلة لنيل شهواتهم من الرئاسة في الدنيا.

]و كرهوا رضوانه[

المتمثل في ولايته التي أمر بها ، فلم يطيعوا قيادتهم الشرعية.

]فأحبط أعمالهم[

[29]هكذا ابتلى الله عباده حتى ظهروا على حقيقتهم و أخرج الله ما ستروه من أمراض.

]أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم]إن هذا الظن هو الذي غرهم بربهم و جعلهم يزعمون قدرتهم على الاختباء وراء مظهر النفاق الى الأبد ، ولكن الله أخرج ما ستروه من أحقاد و حسد و بغضاء . قالوا الاضغان :ما يضمر من المكروه.

[30]و كما الله قادر على أن يظهر حقيقتهم بامتحانهم في القتال ، فهو قادر على أن يعرف رسوله واقعهم بطرق أخرى كأن يجعل على سيماهم و ملامحهم علامات النفاق.

]ولو نشآء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم[

و فعلا هناك على مظهر كل واحد منهم علامات النفاق ، و لكن لا تظهر إلا لأهل الخبرة و المؤمنين المتوسمين الذين ينظرون بنور الله . فمثلا : باستطاعتك أن تعرف المنافق بالنظر الى قسمات وجهه ، حينما ينادي المنادي بالصلاة أو بالزكاة أو بالجهاد أو بطاعة ولي‌الأمر ، فان قسماته تنكمش كالشن البالي ، بينما تنبسط قسمات وجه المؤمنين كما البدر.

]و لتعرفنهم في لحن القول[

بلى .في تضاعيف الكلام تظهر حقيقة المتحدثين ، أوليس المرء مخبوء تحت لسانه حتى أن التحليل الحديث لعلم النفس يستفيد من أغلاط المتحدث لمعرفة خلفياته النفسية ، و حتى أعظم رجال السياسة و أشدهم مكرا لا يمكنه أن يخفى مواقفه الحقيقية عند الحديث عن شيء ، لأن الكلمة التي يتلفظ بها إذا كانت صادقة تخرج بعفوية و يسر ، بينما إذا كانت كاذبة لا تخرج ألا بصعوبة و بتكلف . و من هنا يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : " ما أضمر أحد شيئا إلا ظهر في فلتات لسانه و صفحات وجهه " . (١)(١) نهج البلاغة / الحكمة رقم ٢٦

]و الله يعلم أعمالكم[

كما يعلم أقوالكم ، يعلمها بنياتها و خلفياتها.

[31]وهذه سنة الله في خلقه أن يختبرهم اختبارا لا لكي يفضح المنافقين فقط ، بل و أيضا لتتجلى حقيقة المجاهدين و الصابرين لأنفسهم و للناس فيتخذوا قدوة و نبراسا.

]و لنبلونكم[

بأنواع البلاء و منها القتال .

]حتى نعلم المجاهدين منكم[

الذين لا يدعون جهدا لديهم إلا بذلوه في سبيل الله.

]و الصابرين[

و لعلهم أعظم درجة من المجاهدين و أشد تعرضا للبلاء.

]و نبلوا أخباركم[

تلك التي يحاول البشر أن يسترها بأي داع من الدواعي فمن الناس من يخشى أن يظهر خبره خشية الفضيحة ، و منهم من يخشى ذلك خوف الرياء و السمعة ، ولكن الله يبلوها بحكمته عبر أنواع البلاء ، و من أبرزها القتال.

فلا تهنوا و تدعوا الى السلم و أنتم الأعلون

هدى من الآيات

إن التسليم للرسول (و الولي المنصوب من عند الله) شاهد على صدق التسليم لله ، بينما الشقاق عنه كفر و صد عن سبيل الله ، و يسبب حبط العمل و إبطاله . فلابد إذا من الطاعة للرسول التي هي امتداد لطاعة الله ، لكي لا تبطل أعمالنا . و إذا مات العبد كافرا فلن يغفر الله له.

هكذا أرسى القرآن قواعد الانضباط (التي نحتاجها في السلم و بصورة أكبر في الحرب) و اتباع القيادة الشرعية ، ثم أمر المسلمين بالإستقامة و عدم الوهن بطلب السلام الذليل ما دمنا الأعلى و الأقوى و إن الله مع المؤمنين ولا يضيع أجر العاملين.

وفي الختام رغب السياق المؤمنين عن الدنيا التي هي عبث ولهو (إلا إذا طلب الإنسان بها الآخرة فصارت ذات هدف سام) و وعد المؤمنين المتقين بأنه يؤتيهم أجرهم ولا يسألهم أموالهم . فلو سألها كلها بإصرار أخرج ما يخفوه من البخل ألا تريكيف ان البعض يبخل عن الانفاق) ببعض أمواله) في سبيل الله ، بينما الإنفاق هو ذخيرة لنفسه . فإذا بخل فإنما يبخل عن نفسه ، لأن الله هو الغني و هم الفقراء.

و أنذر ربنا المسلمين بأن توليهم عن واجبات الرسالة (وفي طليعتها القتال و الإنفاق) يفقدهم صلاحية حمل الرسالة ، فيستبدل الله غيرهم فلا يكونوا أمثالهم.

بينات من الآيات

[32]ليس من السهل التسليم لقيادة الحق للأسباب التالية:

أولا :لأن القائد بشر كسائر الناس يأكل الطعام و يمشي في الأسواق ولا يني الشيطان يوسوس للانسان ، كيف تطيع بشرا مثلك ؟ ومن الذي فضله عليك ؟ و كانت هذه أخطر العقبات التي منعت الناس من اتباع الرسل بادئ ذي بدء.

و ثانيا : لأن كثيرا من قرارات القيادة تمس الحياة اليومية ، وقد لا تكون مفهومة عند الفرد كما قد تخالف

مصالحه العاجلة أو آراءه أو أهواءه .. مما يستدعي المزيد من العزم حتى يتغلب الفرد على الحالة النفسية التي تمنعه من تنفيذ القرار.

و ثالثا : لأن صاحب الولاية الإلهية يسوق الناس نحو الكمال أبدا ، مما يجعل قراره صعبا مستصعبا .. لا يحتمله إلا كل مؤمن امتحن الله قلبه للايمان .. لأن قراره نابع من الوحي و القيم الحق التي أنزل بها ، و منها التطلع نحو الكمال.

من هنا فان طاعة الرسول تأتي في مقدمة فرائض الرسالة ، كما ان مخالفته تعتبر ارتدادا عن الدين و كفرا و سببا لابطال الاعمال.

]إن الذين كفروا و صدوا عن سبيل الله و شآقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا و سيحبط أعمالهم]و يبدو من قوله سبحانه " و شاقوا الرسول " و قوله سبحانه " من بعد ما تبين لهم الهدى " ان هذا الفريق هم من المنافقين الذين فضحتهم الأوامر بالقتال ، و زعموا أن شقهم عصى الطاعة يفت في عضد الرسول بينما الواقع هو انهم هم الذين خسروا أعمالهم الصالحة التي قاموا بها ، فأحبطها الله حيث لم يستقيموا على الصراط ، ولا يجوز أن يمنوا بها على الرسول ، لأنهم أبطلوها بخيانتهم للقيادة في الوقت الحرج.

وقال أكثر المفسرين إن المعني بهذه الآية هم كفار مكة أو يهود المدينة ، لأنهم صدوا عن سبيل الله بمحاربة الاسلام . و فسروا قوله تعالى " من بعد ما تبين لهم الهدى " بوضوح الحجج الإلهية عموما للناس الشاهدة على صدق الرسول . ولكني ارجح التفسير الأول لموافقته للظاهر من الآية حيث يظهر من هذه الكلمة انه قد تبين لهم الهدى فاهتدوا بالرسالة ردحا من الزمان ، كما إن هذا التفسير متوافق مع السياق القرآني الذي يحدثنا عن الموقف من القيادة الشرعية.

[33]و يعود القرآن يؤكد ضرورة الطاعة للرسول و ينذر المؤمنين بأن شقاقهم عنه يبطل أعمالهم.

]يا أيها الذين ءامنوا أطيعوا الله و أطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم [فالآية هذه هي العبرة الواعظة التي لابد أن يعيها المؤمنون من عاقبة من سقط في الامتحان فارتد عن دينه و شاق الرسول . وهذا الأمر ينسحب على كل ولاية الهية في كل عصر . فقد جاء في الحديث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق ، عن أبيه ، عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : " حدثني جبرئيل عن رب العزة جل جلاله انه قال : من علم انه لا إله إلا انا وحدي ، وأن محمدا عبدي و رسولي ، وأن علي بن أبي طالب خليفتي ، وأن الأئمة من ولده حججي أدخلته الجنة برحمتي ، و نجيته من النار بعفوي ،و أبحت له جواري ، و أوجبت له

كرامتي ، و أتممت عليه نعمتي ، و جعلته من خاصتي و خالصتي ، إن ناداني لبيته ، وإن دعاني أجبته ، وإن سألني أعطيته ، وإن سكت ابتدأته ، وإن أساء رحمته ، وإن فر مني دعوته ، وإن رجع إلي قبلته ، وإن قرع بابي فتحته.

ومن لم يشهد أن لا إله إلا أنا وحدي أو شهد ولم يشهد أن محمدا عبدي و رسولي أو شهد بذلك ولم يشهد أن علي بن أبي طالب خليفتي أو شهد بذلك ولم يشهد أن الأئمة من ولده حججي فقد جحد نعمتي ، و صغر عظمتي ، وكفر بآياتي و كتبي . إن قصدني حجبته ، وإن سألني حرمته، وإن ناداني لم أسمع نداءه ، وإن دعاني لم أسمع دعاءه ، وإن رجاني خيبته ، وذلك جزاؤه مني ، وما أنا بظلام للعبيد " . (١)وعن مهزم الأسدي قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : قال الله تبارك و تعالى : " لأعذبن كل رعية دانت بامام ليس من الله ، وإن كانت الرعية في أعمالها برة تقية ، ولأعفون عن كل رعية دانت بكل إمام من الله وإن كان الرعية في أعمالها مسيئة " . (٢(

وعن عبد الله بن سنان عن الامام أبي عبد الله (عليه السلام) انه قال : " إن الله لا يستحي أن يعذب أمة دانت بامام ليس من الله ، وإن كانت في أعمالها برة تقية ، وإن الله يستحي أن يعذب أمة دانت بامام من الله ، وإن كانت في أعمالها ظالمة مسيئة " . (٣(

وعن ابن ابي يعفور قال الامام الصادق (عليه السلام) : ((لا دين لمن(١) المصدر / ص ١١٨

(2)المصدر / ص ١٠٥

(3)المصدر / ص ١١٣

دان بولاية إمام جائر ليس من الله ، ولا عتب على من دان بولاية إمام عدل من الله ، قال : قلت : لا دين لأولئك ولا عتب على هؤلاء ؟ فقال : نعم ، لا دين لأولئك ولا عتب على هؤلاء ، ثم قال : أما تسمع لقول الله : " االله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور " يخرجهم من ظلمات الذنوب الى نور التوبة و المغفرة لولايتهم كل إمام عادل من الله وقال : " و الذين كفروا أوليائهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات " قال : قلت : أليس الله عنى بها الكفار حين قال : " و الذين كفروا "؟ قال : فقال : و أي نور للكافر وهو كافر فأخرج منه الى الظلمات ؟ انما عني الله بهذا انهم كانوا على نور الاسلام فلما أن تولوا كل امام جائر ليس من الله ، خرجوا بولايتهم إياهم من نور الاسلام الى ظلمات الكفر فاوجب لهم النار مع الكفار ، فقال " : أولئكأصحاب النار هم فيها خالدون ")) . (١(

[34]هل لهؤلاء الذين كفروا بالرسالة و مضوا على كفرهم من توبة ؟ كلا..

]إن الذين كفروا و صدوا عن سبيل الله[

و يبدو أن أعظم الصد هو منع الناس عن الجهاد ، و لو باصدار الفتاوى السلطانية التي تزور الحقائق ، و تحرف الآيات و تبرر الواقع الفاسد.

]ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم[

بلى .إن هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله يزعمون أنهم سوف يتوبون الى الله ، كما انهم يستخفون بذنوبهم ، أو انهم يحسبون أنهم مهتدون.

(1)المصدر / ص ١٠٤

[35]إن صلابة الجبهة الداخلية شرط أساسي للانتصار ، و ينعطف السياق نحو المؤمنين فيأمرهم - بعد الطاعة - بمقاومة إغراءات السلام ، بعد تراكم الصعوبات ، ذلك السلام الذي يعني الاستسلام و الصغار.

]فلا تهنوا[

لا تخشوا الهزيمة ، ولا تهابوا العدو وإن كان أكثر منكم عدة و عددا.

]و تدعوا الى السلم[

فلا تكونوا أول من يدعو الى الصلح من الفريقين المتحاربين ، خشية الموت و الهزيمة.

]و أنتم الأعلون[

فما دمتم مؤمنين ، فأنتم الأعلون بقيمكم و قدراتكم ، لأن الايمان بصيرة و قوة ، بصيرة لما يوفره فينا من منهجية عقلية ، و رؤية حياتية ، و قوة بما يلهمه من عزم في الإرادة ، و تلاحم في الصفوف ، و وله في الشهادة ، و استقامة و صبر في المكاره.

و السؤال : أي صلح هذا الذي نهى عنه القرآن ، بينما يقول ربنا سبحانه : " وإن جنحوا للسلم فاجنح

لها و توكل على الله " ؟ فهل هذه ناسخة أم تلك ؟

يبدو أن هذه الآية نهت عن الدعوة الى الصلح القائم على أساس الوهن ، لأنها تستتبع الذل و الهزيمة ، وهي بالتالي استسلام للعدو .. بينما أمرت الآية الأخرى بقبول الصلح الذي يدعو اليه العدو لوهن أصابه و ضعف ، و كلا الأمرين يخدمان بالتالي القيم الرسالية..
ففي الوقت الذي يكون الصلح لمصلحة الاسلام و قوته و غلبته و تأتي الدعوة اليه من العدو لابد من قبوله ، بينما لا ينبغي المبادرة من قبلالمسلمين الى الدعوة اليه انطلاقا من الاحساس بالوهن و الضعف . و لذلك جاء في الحديث المأثور عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في عهده لمالك الأشتر انه قال : " ولا تدفعن صلحا دعاك اليه عدوك ولله فيه رضا](1) . " و الله معكم ولن يتركم أعمالكم [

قالوا : معناه لن يؤدكم من دون أعمالكم ، لأن الوتر بمعنى الافراد ، و إنما سمي الذي قتل منه أحد موتور ، لأنه بقي مفردا من دونه . و هكذا ضمن الله حفظ أعمال المؤمنين ، كما أوعد الكفار بحبط أعمالهم ، فكلما بذله المسلمون في طريق تقدم الرسالة يحفظه اللهو يجعله مفيدا.

ينبغي إذا ألا نستعجل النتائج ، و ان نصبر في المواجهة ، حتى يأتي النصر . و لنعلم ان النصر آت ، و كل آت قريب ، و قد لا نراه نحن و إنما يقطف ثماره ابناؤنا . و زينب بنت علي (عليهما السلام) ضربت أروع الأمثلة في التحلي بهذه البصيرة ، فلقد كانت تتذكر حين شدة البلاء ، و تراكم المصائب و الالام ، هذه الحقيقة إن الله لا يضيع جهود المجاهدين . فلقد ألقت نظرة على مصارع إخوتها و أبنائها و أصحاب الرسالة ، و قالت مخاطبة الامام علي بن الحسين (عليهما السلام) ابن أخيها : " مالي أراك تجود بنفسك يا بقية جدي و إخوتي ، فوالله إن هذا لعهد من الله الى جدك و أبيك ، ولقد أخذ الله ميثاق أناس لا تعرفهم فراعنة هذه الارض ، وهم معروفون في أهل السماوات ، انهم يجمعون هذه الأعضاء المقطعة ، و الجسوم المضرجة ، فيوارونها ، و ينصبون بهذا الطف علما لقبر أبيك سيد الشهداء، لا يدرس أثره ، ولا يمحى رسمه على كرور الليالي و الأيام ، و ليجتهدن أئمة الكفر و أشياع الضلال في محوه و طمسه ، فلا يزداد أثره الا علوا " (٢) و كذلك حين خاطبت يزيد الحاكم(١) تفسير نمونه نقلا عن نهج البلاغة الرسالة رقم ٥٣(٢) كامل الزيارات / ص ٢٦١

الأموي الذي قتل ذرية رسول الله فقالت له : " ولئن اتخذتنا مغنما لتجدنا وشيكا مغرما ، حين لا تجد إلا ما قدمت يداك .. فكد كيدك ، و اسع سعيك ، و ناصب جهدك ، فوالله لا تمحو ذكرنا ، ولا تميت وحينا ، ولا يرخص عنك عارها " . (١)هكذا كانت (ع) تنظر الى آفاق المستقبل البعيدة ، دون أن تأسرها مصاعب اللحظات الراهنة الآنية ، و هكذا كان جميع حملة الرسالة عبر التاريخ ، ينظرون الى الآفاق البعيدة ، فكانوا يتحملون تلك المصائب الرهيبة التي لو أنزلت على جبل لهدته هدا ! بلى . بالايمانبأن الله معهم ، وانه لا يضيع أعمالهم الصالحة ، و يحفظ جميع جهودهم ، و يباركها و ينميها وانه يكيد الكافرين ، و يحبط أعمالهم و يبطلها ، وان العاقبة للمتقين ، بكل ذلك كان المجاهدون على امتداد التاريخ يتحدون الصعاب.

[36]و نتساءل : لماذا تخور عزائم البعض في مواجهة أعداء الدين ؟ لماذا يستحوذ عليهم الوهن و يدعون الى السلم ؟

إن السبب هو حب الدنيا ، و لذلك يحذرنا الرب منها ، و يبين لنا القيمة الحقيقية لها فيقول:

]إنما الحياة الدنيا لعب و لهو[

وإذا انتزعنا حب الدنيا من قلوبنا ، فسوف نتسلح بالشجاعة الكافية لمواجهة الأعداء ، كما نستعد لاقتلاع جذور سائر الأمراض القلبية التي تحدثت عنها هذه السورة المباركة كالنفاق و الحسد و الكبر ، لأن " حب الدنيا رأس كل خطيئة " - كما في حديث مأثور. -

(1)مقتل الخوارزمي / ج ٢ -ص ٦٤

وإذا جردت حياتنا في الدنيا من هدفها المتعالي المتمثل في بلوغ الجنة و الرضوان ، فهل يبقى فيها هدف معقول ؟ كلا .. وماذا نتصوره من هدف حكيم للطعام و الشراب لو تفكرنا فيه ليس سوى لذة عابرة ، و قوة تتبدد ، و دورات قصيرة لا ننتهي من واحدة حتى نقع في الثانية ، و اللعب هو السعي الذي يهدف غاية غير حكيمة (خيالية) ، و اللهو هو السعي الذي لا هدف له أبدا .. وما الدنيا إلا لعب ولهو لأن ما فيها يزول ، لولا ما نبقي منها لحياتنا الحقيقية في الآخرة ، و هو الذي يشير اليه السياق:

]وإن تؤمنوا و تتقوا يؤتكم أجوركم[

في الدنيا كرامة و سعادة و عزا ، وفي الآخرة جنات النعيم.

]ولا يسئلكم أموالكم[

قالوا :معنى ذلك انه سبحانه لا يطلب منكم أجرا بازاء هدايتكم ، ولعل معناه انه سبحانه يعترف لكم بالملكية ، ولا يسلبكم الأموال بصورة كاملة دون إكراه ، بل بالترغيب و هذا لا ينافي الأمر بالانفاق لما فيه من فوائد عظيمة لكم ، لأنه دليل واقعي على انتماءالفرد لمجتمع الايمان و الفضيلة ، كما انه سيجعل النفوس نقية صافية طاهرة ، و سيجعل المجتمع متماسكا ملتحما و يسير بسرعة أكبر نحو التقدم.

[37]ومن حكمة ربنا و رحمته بنا انه لم يأمرنا بانفاق جميع أموالنا ، وإلا لم يكن يتمسك بعروة الاسلام إلا القليل من الناس.

]إن يسئلكموها فيحفكم[

يجهدكم في المسألة من الاحفاء بمعنى الاصرار في المسألة.

]تبخلوا و يخرج أضغانكم[

ولكنه جعل دينه سهلا لينتمي اليه أكبر عدد من الناس ، وإذا كان صعبا و يأمر بانفاق كل المال كان يظهر البخل الذي تنطوي عليه أغلب النفوس.

[38]و بالرغم من ان الله لم يأمرنا بانفاق جميع الأموال ، ترى البعض يبخلون ، كما بخلوا بأنفسهم حين أمروا بالقتال.

]هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل]لأنهم لم يعلموا أنفسهم على البذل و العطاء و التضحية ، و جذبهم حب الدنيا و أوثقهم بوثائقه ، و بالتالي تصوروا أن الانفاق مغرم ، بينما هو مغنم كبير.

]ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه[

لأنه لو أنفق شيئا لرد اليه أضعافا مضاعفة ، و حاز على رضوان الله الأكبر . و أي خسارة كهذه الخسارة ، أن يحرم الانسان ثواب ربه و رضاه ؟! ولا يدل أمر الله بالانفاق على حاجته الى ما نملك ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

]و الله الغني و أنتم الفقرآء[

و لأننا فقراء يجب علينا أن ننفق حتى يغنينا من فضله.

]وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم]فإذا بخلت أمة عن العطاء ، فان الرب يستبدلها

بأمة خيرا منها ، تنفق من أموالها ، و تجاهد في سبيل الله ، و تقدم التضحيات تلو التضحيات ، و تصبر و تستقيم.

إن توفيق حمل الرسالات الإلهية شرف عظيم لا يعطيه الله إلا لمن استعد لدفع ثمنه ، و ثمنه خوض القتال و الانفاق ، فاذا ضعفت أمة عنها قيض الله لها أمة أخرى ! و حول هذا المقطع من الآية جاءت رواية ذكرها أغلب المفسرين و بطرق عديدة : عن أبي هريرة إن أناسا من أصحاب رسول الله (ص) قالوا : يا رسول الله من هؤلاء الذين ذكر الله في كتابه ؟ وكان سلمان الى جنب رسول الله (ص) فضرب (ص) يده على فخذ سلمان فقال : " هذا و قومه ، و الذي نفسي بيده لو كان الايمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس " (١) و جاء في رواية أخرى عن الامام الصادق (عليه السلام) قال : " و الله أبدل بهم خيرا منهم الموالي " (٢) . و الواقع : إن التاريخ يشهد ان رسالة الاسلام حملها بعد العرب شعوب أخرى كالبرابرة و الفرس و الأتراك ، وإذا خذلها المسلمون اليوم فقد يقيض الله لها من أقصى الأرض من يحملها و يؤدي حقها ثم لا يكونوا أمثال المسلمين.

(1)نور الثقلين / ج ٥ - ص 46

(2)تفسير نمونه نقلا عن مجمع البيان / ج ٩ - ص ١٠٨

سورة الفتح

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

قال الإمام ابو عبد الله الصادق (ع) : " حصنوا أموالكم و نسائكم و ما ملكت أيمانكم من التلف بقراءة " إنا فتحنا لك " فانه إذا كان ممن يدمن قراءتها نادى مناد يوم القيامة حتى تسمع الخلائق : أنت من عبادي المخلصين ، الحقوه بالصالحين من عبادي ، و أدخلوه جنات النعيم ، و اسقوه من الرحيق المختوم بمزاج الكافور. "

تفسير نور الثقلين / ج ٥ ، ص ٤٦ – ٤٧

الإطار العام

لقد كان صلحا صاخبا ذلك الذي رجع المسلمون به من مكة بعد أن تمنوا دخولها منتصرين أو لا أقل آمنين ، و الصلح مع مشركي قريش واحد من أهم أحداث السيرة النبوية إثارة للجدل .. إذ كيف يمكن للمؤمنين الذين امتلأت نفوسهم غضبا على الكفار و سوقا الى القتال معهم، و شوقا الى الشهادة أن يصالحوا عدو كافر ظالم ؟

و لعل نزول سورة كاملة في هذا الموضوع و تسميتها باسم الفتح دليل على حساسية معالجة موضوع الصلح ، و من زوايا عديدة.

أولا : إن الصلح لا يعني تسليما ، ولا ضعفا ، ولا تنازلا عن الأهداف الاستراتيجية للامة.

ثانيا : لا يعني الصلح تغليب رأي المنافقين الداعين الى الصلح أو التهاون بالتعبئة العسكرية.

ثالثا : الصلح أو الحرب رهين أوامر القيادة ، و الامة المتمسكة بحبل قيادتها الإلهية لن تهزم لا في الحرب ولا في الصلح.

ولعل هذه الزوايا هي مجمل محاور هذه السورة الكريمة التي وصفت الصلح بأنه فتح مبين ، و أن الله قد غفر لنبيه ما تقدم وما تأخر مما اعتبرها الأعداء ذنوبا ، وأنه هداه الى الصراط المستقيم الذي يؤدي الى أهدافه السامية و التي منها النصر العزيز.

و بعد هذه البراعة في افتتاح السورة (1/3) نجد القرآن يمدح المؤمنين ، الذين أطاعوا الرسول في الصلح بمثل طاعتهم له في الحرب ، و يجعل ذلك وسيلة للنصر ، حيث أنه سبحانه أنزل سكينته في قلوب المؤمنين .. و علموا أنهم لمنصورون ما داموا قد انتظموا في سلك جند الله ، الذي له جنود السماوات و الأرض ، و أنهم ينتظرون جنات تجري من تحتها الأنهار.

أما المنافقون الذين خالفوا الرسول في السلم بمثل مخالفتهم له في الحرب فان الله يعذبهم ، لأنهم ظنوا بالله ظن السوء - وأنه لا ينصرهم - فدارت عليهم دائرة السوء أنى اتجهوا وجدوا سوءا ، و غضب الله عليهم و لعنهم و أعد لهم جهنم.

إذا محور المجتمع الاسلامي هو الرسول الذي لو نصحوا له أطاعوه مخلصين سعدوا به ، لأن الله قد أرسله شاهدا و مبشرا و نذيرا ، و جعله محورا لحياتهم ، ليؤمنوا بالله و رسوله ، و يعزروه و يوقروه .. و يعظموا الله بتعظيم رسوله . ذلك أن يد الرسول هي يد الله، و يد الله فوق أيديهم.

و ينعطف السياق على المنافقين الذين أرادوا أنتهاز فرصة الصلح ليطعنوا في مصداقية الرسالة و يقول : سيقول الاعراب الذين تخلفوا عن الرسول في خروجه الى مكة شغلتنا أموالنا و أهلونا ، و يريدون العودة الى صفوف الرسالة بعد أن أبعدواعنها بتخلفهم ، و لكن الله يفضح مكرهم و أنهم كانوا يرجون ألا يعود الرسول اليهم ، و ظنوا ظن السوء فكانوا قوما بورا - هالكين. -

و الآن حيث صعد نجم المسلمين و طوعوا أكبر قوة في الجزيرة - قريش - حتى اعترفت بهم كقوة سياسية مناوئة ، يريد الانتهازيون الالتحاق بركب الرسالة طمعا في المغانم ، و هذه من مشاكل الصلح دائما . و رفض الاسلام عودتهم إلا إذا استعدوا للجهاد إذا دعوا اليه مرة أخرى ، فيومئذ إن أطاعوا يؤتيهم الله أجرا حسنا ، و إن تولوا - كما في السابق - يعذبهم الله عذابا أليما.

و بعد ان استثنى السياق من هذا الحكم المرضى و المعوقين عاد و أثنى على المؤمنين الذين بجهودهم حصل المسلمون على هذا الصلح حيث أنهم بايعوا الرسول على القتال تحت شجرة كانت هنالك فرضي الله عنهم ، و أنزل السكينة عليهم ، و أثابهم - في الدنيا - فتحا قريبامتمثلا في مكاسب صلح الحديبية ، ثم فتح مكة . و يعدد الله مكاسب المؤمنين بما يلي : صلح الحديبية كما أنه صد أذى الناس عنهم ، و جعل ذلك آية ، و عبرة تاريخية يستفيد منها المؤمنون.

وكان نصر المؤمنين على اقتدار ، وليس عن ضعف أو ذل و مهانة ، فلو قاتلهم الذين كفروا عند مداخل الحرم المكي لولوا الأدبار وهذه سنة الله التي لا تتبدل ، ولو أن الله أراد لشب القتال و انهزم الكفار ، و لكن لحكمة كف الايدي عن الحرب ببطن مكة . وكانت قريش تستحق القتال ، فقد صدوهم عن المسجد الحرام ، أما حكمة كف الايدي فلأنه كانت طوائف من المؤمنين متداخلين مع قريش يعملون بالتقاة.

قتال المؤمنين لا ينبعث من العصبية بل من مصلحة الرسالة لذلك فهو يدور على محور المصلحة الايمانية ، بينما قتال الكفار ينطلق من منطلق العصبيات الجاهلية ،و لذلك فهم لا يبلغون أهدافهم به.

فقلوب الكفار مليئة بالحمية الجاهلية ، بينما تعتمر أفئدة المؤمنين بالسكينة الايمانية ، لأنهم قد التزموا بكلمة التقوى.

هذا وقد تبين صدق الرؤيا التي رآها الرسول ، بأنه يدخل المسجد الحرام هو و المؤمنين بالحق ، بلا خوف فجعل قبله فتحا قريبا . أما الهدف الأبعد فهو أن يظهر الدين الاسلامي على الدين كله ولو كره

المشركون.

وفي خاتمة السورة يبين القرآن صفات أصحاب الرسول الذين اتبعوا الرسول في ساعة العسرة ، في السلم كما في الحرب ، و يبين أن كل فضائلهم آتية من علاقتهم بعبادة ربهم ، و التبتل إليه ، لذلك تراهم أشداء على الكفار رحماء بينهم ، يبحثون عن رضوان ربهم سيماهم فيوجوههم من أثر السجود..

و بهذا تحيط السورة بكل زوايا الصلح مع قريش ، و تعالج المشاكل الجانبية التي قد تنشأ من أي صلح محتمل مع عدو كافر.

إنا فتحنا لك فتحا مبينا

هدى من الآيات

بالرغم من أن الله ينجز وعده لعباده المؤمنين فينصرهم على أعدائهم ، و بالرغم من أنهم ينتظرون فتحا قريبا و نصرا عاجلا ، إلا أنه قد يتأخر عنهم لمصلحة يعلمها الله ، فلربما لو جاءهم النصر عاجلا منع عنهم فتحا كبيرا لما تتهيأ أسبابه ، فهذا رسول الله (ص) يرى في منامه ، و يخبر المؤمنين أنه سوف يدخل المسجد الحرام آمنا ، ثم يقودهم حاجا الى بيت الله ، فيجد المشركين قد استعدوا لحربه أو صده عنه ، فلم تتحقق رؤياه في الظاهر ، و لكنه (ص) دخله فاتحا في السنين اللاحقة ، بسبب ذلك الصلح الذي أبرمه في تلك السنة.

المسلمون من جهتهم فهموا رؤيا الرسول على أنها تؤكد دخول مكة في تلك السنة ، و لكنه)ص) مع علمه بالواقع جعلها غامضة ، فلم يبين لهم بأن النصر لا يأتيهم في ذلك العام ، لأنه لو أخبرهم ربما تقاعسوا عن الجهاد ، وإذ لم يخبرهم الرسول بواقع الأمر سارعوا نحومكة يحدوهم أمل الانتصار ، و انتهى الأمر بهم الى

صلح الحديبية الذي كان تمهيدا لفتح مكة المكرمة ، ولو أن المسلمين دخلوا المسجد الحرام في ذلك العام فلربما فاتهم فتحها ، و بالتالي فتح الجزيرة العربية ، و انتشار الاسلام في الأرض.

إن الهدف القريب الذي توخاه المسلمون بعد إخبار الرسول لهم برؤياه هو دخول مكة ، و لم يشأ الله أن يتحقق ذلك تمهيدا لتحقيق الهدف الأكبر وهو فتح مكة ، و العبرة من ذلك أن لا يستعجل المسلمون للنتائج ، وإنما ينبغي الانتظار ريثما تنضج الظروف.

بينات من الآيات

] [1]إنا فتحنا لك فتحا مبينا[

ماذا تعني كلمة الفتح في هذه الآية ؟

قال بعض المفسرين : إن الآية و إن كانت نزلت قبل فتح مكة إلا أنها تعنيه و تؤكده و تبشر المؤمنين به ، و قال آخرون : إنها تنصرف الى فتح خيبر ، و لكن الآية تدل كما يبدو على الفتح السياسي و الثقافي لمكة و الذي سبق فتحها العسكري ، وقد تجسد ذلك في صلح الحديبية الذي مهد لفتحها عسكريا ، و منه انطلق انتصار الاسلام و انتشاره في الجزيرة العربية ، ذلك لأن أي حركة ناشئة - و بالذات تلك التي تعاكس أفكار المجتمع و عاداته - تسعى نحو اكتساب الاعتراف من المجتمع المحيط حتى تتحرك بحرية في التوسعة و الانطلاق ، و حركة الاسلام - فيما يتعلق بالجانب الظاهري منها و ليس الغيبي - كانت في البدء حركة ناشزة عند المشركين حيث كان المجتمع الجاهلي يعتبرون المسلمين صابئة لأنهم في نظرهم متمردون على العادات و التقاليد ، فحركتهم إذن حركة خارجة عن الشرعية.

و السؤال : متى تم الاعتراف بحركة الرسول في ذلك المجتمع ؟

لقد تم ذلك في صلح الحديبية ، حيث اعترفت من خلاله قريش التي كانت سيدة على مكة و سائر

العرب بالرسول و أتباعه و رسالته كأمر واقع ، وقد تأكد هذا الاعتراف بوضوح عند التوقيع على البند القائل ، من أراد من القبائل الانضمام الى الرسول (ص) و التحالف معه ،أو الانضمام الى قريش و التحالف معها فله ذلك .. و ذلك يعني ان هناك حكومتان في الجزيرة حكومة قريش و حكومة الاسلام.

و فعلا تحالفت طائفة من القبائل - كخزاعة - مع الرسول (ص) ، و بدأ الاسلام بالانتشار في ربوع الجزيرة ، و لعل الآثار الايجابية التي ترتبت على صلح الحديبية - ومن أهمها تحالف القبائل العربية مع النبي الأعظم - هي التي يسميها القرآن بالفتح المبين.

فالفتح المبين ليس هو الفتح العسكري ، إنما هو الفتح السياسي و الثقافي الذي حققه الرسول في صلح الحديبية ، وكان تمهيدا و مرتكزا للفتح العسكري فيما بعد ، حيث حصل بعد الصلح على حالة السلام ، صار يتحرك بسرعة جادة تحت مظلته لنشر الدين ، قال الامام الصادق(ع) : " فما انقضت تلك المدة - يعني مدة الصلح - حتى كاد الاسلام يستولي على أهل مكة " (١. (

ومن الطبيعي ان الحركة الثورية الناجحة تتقوى ، و تبني نفسها في ظروف السلام ، و تستعد لظروف المواجهة ، و مادامت الحكومة (الواقعية) في الجزيرة أوقفت حربها مع الحركة الرسالية بعد الصلح ، تحرك المؤمنون بقيادة الرسول (ص) لنشر الاسلام ، و صاروا يقوونأنفسهم في ظروف الهدنة ، الى أن فتحوا مكة عسكريا بعد سنوات قليلة.

(1)موسوعة بحار الأنوار / ج ٢٠ - ص ٣٦٣

[3 - 2]وكان لهذا الفتح معطيات عظيمة ، من أبرزها غفران الله لرسوله الأكرم)ص) ما تقدم وما تأخر من الذنب ، و إتمام النعمة عليه ، و هدايته الى الصراط الحق ، و قد اختلف المفسرون في بيان معنى الذنب بالنسبة للرسول ، فمن قائل بأن للرسول ذنوبا قبل الاسلام و بعده غفرها الله له ، ومن قائل بأنه كانت له ذنوب قبل الفتح و بعده (فتح مكة) فأعطاه الله صك الأمان بغفران السابق و اللاحق منها ، و قالت جماعة بأن الرسول لم يذنب و إنما الغفران متوجه إلى امته باعتبارها أمة مرحومة.

و يبدو أن كلمة الذنب لا تنصرف الى المعنى الظاهر منها وهو المعصية ، وإنما تنصرف الى ما كان الكافرون و المشركون يعدونه ذنبا ، إذ كانت حركة الرسول (ص) بذاتها ذنبا في اعتقادهم ، لأنها تمرد على الواقع القائم ، فصار جزء من الواقع القائم بعد الصلح فارتفععنه ذلك التصور و غفر له ذنبه في نظرهم ، و لتقريب الفكرة أكثر نقول : إن موسى (ع) لم يكن في ذمته ذنب حينما قال : " ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون " (١) وإنما كان ذلك وفق القانون الحاكم ، كذلك الرسول (ص) كان مذنبا حسب ذلك القانون حتى تغير القانون في صلح الحديبية ، حيث أن رسولنا الأكرم (ص) كان قد قتل منهم في بدر و أحد و الأحزاب ، و غنم أموالهم ، و اسر رجالهم ، بل و غير أوضاعهم ، فهو كان عندهم مذنبا ، و جاء الصلح ليطوي هذه الصفحة من أذهان المشركين ، و يصيرهم في سلام مع المسلمين .

أما أن يكون معنى الذنب هو ظاهر الكلمة فإن ذلك لا يليق بمقام الأنبياء ، و بالذات مقام أعظمهم شأنا و أرفعهم منزلة عند الله ، و حاشا لله أن يبعث رسولا يرتكب الذنوب ، كما أنه من الخطأ ايضا القول بأن الله أعطى الرسول صك الغفران ، إذ كيف يرفع المسؤوليةعن أحد بدون مبرر ؟؟ وهل بينه وبين أحد من

(1)الشعراء / ١٤

خلقه قرابة حتى يفعل ذلك ؟ أولم يقل في شأن رسوله (ص) : " ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين .. (1) "بلى . هناك بعض الفرق الصوفية هي التي تعتقد بأن الانسان يصل الى مستوى من العبودية و الوعي بحيث ترفع عنه المسؤولية ، حتى قال قائل منهم لأتباعه : أنتم تجب عليكم الصلاة ، أما أنا فقد وصلت الى مقام فوق الصلاة!

إن الاسلام لا يرى نهاية للمسؤولية إلا باليقين (الموت) ، و هذا هو القرآن يخاطب الرسول (ص) - مع أنه انتهى الى غاية الكمال البشري - بأنه يحتاج الى المزيد من الصلاة و التقرب الى الله عز وجل : " أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل و قرآن الفجرإن قرآن الفجر كان مشهودا * ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا " (٢. (

و يقول القرآن في هذه السورة :

]ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر[

و الغفران هنا من باب الوعد وليس الحتم و الالزام ، ولو كان كذلك لاقتضى الأمر تغيير الآية الكريمة : " فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك و للمؤمنين و المؤمنات " (٣) ، و الحال أنه تعالى يأمر رسوله بالاستغفار لنفسه و للمؤمنين من حوله ،و تناسب اللام هنا في هذه السورة و الاستغفار لا مع الفتح ، لأن الفتح قضية سياسية فلابد أن يكون الذنب هو الآخر ذنبا سياسيا ، بينما لو اعتبرنا الذنب هنا شخصيا بين العبد و ربه لظهرت اللام مبهمة.

(1)الحاقة / ٤٤ - ٤٧

(2)الإسراء / ٧٨ - ٧٩

(3)محمد / ١٩

]و يتم نعمته عليك[

بالفتح ، و بتكريس الاسلام في المجتمع.

]و يهديك صراطا مستقيما[

قال البعض : الصراط المستقيم هو السبيل الى تدعيم أركان الاسلام و نشره ، ولعلنا نفهم من الآية و السياق أن لكل تطور جديد في الساحة السياسية معطيات سلبية و إيجابية يخشى أن تحرف مسيرة الانسان ، فمع كل تطور ضغوط ، ومع كل ضغط احتمال للانحراف ، و الله يعدنبيه في هذه الآية بأن لا تؤثر فيه تلك التطورات ، سواء كانت من نوع الضغوط و الهزائم ، أو الاغراءات و الانتصارات ، وان يبقى مستقيما على خط الرسالة.

]و ينصرك الله نصرا عزيزا[

لعل معنى العزيز هنا الثابت الذي لا يغالب ، وقد تجسد هذا النصر في فتح مكة المكرمة ، حيث أن صلح الحديبية كان تمهيدا لهذا النصر العزيز.

إذن فللفتح خمس نتائج رئيسية و هامة وهي:

أولا :غفران ذنب الرسول الذي كان يعتقده المشركون ، حيث انتهى بعد الصلح الحصار الاعلامي المطلق ، فتحول الرسول من حركة العصيان و التمرد الى الحركة الشرعية.

ثانيا : إتمام النعمة على الرسول ، بأن هيأ ربنا بهذا الصلح له الظروف ليكون أقدر على نشر الدين في المجتمع.

ثالثا : تصفية العقبات التي اعترضت طريق انتشار الاسلام ، و بالتالي دفع جانب من الضغوط التي يواجهها الرسول)ص) و أصحابه.

رابعا : تهيئة الظروف المناسبة للنصر العزيز.

[4]أما النتيجة الخامسة و التي يمكننا اعتبارها نعمة كبيرة بذاتها ، فهي بعث روح السكينة في روع المؤمنين ، فإذا بهم وهم بضع مئات يتحركون من المدينة باتجاه مكة التي يوجد فيها عشرات الألوف من أعدائهم المدججين بالسلاح ، ولولا هذه السكينة لما تحرك الجيشالاسلامي الى حدودها.

]هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم]وهل الايمان يزيد و ينقص ؟ بلى . إذن فما هو الإيمان حتى يقبل الزيادة و النقصان ؟ إنه إقرار بالقلب ، و قول باللسان ، و عمل بالحواس و الجوارح ، و معنى ذلك أن الانسان بكل كيانه المادي و المعنوي قوة واحدة يسلم لها بطوعه و إرادته وهي قوة الله ، فليسبايمان ذلك الذي يبقى في حدود العلم و المعرفة ، دون أن يعكس على صاحبه سلوكا و عملا من جنسه في الحياة ، و القرآن يقول عن فرعون و قومه حيث كفروا بالآيات : " و جحدوا بها و استيقنتها أنفسهم ظلما و علوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين " (١) إذن فيقين القلب وحده لا ينفع من دون العمل الصالح.

إن مشركي قريش كانوا يعرفون في داخل أنفسهم صدق الرسول و أمانته ، و لكنهم لم يعترفوا له بذلك في واقع حياتهم ، بل خالفوه و اتهموه بالكذب و السحر ، بينما الايمان الحقيقي هو المعرفة بالقلب و العمل بالجوارح ، و لذلك جاء في حديث(١) النمل / ١٤

13 + 296

مفصل عن الامام علي (ع) أن الايمان موزع على جوارح الانسان ، لكل جارحة منه ما يناسبها من الايمان (١) ، و بقدر انحراف أي جارحة عن التزاماتها يفقد البشر من إيمانه.

وعن الرسول الأعظم (ص) : " من لقي الله كامل الايمان كان من أهل الجنة ، ومن كان مضيعا لشيء مما فرضه الله تعالى في هذه الجوارح و تعدى ما أمره الله ، و ارتكب ما نهاه عنه ، لقي الله تعالى ناقص الايمان ، قال عز وجل : " وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون " ، وقال " :إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم و إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون " ، وقال سبحانه : " إنهم فتية آمنوا بربهم و زدناهم هدى " وقال : " و الذين اهتدوا زادهم هدى و آتاهم تقواهم " ، و قال : هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم " ، و يعلق الامام علي (ع) على هذه الرواية فيقول : " فلو كان الايمان كله واحدا لا زيادة فيه ولا نقصان ، لم يكن لأحد فضل على أحد ، و لتساوى الناس ، فبتمام الايمان و كماله دخل المؤمنون الجنة ، و نالوا الدرجات فيها ، و بذهابه و نقصانه دخل الآخرون النار " (٢. (

و ربنا فتح للمسلمين مكة ، و أنزل عليهم السكينة ، لكي يكمل إيمانهم أكثر ، فيصير اقتصادهم و اجتماعهم و حكمهم إيمانيا ، و تصبح سياستهم و شؤونهم العسكرية مبنية على أساس الايمان.

]و لله جنود السموات و الأرض[

(1)الرواية مفصلة و طويلة ، راجع بح / ج ٩٣ ، ص ٤٩ - ٥٣(٢) بح / ج ٩٣ - ص ٥٣

وهو ينصر المؤمنين ، إما عن طريق تثبيتهم و تقوية عزائمهم بانزال السكينة في قلوبهم ، وإما عن طريق جنود من عنده مباشرة كالملائكة و الظواهر التي تقوم الملائكة بتدبيرها.

]وكان الله عليما حكيما[

فهو لا ينصر المؤمنين أو يبعث السكينة في قلوبهم و يزيدهم إيمانا إلا بحكمة بالغة ، ولو أنهم لم يجاهدوا لما حصلوا على كل ذلك.

[5]و هدف المؤمنين من الانتصار و الفتح يجب أن لا يكون إسقاط الحكم الفاسد و اغتنام الأنفال ، أو أن يتحولوا من حركة إلهية الى حركة ثقافية مترفة ، أو حركة سياسية متقلبة ، إنما الهدف الأسمى من ذلك هو دخولهم الجنة ، كما يقول تعالى:

]ليدخل المؤمنين و المؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها و يكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما [إذن فالهدف الأسمى ليس النصر أو الفتح ، و القرآن يعبر عن هذه الفكرة في سورة الصف بصيغة أخرى إذ يقول : " يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله و رسوله و تجاهدون في سبيل الله بأموالكم و أنفسكم ذلكم خير لكم إنكنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم و يدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار و مساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم * و أخرى تحبونها نصر من الله و فتح قريب " (١. (

[6]و كما أن جزاء المؤمنين الحقيقي ليس هو انتصارهم على عدوهم ، فإن(١) الصف / ١٠ - ١٣

جزاء أعدائهم ليس سقوطهم من سدة الحكم ، ولا ما يلقونه من العذاب علي أيدي المؤمنين و حسب ، و إنما جزاؤهم الحقيقي عذاب الله الدائم في الآخرة.

]و يعذب المنافقين و المنافقات و المشركين و المشركات الظآنين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء]فهم محاطون بالشر من كل جانب ، كما تحيط الدائرة بمركزها.

]و غضب الله عليهم و لعنهم و أعد لهم جهنم و سآءت مصيرا [7][و في خاتمة الدرس يؤكد ربنا قوته و حكمته التي يدبر بها شؤون الخلق.

]و لله جنود السموات و الأرض وكان الله عزيزا حكيما]وهدف هذا التأكيد على قدرة الله بعث روح الأمل بالنصر و الفتح في نفوس المؤمنين ، حيث يشعرهم الرب بأن جند الله الذين لا يحصر عددهم كالملائكة و السنن الطبيعية و .. و ..كلهم يقفون صفا واحدا الى جانبهم وهم يجاهدون في سبيله ، فهم على خلاف أعدائهم الذين يحوطهم الشر كالدائرة.

صلح الحديبية:

و قبل إنهاء الحديث في هذا الدرس لا بأس أن نقرأ جانبا من قصة الصلح التي تنفع الأمة الاسلامية في بعض ظروفها ، فهي حينما تصالح عدوها عن قوة و مناورة حكيمة فإن صلحها حينئذ سيكون كصلح الحديبية ، أما لو صالحت عن ضعف ، و كانت مكاسب العدو منها أكبر منمكاسبها من الصلح فإن ذلك استسلام لا يقبله الله.

جاء في تفسير علي بن إبراهيم عن الامام الصادق) عليه السلام) قال : " كان سبب نزول هذه الآية وهذا الفتح العظيم أن الله جل وعز أمر رسوله (صلى الله عليه وآله و سلم) في النوم أن يدخل المسجد الحرام و يطوف و يحلق مع المحلقين ، فأخبر أصحابه و أمرهم بالخروج فخرجوا ، فلما نزل ذا الحليفة أحرموا بالعمرة ، و ساقوا البدن ، و ساق رسول الله)صلى الله عليه وآله وسلم) ستة و ستين بدنة ، و أشعرها عند إحرامه ، و أحرموا من ذي الحليفة ملبين بالعمرة ، و قد ساق من ساق منهم الهدي معرات مجللات ، فلما بلغ قريشا ذلك بعثوا خالد بن الوليد في مأتي فارس كمينا يستقبل رسول الله (صلى الله عليه وآله) فكان يعارضه على الجبال ، فلما كان في بعض الطريق حضرت صلاة الظهر فأذن بلال فصلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالناس ، فقال خالد بن الوليد : لو كنا حملنا عليهم وهمفي الصلاة لأصبناهم ، فإنهم لا يقطعون صلاتهم ، ولكن تجيء الآن لهم صلاة أخرى أحب أليهم من

ضياء أبصارهم ، فإذا دخلوا في الصلاة أغرنا عليهم ، فنزل جبرئيل (عليه السلام) على رسول الله (صلى الله عليه وآله) بصلاة الخوف في قوله عز وجل : " و إذا كنتفيهم فأقمت لهم الصلاة " الآية ، فلما كان في اليوم الثاني نزل رسول اللـه (صلى الله عليه وآله) الحديبية وهي على طرف الحرم ، و كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يستنفر الأعراب في طريقه ، فلم يتبعه أحد ، و يقولون : أيطمع محمـد (صلى الله عليـه و آلـه) و أصحابه أن يدخـل الحرم أو قد غزتهم قريش في عقر ديـارهم فقتلوهم ، أنه لا يرجع محمد (صلى الله عليه وآله) و أصحابه إلى المدينة أبـدا. "

ومن هذه الرواية نعرف بأن الاعراب لم يدخلوا الاسلام ، ولم يقبلوا دعوة الرسول (ص) قبل الصلح (١. (

(1)الى هنا الرواية منقولة عن نور الثقلين / ج ٥ - ص ٥٠و في رواية أخرى قال ابن عباس : إن رسول الله (ص) خرج يريد مكة ، فلما بلغ الحديبية وقفت ناقته ، و زجرها فلم تنزجر ، و بركت الناقة ، فقال أصحابه : خلأت الناقة ، فقال)ص) : ما هذا لها عادة ، ولكن حبسها حابس الفيل ، و دعا عمر بن الخطاب ليرسله الى أهل مكة ليأذنوا له بأن يدخل مكة ، و يحل من عمرته ، و ينحر هديه ، فقال : يا رسول الله مالي بها حميم ، و إني أخاف قريشا لشدة عداوتي إياها ، ولكن أدلك على رجل هو أعز بها مني : عثمان بن عفان ، فقال : صدقت ، فدعا رسول الله (ص) عثمان فأرسله الى أبي سفيان و اشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، و إنما جاء زائرا لهذا البيت ، معظما لحرمته ، فاحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله (ص) و المسلمين أن عثمان قد قتل (١) ، فقال)ص) : " لا نبرح حتى نناجز القوم " فدعا الناس الى البيعة ، فقام رسول الله (ص) الى الشجرة فاستند إليها ، و بايع الناس على أن يقاتلوا المشركين ولا يفروا ، قال عبد الله بن مغفل : كنت قائما على رأس رسول الله (ص) ذلك اليوم ، و بيدي غصن من السمرة (شجرة شائكة تنبت في الأماكن الحارة) أذب عنه وهو يبايع الناس ، فلم يبايعهم على الموت ، و إنمابايعهم على أن لا يفروا (٢) ، فبينما هم كذلك إذ جاءهم بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة وكانوا عيبة نصح رسول الله (ص) من اهل تهامة ، فقال : إني تركت كعب بن لؤي و عامر بن لؤي و معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك و صادوك عن البيت ، فقال رسول الله (ص: ("إنا لم نجيء لقتال أحد ، و لكنا جئنا معتمرين ، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب و أضرت بهم ، فإن شاؤوا ماددتهم مدة و يخلوا بيني و بين الناس ، وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد جموا ، وإن أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمريهذا حتى تنفرد سالفتي ، أو لينفذن الله تعالى أمره " ، (وهذا من الحكمة السياسية ولا ريب أن(١) وعادة ما تنشر الشائعات في مثل هذه الظروف و الأحداث.

(2)بح / ج ٢٠ - ص ٣٢٩

بيعة الرسول (ص) مع اصحابه تحت الشجرة قد أرهبت قريشا ، لأنها كانت مظهرا للقوة ، و مناورة يرهبها الأعداء ، و التظاهر بالقوة أمر مهم ، و بالذات لمن يريد الصلح ، لأن ذلك يجعله في موقع القوي المهاب على طاولة المفاوضات ، وفي سياسة اليوم تتكرر كلمة الردع النووي وهي مظهر لسياسة القوة. (

فقال بديل : سأبلغهم ما تقول ، فانطلق حتى أتى قريشا فقال : إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل ، وإنه يقول كذا وكذا ، فقام عروة بن مسعود الثقفي فقال : إنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها و دعوني آته ، فقالوا : إئته ، فأتاه فجعل يكلم النبي (ص) ، وقال له رسول الله (ص) نحوا من قوله لبديل ، فقال عروة عند ذلك : أي محمد أرأيت إن استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك ؟ وإن تكن الأخرى فوالله إني لأرى وجوها و أرى اوباشا من الناس خلقا أن يفروا و يدعوك ، فقال له أبو بكر : أمصص بظر اللات . أنحن نفر عنه و ندعه ؟ فقال : من ذا ، قالوا : أبو بكر ، قال : أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك ، قال : و جعل يكلم النبي)ص) ، و كلما كلمه أخذ بلحيته ، و المغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي (ص (ومعه السيف و عليه المغفر ، فكلما أهوى عروة بيده الى لحية رسول الله (ص (ضرب يده بنعل السيف ، و قال : أخر يدك عن لحية رسول الله (ص) قبل أن لا ترجع إليك ، فقال : من هذا ؟ قالوا : المغيرة بن شعبة ، قال : أي غدر . أولست اسعى في غدرتك ؟ قال : و كان المغيرة صحب قوما في الجاهلية ، فقتلهم و أخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم ، فقال النبي (ص) : " أما الاسلام فقد قبلنا ، وأما المال فإنه مال غدر لا حاجة لنا فيه. "

ثم إن عروة جعل يرمق صحابة النبي (ص) إذا أمرهم رسول الله (ص) ابتدروا أمره ، و إذا توضأ ثاروا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا أخفضوا أصواتهم عنده ، ومايحدون إليه النظر تعظيما له ، قال : فرجع عروة الى أصحابه و قال : أي قوم ! والله لقد وفدت على الملوك ، و وفدت على قيصر و كسرى و النجاشي ، والله إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا ، إذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون علىوضوئه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيما له ، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ، فقال رجل من بني كنانة : دعوني آته ، فقال : إئته ، فلما أشرف عليهم قال رسول الله (ص) : : هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها " فبعثت له ، و استقبله القوم يلبون ، فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ، فقام رجل منهم يقال له : مكرز بن حفص فقال ، دعوني آته ، فقالوا : إئته ، فلما أشرف عليهم قال النبي (ص " : (هذا مكرز وهو رجل فاجر " ، فجعل يكلمالنبي (ص) فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو فقال (ص) : قد سهل الله عليكم أمركم ، فقال : أكتب بيننا و بينك كتابا ، فدعا رسول الله (ص) علي بن أبي طالب (عليه السلام) فقال له " :اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم " فقال سهيل ، أما الرحمن فواللهما أدري ما هو ، ولكن أكتب : باسمك اللهم ، فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال النبي (ص) : " أكتب : باسمك اللهم ، هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله (ص) " فقال سهيل : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن أكتب : محمد بن عبد الله ، فقال النبي (ص) : إني لرسول الله وإن كذبتموني ثم قال لعلي (عليه السلام " : (أمح : رسول الله " فقال : " يا رسول الله إن يدي لا تنطلق بمحو اسمك من النبوة " ، فأخذه رسول الله (ص) فمحاه ، ثمقال : " أكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، و اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، و يكف بعضهم عن بعض ، وعلى أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجا أو معتمرا أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه و ماله ،

و من قدم المدينة من قريش مجتازا الى مصر أو الشام فهو آمن على دمه و ماله ، فإن بيننا عيبة مكفوفة ، وانه لا إسلال ولا إغلال ، وإنه من أحب أن يدخل في عقد محمد و عهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش و عهدهم دخل فيه " (١)وفي رواية أخرى : " و كتبه علي بن أبي طالب و شهد على الكتاب المهاجرون و الأنصار " ثم قال رسول الله (ص) " يا علي إنك أبيت أن تمحو إسمي من النبوة ، فوالذي بعثني بالحق نبيا لتجيبن أبناءهم الى مثلها و أنت مضيض مضطهد (أي أنك سوف تتعرض لمثل هذه الضغوط ، و سوف تتنازل عن حقوقك و واجباتك الظاهرية ، ولكن لله) فلما كان يوم صفين ، و رضوا بالحكمين ، كتب : هذا ما اصطلح عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب)ع) و معاوية ابن أبي سفيان ، فقال عمرو بن العاص : لو علمنا أنك أمير المؤمنين ما حاربناك ، ولكن أكتب : هذا ما اصطلح عليه علي ابن ابي طالب و معاوية ابن ابي سفيان ، فقال أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) : صدق الله و صدق رسوله . أخبرني رسول الله (ص) بذلك ثم كتب الكتاب " (٢)وعن محمد بن كعب قال : ثم رجع رسول الله (ص) الى المدينة فجاءه أبو بصير) رجل من قريش وهو مسلم) وهذا يبين أن الصلح صار سببا لانتشار الاسلام بين الناس ، وهنا فكرة نستفيدها من عموم حديث الحديبية وهي : إن الثورة الحقيقية تستفيد من كل الظروف في سبيلتقدمها ، لأنها تعتمد على جوهر التقدم ، وهو إرادة الانسان و تصميمه على الحركة ، فمن ظروف السلم تستفيد خطة لبناء كوادرها و ترتيب أوراقها ، ومن ظروف الحرب تستفيد خطة لنشر أفكارها(١) بح / ج ٣١ - ص ٣٣٤

(2)نور الثقلين / ج ٥ - ص 53

و الاعلام الجماهيري المركز ، فإذا ما استشهد أحد أبنائها في الحرب رفعته علما في كل أفق ، وإذا بقي حيا استفادت من كل ابعاد وجوده.

و حيث وقع رسولنا الأكرم (ص) مع قريش بنود الصلح التزم بها لكي يستفيد من فترة السلم بينه و بينهم في بناء حركته و إعدادها إعدادا قويا لمواجهة المتغيرات و الظروف المختلفة ، لهذا كان يرفض أي عمل أو قرار ينتهي الى إشعال الحرب ، لأنه يخسره مكتسبات ظروف السلم ، وحيث سمعت قريش عن رجل يسمى أبو بصير لحق بالنبي (ص) أرسلت في طلبه رجلين ، فقالوا للرسول (ص: (

"العهد الذي جعلت لنا ؟ فدفعه الى الرجلين ، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم

، فقال أبو بصير لأحد الرجلين ، إني لأرى سيفك هذا جيدا ، فاستله وقال : أجل إنه لجيد و جربت به ثم جربت ، فقال أبو بصير :أرني أنظر إليه ؟ فأمكنه منه فضربه به حتى برد ، و فر الآخر حتى بلغ المدينة فدخل المسجد يعدو ، فقال رسول الله (ص) حين رأه : " لقد رأى هذا ذعرا " فلما انتهى النبي (ص) قال : قتل و الله صاحبي و إني لمقتول ، قال : فجاء أبو بصير فقال : يا نبي الله ! قد أوفى الله ذمتك ، و رددتني إليهم ، ثم أنجاني الله منهم ، فقال النبي (ص) : " ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد "فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، و انفلت منهم ابو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير ، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت عليه عصابة ، قال : فوالله لا يسمعون بعير لقريش قد خرجت الى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم ، و أخذوا أموالهم ، فأرسلت قريش الى النبي (ص) تناشده الله و الرحم لما أرسل اليهم ، فمن أتاه منهم فهو آمن ، فأرسل (ص) إليهم فأتوه " (١(

(1)بح / ج ٢٠ - ص ٣٣٥

وفي تفسير القمي : و قال رسول الله (ص) لأصحابه (بعد كتابة الصلح) : إنحروا بدنكم ، و أحلقوا رؤوسكم ، فامتنعوا و قالوا : كيف ننحر و نحلق ولم نطف بالبيت ، ولم نسع بين الصفا و المروة ؟ فاغتم لذلك رسول الله (ص) و شكا ذلك الى أم سلمة ، فقالت : يا رسولالله انحر أنت و احلق ، فنحر رسول الله)ص) فحلق ، فنحر القوم على حيث يقين و شك و ارتياب " (وهنا تتبين فكرة مهمة وهي : إن القيادة حينما تقول و تعمل بما تقول يكون قرارها أمضى أثرا فيمن حولها. (

و حيث رجع المسلمون الى المدينة قالوا ، هذا ليس بفتح ، لأنهم حسبوا الفتح هو النصر الذي يأتي بالقتال ، و يكون فيه الأسر و أخذ الغنائم ، ولم يكونوا يعرفون أبعاد الفتح الحقيقية ، أما الرسول (ص (فهو يعرف كل ذلك ، و بمجرد أن سمع هذا الكلام جمع أصحابه وأكد لهم بأن ما حدث هو أعظم الفتح ، فقال : " لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم " وهذه مرحلة من مراحل الفتح ، أن العدو يعترف بالمسلمين ، " و يسألوكم القضية ، و يرغبون إليكم في الاياب " أي أنهم اعترفوا بكم كند لهم "وقد كرهوا منكم ما كرهوا ، وقد أظفركم الله عليهم ، فردكم سالمين غانمين مأجورين ، فهذا أعظم الفتح " ثم ذكرهم بالماضي وقال : " أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد و أنا أدعوكم في أخراكم ؟! أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار ، و بلغت القلوب الحناجر ، و تظنون بالله الظنونا ؟! قالوا : صدق الله و رسوله ، و هو أعظم الفتوح ، و الله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه ، و لأنت أعلم بالله و بالأمور منا ، فأنزل الله سورة الفتح " (١)و جاء في عيون الأخبار بإسناده الى علي بن محمد بن الجهم قال : حضرت مجلس المأمون و عنده الامام الرضا ، فقال المأمون : يابن رسول الله ! أليس من قولك(١) تفسير القمي عند الآية انا فتحنا لك فتحا مبينا.

أن الانبياء معصومون ؟ قال : بلى ، قال : فأخبرني عن قول الله تعالى : " ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر " قال الرضا (عليه السلام) : لم يكن أحد عند مشركي مكة أعظم ذنبا من رسول الله (صلى الله عليه و آله) لأنهم كانوا يعبدون من دون اللهثلاثمأة و ستين صنما فلما جاءهم بالدعوة الى كلمة الاخلاص كبر ذلك عليهم و عظم و قالوا : " أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب * و انطلق الملأ منهم أن امشوا و اصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد * ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق" فلما فتح الله تعالى على نبيه (ص) مكة ، قال له : يا محمد " إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر " عند مشركي أهل مكة بدعائك توحيد الله فيما تقدم وما تأخر ، لأن مشركي مكه أسلم بعضهم ، و خرج بعضهم عن مكة ، ومن بقي منهم لم يقدر على إنكار التوحيد إذا دعا الناس اليه ، فصار ذنبه عندهم في ذلك مغفورا بظهوره عليهم " فقال المأمون : لله درك يا أبا الحسن (1)(1) " نور الثقلين / ج ٥ - ص ٥٦

إنا أرسلناك شاهدا

هدى من الآيات

بعد تناول القرآن موضوع الفتح المبين وما تابع ذلك من حقائق إجتماعية أظهرها الوضع الجديد يحدثنا ربنا عن موقع الرسول (ص) بين المسلمين ، كأهم عبرة تستفيدها الأمة من هذه الظاهرة التي لم يعرف

الناس أبعادها لولا أن الرسول بحكمته و حزمه تعامل معها ، و اكتسب لهم ثمرات الفتح المبين . فهو (ص) لا يمثل شخصه ، وإنما يمثل رسالته و ربه ، و من ثم فإن بيعته و الخضوع لأوامره ليس إلا لله عز وجل ، و بهذه المناسبة يكشف السياق عن واقع المنافقين بأنهم انتهازيون ، و يبحثون عن مصالحهم فقط ، فتراهم يتبعون القائد مادامذلك لا يتعارض مع مصالحهم ، وإلا تمردوا عليه بمختلف الأعذار ، و لقد أمرهم النبي (ص) بالتوجه الى مكة فنكصوا على أعقابهم خوفا من عواقب ما اعتبروه مغامرة غير محسوبة ، و عندما عاد المسلمون الى المدينة فاتحين رجعوا إلى صفوف الأمة على جسر من الأعذار ، ولم يكن ذلك إلا لأن خط الرسالة فرض نفسه على الواقع.

ولكن ربنا لا يدع الأمر هكذا دون قيد يفرضه عليهم ، و بصيرة يهدي بها الرسول القائد و المؤمنين من حوله في التعامل مع هذا الطراز من الناس ، وإنما يشترط لقبول توبتهم أن تكون توبة نصوحا تحكيها أعمالهم و ممارساتهم ، و تتجلى في مواجهاتهم اللاحقة مع الكفار، التي ينبغي أن يثبتوا فيها جدارتهم للإنتماء الى خط الرسالة و تجمع المؤمنين ، أما مجرد الكلام و إلقاء الأعذار فلا يمكنه إعادتهم الى الصف الإسلامي أبدا.

بينات من الآيات

] [8]إنا أرسلناك شاهدا و مبشرا و نذيرا[

و الشاهد : الحاضر ، فكيف ينسحب هذا المعنى على القائد ؟ إن الشاهد هو الحاضر الذي يكون سلوكه مقياسا للحق ، و شهادة الرسول على الأمة حجيته ، و كونه المقياس العملي للخير و الفضيلة ، و الميزان الواقعي للضلالة و الهدى ، وليس المراد من شهادته (ص) حضوره الجسدي بين المسلمين ، و إلا لما كان ذلك يحتاج الى الإرسال من قبل الله باعتباره تحصيل حاصل ، ثم أن هذه الشهادة لا تنحصر زمنيا بوجوده المادي ، وإنما تشمل البشرية التي أرسل إليها جيلا بعد جيل ، و زمنا بعد زمن.

و لكي يتضح معنى الشهادة بالنسبة للرسول القائد (ص) لابد من الحديث عن صفتين تجسدانها من صفاته ، هما : دعوته الناس الى الرسالة عن طريق كلامه و بيانه ، و الأخرى دعوته لهم من خلال سلوكه و عمله ، و ذلك بصنعه واقعا يتأثر به المجتمع من حوله ، و مثال ذلك أنه (ص) حينما يوقع على صلح الحديبية ، و يقبل بمحو اسم (رسول الله) من الوثيقة تكتيكيا ، فلكي يستمر الصلح بفوائده استراتيجيا ، و حينما يقود جيشا لجبا الى المعركة ، و حينما يصلي خاشعا لربه ، و حينما يعفو و يسامح ، و .. و .. كل هذه السلوكيات تؤثر واقعياعلى المجتمع ،

و تدفعه دفعا قويا ومن الأعماق للتأسي بصاحبها و اتباعه ، إذن فالقيادة قبل أن تكون منصبا سياسيا و اجتماعيا ، و قبل أن تكون قرارا من أعلى ، هي - في الواقع - مبادرة و واقع عملي ، و الأئمة (ع) أكثر ما أمروا أصحابهم و اتباعهم بالعمل لا بالكلام ، و الامام الصادق (ع) يقول : " كونوا دعاة لنا بغير ألسنتكم " يعني بسلوككم و عملكم ، لأن ذلك أمضى أثرا في واقع الناس و نفوسهم ، و أكبر دلالة على خط الانسان و فكره ، و لقد قرأنا في الدرس السابق كيف أن الرسول حينما أمر المسلمين بحلق رؤوسهم و نحر بدنهم رفضأكثرهم فبادر شخصيا الى ذلك فتهافتوا للحلق و النحر.

هذا من جهة ، و من جهة أخرى إن ألفاظ الرسالة تتعرض للتلاعب من قبل المنافقين ، كما أنها تحتمل التأويل و التفسير ، بينما الشهادة العملية تبقى حجة جلية بالغة ، لا تحتمل أكثر من تفسيرها الواقعي ، فلو أمر الرسول (ص (الناس بالصدق و بالامانة بمجرد الكلام ، دون أن يجسد لهم هذين المعنيين ، لكان الكثير من المسلمين يكذب أو يخون ، و يفسر ذلك بأنه الصدق و الأمانة اللذان أمر بهما الرسول ، و لكن الرسول قال و عمل فكان عمله أكبر مفسر لقوله.

إن الرسول يصبح شاهدا و قائدا للمسلمين ، و تصبح سيرته منهجا للأجيال بعد الأجيال ، حينما يجمع أصحابه و يذهب الى مكة فيتهرب جمع منهم ، و ينسلون من جيشه لواذا خشية الابادة ، فإنه يصنع واقعا حيا ، أو حين ينصرف من الخندق مع المسلمين ، و يضع عنه اللامة ،و يغتسل ، و يستحم ، فينزل عليه جبرئيل و يقول له : " عذيرك من محارب . ألا أراك قد وضعت عنك اللامة ، و ما وضعناها بعد " فإذا به يثب (ص) للجهاد ، و يتبعه المسلمون ، و يحارب بني قريظة.

هذه المواقف الواقعية هي التي تترك أثرها البالغ في نفوس الناس و الأجيال ،فهذه سيرة رسول الله (ص) تلهم المسلمين جيلا بعد جيل العزم و الاستقامة ، لأنه لم يكن شاهدا بكلامه و حسب ، و إنما بعمله و سلوكه لقد كان شاهدا في كل حقل ، مبادرا في كل مكرمة ، صانعا للأحداث ، مقتحما غمار الصعاب ، و حتى في الحروب كان القائد الشاهد ، والبالحد الذي قال عنه بطل الاسلام علي ابن أبي طالب عليه السلام : " و كنا إذا احمر البأس اتقينا برسول الله (ص) ، فلم يكن أحد منا أقرب من العدو منه " (١)و الرسالي الصادق هو الذي يشهد على عصره ، و تفسر مواقفه العملية كلماته المضيئة.

[10 - 9]و يجري السياق في بيان أهداف البعثة.

]لتؤمنوا بالله و رسوله[

الذي طاعته و الايمان به امتداد للايمان بالله.

]و تعزروه و توقروه و تسبحوه بكرة و أصيلا[

و هنا اختلف المفسرون في تحديد الذي تعود عليه ضمائر هذه الكلمات ، فقال جماعة بأنها تعود الى الله سبحانه و تعالى ، ولا يمكن أن تعود على الرسول ، وقد عطف عليهما التسبيح الذي هو مختص به عز وجل ، وقال آخرون بأن الضميرين في " تعزروه و توقروه "يعودان على الرسول ، و المعنى تنصرونه و تعظمونه.

وما يبدو لي هو أن نصر الله و تعظيمه يتحققان بنصر رسوله و رفع شأنه لأنهما جهة واحدة ، وليس الرسول سوى وسيلة الى الله ، كما أن القبلة بذاتها ليست هدفا ،(١) نهج البلاغة / حكمة ٩

و إنما هي وسيلة للعبادة ، و نجد هذا المعنى جليا في كثير من الآيات القرآنية ، و من جملتها قوله تعالى : " و اعتصموا بحبل الله جميعا " (١) و حبل الله هو الرسول و الأئمة (عليهم السلام) ، و لاختصاص العبودية بالله نستطيع القول بأن الضميرفي كلمتي " تعزروه و توقروه " يعود على الرسول ، بينما يعود في كلمة " تسبحوه " على الله مباشرة ، و في الآية اللاحقة بيان و تأكيد لهذه الفكرة ، يقول تعالى:

]إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله[

فالمبايعة لله ، و لكنها تمر عبر الرسول (ص) ، و غايتها إظهار الولاء التام للقيادة ، و التعهد بالإستمرار في خطها ، و لعل الكلمة مأخوذة من البيع فيكون معنى البيعة أن يبيع أفراد المجتمع المسلم أو التجمع الرسالي ما لديهم من طاقات و إمكانات مادية و معنوية لقيادتهم بإزاء رضوان الله ، و ليس بالضرورة أن تتم البيعة بسلام الرجال على الرسول مصافحة ، و وضع النساء أيديهن في الماء ، كما تم عند البيعة للرسول أو للامام علي في الغدير ، بل يمكن أن تتم عن طريق القسم الحركي ، أو بالوكالة بأن يبايع الأفراد نائب القائد ، أو حتى بالكتابة ، لأن المهم إظهار الإستعداد للطاعة بحركة واضحة.

قال جابر بن عبد الله (رضي الله عنه) : بايعنا رسول الله تحت الشجرة على الموت ، وعلى أن لا نفر . (٢)و كان الرسول (ص) الذي يمثل الله يضع يده على أيدي المؤمنين في البيعة ، و قد أكد ربنا لنبيه أنه سيكون بالمرصاد لكل من تسول له نفسه الخيانة.

]يد الله فوق ايديهم[

(1)آل عمران / ١٠٣

(2)الزمخشري / ج ٤ - ص 335

أي قوته و قدرته أعلى من كل أحد.

]فمن نكث فإنما ينكث على نفسه[

لانه سوف يضع نفسه في موضع المحارب لله ذي القوة و الطول ، ولن تقتصر خسارته على الآخرة و حسب ، بل سوف يخسر في الدارين ، وعلى عكسه الذي يلتزم بالعهد و يتم البيعة فإنه يجني السعادة في الدنيا و الآخرة.

]ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما][١١] من معطيات السير نحو مكة ، ومن تجليات الفتح المبين ، كشف العناصر الضعيفة التي تعيش في الأمة ، وحيث الله أعلم بعواقب الأمور ، و واقع هؤلاء الناكثين ، و أنهم سوف يظهرون للنبي من الأعذار و التبريرات غير الذي يضمرون ، بين ذلك لرسوله ، و لكي يتخذ منهم موقفا حاسما.

]سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنآ أموالنا و أهلونا فاستغفر لنا]و هــل ذلك عذر مقبول في مثل هذه الفترة الحاسمة من حياة الأمة الاسلامية ؟ بلى . إن هؤلاء يقترفون الأخطاء ، ثم يحاولون خداع القيادة و استرضاءها بمجموعة من الأعذار الواهية لتستر خلفياتهم ، و هم بذلك يرتكبون خطأ آخر بالإضافة إلى نكثهم و هو نفاقهم عبرتبريراتهم الكاذبة ، ولكن الله يفضحهم ، و يبين لرسوله واقعهم ، وأنهم ليسوا صادقين في توبتهم ، بل ولا في أعذارهم.

]يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم[

من نفاق و خيانة ، و لعل هذه الكلمة تنطبق أكثر شيء على تظاهرهم بالندم منتخلفهم و رجائهم الرسول بأن يستغفر لهم.

بلى .إن التبريرات قد تدفع عن الإنسان جزاءا آتيا من أمثاله من البشر ، أما جزاء الله فلا ، لأنه يغيب عنه شيء أو يمنع إرادته أحد.

]قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرا]هكذا أمر الله رسوله أن يفضح المنافقين ، و يعلن واقعهم.

] [12]بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول و المؤمنون الى أهليهم أبدا]مما أثار فيهم الظنون و التصورات ، التي انعكست على تفكيرهم ، ولم يكن مصدر ظنهم هذا العلم الحاصل من تقييم الحوادث ، إنما كان سببه الخوف و الجبن ، في صورة ثقافة سلبية ترتكز على التبرير.

]و زين ذلك في قلوبكم[

من زين لهم التقاعس ؟ إبليس و جنوده من الذين تجسدت فيهم ثقافته.

]و ظننتم ظن السوء[

ربما يعني ذلك الحالة السلبية التي تؤثر في التفكير ، و يزيغ بصاحبه نحو الأفكار المتشائمة.

]و كنتم قوما بورا[

و هكذا تدرج أولئك الخاسرون في دركات السقوط درجة درجة ، فزين- اولا - الشيطان أعمالهم السابقة في قلوبهم حتى رأوها حسنة ، ثم دفعهم ظن السوء الى التقييم السلبي ، و أخيرا هلكوا ، و من هنا نعرف أن بدايات الإنحراف قد لا تستثير الإنسان ، و لكنها خطيرة لأنها تهوي بالبشر الى الهلاك المطلق.

[13]وقد اعتبر الله هذه الخطوة دليلا على عدم الإيمان لدى هؤلاء ، و توعدهم بعذاب جهنم جزاءا لهذا الكفر فقال:

]ومن لم يؤمن بالله و رسوله فانا اعتدنا للكافرين سعيرا]إذن فربنا هيأ النار و أعدها ، و يا ترى كم ستكون مؤذية هذه النار التي سجرها الله لغضبه بالنسبة للبشر الضعيف ؟!

دعنا نقرأ هنا رواية عن الرسول (ص) لعلنا نخشى الله ، و نجتنب المعصية : " إن جبرئيل (ع) أتى النبي (ص) عند الزوال في ساعة لم يأته فيها وهو متغير اللون ، وكان النبي (ص) يسمع حسه و جرسه فلم يسمعه يومئذ ، فقال له النبي (ص) : يا جبرئيل مالك جئتني فيساعة لم تكن تجئني فيها ، و ارى لونك متغيرا ، و كنت أسمع حسك و جرسك فلم أسمعه ؟ !فقال : إني جئت حين أمر الله بمنافخ النار فوضعت على النار ، فقال النبي)ص) : أخبرني عن النار يا جبرئيل حين خلقها الله تعالى : فقال : إنه سبحانه أوقد عليها ألف عام فاحمرت، ثم أوقد عليها ألف عام فابيضت ، ثم أوقد عليها ألف عام فاسودت ، فهي سوداء مظلمة ، لا يضيء جمرها ، ولا ينطفئ لهبها ، و الذي بعثك بالحق نبيا لو أن مثل خرق إبرة خرج منها على أهل الأرض لاحترقوا عن آخرهم ، ولو أن رجلا دخل جهنم ثم أخرج منها لهلك أهل الأرض جميعا حين ينظرون إليه ، لما يرون به ، ولو أن ذراعا من السلسلة التي ذكره الله تعالى في كتابه وضع على جميع جبال الدنيا لذابت عن آخرها ، و لو أن بعض خزان جهنم التسعة عشر نظر إليه أهل الأرضلماتوا حين ينظرون إليه ، ولو أن ثوبا من ثياب أهل جهنم أخرج إلى الأرض لمات أهل الأرض من نتن ريحه ، فأكب النبي (ص) و أطرق يبكي و كذلك جبرئيل ، فلم يزالا يبكيان حتى ناداهما ملك من السماء : يا جبرئيل ويا محمد إن الله قد آمنكما من أن تعصياه فيعذبكما "(١(

[14]و لكي لا يستبد بنا اليأس عند الحديث عن النار و عذابها ، يؤكد لنا الله رحمته الواسعة و غفرانه للذنوب .

]و لله ملك السماوات و الأرض يغفر لمن يشآء و يعذب من يشآء و كان الله غفورا رحيما]وقد حكي أن الرسول (ص) لما سمع كلمة أفلاطون : (إذا كانت السماء قوسا ، و البلاء سهما ، و الرامي هو الله فأين المفر ؟) نزلت عليه الآية الكريمة : " ففروا الى الله " (٢)بلى . إن الفرار ممكن ، و لكن كيف نفر ؟ نفر من غضب الله إلى رضاه ، و من سخطه الى عفوه ، و ربنا برحمته الواسعة يقبل فرار العبد إليه ، و لكن بشرط أن يستغفره و يتوب إليه صادقا.

و هنا في هذه الآية جعل الله نهايتها " غفورا رحيما " مع أنه قال : " يغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء " و ذلك تأكيدا لرحمته و رأفته بخلقه ، و طردا لليأس من نفوسنا.

(1)بح / ج ٨ - ص ٣٠٥

(2)الذاريات / ٥٠

و أثابهم فتحا قريبا

هدى من الآيات

لقد وفر الفتح المبين (صلح الحديبية) للمسلمين حالة من السلام ، التي تساعدهم على الانتشار و إعداد أنفسهم للمواجهة الحاسمة مع أعدائهم على الصعيد الخارجي ، كما أنه على صعيد الجبهة الداخلية كشف عن حقيقة المنتمين اليهم مما ساهم في تصفية العناصر الضعيفة و تمتين الجبهة الداخلية.

بلى .إذا كان هؤلاء يريدون العودة الى صف المؤمنين و القيادة الرسالية لابد أن يتوبوا توبة صادقة ، و هنالك تسعهم رحمة الله ، و تستوعبهم صفوف المؤمنين ، و تقبلهم القيادة ، و لكن بشرط أن يبرهنوا عمليا على صدقهم عبر الوقوف مع المؤمنين في الشدائد الحاسمة.

و نستفيد من هذا الحكم الإلهي حكمة بالغة في معاملة هذه النوعية من الأفراد ، وهي أن لا تقبلهم القيادة الرسالية بعدما تخلفوا عن تجمعها و أوامرها في الشدة ، إلاإذا أظهروا توبتهم ، و وطنوا أنفسهم

على خوض الجهاد تحت رايتها ، لأن قبول هذه النوعية من دون امتحان عسير يثبت صدقها قد يكلف الحركة الرسالية الكثير ، لو أنهم عادوا لطبيعتهم الانهزامية و انشقوا و شقوا عصا الطاعة في موقف خطير أو مهمة حاسمة يكلف التمرد فيهما أضعاف ما يكلفه التمرد في الظروف العادية.

ات من الآيات

] [15]سيقول المخلفون إذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها[

وقد تمردوا من قبل على أمر القيادة ، و تخلفوا عن المسير معكم ، لا لأنهم اكتشفوا خطأ في خط الرسالة ، بل لأنهم التحقوا به التحاقا مصلحيا ، و حيث ظنوا - مجرد ظن - بأن المسير الى مكة يعني الإبادة ، فهو خال من المصالح ، نكصوا على أعقابهم ، أماالآن و المسلمون يسيرون الى فتح مؤكد في نظرهم - وهو غزوة حنين حسب بعض التفاسير - فإنهم يحاولون بكل طريق العودة الى صفوف الجيش الاسلامي ، ولكن ليس من باب التوبة وإنما المصلحة.

]ذرونا نتبعكم[

وقد حذرهم الله من عواقب التخلف عن نصرة رسوله (ص) ، وأنه سوف يعذبهم ، و يمحو أسماءهم من قائمة المقاتلين المؤمنين ، لأن المقاتل المؤمن هو الذي يتبع أوامر قيادته في كل مكان و أي زمان ، و حيث نكصوا جزاهم الله بذلك ، وهم الآن يسعون لتبديل ما حكم اللهبه.

]يريدون أن يبدلوا كلام الله[

ولكن هذا الحكم الشرعي ثابت لا يتغير ، وهو أن من يتمرد على القيادة الرسالية في الظروف الصعبة ينبغي أن يطرد من صفوف المقاتلين.

]قل لن تتبعونا[

فنحن مأمورون من قبل الله أن لا نقبلكم من دون شرط و قيد.

]كذلكم قال الله من قبل[

و هذا جزاؤكم الطبيعي.

و لأن هؤلاء مجبولون على التبرير فإنهم لن يعترفوا بواقعهم ، وإنما سيحاولون التستر بأعذار لا تنفع ، شبيهة بتلك التي برروا بها تخلفهم عن المسير و القتال من قبل.

]فسيقولون[

وهم يتهمون المؤمنين و القيادة الرسالية التي تجسدت يومئذ في الرسول (ص. (

]بل تحسدوننا[

و بالتالي فإنكم تريدون من رفض انتمائنا إليكم التفرد بالمكاسب ، وفي مقابل هذه التهمة يأتي الرد الإلهي الحاسم بأنهم غارقون في الجهل.

]بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا[

و يدل على ذلك أمران:

الأمر الأول : وقد عالجته الآية في مطلعها ، وهو جهل هؤلاء بأن الانتهازي الذي يترك جماعته في ساعة

الحرج لا يمكن ان يحتسب منهم في الرخاء كأمر واقعي ، و بالذات في المجتمع العربي الذي يعد ذلك من صميم عاداته و تقاليدهآنذاك.

فمن كان يتخلى عن عشيرته عند الشدة كانوا ينبذونه نبذا تاما ، و يحرمون عليه حتى الزواج منهم ! إذن فمن السذاجة القول بأن (الصلاة خلف علي أتم ، و الأكل مع معاوية أدسم ، و الوقوف على التل أسلم) ، و لا يمكن أن يسمى من هذا شعاره موحدا أو منتميا الى الاسلام انتماءا صحيحا ، إنما هو لقيط ، و ينبغي للمؤمنين رفض انتمائه اليهم.

وقد يشير الى هذا الأمر خاتمة الآية التي نحن بصدد تفسيرها ، حيث تؤكد بأن المخلفين ساذجون لا يستطيعون سبيلا الى فهم الحقائق.

الأمر الثاني : الذي يدل على جهلهم أنهم ينسبون الحسد الى شخص الرسول (ص) مع اعتقادهم بأنه مرسل من الله عز و جل ، وهل الرسول يذنب أو يتمحور حول نفسه حتى يسعى وراء المغانم ؟!

و إذا افترضنا أنهم لا يؤمنون به رسولا من الله ، ولا قائدا حقيقيا ، فلماذا يتبعونه ، و يريدون القتال تحت لوائه ؟!

و لعل تفسير خاتمة الآية أن هؤلاء لا حظ لهم من الوعي إلا القليل ، لأنهم اضلوا الطريق العام فلا تنفعهم معرفتهم ببعض الطرق الفرعية ، ذلك لأن محور حقائق العلم هو معرفة الله ، و سننه الحق ، و بصائر رسالاته ، فإذا أخطأوا المحور فلا جرم أنهم يتيهون في الضلالات.

وماذا ينفع العلم بكافة الحقول العلمية إذا كان الخط العام لحياة الانسان خاطئا ؟ أرأيت كيف يوجه المستكبرون كل علمائهم فيما يبعدهم عن الله ، و يسبب هلاكهم و هلاك العالم ؟

فمجمل أفكارهم خاطئة ، و بتعبير آخر أن القلة هنا نوعية لا كمية.

[16]ومع ان الله يفشل كل محاولاتهم لتبرير تخلفهم أولا ثم عودتهم الى صفوف المسلمين فإنه يفتح أمامهم طريقا للتوبة ، و الطريق الواسع الى رحاب التوبة بالانتماء الحقيقي ، إذ ليس صعبا أن ينتمي الشخص الى صف الرساليين ظاهرا ، و إنما الصعب أن يكون انتماؤهانتماءا حقيقيا تكشف عنه استقامته في الظروف الصعبة.

و حيث مر هؤلاء بتجربة عملية كشفت للقيادة الرسالية و المؤمنين ضعف انتمائهم ، فهم بحاجة إذن الى تجربة أخرى تثبت صدق توبتهم ، ولا شك أن الذي يتوب عن صدق سوف يقبل بما يشترط عليه ليكون دليلا لتوبته ، يحدوه الى ذلك خوفه من الله ، و إحساسه بضرورة التكفير عن ذنبه ، و لذلك أمر الله رسوله أن يلزم التائبين من المخلفين بشرط الثبات في المواقف المستقبلية ، و لعله عبر في مطلع الآية بكلمة " قل " لبيان أن الشرط إنما هو من عند الله عز وجل ، و ليس من لدن الرسول (ص) حتى يمنع بذلك أي محاولة أخرى للاعتراض أو التبرير.

]قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون]و الاحتمال الأقوى أنهم يختارون الحرب ولو في بادئ الأمر ، على الأقل ثقة بالنصر على المسلمين و اعتمادا على قوتهم الظاهرية ، إذن فالابتلاء عظيم ، و الامتحان عسير ، يحتاج فيه هؤلاء عزم راسخ و إرادة قوية لكي يثبتوا صدق توبتهم ، و بالتالي تقبلهم القيادةالرسالية في تجمعها ، و لا يخوض غمار هذا الابتلاء إلا الصادقون ، أما الانتهازيون و المصلحيون فإنهم لن يجازفوا بأنفسهم.

13 + 325

و بالرغم من أن القرآن يشجع المؤمنين في الأغلب على الحرب يبعث الأمل بالنصر في أنفسهم ، إلا أنه هذه المرة يصف العدو بالشدة لأنه يتناسب مع هدف هذه الآية و القضية التي جاءت بصددها وهو

امتحان المخلفين ليثبتوا جدارتهم للانتماء الى صف المؤمنين ، بعد أن فقدوها بالانهزام السابق.

وقد اختلف المفسرون في تحديد المعركة التي تشير إليها هذه الآية الكريمة ، فقال بعضهم : إنها حرب المسلمين مع الروم ، وقال جماعة : إنها حرب المسلمين مع المرتدين بعد الرسول (ص) ، وقال آخرون : إنها الحرب التي دارت رحاها على الفرس ، و قيل أنها الحرب مع هوازن و ثقيف بعد فتح مكة ، و لعل هذا المحمل هو الأقرب الى جو الآيات و إيحاءاتها التي تفيد الحديث عن عصر الرسول لا بعده ، حيث أن غزوة حنين كانت أعظم الغزوات بعد صلح الحديبية ثم فتح مكة.

و رغبهم في قبول هذا الشرط بالترغيب في ثواب الله و عطائه ، وما يترتب على ذلك من قبول لتوبتهم ، ثم حذرهم من عواقب الرفض لأمر الله الذي يستتبع العذاب و الخسارة.

]فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل]لما دعاكم الرسول الى المسير الى مكة قبل صلح الحديبية ، فجبنتم بسبب سوء الظن بالله ، و قدمتم المعاذير الواهية.

]يعذبكم عذابا أليما[

[17]و بمناسبة الحديث عن الأعذار التي كان يسوقها المتخلفون يبين السياق الأعذار المشروعة التي تسقط القتال عن المؤمن ، لكي تتوضح ولا يتشبث المتقاعسون بكل عذر تافه للتنصل عن مسؤولية القتال.

]ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج]وهذه من سماحة الاسلام و نظرته المتوازنة للأمور أنه في الوقت الذي يشدد على موضوع القتال لا يغفل عن بيان الأعذار الحقيقية التي يعذر في إطارها المتخلفون ، ثم يجعل الحد الفاصل في إقرار هذه الأعذار أو رفضها رأي القائد ، لانه هو الذي يحدد متى تكون هذه الأعذار الآنفة الذكر مقبولة كمانع عن القتال ، فمن يحدد - مثلا - أن الأعمش يلحق بالأعمى ، وما درجة ضعف العين الذي يسقط بموجبه الجهاد عن صاحبه ، و ما درجة العرجة ، وهل أن المرض الذي لا يمنع عن التقال - كمرض السكري - يعتبر عذرا ؟ ثم أن هناك أعذارا حقيقية لم يتعرض لها النص ، مثل شلل اليدين ، و البدنة المفرطة ، و السفه .. ، و لعله لذلك أكد ربنا بعد ذكر الأعذار الشرعية على طاعة القيادة ، فقال:

]ومن يطع الله و رسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار]و إذ يعد الله الطائعين له و لرسوله بهذا الجزاء ، و يشير في علاجه لمثل هذه القضية الى موضوع الآخرة ، فلأن العامل الأساسي الذي يدفع الانسان للفرار من ساحة المعركة ، أو للتمرد على أوامر القيادة الرسالية بشكل عام ، هو التشبث بحطام الدنيا الزائل ، وهكذا يخلق التذكر بالآخرة معادلة في ضمير الانسان و عقله بين نتائج الهزيمة السلبية ، و معطيات الثبات و الطاعة الايجابية العظيمة ، و تأتي في البين خاتمة الآية لترجع فرار الطاعة و الثبات على فرار الهزيمة بإثارة عامل الخوف و الرهبة من عذاب الله عند الانسان.

]ومن يتول يعذبه عذابا أليما[

و التولي هو الفرار من الزحف و الجهاد في سبيل الله ، الأمر الذي يستوجب العذاب الإليم.

] [19 - 18]لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة]أما هدف العهد مع الله فإنه يستمطر رضاه و ثوابه ، فقد وسعت مرضات الله المؤمنين حين بايعوا رسول الله على القتال حتى الموت بين يديه ، و ذلك قبل أن يبرم الصلح ، فلما رأى المشركون عزم المؤمنين على الحرب و الاستقامة قبلوا بالصلح.

إن الله سبحانه قد يقبل بيعة المؤمنين ، و يغفر ذنوبهم كلها . أليست الحسنات يذهبن السيئات ؟ بلى . إن الموقف البطولي يسوى عند الله الشيء الكثير ، و يرجح في ميزانه على كل عمل ، و لعله لذلك يغفر الله للشهيد كل ذنوبه.

ولقد كانت بيعة المؤمنين للرسول تحت الشجرة دليلا أكيدا على عمق إيمانهم بالرسالة ، و لو لم يكونوا مؤمنين بمعنى الكلمة لما بايعوا الرسول (ص) وهم يعلمون أن المواجهة بينهم و بين المشركين لو حصلت تعني حسب المقاييس الظاهرة إبادتهم من الوجود ، و من هذا المنطلق كانت البيعة فارقا بين المنافقين و ضعاف الايمان و بين المؤمنين الصادقين ، و هي كما كشفت فريق المخلفين ميزت المؤمنين و أفرزتهم ، وهكذا تنفع المواقف الحرجة الحركة الرسالية في الكشف عن هوية أفرادها و نقاط القوة و الضعف فيهم.

]فعلم ما في قلوبهم[

من الثبات و صدق الايمان و عموم مؤهلات النصر الإلهي.

]فأنزل السكينة عليهم و أثابهم فتحا قريبا * و مغانم كثيرة يأخذونهاو كان الله عزيزا حكيما[

وقد تجسد ذلك الفتح في الانتصارات و المغانم التي صار اليها المؤمنون بعد ذلك في معركة خيبر و فتح مكة و غيرهما ، ولا شك أن المؤمنين كانوا يخسرون الكثير ، و تفوتهم هذه الانتصارات لو كان قرارهم الانهزام ، وهذه الحقيقة واضحة في تاريخ الأمم و الحركات ، فهي عندما تتمسك بمبادئها و أهدافها ، و تستقيم من أجل ذلك رغم المصاعب و التضحيات ، تصل الى ما تريد بتضحيات أقل ، بينما تقصر على غاياتها ، و تعيش الذل و الهوان ، حينما تنقلب على أعقابها ، و تدفع إضافة الى ذلك أضعافا مضاعفة من الخسائر ضريبة للهزيمة.

و من خلال الآيات المتقدمة يتضح أن المؤمنين وصلوا للمكاسب التالية نتيجة لثباتهم على العهد:

-1تثبيت الايمان في قلوبهم و زيادته.

-2الفتح العسكري القريب إضافة الى الفتح السياسي المتمثل في صلح الحديبية.

-3المغانم الكثيرة معنوية و سياسية و اقتصادية.

] [20]وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها[

في المستقبل ، و لكنه عجل لهم أمرين:

الأول :المغانم الأولية التي حصل عليها المؤمنون أثر الصلح ، كدخول أفواج من الناس في الدين ، و تحالف بعض القبائل مع الرسول ، و حصول حالة من الأمن تمكنه من بناء حركته و إعداد المؤمنين للمواجهة الحاسمة ، أما ما حصلوا عليه بعدفتح مكة عسكريا فهو كثير أيضا ، و الذي من أعظمه و أبرزه القضاء على السلطة المنحرفة فيها ، و دخول الناس أفواجا في دين الله ، مما جاء تفصيله و بيانه في سورة النصر.

الثاني : دفع أذى المشركين و الكفار عن المؤمنين بصلح الحديبية ، إذ لو كانت المواجهة تحدث يوم ذاك بين المؤمنين بأعدادهم و عدتهم القليلة من جهة ، و المشركين بأعدادهم و عددهم الكثيرة من جهة أخرى ، لكانوا يبادون و تنطفئ شعلة الاسلام.

]فعجل لكم هذه و كف أيدي الناس عنكم و لتكون آية للمؤمنين]على رضى الله عنهم ، و نصره لعباده الذين ينصرونه و يطيعون أولياءه ، فينبغي للمؤمنين أن يدرسوا هذه الآيات ، و يتدبروا في هذه الحادثة التاريخية ، ليستفيدوا عبرة هامة وهي ضرورة الطاعة للقيادة في السلم وفي الحرب ، و عدم اتباع الآراء الشخصية و العواطف المثارة ، لأن الطاعة للقيادة الرسالية هي الطريق الى الهداية الحقيقية.

]و يهديكم صراطا مستقيما[

[21]قبل النصر تجتاح الأمة فتنة الشك في وعد الله ، أما بعده فإنهم يتعرضون للغرور و الاعتقاد بأن قوتهم الذاتية كانت سبب الفتح ، مما يدفعهم للاستهانة بالقيم الحق التي هيأت ظروف النصر عند التمسك بها ، و لعله لذلك أكد ربنا هنا - و بعد بيان مكاسب صلح الحديبية - على المكاسب التي لم يقدر على تحقيقها المؤمنون إلا بتوفيق ، و من توفيقه الوحي الإلهي و القيادة الربانية ، و إذا اتبع المجاهدون السبل الأخرى الملتوية فسوف تؤكد الهزيمة في واقعهم ، مهما كان ظاهرالأمر يوحي بخلاف ذلك ، ومن يرد نصر الله و رحمته يجب أن يطيعه و يلتزم بأمره.

]و أخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها و كان الله على كل شيء قديرا]فهو محيط علما و قدرة بالمكاسب الأخرى التي تأتي في المستقبل ، و التي تغيب عن وعي المؤمنين ، أو ربما كانوا لا يصدقون بأنهم سوف يبلغونها لو قيل لهم ذلك ، نظرا لكونها مكاسب كبيرة بالنسبة الى قدراتهم و إمكاناتهم ، فهل كانوا يعلمون أو يصدقون بالمكاسب التي حصلوا عليها فيما بعد من بلاط كسرى و قيصر ؟ كلا .. وهي كلها من معطيات صلح الحديبية لو درسنا التاريخ دراسة واقعية معمقة ، فانتصار الرسول على يهود خيبر و فتحه لمكة المكرمة عسكريا ، الأمر الذي كان يعني سيطرته التامة على شبه الجزيرة العربية بكاملها ، كل ذلك كان من مكاسب الصلح ، و هذه الانتصارات بدورها وحدت القوى آنذاك كلها تحت راية الاسلام ، فإذا بالمسلمين قوة ضاربة تنطلق شرقا لتفتح بلاد فارس ، و غربا و شمالا لتنهي الى سلطان الروم ، و تبنى على انقاضها حضارة الاسلام.

ولم يكن أحد من المؤمنين - إلا من شاء الله - يتوقع النجاة من يد مشركي مكة حينما دعاهم الرسول للبيعة ، بل كان كثير منهم فريسة للشك في الدين ، و التخلف عن أوامر القيادة الرسالية ، فكيف بهم يدركون تلك المكاسب العظيمة أو يؤمنون بها ؟

إن المؤمنين كانوا يخسرون هذه المكاسب لو اتبعوا أهواءهم و آراءهم الشخصية القاصرة فتخاذلوا عن نصرة الرسول و البيعة له يومئذ ، لذلك ينبغي لنا في كل مكان و زمان أن نتبع الوحي الإلهي ، و نسعى في تطبيقه ، لا أن نتبع أهواءنا و تصوراتنا البشرية المحدودة.

لقد صدق الله رسوله الرؤيا
ى من الآيات

لأنه قد جرى في البدء جدل بين المسلمين حول صلح الحديبية ، نجد السياق القرآني هنا يؤكد على المكاسب الكبيرة التي جناها المسلمون من وراء هذا الصلح المبارك ، ليؤكد على سلامة النهج الرسالي ، و ضرورة الطاعة أبدا للقيادة الربانية ، كما تذكر الآيات بهذه المناسبة بطائفة من الحقائق التي غابت عن الأذهان ، و التي تتصل بهذا الأمر اتصالا مباشرا.

الأولى : إن الحرب ليست هدفا بذاتها ، وإنما هي وسيلة الى هدف لو حققناه من دونها يكون الأمر أفضل ، بل لا يصح آنئذ إثارتها أبدا.

الثانية :إن وصول المسلمين الى أهدافهم من دون الحرب ليس إلا دليلا على تأييد الله لهم ، لأنه يصعب الوصول الى مثل هذه الأهداف من دون التضحيات الباهضة .

الثالثة : لو أن المشركين أشعلوا فتيل الحرب مع المسلمين ببطن مكة لانتصر المسلمون عليهم بإذن الله ، و هذه سنة إلهية سابقة و دائمة لا يمكن أن تتبدل ، و لكن عدم حدوث الحرب ليس في صالح المشركين و حسب ، باعتبارهم كانوا يهزمون لو بدأوها ، وإنما هي في صالح المسلمين أيضا .

الرابعة : لو أن الحرب وقعت بين المشركين و المسلمين يومذاك ربما لم يكونوا يستطيعون النفاذ الى قلوب المشركين و بذلك القدر من الأثر العميق ، بل ربما ازداد المشركون تعنتا و رفضا ، و بالذات كانت لدى قريش ومن لف لفها مشكلة نفسية ، تتمثل في الحمية الجاهلية التي أوغرت قلوبهم ضد المسلمين ، فلو كان المسلمون يدخلون في نفق العصبية ، فبدل أن يقيموا الأحداث و الواقع تقييما موضوعيا يأخذ بعين الإعتبار المصلحة الرسالية ، يتبعون ردات الفعل و العواطف المستثارة ، و يصرون على عدم الرجوع بدون الطواف حول الكعبة و النحر و تقديم الهدي و .. و .. ، كما أراد ذلك قسم من

المسلمين ، لتساووا في العصبية مع كفار قريش و مشركيها.

ومن هذه الفكرة نستفيد عبرة هامة ، وهي ضرورة أن يدرس المؤمنون القضايا و المواقف المختلفة دراسة رسالية ، نابعة من نهج موضوعي ، هدفه مصالح الاسلام ، و ليس إرضاء نزواتهم و عواطفهم.

ثم إن القرآن يسوق الحديث عن الرسول)ص) و الذين حوله من المؤمنين ، و كيف أن شخصيتهم الايمانية ذات بعدين ، فظاهرها العذاب و الحدة على أعداء الله ، و باطنها الرحمة و اللطف برفاق المسيرة الواحدة ، وفي الضمن ينبهنا إلى فكرة هامة ، وهي أن أصحاب الرسول ليسوا مبرأون من الأخطاء ، و ليسوا حجج الله على الناس ، و إنما الرسول وحده الحجة أو من نصبه الله لذلك . و كيف يكون حجةمطلقة من امكن خطأه ؟ نعم . المؤمن - كل مؤمن - حجة على الآخرين فيما يصح من أعماله و صفاته ، و لذلك فإن مغفرة الله و أجره لا يشملان كل الذين صحبوا النبي (ص) ، و إنما يختص بهما المؤمنون الصادقون الذين أخلصوا الصحبة ، و استقاموا على الحق إلى الأخير.

نات من الآيات

[22]بالرغم من قوة قريش و حلفائها التي تفوق في ظاهرها قوة المسلمين ، و بالرغم من اعتقادهم - و ربما اعتقاد كثير من المسلمين - بأن الحرب بين الطرفين تعني غلبتهم على حزب الله ، يؤكد ربنا لرسوله و للمؤمنين أن الحرب لو دارت رحاها لانتصروا عليهم ، و لهزموهم شر هزيمة.

]ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار[

فرارا من المواجهة ، دون أن تجرأ قوى الحلفاء كثقيف و هوازن على إسناد قريش ، لأنها هي الأخرى سوف يدخلها الرعب مما يسلبها شجاعة اتخاذ قرار الدعم و النصرة.

]ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا[

إن أولئك الذين كانوا يعتقدون بقيادة قريش ، و يسلمون لولايتها عليهم ، سوف تتبدل قناعاتهم فيها ، لأنهم إنما صاروا الى ذلك ثقة في قوتها و قدرتها ، وقد هزمت فهي إذن لا تستحق أن تتولاهم .. ثم لنفترض أنهم تدخلوا لصالحها في الحرب ، فهل ذلك يبدل هزيمتهم الى نصر ؟ كلا .. وما هي قوتهم أمام إرادة الله ؟

[23]ثم ليعلم هؤلاء و أشباههم عبر الزمن أن انتصار الحق على الباطل سنة إلهية ثابتة تحكم الحياة بإذن الله ، و قد عجز أسلافهم الذين هم أشد قوة منهم عنتغيير هذه السنة ، فكيف بهم ؟ وهب أنهم أقوى من الغابرين ، أو جاء في التاريخ من هو أقوى من أولئك ، فهل يغلب الله على أمره ؟

]سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا]أولم ينتصر نوح على كل الكافرين في الأرض ؟

أولم ينتصر طالوت بفئته القليلة من المؤمنين على الكافرين في عصره ؟

أولم يقل الله " : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله و الله مع الصابرين " (١) ؟

[24]إن الإنتصار القياسي الذي بلغه المسلمون في صلح الحديبية لم يكن بدهاء منهم ، أو بأن قريشا رحمتهم فكفت أذاها عنهم ، و إنما الله هو الذي صير الأمور الى هذه النتيجة ، " و كف أيدي الناس عنكم " (٢) ، بلى . لقد بلغ المسلمون هذه المكاسب السياسية و المعنوية من دون أدنى خسارة عسكرية ، و الحال أن الوصول إلى ذلك محال بالطرق الطبيعية ، و لو تحقق لاقتضى الأمر تضحيات عظيمة.

]وهو الذي كف أيديهم عنكم و أيديكم عنهم[

فمن ناحية من الله على المؤمنين بالخلاص من أيدي المشركين قبل صلح الحديبية ، ومن ناحية أخرى من على المشركين حين عفى عنهم الرسول (ص) بعد الفتح.

]ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم و كان الله بما تعملون بصيرا](١) البقرة / ٢٤٩

(2)الفتح / ٢٠

ومع ورود هذه الآية في سياق الحديث عن صلح الحديبية إلا أنها تشير كما يبدو إلى فتح المسلمين عسكريا لمكة المكرمة.

[25]ولكن لماذا كف الله أيدي المؤمنين عن المشركين ، ولم يأمرهم بقتالهم ؟ هل لأنهم طيبون ؟ أو لأن لهم فضلا و سابقة حسنة معهم ؟ بالطبع كلا .. و تشهد على ذلك عقائدهم المنحرفة و أعمالهم السيئة تجاه أتباع الرسالة.

]هم الذين كفروا و صدوكم عن المسجد الحرام و الهدي معكوفا أن يبلغ محله [لقد منعوا المؤمنين من حج بيت الله بالرغم من تهيئهم التام لذلك ، و كان ذلك من أبشع الجرائم في عرف العرب يومئذ ، لقد فضح ذلك قريشا التي كانت تفتخر على سائر العرب بأنها حامية البيت الحرام ، و حافظة حرمة الوافدين إليه.

ماذا بقيت لقريش من شرعية السيادة على العرب بعد أن منعت الحجاج و صدتهم عن إقامة الشعائر التي كانت العرب تقدسها ؟

هكذا كشف النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) عن زيف ادعاءات قريش ، و أسقطها سياسيا عن كرسي سيادة العرب تمهيدا لاسقاطها عسكريا فيما بعد.

ثم إن جريمة قريش كانت كبيرة ، إذ كيف يمنع المشرفون على البيت ، و المدعون خدمة الوافدين عليه الناس من ممارسة شعائرهم ؟! أولا يستحق هؤلاء القتل و العذاب بعد ظفر المسلمين بهم ؟ نعم . و لكن الله حجز المؤمنين عن أذاهم لوجود المؤمنين بينهم ، سواءا المؤمنين بالفعل ممن أخفى إيمانه تقية ، أو الذين هم على أعتاب الدخول في الدين ، و يحدثون أنفسهم بالانتماء الى الرسالة.

]و لولا رجال مؤمنون و نسآء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم]يعني لو كنتم تقاتلون الكفار - دون أن يكف الله أيديكم عنهم - لكنتم تقتلون فيمن تقتلون المسلمين من دون علم ، لأنهم كانوا يكتمون إيمانهم على خوف من قريش ، ولأن شروط الصلح كانت لا تسمح لهم باللجوء اليكم ، و لو فعل المؤمنون ذلك لربما أضرهم ، و لكن اللهلم يأمرهم بالقتال.

و نعرف من هذه الآية أولا : أن المؤمنين استفادوا من فترة السلام التي وفرها الصلح في تقوية أنفسهم و بناء حركتهم و توسيعها ، إلى الحد الذي اخترقوا فيه كيان قريش نفسها ، و حيث سارت جيوش الاسلام لفتح مكة كانت قريش منخورة الكيان من الداخل ، و كان الجند- و ربما كثير من الزعماء الذين ينتظر منهم محاربة أتباع الرسالة - ينتظرون الفرصة المناسبة للتلاحم مع صف المؤمنين ضد أعدائهم ، و هذا بالفعل ما تؤكده سورة النصر : " و رأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا " ، و ربما لذلك أيضا لم تجد قريش نفسهاقادرة على اتخاذ قـرار المواجهـة العسكريـة ضد الجيوش القادمة من المدينة بقيادة الرسول الأعظم (ص) ، الأمر الذي جعل المسلمين يدخلون مكة فاتحين دون تضحيات.

و ثانيا : أن المؤمنين كانوا يجهلون هذه المكاسب العظيمة للصلح ، و ذلك هو الذي جعل بعضهم يعترض على الرسول ، و ربما طفق يشك في قيادته ، فهم لم يكونوا يعلمون بالجبهة الايمانية الموجودة في صفوف أهل مكة ، و قول بعضهم و قد حمل الراية) اليوم يوم الملحمة، اليوم تسبى الحرمة) دليل واضح على هذه الحقيقة.

ومن هذا المنطلق يجب أن نستفيد درسا في علاقتنا بالقيادة الرسالية ، و هو أن جهلنا بخلفيات قراراتها لا يعني أنها خاطئة ، و يجب أن لا يدفعنا ذلك إلى التشكيكفيها ، فليس بالضرورة أن يتضح لنا كل شيء

، لأن كثيرا من الأمور يكشف عنها المستقبل ، و رؤيتها تحتاج إلى بصيرة ثابتة و معلومات متكاملة ، مما لا تتوافر إلا عند القيادة الشرعية الرشيدة.

]ليدخل الله في رحمته من يشآء[

أي في الايمان ، وهل خلق الله الناس إلا ليرحمهم ؟ " إلا من رحم ربك و لذلك خلقهم " (١) ، ولو أن المؤمنين قاتلوا المشركين يومذاك لقتلوا الكثير ممن دخلوا الدين فيما بعد ، و منعوا عنهم رحمات الله و بركاته ، و هكذا ينبغي أن تكون استراتيجية الدولة الاسلامية قائمة على أساس اجتذاب الناس الى الدين ، ولو بتقديم بعض التنازلات ، وليس تحطيم الخصم و قهر إرادته ، ولو سبب ذلك إثارة البغضاء في أنفسهم مما يشكل حاجزا نفسيا يمنعهم مستقبلا من الدخول في الدين.

بلى . لو امتاز الفريقان لعذب الله المشركين و الكافرين بسيوف عباده المؤمنين.

]لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما]وفي الروايات المأثورة : إن الله ليدفع البلاء عن القرية بالمؤمن ، و جاء في الحديث القدسي " : لولا شيوخ ركع ، و شباب خشع ، و صبيان رضع ، و بهائم رتع ، لصببت عليكم العذاب صبا " (٢. (

[26]و لكن لماذا ينذر الله الذين كفروا بالعذاب في الآية السابقة ؟ هل لأنهم من قريش أم لقيمة مادية أخرى ؟ كلا ..إنما للحمية المرتكزة في قلوبهم.

]إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية](١) هود / ١١٩

(2)كلمة الله / للشهيد الشيرازي / ص ٧٦

فالحق ظاهر و بين لهم ، و يعلمون أنهم على الباطل ، و لكن العزة بالاثم (القيم الجاهلية التي درجوا عليها) لا تدعهم يقبلون الحق ، و يسلمون لقيادة الرسول ، فالقائد في نظرهم يجب أن يكون أكبر القوم سنا ، و أكثرهم مالا و نفرا ، فكيف يقودهم رجل يتيم لا مال له ؟

لهذا فإنهم وهم يحاربون أتباع الرسالة لم يكونوا يدافعون عن حق يؤمنون به ، و إنما يحمون أنفسهم و يدافعون عن قيمهم الجاهلية ، بينما المؤمنون يقاتلون من أجل الله ، و يدافعون عن القيم و القائد الحق.

]فأنزل الله سكينته على رسوله و على المؤمنين[

بينما خذل من جهة أخرى فلول الكفار ، لأن هؤلاء ينصرونه فهم أولى بنصره ، بينما ينصر أولئك أصنامهم و شهواتهم . ولعل هذه السكينة كانت أعظم وسيلة لنصرهم ، فمن اطمأن إلى سلامة خطه حارب دونه بشجاعة فائقة ، بينما الذي يحارب للعصبيات الزائفة ينهزم نفسيا قبل أن ينهزم عسكريا ، وقد قيل : الحرب صراع إرادات ، ولا ريب أن إرادة صاحب السكينة أمضى.

]و ألزمهم كلمة التقوى و كانوا أحق بها و أهلها[

و كانت كلمة التقوى مقابل الحمية التي تعشعش في قلوب الكافرين ، ومن شواهد التزام المؤمنين بها في سلوكياتهم موقف رسول الله (ص) حينما أراد التوقيع على الصلح ، فأنكروا عليه كلمة (الرحمن الرحيم) ، و أن يسمى رسول الله ، فقد تنازل عن ذلك لمصلحة الرسالةمع أن الموقف كان محرجا و لكنه (ص) لم تأخذه الحمية ، ولم يسمح للعواطف المستثارة أن تؤثر في خططه الرشيدة.

إن التقوى ليست مجرد كلمة يقولها الانسان ، بل هي برنامج متكامل و التزاماتيفرضها الدين على أتباعه ، و من دونها لا يكون أحد متقيا ، لأن للمتقي صفات و علامات من أبرزها التزامه بقيمة التقوى في كل ظرف أو وضع نفسي يمر به ، فإذا سخط لم يخرجه سخطه عن رضى ربه ، و إذا رضي لم يدخله رضاه في سخطه ، إنما هو ملتزم برضى الله ، يسخط لسخطهو يرضى لرضاه عز و جل .

و جاء في رواية عن أبي جعفر (ع) : " إنما المؤمن الذي إذا رضي لم يدخله رضاه في إثم ولا باطل ، وإذا سخط لم يخرجه سخطه من قول الحق ، و المؤمن الذي إذا قدر لم تخرجه قدرته إلى التعدي و إلى ما ليس له بحق " (١. (

وقال الصادق (ع) : " من ملك نفسه إذا رغب و أذا رهب ، و إذا اشتهى ، و إذا غضب و إذا رضي ، حرم الله جسده على النار " (٢. (

وعن رسول الله (ص) قال " : ما أنفق مؤمن نفقة هي أحب الى الله عز وجل من قول الحق في الرضا و الغضب . (3) "

و لعل الآية تشير فيما تشير إليه الى أن المتقي الحقيقي يزيده الله تقوى و إيمانا كلما واجه ظرفا صعبا ، لأنه إذا عمل آنئذ بموجب تقواه تكرست في نفسه التقوى .. هكذا حين عمل المؤمنون حسب تقواهم ، ولم تأخذهم حمية الجاهلية ، ولم تؤثر فيهم إثارات قريش ، وصدهم إياهم عن إقامة شعائرهم ، بل قبلوا بقرارات القيادة ، حينئذ أثابهم الله على ذلك بتنمية روح التقوى في أنفسهم.

]و كان الله بكل شيء عليما [

(1)بح / ج ٧١ - ص ٣٥٨

(2)المصدر

(3)المصدر

فهو محيط بمدى ما يستقله قلب الانسان من التقوى ، ولا داعي لاثارة الجدل في كون فلان من المؤمنين أم لا ، وهل يدخل الجنة أم النار ، لأن ذلك عند الله ، ولا ينبغي التطفل فيما يختص به الرب سبحانه.

[27]ثم يؤكد ربنا صدق وعده لرسوله (ص) بدخول مكة ، الأمر الذي يؤكد جدوى الصلح ، و كونه الفتح المبين حقا ، و خطأ تصورات البعض حوله ، حيث تصوروا أنهم إذا أبرموا الصلح مع المشركين لم يحققوا شيئا ، و أن الرؤيا التي أخبرهم بها الرسول لم تكن صادقة.

]لقد صدق الله رسوله الرءيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شآء الله آمنين محلقين رؤسكم و مقصرين لا تخافون]أي أن دخولكم هذه المرة سيكون دخول المنتصرين .. و حدث ذلك فعلا في السنة الثانية ، حيث فتحوا مكة ، و كل هذه المزايا و النتائج كانت مجهولة لدى المسلمين.

]فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا[

وهو صلح الحديبية ، أما الفتح البعيد فهو فتح مكة الذي جاء في أثر الصلح ، و هذا التأكيد من القرآن على تسمية الصلح بالفتح إنما كان لبيان حقيقة هامة ، وهي وجوب اتباع القيادة و طاعتها عندما تختار طريقا معينا ، بعيدا عن العواطف ، ذلك أن من مشاكل القيادات الثورية الضغوط التي تواجهها من قبل المتحمسين و المهيئين نفسيا للمواجهة ، فهم يريدونها تستجيب لحماسهم ، و إلا فهي في نظر البعض جبانة و ضعيفة ، وعلى القائد أن لا يترك الحكمة للحماس و العواطف لتكون قراراته حكيمة و حازمة.

إن الرسول (ص (واجه هذه المشكلة ، إذ كان البعض يستنكر عليه عدم محاربته المشركين ، وحينما

صالح اعتبروا صلحه مذلة و إهانة ، بل و دليلا على ضعف سياسته ، ولو كان يستجيب لحماس هؤلاء ما كان المسلمون يبلغون ما بلغوا بعد الصلح ، كما واجه - أيضا - وصيه الإمام علي - عليه السلام - في معركة صفين معارضة من قبل المتشددين الذين سموا بعدئذ بالخوارج.

[28]و ربنا يؤكد حكمة نبيه ، و صحة قراراته ، لأنه يتبع هدى الله و دينه ، فلا يصح إذن أن نخالفه أو نشكك في قيادته.

]هو الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله]و الظهور) الانتصار) مرة يكون بالحرب ، و مرة عن طريق الصلح ، و الرب هو الذي أمر الرسول بالصلح مع المشركين ، وهو تكفل بإظهار دينه و رسوله و المؤمنين به على سائر الديانات و الأمم.

]و كفى بالله شهيدا[

لقد تنامت أمواج الرسالة في العالم منذ انبعاث الرسول العظيم محمد بن عبد الله)صلى الله عليه و آله) وإلى اليوم . أوليس ذلك دليلا على تحقق وعد الله في ظهور الاسلام على الدين كله ؟ وقد جاء في التقارير أن نمو عدد المسلمين أكبر من ازدياد المنتمين الىأي ديانة أخرى ؟ و هكذا تنتظر البشرية اليوم الحق الذي وعدها الله إياه حيث يظهر دينه على الدين كله.

[29]ثم إن النبي الذي اتخذ قرار الصلح ليس قائدا عاديا حتى يجوز معه النقاش . إنه رسول الله الذي عصمه عن الخطأ ، ولم يكن الذين حوله من الرجال قد أصابهم الوهن حتى يجد نفسه مجبرا على الصلح ، فهم ليوث الأرض و فيهم أسد اللهو أسد رسوله علي (ع) الذي وتر به النبي صناديد قريش.

]محمد رسول الله و الذين معه أشدآء على الكفار[

فلا تأخذهم في الله لومة لائم ، ولا يتأثرون بالعواطف في جنبه ، قال الامام علي (ع) : " فلقد كنا مع رسول الله (صلى الله عليه و آله) وإن القتل ليدور على الآباء و الأبناء و الاخوان و القرابات ، ، فما نزداد على كل مصيبة و شدة إلا إيمانا " (١. (

و في التاريخ أنه (ع) جلس على صدر أخيه عقيل قبل إسلامه وقد جرد سيفه ليقتله ، فنظر إليه أخوه و قال : أتقتلني يا علي ، قال : " أي و الله ، إلا أن تسلم " . و أراد الرسول (ص (قتل رجل من المشركين فحاول الآخر استعطافه قائلا : ومن للأولاد و أمهمبعدي ، ولكنه لم يعبأ بكلامه بل قتله ، و قال : " لهم الله " . وفي الوقت الذي تتميز الشخصية الايمانية بالحدة و الشدة ضد الأعداء ، فإنها في وجهها الآخر كلها رحمة و لطف بإخوة المسيرة الواحدة.

]رحمآء بينهم[

هذا عن علاقتهم بالناس ، أما عن علاقتهم بالله ، فهي علاقة العبودية و الخضوع المطلق .. يمارسون العبادة في كل حركة من حركاتهم ، وفي كل كلمة ينطقون بها ، لأن كل ما يصدر منهم هو تجل للصلاة و العبادات بأهدافها و قيمها.

]تراهم ركعا سجدا[

إنك تقرأ الصلاة في سلوكهم ، فهم متصلون بالله ، منتهون عن الفحشاء(١) نهج / خطبة ١٢٢

و المنكر ، صادقون مع الآخرين ، ملتزمون بواجباتهم .. الخ ، لأن العبادة في نظرهم ليست مجرد الركوع و السجود ، و بالتالي الوقوف عند الصلاة بذاتها ، وإنما التحرك في الحياة بمقتضياتها و أهدافها ، و أبرز تلك الأهداف اثنان :إبتغاء فضل الله في الدنيا ، و رضوانه في الآخرة.

]يبتغون فضلا من الله و رضوانا[

و لكثرة صلاتهم و سجودهم بالذات و الذي يمثل قمة الخضوع لله ، فإنك تلحظ في جباههم أثر السجود ، ولا ريب أن الآثار - الثفنات - لا تظهر إلا بالمبالغة في العبادة.

]سيماهم في وجوههم من أثر السجود[

و الامام علي - عليه السلام - يصف أصحاب رسول الله (ص) فيقول : " لقد رأيت أصحاب محمد (صلى الله عليه و آله) فما أرى أحدا يشبههم منكم ! لقد كانوا يصبحون شعثا غبرا ، و قد باتوا سجدا و قياما ، يراوحون بين جباههم و خدودهم ، و يقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم ! كأن بين أعينهم ركب المعزى من طول سجودهم ! إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبل جيوبهم ، و مادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف ، خوفا من العقاب ، و رجاءا للثواب . (1) "

و بيان الله لصفات أصحاب الرسول (ص) إنما يأتي ليؤكد الحقيقة التالية ، وهي أن صاحب الرسول حقا من صحبه بقلبه و أخلاقه و قيمه ، فاقتداؤهم بالرسول جعلهم في تلك الدرجة لا مجرد معيتهم له ، و أنت أيضا تستطيع أن تكون من أصحاب الرسول (ص) إذا تخلقت بالأخلاقالتي يذكرها القرآن ، و تشير إليها خطبة

(1)نهج / خ ٩٧

الإمام علي (ع. (

ثم إن الرسالات الإلهية بشرت بهذا النبي و بمن حوله من أعلام الرسالة رهبان الليل و فرسان النهار.

]ذلك مثلهم في التوراة و مثلهم في الإنجيل[

وهم في حالة تكامل و رقي نحو الأكمل بصورة منتظمة ، يشبهون في ذلك الشجرة التي تبدأ بذرة ، و لكنها تتكامل شيئا فشيئا و تنمو إلى أن تصير قوية قائمة على سوقها.

]كزرع أخرج شطئه فازره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار]إن القائد الذي يربي هؤلاء الرجال في ظل أفكاره و قيادته كان يسر إذ يراهم ، أما الأعداء فإنهم يتميزون غيظا و حنقا كلما رأوا واحدا يترعرع في ظل قيمه و مبادئه ، مقاتلا و قائدا رساليا يجاهد في سبيل الله تعالى.

و أصحاب النبي محمد (ص) الحقيقيين هم المعنيون بالزرع في هذه الآية ، ولكن لا تعني صحبة الرسول صك البراءة من التكاليف الشرعية ، و التحلل من القيم الإلهية ، فليس كل الذين عاصروا الرسول أو صحبوه (حتى من دون التمسك بأهداف الرسالة) تشملهم هذه الآية ، والدليل على ذلك أن الله لم يترك الكلام مطلقا ، و إنما خص بالغفران و الثواب الذين أحسنوا الصحبة ، و أبلوا بلاءا حسنا في الطاعة له و نصر رسالته منهم .

]وعد الله الذين امنوا و عملوا الصالحات منهم مغفرة]لذنوبهم و أخطائهم ، لأن مسيرتهم العامة في الحياة مسيرة سليمة ، و الحسنات يذهبن السيئات كما ذكر القرآن.

]و أجرا عظيما[

جزاءا لأعمالهم الصالحة.

و الآية في هذا المقطع تدحض الفكرة القائلة بأن مجرد انتماء الانسان الى شخص او تجمع صالح يكفيه ، و يرفع عنه المسؤولية ، كلا .. فهو مطالب بتحملها و العمل وفقها حتى النفس الأخير ، كما قال الله : " و اعبد ربك حتى يأتيك اليقين " (١) يعني بذلكالموت ، أما أن نتصور المسؤولية تنتهي بكون الفرد

عالما ، أو خطيبا ، أو منتميا إلى حركة إسلامية فلا ، و التأكيد على هذه الفكرة مهم لأن الكثير من الناس يعتقدون بأن وصولهم إلى مقام ما يرفع عنهم المسؤولية ، و يحولها الى غيرهم.

و أخيرا : إذا كان للرسول (ص (أصحاب فإن له إخوانا يأتون فيما بعده ، و إذا لم نحظ بصحبته فلنسعى للتآخي معه ، و ذلك بالإلتزام بمبادئه ، و السعي الى تحقيق أهدافه في الحياة.

فقد جاء في الخبر عن أبي ذر)رض: (

قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) : " أتدرون ما غمي ؟ وفي أي شيء تفكيري ؟ وفي أي شيء اشتياقي ؟

فقلنا :يا رسول الله ، أخبرنا عن ذلك ، فقال : أخبركم إن شاء الله . ثم تنفس الصعداء ، و قال : هاه شوقا إلى إخواني من بعدي ! فقلت : يا رسول الله أولسنا(١) الحجر / ٩٩

إخوانك ؟ قال : لا ، أنتم أصحابي ، و إخواني يجيئون من بعدي ، شأنهم شأن الأنبياء ، قوم يفرون من الآباء و الأمهات ، ومن الاخوة و الأخوات ، و من القرابات كلهم ، ابتغاء مرضاة الله ، يتركون المال لله ، و يذلون أنفسهم بالتواضع لله ، لا يرغبون في الشهوات و فضول الدنيا ، يجتمعون في بيت من بيوت الله كأنهم غرباء ، تراهم محزونين لخوف النار و حب الجنة ، فمن يعلم قدرهم عند الله ؟ ليس بينهم قرابة ولا مال يعطون بها ، بعضهم لبعض أشفق من الإبن على الوالد ، و الوالد على الإبن ، و من الأخ على الأخ ، هاه شوقا إليهم!
و يفرغون أنفسهم من كد الدنيا و نعيمها ، بنجاة أنفسهم من عذاب الأبد ، و دخول الجنة لمرضاة الله . إعلم يا أباذر أن للواحد منهم أجر سبعين بدريا.

يا أباذر !إن الواحد منهم أكرم على الله من كل شيء خلق الله على وجه الأرض ، قلوبهم إلى الله ، و عملهم لله . لو مرض أحدهم له فضل عبادة ألف سنة و صيام نهارها و قيام ليلها ، وإن شئت حتى أزيدك يا أباذر ؟ فقلت : نعم يا رسول الله زدنا ، فقال : لو أنأحدا منهم إذا مات فكأنما مات ما في السماء الدنيا ، من فضله على الله ، وإن شئت إزيدك ؟ فقلت : نعم يا رسول الله زدني ، قال : يا أباذر لو أن أحدهم يؤذيه قملة في ثيابه ، فله عند الله أجر أربعين حجة ، و أربعين عمرة ، و أربعين غزوة ، و عتق أربعين نسمة من ولد إسماعيل ، و يدخل واحد منهم اثني عشر ألفا في شفاعته.

فقلت : سبحان الله ! فقال النبي : أتعجبون من قولي ، وإن شئتم حتى أزيدكم ؟ قال أبوذر : نعم زدنا ، فقال النبي:

يا أباذر ! لو أن أحدا منهم اشتهى شهوة من شهوات الدنيا فيصبر ولا يطلبها ، كان له من الأجر بذكر أهله ، ثم يغتم و يتنفس ، كتب الله له بكل نفس ألفيألف حسنة ، و محا عنه ألفي ألف سيئة ، و رفع له ألفي ألف درجة ، و إن شئت حتى أزيدك يا أباذر ؟ قلت : حبيبي يا رسول الله زدني : قال : لو أن أحدا منهم يصبر مع أصحابه لا يقطعهم ، و يصبر في مثل جوعهم وفي شدة غمهم ، كان له من الأجر كأجر سبعين ممن غزا تبوك.

و إن شئت حتى أزيدك ؟ قلت : نعم زدنا ، قال : لو أن أحدا منهم يضع جبينه على الأرض ، ثم يقول :آه ، فتبكي ملائكة السماوات السبع لرحمتهم عليه ، فيقول الله : يا ملائكتي مالكم تبكون ؟ فتقول : يا إلهنا لا نبكي و وليك على الأرض يقول في وجعه " آه " ، فيقول الله : يا ملائكتي اشهدوا أنتم أني راض عن عبدي بالذي يصبر في شدة ولا يطلب الراحة ، فيقول الملائكة : يا إلهنا و سيدنا لا تضر الشدة بعبدك و وليك ، بعد أن يقول هذا القول ! فيقول : يا ملائكتي إن وليي عندي كمثل نبي من أنبيائي ، ولو دعاني وليي و شفع بخلقي شفعته في أكثر من سبعين ألفا ، و لعبدي و وليي في جنتي ما يتمنى ، يا ملائكتي و عزتي و جلالي لأنا أرحم بوليي ، و أنا خير له من المال للتاجر ، و الكسب للكاسب ، و في الآخرة لا يعذب وليي ، و لا خوف عليه.

ثم قال رسول الله : طوبى لهم يا أباذر ، لو أن أحدا منهم يصلي ركعتين في أصحابه أفضل عند الله من رجل يعبد الله في جبل لبنان حتى عمر نوح ، و إن شئت حتى أزيدك يا أباذر ؟ لو أن أحدا منهم يسبح تسبيحة ، خير له من أن يصير معه جبال الدنيا ذهبا ، و نظرة إلىواحد منهم أحب من نظرة الى بيت الله الحرام ، ولو أن أحدا منهم يموت في شدة بين أصحابه له أجر مقتول بين الركن و المقام ، و له أجر من يموت في حرم الله و يدخله الجنة ، وإن شئت أزيدك يا أباذر ؟ قلت :نعم ، قال : يجلس إليهم قوم مقصرون مثقلون من الذنوب فلايقومون من عندهم حتى ينظر الله إليهم ، فيرحمهم و يغفر لهم ذنوبهم لكرامتهم على الله.

قال النبي : المقصر فيهم أفضل عند الله من ألف مجتهد من غيرهم.

يا أباذر ! إني إليهم لمشتاق ، ثم غمض عينيه فبكى شوقا ، قال : اللهم احفظهم و انصرهم على من خالف عليهم ، ولا تخذلهم ، و أقر عيني بهم يوم القيامة " ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون " (١. (

(1)كلمة الرسول الأعظم / للشهيد الشيرازي ص ٣٦٩.

سورة الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمال قال " : من قرأ سورة الحجرات في كل ليلة أو في كل يوم كان من زوار محمد (صلى الله عليه و آله. " (

نور الثقلين / ج ٥ - ص ٧٩

الإطار العام

تفتتح السورة بوصايا قيمة في أدب التعامل مع الرسول و القيادة الإلهية ، و تختتم ببيان حقيقة الإيمان ، و تتواصل بينهما الآيات تنظم علاقة المسلمين ببعضهم على أساس الاخوة ، و علاقة البشرية ببعضهم على قاعدة المساواة.

تعالوا الآن نتدبر في هذا السياق المعجز:

ألف (لأن علاقة الأخوة تتعرض لهزات قد تبلغ درجة الاقتتال بين المؤمنين ، فلابد من قوة داخلية تمسك الامة من أن تتشرذم فتتلاشى ، وما تلك القوة إلا القيادة الرسالية التي لابد أن يسمو احترام الأمة لها الى مستوى رفيع ، بألا يتقدموا بين يدي الله و رسولهفي الرأي أو القول أو المشي أو أية ممارسة عملية ، ولا يرفعوا صوتهم فوق صوته ، ولا يجهروا له في الكلام كما يتحادثون بينهم . وقد بشر الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله بأنهم قد طهر الله قلوبهم للتقوى ، وأن لهم مغفرة و أجرا عظيما . أما الـــذين لا يحترمونالرسول ، ولا يراعون حرمة الحجرات التي بنيت من أجل توفير الراحة ، فينادون الرسول من ورائها ، فان أكثرهم لا يعقلون . فلا يعرفونحرمة القيادة الالهية ، ولا حرمة الآداب المرعية ، وكان أولى

بهم أن يصبروا حتى يخرج إليهم الرسول فيحدثوه عن شؤونهم (الآية ٥. (

باء) وبعد أن يرسي السياق احترام القيادة و آداب التعامل معها ، و طبيعة العلاقة معهـا بعدئذ يأمر المؤمنين بالتثبت في أمورهم ، وعدم الاسترسال مع أنباء الفاسقين ، لأنهم قد يصيبون بذلك قوما بجهالة ثم يندمون على ذلك . وبهذا يقطع الطريق على مثيري الفتنبين المسلمين و سائر التجمعات البشرية ، و يضع قانونا لمثل هذه الأمور و يأمر بمراجعة القيادة و التسليم لها وعدم ممارسة الضغط عليها ، أوليس الرسول قد جاءهم من عند الله بنور الايمان ؟ أوليس - إذا - أهدى منهم سبيلا ؟ أوليس من واجب الشكر ألا يخالفوه في قضية هامة كاتخاذ موقف من طائفة معينة ؟ وماذا لو أطاعهم الرسول في جهلهم أو لا يسبب ذلك في العنت عليهم ؟ و ربما أشارت الآية (٧) الى أن مخالفة الرسول نوع من الكفر و الفسوق أو العصيان حسب درجات المخالفة و مواردها ، وإن من فضل الله عليهم أن زين في قلوبهم الايمان و كره اليهم الكفر و الفسوق و العصيان . فلا يعودوا إليه ليفقدوا أعظم نعمة أسبغها عليهم ربهم.

جيم (وفي سياق حديثه عن علاقة المسلمين ببعضهم يفك القرآن أولا أصعب عقدة فيها متمثلة في حالة نشوب قتال أهلي بينهم و يقول : لو أقتتل طائفتان من المسلمين فلابد من الاصلاح بينهم ، و بأية وسيلة ممكنة ثم إقامة العدل بينهم ، ولكن إذا بغت إحداهما على الاخرى ، ولم تسلم للاصلاح فلابد من تحمل جماهير الامة لمسؤولياتها الخطيرة المتمثلة في محاربة الفئة الباغية ، حتى تفيء الى أمر الله و تقبل الصلح و التحاكم الى الشريعة المقدسة ، فان فاءت تقوم الامة بنشر العدالة في اوساطها و القسط (٩. (

و يرسي القرآن قاعدة الاخوة بين المؤمنين لتكون محورا أساسيا للعلاقة بينهم ، و لطائفة من التعاليم و الانظمة و الآداب أبرزها ضرورة الاصلاح بين الاخوة لعل الله يرحمهم بذلك (١٠. (

دال) ولكي نقتلع جذور الصراع ، ثم لكي نعيش في ود و وئام لابد أن نطهر قلوبنا من عقد التعالي فوق بعضنا ، كلا .. فنحن جميعا بشر متساوون لا يجوز أن يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم عند الله وفي عالم الواقع ، فيكون إستهزاؤهم بهم محض سفه ، و مجردخسارة لهم للمكاسب التي يمكنهم الحصول عليها . كما لا يجوز أن تسخر نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن.

وحتى إذا ألقـــى الشيطان في أنفسنا هذه النظرة الشاذة ، فلا يجوز أن نفصح عنها ، وأن نعيب بعضنا أو أن نتبادل الألقاب البذيئة . أولسنا مسلمين قد طهر الله حياتنا من كل قذارة . فلماذا نسمي بعضنا بأسماء الفسق وقد أكرمنا الرب بأسماء إسلامية رفيعة المستوى؟ بئس الإسم الفسوق بعد الايمان (١١. (

و نهدم علاقاتنا ببعضنا إذا استرسلنا مع الأوهام و الشكوك و الظنون التي تثيرها الأحقاد أو الحالات النفسية أو الاشاعات المغرضة وهكذا يأمر الاسلام باجتناب كثير من الظن و يؤكد ان بعض الظن إثم ، ولعله الذي نتحقق منه بالتجسس ، أو نجعله موقفا لحياتنا ولوظننا سوء فلا يحبذ التحقق منه ، وهكذا ينهانا الدين و يقول " ولا تجسسوا " وإذا عرفنا من أخينا عيبا مستورا فلا يجوز أن نشيعه عليه من وراء ظهره بالغيبة ، لأنه بمثابة أكل لحم أخينا ميتا . أوليس ذلك نيلا من كرامته ؟ وكرامته أعظم أم بدنه (١٢) ؟

هاء (ثم يرسي السياق قاعدة التوحيد التي ترفض أي نوع من التمييز المادي بين الانسان و الانسان ، و يؤكد ربنا أن أصل البشرية واحد ، آدم و حواء ، فلاتفاخر في الأنساب ، و ان الحكمة من جعلهم شعوبا و قبائل هو التعارف وليس التدابر و التسامي ، فاذا عرف بعضهم بعضا ضبطت المسؤوليات و الحقوق و تهيأت فرصة العدالة . بلى . إن هناك تمايزا واحدا هو التقوى . فان أكرم الخلق عند الله أتقاهم . ومن معاني التقوى سلامة الفكر و استقامة السلوك ، و بذلك يكون التنافس على ما يقدم البشرية نحو أهدافها النبيلة (١٣. (

واو (وفي الدرس الأخير يفسر السياق التقوى ببيان أصلها المتمثل في الايمان ربما لكي لا يدعيها

الطامعون و الانتهازيون فيقول : " قالت الأعراب آمنا. "

و كانوا طائفة التجأوا الى المدينة طمعا في خيراتها بعد أن اجدبت أراضيهم ، و نفى عنهم القرآن إيمانهم ، ولكن لم ينف أنهم مسلمون كما لم ينف أجرهم عند الله ، إن هم أطاعوه و أطاعوا الرسول . أوليس الله غفورا رحيما ؟

وهناك مقياسان نستوحيهما من القرآن للايمان : عدم الشك خصوصا عندما تخالف تعاليم الدين أهواءهم و مصالحهم ، و الجهاد بالمال و النفس في سبيل الله ، فمن فعل ذلك فقد كان صادقا في إيمانه.

و يزعم البعض ان ادعاءه الايمان يكفيه ، و كأنه يعلم الله بدينه ، و الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ، و الله بكل شيء عليم.

و ترى بعضهم يمنون على الرسول إسلامهم - كأعراب البادية الآنف ذكرهم - و الله يمن عليهم بالايمان ، لأنه نعمة كبرى إن كانوا صادقين في إدعائه (١٤ - ١٧. (

و يختم القرآن السورة بأن الله يعلم غيب السماوات و الأرض و أنه بصير بما يعمل الخلق ، و لعله تحذير من ادعاء الايمان لمصالح مادية (١٨. (

لا تقدموا بين يدي الله و رسوله

بينات من الآيات

[1]الأمة المؤمنة أمة ملتزمة تسلم لقيادتها الشرعية بوعيها الديني ، و تستقبل أوامرها برضا و اطمئنان ، و تحترم القيادة لأنها من عند الله ، وهي أشد حبا لله من كل شيء - ولأن أفئدة أبنائها قد طهرت من الكبر و العنجهية و امتحنت للتقوى - وهي لذلك أمة منضبطة لا تسترسل مع الأحداث بل تنتظر أوامر القيادة الراشدة ، ولا تجرفها رياح الفتن ، بل يقودها المنهج العلمي الرصين القائم على أساس التثبت و التبين.

هكذا أدب الله المؤمنين عندما وجه اليهم بالذات خطابه قائلا:

]يا أيها الذين آمنوا[

فقالوا لبيك يا رب.

]لا تقدموا بين يدي الله و رسوله[

ما دمتم بين يدي الله يحيط بكم علمه و قدرته ، و يرعاكم بسمعه و بصره فلا تقدموا شيئا على أمر الله ، ولا تتقدموا قبل أن تستمعوا الى أمره و أمر الله يبينه رسوله الأمين ، الذي أنتم بين يديه ، أوليس هو الامام و القائد .

]و اتقوا الله إن الله سميع عليم[

بلى . لابد أن تستوعب التقوى كافة شؤون الحياة ، فما من شأن إلا و لله فيه حكم لا يجوز تجاوزه ، و المتقون يبحثون أولا عن حكم الله قبل أن يبادروا بالعمل في أي حقل.

ومن هنا وجب التفقه في الدين و تعلم أحكامه تمهيدا للعمل بها ، و جاء في الحديث المروي عن الامام الصادق (عليه السلام) في تفسير قول الله سبحانه " قل فلله الحجة البالغة " قال:

"إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة عبدي أكنت عالما ؟ فان قال نعم قال له : أفلا عملت بما علمت ، وإن قال : كنت جاهلا قال له : أفلا تعلمت حتى تعمل فيخصم بتلك الحجة البالغة " (١. (

وإذا لم يجد المؤمن في الفقه حكم الحوادث المستجدة أو المتطورة فان عليه أن يراجع الفقهاء الذين يستنبطون ذلك الحكم من القواعد العامة الموجودة في الشريعة . ذلك انه ما من حادثة إلا و للدين فيها حكم ، ابتداء من بصائر الوحي في حكمة الحياة ، و مقاييس المعروف و المنكر حتى حكمه في أرش الخدش.

قال الله تعالى : " ما فرطنا في الكتاب من شيء " (٢. (

(1)بحار الأنوار / ج ٢ - ص ٢٩

(2)الانعام / ٣٨

وقال رسول الله في حجة الوداع:

"أيها الناس ! اتقوا الله ما من شيء يقربكم من الجنة و يباعدكم من النار إلا وقد نهيتكم عنه و أمرتكم به " (١. (

و جاء في الحديث الشريف عن أبي أسامة قال كنت عند أبي عبد الله الامام الصادق (عليه السلام) و عنده رجل من المغيرية (أتباع المغيرة بن سعيد وكان من الغلاة لعنة الله عليه ولعله كان يقول بالتفويض) فسأله عن شيء من السنن فقال : " ما من شيء يحتاج إليه ولد آدم إلا وقد خرجت فيه السنة من الله ومن رسوله ، ولولا ذلك ما احتج علينا بما احتج. "

فقال أبو عبد الله قوله : " اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الاسلام دينا " . فلو لم يكمل سنته و فرائضه وما يحتاج اليه الناس ما احتج به " (٢. (

وقال عليه السلام : " ما رأيت عليا قضى قضاءه إلا وجدت له أصلا في السنة . قال وكان علي يقول : لو اختصم إلي رجلان فقضيت بينهما ثم مكثا أحوالا كثيرة ثم أتياني في ذلك الأمر لقضيت بينهما قضاءا واحدا لأن القضاء لا يحول ولا يزول " (٣. (

و سواءا كان الحكم الإلهي واردا في خصوص المورد أو في الأصل العام الذي يشمله فانه بالتالي حد لا يمكننا تجاوزه و لا يجوز لنا أن نزعم أن الله فوض أمره إلينا ، وحتى الأئمة المعصومون كان لابد لهم الفتيا وفق الكتاب و السنة ، وقد أكدوا ذلك(١) بحار الأنوار / ج ٢ - ص ١٧١

(2)المصدر / ص ١٦٩

(3)المصدر / ص ١٧٢

لنفي مزاعم بعض القائلين بالتفويض.

فقد سأل رجل أبا عبد الله الامام الصادق (عليه السلام) فأجابه فيها فقال الرجل : إن كان كذا و كذا ما كان القول فيها (لعله زعم ان الافتراضات الجديدة لا حكم لها في الشريعة) فقال له : " مهما أجبتك فيه بشيء فهو عن رسول الله لسنا نقول برأينامن شيء " (١. (

و روي سماعة عن الامام أبي الحسن عليه السلام أنه قال : قلت له كل شيء تقول به في كتاب الله و سنته أو تقولون برأيكم ؟ قال : " بل كل شيء نقوله في كتاب الله و سنته. (2) "

فلكي لا نتقدم على الرسول ، ولا يسوقنا الهوى و الجهل لابد من التفقه في الدين و معرفة أصول

الحكم فيه و الانبعاث منها لمعرفة الحياة و تفاصيل سلوكنا فيها.

[2]ذلك كان أدب التعامل مع الرسول (ص) و القيادة الرسالية ، و أما أدب التحادث معه فقد بينته الآية التي تخاطب المؤمنين للتذكرة بأن مثل هذه الآداب من علائم الايمان ومن شروطه . وقد جاء في الحديث المأثور عن الامام الباقر عليه السلام أنه ما خوطب المسلمون بهذه الكلمة إلا عند إسلام الأوس و الخزرج قال الامام:

"ما سلت السيوف ، ولا أقيمت الصفوف في صلاة ولا زحوف (حرب) ولا جهر بـأذان ، و لا أنزل الله " يا أيها الذين آمنوا " حتى أسلم أبناء قبيلة الأوس و الخزرج " (٣. (

(1)المصدر / ص ١٧٣

(2)المصدر

(3)نور الثقلين / ج ٥ - ص 80

و يبدو أن سبب ذلك تكون المجتمع الاسلامي عند إسلام هاتين الطائفتين.

]يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي]و تتسع الآيات للأحكام التالية:

أولا :إذا تحدثوا الى الرسول خفضوا أصواتهم احتراما للرسول ، و للوحي الذي يحتمله .. إن هذا السلوك المهذب يعكس مدى احترام الأمة للرسول و للقيادة الوريثة ، ذلك الاحترام الذي يساهم في تنفيذ القرارات بوازع نفسي و بيسر و بلا تكلف.

ثانيا : لا يجادلون الرسول فيما يأمر به ، فهو من أبرز مظاهر رفع الصوت عند الرسول ، ولا يجادلوه بما يؤذيه.

ثالثا : إذا قضى الرسول بشيء يسلموا له ولا يرفعوا صوتهم بالمعارضة.

وقد ذكر المفسرون في أسباب نزول هذه الآيات موارد شتى تنطبق على كل هذه الأحكام ، و لعلهم كانوا يقصدون تأويل الآية ، و تطبيقها على تلك الموارد.

فقد جاء في تفسير علي بن إبراهيم : أنها نزلت في وفد بني تميم كانوا إذا قدموا على رسول الله وقفوا على باب حجرته فنادوا يا محمد أخرج إلينا ، و كانوا إذا خرج رسول الله تقدموه في المشي ، و كانوا إذا كلموه رفعوا أصواتهم فوق صوته و يقولون : يا محمد (يامحمد) ما تقول في كذا كما يكلمون بعضهم فأنزل الله هذه الآيات (١. (

و هذا تأويل يتطابق و أول الأحكام التي استوحيناها من الآية الكريمة ، وهو ظاهر الآية.

(1)المصدر

و روى البخاري أن الآية نزلت في أبي بكر و عمر حين قدم على النبي ركب بني تميم فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع و أشار الآخر برجل آخر فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافي فقال : ما أردت خلافك فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل الله عز وجل الآية (١. (

و روي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أراد أن يستخلف على المدينة رجلا إذ مضى الى خيبر فأشار

عليه عمر برجل آخر فنزلت الآية (٢. (

و هذا الحدثان يتناسبان و الحكم الثاني و الثالث ، مما يشهد على أن للآية تطبيقات عديدة يجمعها النبي عن معارضة الرسول بأي صورة ما كانت.

]ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض[

كانوا إذا حضروا رسول الله خاطبوه باسمه بعيدا عن جلال النبوة ، وكان المنافقون بالذات يرفعون أصواتهم ليسقطوا أبهة القيادة عن أعين الناس - فجاء القرآن ينهاهم عن ذلك و يعلمهم أدب الحديث مع الرسول - ومن خلال ذلك مع كل قيادة شرعية.

ولعل الآية تشمل النهي عن انتقاد آراء القيادة الرسالية علنا ، مما يسبب وهنا في عزيمة الأمة و تقليلا من شأن مصدر القرار.

من هنا قال البعض : ان حرمة كلام النبي اليوم كحرمته في مشهده ، فاذا قرئ على جمع كلامه وجب عليهم أن ينصتوا اليه ، لأن حديثه وحي من عند الله . ألم يقل ربنا سبحانه : " وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى " فذات(١ (تفسير القرطبي (باختصار) / ج ١٦ - ص ٣٠٣

(2)المصدر / ص ٣٠١

الملاك الذي فرض به الانصات عند تلاوة القرآن موجود في سنة الرسول . وقد قال ربنا سبحانه : " وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له و أنصتوا " (١. (

]أن تحبط أعمالكم[

لماذا يسبب الاستخفاف بالقيادة الشرعية حبطا في العمل ؟ لعل السبب يتلخص في أمرين:

أولا :إن أغلب الفرائض تروض النفس و تطهرها من الكبر . فإذا طغت النفس وتكبرت على القيادة الشرعية فقد تبين ان هدف الفرائض لم يتحقق ، فاحبطت الصلاة التي تكرس الذاتية ، بدل الخشوع ، و الزكاة التي تزيد الهوة و الطبقية في الامة ، و الحج الذي يورث صاحبهالتعالي و التفاخر ، و الصيام الذي لا يورث التقوى في النفس ، إنها جميعا عرضة للاحباط لأنها لم تحقق أهدافها.

ثانيا :إن الولاية عمد الدين ، فاذا سقط العمد ماذا يبقى من الدين ؟ أليس الدين نظام اجتماعي متكامل يدور حول محور القيادة الشرعية ؟ فاذا ذهبت إنهار كل شيء.

]و أنتم لا تشعرون[

إن أعظم الأمراض خطرا ذلك المرض الذي لا يحس به المبتلى ، لأنه لا يبادر لمعالجته وقد لا يقتنع بالمعالجة ، كذلك أخطر الذنوب الذنب الذي لا يشعر به المتورط فيه لأنه يسير به في طريق جهنم و هو يزعم أنه من أهل الجنة ، و مخالفة القيادة من هذه الذنوب قال الله سبحانه : " قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل(١) الاعراف204 /

سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا " (١. (

و نتساءل : لماذا لا يشعر الانسان بخطورة مخالفة القيادة الشرعية أو الاستخفاف بها ؟

و يبدو أن النفس تسول لصاحبها بعض الذنوب بصورة تجعلها حسنات ، فهي كمرض النوم (تسي تسي) يجعل ضحيته يخلد الى النوم حتى الموت ، و كلما اقترب الى نهايته كلما أوغل في اللاوعي.

ثم ان حبط العمل بذاته من الأمور التي يصعب التحسس بها . أرأيت لو قيل لك أن ثواب حجتك التي أرهقت بها نفسك ، و أنفقت فيها مالا كثيرا قد ذهب أدراج الرياح بمجرد رفع صوتك في مجلس القيادة الشرعية . لا تصدق بذلك بسهولة و لكنه هو الواقع.

و أبسط دليل على تزيين الشيطان لنا مخالفة القيادة الشرعية أن المسلمين اليوم - كما في التاريخ - يتولون عن قيادتهم دون أدنى إحساس بالذنب ، بل ترى الكثير منهم يزعم أن لا علاقة للدين بشؤون الحياة الفعلية ، فلا حاجة الى الامام و القيادة الشرعية اليوم.

[3]هل تريد أن تعرف مدى قبول أعمالك الصالحة ، قبل يوم القيامة ، أي قبل فوات الأوان ؟ إذا تعال و قس نفسك بميزان القرآن كيف ؟ أليست الفرائض ذات حكم وفوائد تتجلى في حياة البشر ؟ بلى . إذا دعنا نقيس أنفسنا بمدى تحقق تلك الحكم و الفوائد في انفسنا و واقعنا من خلال الفرائض.

هل قبلت صلاتك أم لا ؟ أنظر الى نفسك هل انتهت عن الفحشاء و المنكر(١) الكهف / ١٠٣ - ١٠٤

و اقتربت الى ذكر الله . فان كانت ، فقد قبلت صلاتك.

وهل تقبل منك الصيام ؟ انظر الى مدى التقوى في نفسك ، فان زادت تقواها ، فقد تقبل صيامها.

و بكلمة : إذا وجدت في نفسك علائم الايمان فاعرف بقبول إيمانك . ومن أبرز علائمها التسليم لقيادة الرسول من دون حرج ، و رعاية آداب التعامل معه ، فذلك دليل زكاة القلب ، و طهارته بالايمان.

]إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى]وإذا كان معنى الامتحان لغويا تطهير الذهب من الشوائب بصهره ، فان امتحان القلب بمعنى تزكيته من الشك و الشرك و الكبر و الحسد حتى يتهيأ للتقوى أي اتقاء الشهوات و الذنوب ظاهرا و باطنا.

اما إذا كان الامتحان - في اللغة - بمعنى امتداد الجلد فمعناه هنا اتساع القلب للمعارف الإلهية مما يجعله يستوعب كلمة التقوى.

إن التقوى بذرة مباركة لا تنمو إلا في الأرض النقية.

]لهم مغفرة و أجر عظيم[

لأن طاعة الرسول (و القيادة الشرعية) و التأدب في حضرته و احترام مقامه ، إنها جميعا تشفع للذنوب فيغفرها الله ، كما ان معصية الرسول و الاستخفاف بمقامه و مجافاته تحبط الأعمال الصالحة.

[4]أما الذين لم تصقل آداب الرسالة نفوسهم ، ولم تصلح سلوكهم فتراهم يغلظون القول مع الرسول ، و يرفعون أصواتهم فوق صوته ، ولا يراعون حرمة البيوت التي لابد أن تحجرهم عن الايذاء .. فانهم لا يعقلون ، وأي عقل لمن لا يحترم مقام الرسالة ، ولا يكرم العلم ولا يعترف بدور القائد القائم بتنظيم الحياة.

]إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون]ولماذا أنشأت الحجرات ؟ أليس لتكون سورا تحجر الأذى عمن يسكنها ؟

فمن معالم المدنية احترام البيوت ، و عدم انتهاك حرمتها ، سواءا بدخولها عنوة أو بإلقاء حجارة أو أذى عليها أو بتسبيب أذى لأهلها ، مثل رفع الصوت المزعج أو إثارة الغبار المؤذي أو تلويث البيئة المضر بأهل البيت ، كل ذلك يعتبر انتهاكا لحرمة البيت ، و مخالفة لحكمة وضع البيوت ، و تعديا على مكان أمن الناس

، ولعله لذلك سميت هذه السورة بالحجرات ، لأن الحجرة تشكل ظاهرة حضارية ، خصوصا إذا كان في الحجرة شخص رسول الله صلى الله عليه وآله .

جاء في الأثر عن سبب نزول هذه الآية عن زيد بن أرقم أتى أناس النبي صلى الله عليه وآله فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا الى هذا الرجل فان يكن نبيا فنحن أسعد الناس باتباعه وإن يكن ملكا نعش في جنابه ، فأتوا النبي - صلى الله عليه وآله - فجعلوا ينادونه وهوفي حجرته : يا محمد يا محمد ! فأنزل الله تعالى هذه الآية (١. (

[5]إن للقائد ظروفه الخاصة ، و مهامه التي تكون - غالبا - ذات صبغة عامة ، ولابد للناس من رعايتها حتى يسهل عليه اداؤها بافضل وجه .. أما إذا زاحموه خصوصا في الشؤون الخاصة ، و خلطوا عليه الأوراق ثم انصرف عن مهامه العامة(١) تفسير القرطبي / ج ١٦ - ص ٣٠٩

فان الضرر يكون عليهم جميعا.

]ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم[

فمادام القائد هو الذي بيده القرار وعليه مسؤولية التنفيذ فلابد من إعطاء صلاحية ذلك له و منحه الفرصة المناسبة ، وعدم التدخل في جزئيات عمله.

ثم إن الرسول حين يكمل أعماله في البيت ثم يخرج إليهم يكون أكثر استعدادا لاستقبالهم و بالتالي يكون خيرا لهم.

]و الله غفور رحيم[

فلو لم يراع أحد هذه الآداب مع الرسول و ارتكب بذلك خطيئة فلا ينبغي أن يقنط من رحمة الله.

جاء في الأثر : إن ثابت بن قيس بن شماس كان رفيع الصوت فافتقده النبي صلى الله عليه وآله فقال رجل : يا رسول الله أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده جالسا في بيته ، منكسا رأسه ، فقال له : ما شأنك فقال : شر كان يرفع صوته فوق صوت النبي فقط حبط عمله وهو منأهل النار فأتى الرجل النبي صلى الله عليه وآله فأخبره أنه قال كذا و كذا ، فقال النبي : " إذهب اليه فقل له : إنك لست من أهل النار و لكنك من أهل الجنة " (١. (

(1)المصدر / ص ٣٠٤

إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا

هدى من الآيات

لكي نحصن التجمع الاسلامي من التهافت و التآكل لابد أن ننمي فيه احترام القيادة الشرعية ، و نحصنه من إشاعات الفاسقين الذين دأبهم تخريب العلاقات ، و نجعل قرار الرسول (أو من يخلفه) هو الحكم الفصل في العلاقات ، و نشكر الله (بذلك) على إسباغ نعمة الايمان علينا حين حببه الى نفوسنا ، و كره إلينا الكفر و الفسوق . أوليس ذلك فضل عظيم و نعمة من الله (اجتبى لهما الصالحين من عباده) بعلم و حكمة ؟

و الملاحظ ان السياق كرس القيادة الاسلامية و احترامها قبل كل شيء ، لأنها الضمانة لسائر التعاليم كما أكد على مسؤولية الأمة تجاه الصلح بين طوائفها ضمانة أخرى لذات التعاليم.

بينات من الآيات

[6]في كتاب ربنا الكريم شفاء لأمراض المجتمع المستعصية لو استشفيناه ، و نفذنا تعاليمه .. و الصراع أعظم تلك الأمراض الذي يقتلع نهج القرآن جذوره البعيدة . ألا ترى كيف يحصن التجمع الايماني من رياح

الفتنة بتذكير المسلمين عن دور الأنباء الكاذبة التي يبثها الفسقة فيفرقون بين الناس .. و نهيهم عن الاسترسال معها ، لأنها تؤدي الى معارضة قوم أبرياء مما يجر اليهم ندامة و حسرة.

]يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا]ذلك ان دوافع الفاسق و منطلقاته شيطانية فقد يكذب أو يمشي بنميم أو ينقل جانبا من الحقيقة و يسكت عن سائر الجوانب .. فاذا قبلناه على علاته فسوف نقع في أخطاء جسيمة ، أبرزها إثارة الفتن في المجتمع.

الفاسق الذي تجاوز الحدود الإلهية لا يمكنه أن يكون موجها للأمة و مجرد الاستماع الى نبأه دون تحقيق و تثبيت يجعله في مقام التوجيه.

]أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين]أي لكي لا يورطكم الفاسق في معارضة فئة مؤمنة من دون تحقيق منكم ، ثم تندموا بعد فوات الأوان..

و نستوحي من الآية عدة بصائر :

أولا :إن أكثر الصراعات الاجتماعية التي تعصف بالمؤمنين منشأها الفاسقون الذين لا تروق لهم وحدة المؤمنين فيثيرون الفتنة بينهم . و حين نتفكر في واقع المسلمين اليوم نجد ان الذين يذكون نار الصراع بينهم هم في الأغلب أبعد الناسعن القيم ، وقد تكون سوابقهم السيئة و أحقادهم ضد الاسلام ، و خشيتهم من الفضيحة هو السبب في تطرفهم ضد هذه الطائفة أو تلك.

وإذا استطاع المؤمنون إبعاد أثر الفسقة عن تجمعاتهم قدروا على سد أكبر ثغرة تهدد كيانهم!

ثانيا :واليوم حيث يتعرض المسلمون لغزو ثقافي و هجمة إعلامية عبر الوف المؤسسات الدعائية المتنوعة ترانا أحوج مما مضى الى تنفيذ هذه الوصية الإلهية أن نتبين عما يقولون لأنهم فسقة لا يتقون الله فيما يقولون ، هذه الوكالات الخبرية التي تمولها و تقودها الرساميل و الأنظمة هل تلتزم بالصدق ؟ هذه الصحف الصفراء التي تنطق باسم المترفين و الطغاة هل ترعى جانب الحق ؟ هذه الاذاعات التي تصب في آذاننا وأذهاننا كل يوم شلالا من المعلومات المختلطة هل نضمن صدقها ؟ كلا .. إذا لابد من التثبت ، ولكن كيف ؟ لأن حجم الأفكار و الأخبار التي تبث عبر أجهزة الدعاية كبير، فأن قدرة الأفراد على التثبت منها محدودة ، فلابد إذا من وجود مؤسسات موثوق بها تقوم بدور المصفاة و تنتقي السمين و تقدمه للمؤمنين.

هذه المؤسسات قد تكون معاهد و مراكز للدراسات و البحوث ، وقد تكون تنظيمات دينية ، وقد تكون خبراء أكفاء يرجع اليهم المؤمنون في توثيق المعلومات ، وقد تكون مؤسسات إعلامية بديلة ، إذاعة صادقة ، صحيفة ملتزمة أو وكالة للأنباء موثوق بها.

ثالثا :و أنى كانت هذه المؤسسات فانها أعمال اجتماعية لا ينتظم أمرها إلا تحت إشراف القيادة الشرعية للامة ، فمن دون القيادة تذهب جهود الأفراد سدى ، لان مثل هذه الأعمال الكبيرة لا ينهض بعبأها آحاد الناس ، كما انه لو لم تكن القيادة شرعية فانها بذاتهاتصبح مبعث الخطر ، ولمثل هذا يذكر السياق القرآني بنعمةالرسالة و الرسول و ضرورة العودة إليه.

رابعا : إن خبر العادل حجة . قالوا بالرغم من أن الآية لا تدل على حجية خبر العادل صراحة و بصورة مباشرة ، بل بما يسمى لديهم بمفهوم الوصف الذي لا حجية فيه عندهم ، إلا ان فائدة بيان الوصف هنا ليست إلا ان الحكم يدور مداره مثل أن نقول : إذا تعاملت مع أهلالباطل فاشهد عليهم ، وإذا ذهبت الى زيارة المريض فتجنب مواكلته ، وإذا زرت بلاد الكفر فتزود بالبوصلة لصلاتك .. وما أشبه.

وأقول :كما أن النفي يتركز في سور الكلمة أو شرطه أو صفته ، كذلك الشرط ، فاذا قلنا : لا أعطيك كل نقودي ، ولا تشرب اللبن إذا أكلت السمك ، ولا تمش في الأرض مرحا ، فان معناه نفي كلية النقود فلو أعطى بعضها لم يخالف وعيده ، أو النهي عن شرب اللبن مقارنامع أكل السمك ، (أو كل النهي عن الجمع بينهما) وكذلك النهي عن مشية المرح لا كل شيء.

كذلك الشرط فلو قال : إذا جئتني صباحا أكرمتك أو إذا رأيتك شامتا قليتك وما أشبه . فان الشرط يلحق أضيق حلقات الكلام ، أي وقت الصباح أكرمك وعند الشماتة أقليك وكذلك الشرط هنا : إذا جاءكم فاسق بنبأ .. فان الشرط مقصود و غرضه تحديد النتيجة باضيق الحدود ،وهو كون المخبر فاسقا ، ولهذا قال الأولون : إن هذا من مفهوم الشرط وليس من مفهوم الوصف والله العالم.

خامسا : ماذا يعني التبين ؟ يبدو أنه يشمل كل أسلوب يؤدي الى حالة الوضوح عند الانسان ، ولأن الله قد خاطب عامة المؤمنين بهذه الكلمة ، فان مفهوم التبين يكون عرفيا ايضا ، بمعنى أن كلما تطمئن إليه نفس الانسان العادي ، حتى لا يبقى فيه شك معقول أو إرتيابيعتني به العقلاء كاف حجة عند الله في الموضوعات.

فسواءا كانت البينة (شهادة عدلين) أو الشياع المفيد للطمأنينة ، أو شهادة الخبراء من خلال مجموعة متراكمة من الشواهد و الآثار أو خبر العاقل العادل فانه من التبين عند العقلاء .. على أن العقلاء لا يعتمدون على بعض هذه الأدلة إذا كانت الظروف المحيطة باعثة للشك الحقيقي مثلا : الشياع الذي يعتقد أن منشأوه شائعة مغرضة لا يورث طمأنينة في النفس فهو إذا ليس بحجة.

كما ان خبر العادل فيما لا يخفى عند غيره يرتاب فيه العقلاء إذا انفرد به كما لو أنبأنا بأن الاذاعة الفلانية نشرت هذا الخبر ، علما بأنها لو نشرته لسمع أكثر الناس و تناقلوه .. أو أخبر برؤية الهلال في ليلة صافية مما نعلم أنه لو رآه هذا العادل لرآه غيرهأيضا ، و إذ لم يشهد برؤيته غيره فان العقلاء يشكون في كلامه . كذلك الحوادث الخطيرة لا يعتمد العقلاء عادة على الخبر الواحد فيها مثل الحروب..

عموما : حالة التبين تختلف عند العقلاء حسب الموضوعات فلابد من الالتفات الى ذلك ، ولعل الحكمة التي سيقت في خاتمة الآية هي محور الحكم فعلينا أن ندور مداره ، و نتفكر كيف نتجنب الوقوع في الجهالة و الندم.

[7]كيف تتموج الفتنة في المجتمع المسلم ؟ إنها تشرع بشائعة تتلقفها الألسن ثم لا يلبث أن تتحول الى تيار يجرف معه البسطاء ، و الانتهازيين ، و الفوضويين آنئذ تطفق الفتنة و أصحابها بالضغط على القيادة الشرعية التي عليها أن تختار بين الاستسلام لعاصفة الفتنة ، أو خسران شريحة إجتماعية ، فما هو الحل ؟

الحل ينحصر في تجلي المجتمع بروح الانضباط وأن يعي الجميع أبعاد نعمة القيادة فيشكروها شكرا عمليا . حقا إن المجتمع الذي يعي أهمية القيادة الشرعية يتحصن ضد عواصف الفتنة الداخلية بذات الصلابة التي يقاوم بها قواصف التحديات الخارجية . لذلك يأمر القرآن بأن نعلم دور الرسول فينا (ثم من يخلفه

و يرث مقامه بدرجة ما. (

]واعلموا أن فيكم رسول الله [

فهو إذا مبعوث من عند الله يحمل رسالة الحكمة و المعرفة و البصيرة ، ومادام كذلك فلابد من الرجوع إليه عند الفتن و الشبهات ، ولا يجوز الضغط عليه بقبول آراءكم و شهوات أنفسكم ، لأن ذلك ليس من مصلحتكم.

]لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم[

وكيف لا تصيبهم المشقة و العنت وقد خالفوا العلم الى الجهل ، و الحكمة الى الجهالة.

جاء في الأثر : في سبب نزول الآية أو تأويلها على عهد الرسول ما يلي:

أولا :إن النبي صلى الله عليه وآله بعث الوليد بن عقبة ليجمع الصدقات من بني المصطلق فلما أبصروه أقبلوا نحوه للترحاب به ، ولكن خشيهم وهابهم و يبدو أنه كان بينه و بينهم عداوة فخافهم على نفسه أن يقتلوه أو كانت في نفسه ضغينة تجاههم ، فأراد أن يمكر بهم(أو تظاهر بذلك) فرجع الى النبي صلى الله عليه وآله فأخبره أنهم ارتدوا عن الاسلام.

فبعث نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم خالد بن الوليد وأمره ان يتثبت ولا يعجل ، فانطلق خالد حتى أتاهم ليلا ، فبعث عيونه فلما جاءوا أخبروا خالدا انهم متمسكون بالاسلام ، و سمعوا اذانهم و صلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم خالد و رأى صحة ما ذكروا فعاد الى نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره فنزلت هذه الآية وكان يقول نبي الله : " التأني من الله و العجلة من الشيطان (1)(1) . " بتصرف عن القرطبي / ج ١٦ - ص ٣١١

و يبدو من بعض الأخبار أن طائفة من المسلمين كانوا يصرون على النبي بالخروج إليهم و قتالهم قبل التثبت من أمرهم ، ولعل مؤامرة حاكها الحزب الأموي و المنافقون المؤيدون لهم ضد المسلمين ، و منها نفذ الوليد طرفا منها ، بينما أراد الآخرون تنفيذ سائر جوانبها.

ثانيا : جاء في الأثر ان الآية نزلت في قصة الإفك على بعض الروايات . فقد ذكر علي بن إبراهيم في تفسيره انها نزلت في مارية القبطية أم أبراهيم (عليه السلام) ، وكان سبب ذلك ان عايشة قالت لرسول الله - صلى الله عليه وآله - : إن إبراهيم ليس هو منك وإنماهو من جريح القبطي ، فانه يدخل اليها في كل يوم ، فغضب رسول الله - صلى الله عليه وآله - وقال لأمير المؤمنين (عليه السلام) : خذ السيف وأتني برأس جريح ، فأخذ أمير المؤمنين (عليه السلام) السيف ثم قال : بأبي أنت و أمي يا رسول الله إنك إذا بعثتني في أمرك أكون فيه كالسفود (١) المحمي في الوبر فكيف تأمرني أثبت فيه أو أمضي على ذلك ؟ فقال له رسول الله - صلى الله عليه وآله - : بل تثبت ، فجاء أمير المؤمنين الى مشربة أم إبراهيم فتسلق عليها فلما نظر اليه جريح هرب منه وصعد النخلة ، فدنا منه أمير المؤمنين (عليه السلام) وقال له : إنزل فقال له يا علي اتق الله ماهيهنا أناس اني مجبوب (٢) ثم كشف عن عورته فاذا هو مجبوب ، فأتى به رسول الله - صلى الله عليه وآله - فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما شأنك يا جريح ؟ فقال : يا رسول الله ان القبط يحبون حشمهم ومن يدخل الى أهليهم ، و القبطيون لا يأنسون إلا بالقبطيين ، فبعثني أبوها لادخل اليها و أخدمها و أونسها ، فأنزل الله عز وجل " يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ " الآية . (٣)(١) السفود : حديدة يشوى عليها اللحم

(2)المجبوب : الخصي

(3)نور الثقفين / ج ٥ - ص 81

وهذه الآية و نصوص دينية أخرى تستهدف فصل الفسقة عن المجتمع الاسلامي نفسيا ، و تقليل دورهم في ادارة القضايا الاجتماعية ، فاذا امتنع المسلمون عن العمل باخبار الفاسقين ، فقد أبعدوهم عن القضاء و الاعلام ، و الشهادة في المحاكم وعن أعمال أخرى.

من هنا نجد المفسر المعروف القرطبي ينقل هنا نصا عن ابن العربي يحسن بنا الاستماع إليه يقول:

ومن العجب أن يجوز الشافعي و نظراؤه إمامة الفاسق ومن لا يؤتمن على حبة مال كيف يصبح أن يؤتمن على قنطار دين ، وهذا إنما كان أصله أن الولاة الذين كانوا يصلون بالناس لما فسدت أديانهم ولم يمكن ترك الصلاة وراءهم ، ولا استطيعت إزالتهم صلي معهم و وراءهم)
و أضاف) ثم كان من الناس من إذا صلى معهم تقية أعادوا الصلاة لله ، و منهم من كان يجعلها صلاته . و بوجوب الاعادة أقول فلا ينبغي لأحد أن يترك الصلاة مع من لا يرضى من الأئمة ولكن يعيد سرا في نفسه ولا يؤثر ذلك عند غيره . (١)[ولكن الله حبب إليكم الإيمان و زينه في قلوبكم و كره إليكم الكفر و الفسوق و العصيان [الرسالة نعمة و فضل ، و وعي هذه الحقيقة يجعلنا نستفيد منها بصورة أفضل ، أوليس الذي يجهل أن له رصيدا كبيرا في البنك لا ينتفع به ؟

و الايمان بالرسالة هو الآخر توفيق من عند الله و نعمة و فضل ، صحيح أن العبد يخطو الى ربه الخطوة الأولى ، و يسلم للحق ، ولكن لولا أن الله يحبب الايمان في(١) القرطبي / ج ١٦ - ص ٢١٣

قلوب من يصلح له ما زكى أحد من البشر ابدا . ولقد حبب الله الايمان مرتين ، مرة عندما خلق البشر على فطرة الايمان بالله ، و مرة عندما ألقى في أفئدة المسلمين لربهم الصالحين لتلقي نعمة الهدى حب الايمان . كما ان الفطرة البشرية بذاتها تكره الانحراف بكل درجاته، كالكفر الذي يعني مخالفة الدين رأسا ، و الفسوق الذي يعني تجاوز حدود الشريعة و العصيان الذي هو ارتكاب بعض الخطايا ، و هذه الثلاث تعاكس الايمان ومن دون تطهير القلب من أدرانها لا يستقبل القلب روح الايمان.

]أولئك هم الراشدون[

قالوا : أصل الرشد الصخرة ، و يسمى صاحب الرأي السديد بالراشد لاستقامته عليه ، و شدة تصلبه فيه ، فهو على يقين من أمره . و رشد المؤمن ناشئ من يقينه ، و تصلبه في الحق إذ أنه عرف دربه الواضح فسوف لا يغيره.

وقد التفت السياق من الخطاب الى الغيبة ، ربما لأن مقام الراشدين رفيع لابد ان يشار اليه بمثل كلمة (أولئك) وهو بالتالي لا يناله إلا من هو ذو حظ عظيم ، فليس كل تال للقرآن مخاطب بهذه الصفة العظيمة . و الآية تدل على أن أساس الدين الحب ، و لذلك يسعى المؤمنون لترسيخ و تنمية هذا الحب في أفئدتهم و يقولون : " و اجعل لساني بذكرك لهجا ، و قلبي بحبك متيما " . (١)و جاء في صفة حزب الله المفلحين : " يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم و يحبونه " (٢. (

(1)من دعاء لأمير المؤمنين (ع) المعروف بدعاء كميل / مفاتيح الجنان - ص ٦٧(٢) المائدة / ٥٤

و حين سأل زياد الحذاء الامام الباقر (عليه السلام) عن علاقة الدين و الحب ، أجابه الامام قائلا:

"يا زياد ويحك ! وهل الدين إلا الحب ؟ ألا ترى الى قول الله : " إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله و يغفر لكم ذنوبكم " أولا ترون قول الله لمحمد " حبب اليكم الايمان و زينه في قلوبكم " قال : " يحبون من هاجر اليهم. "

وقال مضيفا : " الدين هو الحب و الحب هو الدين " (١)[٨ [وإذا كان الايمان هدية الله الى القلوب الطاهرة ، فانه فضل من الله لطائفة خاصة من البشر ، وليس كسائر نعم الله شاملة للجميع.

]فضلا من الله و نعمة و الله عليم حكيم[

يعلم أين ينبغي أن يجعل فضله و نعمته بحكمته البالغة.

(1)نور الثقلين / ج ٥ - ص 84

فأصلحوا بين أخويكم

هدى من الآيات

إذا كانت الحرب الخارجية ذات فوائد للامة ، إذ تمحص إرادتها و تطهر صفوفها ، و تهديها الى مراكز ضعفها و تحسسها بمسؤولياتها ، و تكرس القيم الحضارية فيها ، فان الحرب الأهلية لا تخلف وراءها إلا الخيبة و الدمار ، و قد تجرها الى نهايتها المريعة.

ولقد عالجت الآية الاولى في هذا الدرس قضية القتال بين المؤمنين بصورة واضحة ، مما حدى بالمفسرين أن يفصلوا الحديث حول الموضوع و يشبعوه بحثا ، و أنى فصلنا فان القضية أبعد غورا و أوسع

مدى من التحدث عنها ضمن التفسير فقط ، و إنما هي بحاجة الى دراسات مفصلة.

أما الآية الثانية فهي الأخرى تعالج موضوع الصلح ولكن بصورة أشمل و تؤكد على عمق العلاقة بين المؤمنين التي تصل الى الأخوة الكاملة.

بينات من الآيات

[9]تعالج آيات القرآن عادة أسوء الحالات قبل الحديث عن الحالات العادية ، فمثلا حين تبين سورة النساء العلاقات الاجتماعية تستهلها بمعالجة حالة الطلاق التي هي عقدة العلاقة الاسرية ، وكذلك سورة النور التي ترسم حدود الاسرة الفاضلة تبتدئ ببيان حد الزنا، و سورة المائدة التي تبني كيان الحضارة الاسلامية نراها تحدثنا في فاتحتها عن حرمة الاعتداء على أموال اليتامى الذين هم أضعف الحلقات الاجتماعية ، وهنا أيضا تعالج الآيات أعقد حالات الخلاف وهي حالة الاقتتال أولا ثم تتدرج في الحديث عن سائر الحالات الأقل تعقيدا . لماذا كل ذلك ؟

يبدو أن وراء كل ذلك حكمتين :

الأولى :لبيان الغاية التي سوف تنتهي اليها تسلسل الحالات ، لكي لا يستهان بمبدئها فالخلافات الجزئية التي نستخف عادة بها و الشائعات التي نبثها هنا و هناك ضد بعضنا بلا وازع قد تنمو حتى تصبح صراعا دمويا بين طائفتين من البشر . فلكي نرى الحقائق لابد أننضرب لها مثلا واضحا ثم نقيس عليه سائر الأمثلة.

الثانية : إن عظمة الشريعة تتمثل في معالجة الحالات الشاذة البالغة حدها في التعقيد ، أما الأوضاع العادية فان التعامل معها سهل ميسور.

فمعالجة حالة الطلاق أو الخيانة الزوجية (الزنا) هي المقياس لقدرة الشريعة على وضع نظام صائب لشؤون الاسرة ، كما ان الحفاظ على أموال اليتيم دليل على مدى صلاحية النظام الاقتصادي في المحافظة على حقوق الناس.

كذلك معالجة مشكلة الحرب الأهلية تشهد على مدى صلاحية النظام الاجتماعي في مواجهة التحديات .

من هنا بدأ السياق بهذه المعالجة وقال:

]و إن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما]المسؤولية الأولى إذا هي وقف الاقتتال و إقامة السلام بأية وسيلة ممكنة ، وهي مسؤولية الجماهير ، لأنهم القوة الباقية بين الطائفتين . أما لو كلفنا طائفة ثالثة فقد تدخل طرفا في الاقتتال وقد لا تكون أقوى من إحديهما.

و الملاحظ اولا : ان التعبير جاء بصيغة التثنية ثم الجمع ثم التثنية ، ذلك ان سبب الاقتتال يكون عادة الاختلاف بين فريقين لكل منهما خصائصه و ميزاته ، و الصلح يكون بين قيادتي الفريقين ، بينما ذات الاقتتال يكون بين أتباعهما ، فقد يكون المقاتلون ضحية مؤامرة قيادتهم ، و زجهم في معركة لا مصلحة لهم فيها ، بينما القيادة عند الفريقين مسؤولة عن الحرب كما هي مطالبة بالصلح.

ثانيا :القرآن لم يحدثنا عن قوانين الصلح أو عن الصلح الذي يقوم على العدالة ، لأن تحقيقه في حالة الاقتتال يكاد يكون مستحيلا ، إنما طلب من الجميع العمل من أجل الصلح.

ثالثا : سمى القرآن الفريقين المتقاتلين بالمؤمنين بالرغم من ان الاقتتال ضلالة بعيدة ، مما يدل على إمكانية تورط أبناء الامة الواحدة في الحرب الأهلية بسبب الفتن و الأهواء ، فلا يجوز اتهام الناس بالكفر بمجرد دخولهم الصراع مع بعضهم حتى بلغ حد الحرب ، كما لا يجوز لأحد الطرفين اتهام الطرف الآخر بالخروج عن إطار الايمان بمجرد إعلانه الحرب عليه.

]فإن بغت إحداهما على الأخرى[

فلم تقبل بالصلح أو قبلت و غدرت.

]فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله[

هل يمكن ان نقيم السلام بالشعارات و المواعظ و المعاهدات و مجالس الأمن ؟ قد يكون كل ذلك نافعا ، ولكنه ليس بمستوى وقف الحرب التي لا يخوضها الناس إلا بعد أن ييأسوا من تحقيق أهدافهم بأية وسيلة أخرى ، فيركبون مركبها الصعب و يتحملون مآسيها و ويلاتها . فكيف يتوقفون عنها بنصيحة أو قرار ؟

لابد إذا أن يتحمل الناس كل الناس مسؤولية الحفاظ على السلام و وقف نزيف الدم ، وذلك بخوض غمار الحرب بلا تردد ، و إلا فان بغاة الفتنة سوف يحولون الأرض جحيما.

ولست أعرف مبدأ فرض على تابعيه هذا المستوى من المسؤولية الاجتماعية ، فالمبادئ الغربية ترى انتخاب النظام حقا ، بينما الاسلام يراه واجبا ، و يفرض على المؤمن الكفر بمن يطغى و يريد فرض نفسه على المجتمع حاكما من دون رضاهم ، كما يفرض القتال ضد الذين يبغون الفساد في الأرض.

و يحدد القرآن القتال بعودة الفئة الباغية الى أمر الله و قبولها بتطبيق حكم الاسلام في قضايا الخلاف بينها و بين الفئة الأخرى ، مما يدل على واجب التقيد التام بحدود العدالة في التعامل مع البغاة بالرغم من بغيهم و اعتدائهم على السلام و الأمن.

وإذا عرفنا ان هؤلاء يشبهون المعارضة المسلحة في عرف اليوم ، نعرف كيف ينبغي التعامل مع المعارضة في النظام الاسلامي بأن نعيدهم الى الحدود الشرعيةو الممارسة القانونية لحقهم ، دون مصادرة حقوقهم و انتهاك حرماتهم و الاشهار بهم و إغراقهم بالتهم الرخيصة ، فكيف باعتقالهم و تهجيرهم و تعذيبهم و قتلهم ؟ كلا . إن الله سبحانه يحدد قتال البغاة بعودتهم الى أمر الله فاذا عادوا كان حالهم حال سائر أبناء الأمةسواء بسواء.

]فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل[

ولا يجوز التمييز بينهما و بين الفئة الاخرى ، بمجرد أنها بغت عليها . إذ ان فرض عقوبات على هذه الفئة أو حرمانهم من حقوقهم يمهد لحرب جديدة ، إنما العدل و إقامة حدود الله على الجميع بلا تمييز يقضي على أسباب الصراعات الاجتماعية لأن وقود هذه الصراعاتهم في الأغلب الفئات المحرومة التي يستغلها هذا أو ذاك.

]وأقسطوا إن الله يحب المقسطين[

لعل القسط هو التطبيق الدقيق و الحازم لموجبات العدالة ، فهو الدرجة الأسمى للعدل . فكيف نحقق القسط في الفئتين المحاربتين ؟

قد تكون الفئة الباغية (المعارضة المسلحة) فئة محرومة تاريخيا ، كالسود في أمريكا ، فتساويهما في الحقوق مع مواطنيهم البيض لا يكفيهم ، ولا يقضي على عوامل البغي المجرد ، إنما ينبغي توفير قدر أكبر منالفرص لهؤلاء لرفع حرمانهم مثل تخصيص ميزانيات أكبر لمناطق تواجدهم ، و قبولهم في الجامعات بشروط أخف و إعطائهم ديونا بلا فوائد و . و . والله العالم.

وقد جاء في سبب نزول الآية أقوال شتى مما يدل على أن ذلك كان مجرد تطبيق الآية على بعض الحوادث التي وقعت بين المسلمين و أكثرها كانت بينالأنصار و بالذات بين الأوس و الخزرج الذين بقيت على عهد النبي آثار حربهما الضروس التي طالت عقودا متطاولة حتى أخمدها الله بالاسلام.

و أكثر تلك المشاحنات التي يذكرها المفسرون في سبب نزول الآية كانت بالأيدي و النعال و جريد النخل و لا أظن أنها تسمى قتالا.

وليس غريبا أن يبين القرآن حكم موضوعة تتحقق عادة في الأمم حتى ولو لم تحدث عند نزول الكتاب ، و قد شهد المسلمون صراعا دمويا بينهم في القرن الأول من الهجرة ، مما يصلح تأويلا للآية من هنا تحدث بعض المفسرين بتفصيل عن تلك الحرب ، ونحن بدورنا نجد فائدة كبيرة بذكر جانب مما تحدثوا عنه مبتدئين ذلك بنقل ما نقله القرطبي عن القاضي أبي بكر بن العربي حيث قال:

هذه الآية أصل في قتال المسلمين ، و العمدة في حرب المتأولين ، و عليها عول الصحابة و إليها لجأ الأعيان من أهل الملة ، وإياها عنى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بقوله : " تقتل عمارا الفئة الباغية " و قوله عليه السلام في شـــأن الخـوارج : " يخرجون على خير فرقة أو على حين فرقة " و الرواية الأولى أصـح ، لقوله عليه السلام : " تقتلهم أولى الطائفتين الى الحق " وكان الذي قتلهم علي بن أبي طالب ومن كان معه ، فتقرر عند علماء المسلمين و ثبت بدليل الدين ان عليا رضى اللهعنه كان إماما ، و أن كل من خرج عليه باغ ، و ان قتاله واجب حتى يفيء الى الحق و ينقاد الى الصلح ، لأن عثمان رضى الله عنه قتـــل و الصحابة براء من دمه ، لأنه منع من قتال من ثار عليه و قال : لا أكون أول من خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أمته بالقتل ، فصبر على البلاء ، و استسلم للمحنة و فدى بنفسه الامة ، ثم لم يمكن ترك الناس سدى ، فعرضت على باقي الصحابة الذين ذكرهم (عمر) في الشورى ، و تدافعوها ، وكان علي كرم الله وجهه أحق بها و أهلها ، فقبلها حوطةعلى الامة أن تسفك دماؤها بالتهارج و الباطل ، أو يتخرق أمرها الى ما لا يتحصل ، فربما تغير الدين و انقض عمود الاسلام . فلما بويع له طلب أهل الشام في شرط البيعة التمكن من قتلة عثمان و أخذ القود منهم . فقال لهم علي رضي الله عنه : إدخلوا في البيعة و اطلبواالحق تصلوا اليه ، فقالوا : لا تستحق بيعة و قتلة عثمان معك تراهم صباحا و مساء .فكان علي في ذلك أسد رأيا و أصوب قيلا ، لأن عليا لو تعاطى القود منهم لتعصب لهم قبائل و صارت حربا ثالثة ، فانتظر بهم أن يستوثق الأمر و تنعقد البيعة ، و يقع الطلب من الأولياء في مجلس الحكم ، فيجري القضاء بالحق.

ولا خلاف بين الامة انه يجوز للامام تأخير القصاص إذا أدى ذلك الى اثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة ، وكذلك جرى لطلحة و الزبير ، فانهما ما خلعا عليا من ولاية ولا اعترضا عليه في ديانة ، وإنما رأيا أن البداءة بقتل أصحاب عثمان أولى . (١)ثم يسترسل القرطبي في تفسير حرب الجمل فيقول : وقال جلة من أهل العلم ان الوقعة بالبصرة بينهم (بين المسلمين) كانت على غير عزيمة منهم على الحرب بل فجأة ، وعلى سبيل دفع كل واحد من الفريقين عن أنفسهم لظنه أن الفريق الآخر قد غدر به . (٢)ولم أهتد الى الفارق بين واقعتي البصرة و صفين أو بينها و بين النهروان . أولم يخرج الجميع على إمام قائم بالأمر بايعته أكثرية المسلمين فكيف نبرر خروج أهل البصرة ، و ندين أهل الشام أو الخوارج ؟

هب أن القتال كان فجأة ، ولكن ماذا يبرر إخراج حرم رسول الله من المدينة الى البصرة و تجنيد الجيوش و إظهار المخالفة بهذه الطريقة ؟

(1)القرطبي / ج ١٦ - ص 318

(2)المصدر

و أظن أن تاريخنا قد حفل بالتبرير ، و ربما التناقض لسبب نفسي مغلف بشبهة دينية ! أما السبب النفسي فهو الخلط بين قيم الدين و حوادث التراث ، و محاولة اضفاء حالة من القداسة على التراث ، دون عرضه على قيـم الوحي أو نقده حسب موازين الشرع ، فكل ما يسمى بالاسلام أو بالمسلمين أو بالتاريخ الاسلامي ذات حرمة بل قداسة عند البعض ، بينما نجد في تاريخنا ما يندي له جبين الانسانية ، مثل واقعة عاشوراء حيث ذبح سيد الشهداء سبط رسول الله عطشانا على جنب الفرات و أسرت بنات رسول الله و طوف بهن البلاد .. كلا لا ينبغيأن نكون مثل الذين اتبعوا اءاباءهم و قدسوا تراثهم حتى قال لهم الله " : وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه اءاباءنا ، أولو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير " (١) وقال سبحانه " : وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزلالله والى الرسول قالوا

حسبنا ما وجدنا عليه ءاباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون " . (٢)المقياس الوحيد للحق هو وحي الله المتمثل في كتاب الله ، و تفسيره الصحيح الذي بينه رسول الله و أهل بيته المعصومون عليهم السلام ، أو ما يكشفه العقل و العلم بوضوح كاف .. أما سيرة السلاطين ، أو سلوك الأولين فانه يخضع بدوره للوحي ، فما وافق كتاب الله وسنة رسوله أكرمناه ، وما خالفهما تركناه .. ولا يجوز تعطيل العقل في فهم الوحي لمصلحة التراث ، فإنه من الغلو في الدين الذي نهينا عنه ، كما قال الله سبحانه لبني إسرائيل : " قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا منقبل ، و أضلوا كثيرا و ضلوا عن سواء السبيل " . (٣)(١) لقمان / ٢١

(2)المائدة / ١٠٤

(3)المائدة / ٧٧

من هنا لا يجوز أن ننسب العصمة الى أصحاب رسول الله جميعا ، بل لابد أن نخضع تصرفاتهم لقيم الوحي و نأخذ بما ثبت عن طريقهم من أقوال رسول الله ولا يلزمنا اجتهادهم في الدين أو تفسيرهم للقرآن ، ولا سلوكهم خصوصا المخالف للنص.

ولا يجوز أن يوقعنا احترام الصحبة الى مخالفة نصوص الدين ، بخلاف ما قال المفسر المعروف القرطبي حيث ذكر انه : لا يجوز أن ينسب الى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به إذا كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه و أرادوا الله عز وجل وهم كلهم لنا أئمة . (١)حقا ينبغي احترام الصحبة ، ولكن ليس الى درجة الوقوع في التناقض أو التبرير الذي لا يقبله العقل ، فلا ريب ان قتال الصحابة مع بعضهم كان خطأ فادحا ، لابد أن ندينه و ندين الباغي ، و كيف يجوز لنا أن نقيم حوادث اليوم حسب الدين ؟ ولا يجوز أن نفعل مثل ذلكفي الماضين ، أولم يكونوا بشرا مثلنا ، أولم تكن لهم شهوة السلطة و الثروة .. دعنا نكون أكثر واقعية ، و نضع كل شيء في موضعه المناسب ولا نكون كالحسن البصري الذي سئـــل عـن قتال الصحابة فقال : قتال شهده أصحاب محمد صلى الله عليه وآله و غبنا ، و علموا و جهلنا ، و اجتمعوا فاتبعنا ، واختلفوا فوقفنا .. (٢(

فهل يجوز أن نطلق مثل هذا الكلام بالنسبة الى كل حادثة تاريخية ؟! إذا نعطل العقل ، بل نعطل موازين الشريعة ، كلا .. لابد أن ندرس التاريخ و نعتبر بما فيه و نميز الحق و الباطل فنتبع الحق و ندع الباطل و الله المستعان على ذلك.

(1)القرطبي / ج ١٦ - ص 321

(2)المصدر / ص ٣٢٢

أما الشبهة الدينية فهي إننا لو شككنا في أمر الصحابة ضاعت علينا معالم ديننا ، أوليسوا هم الوسيط بيننا وبين معرفة الدين ؟ و أضافوا أن هناك أحاديث مأثورة عن الرسول باحترام الأصحاب و أنهم كالنجوم بأيهم اقتدينا اهتدينا ..و نقول : إن معالم الدين واضحةبالقرآن ، و علينا أن نعرض عليه حتى أحاديث الرسول و أهل بيته فكيف بافعال بشر مثلنا ؟ ثم ان كل جيل يأخذ معالم دينه من الجيل السابق عليه فهل من المعقول إضفاء هالة العصمة على كل الأجيال ؟ وما الفرق مثلا بين الصحابة و جيل التابعين في أن من لحقهما أخذ منهما معالم الدين ؟ فكما ميز علماء المسلمين بين التابعين حسب قوانين علم الرجال ، فقالوا هذا ثقة أخذوا منه الدين وهذا وضاع و ذاك ضعيف و الثالث مجهول الحال فلم يأخذوا منه الحديث كذلك ينبغي أن نفعل بالجيل السابق لهم ، فنفرق مثلا بين أبي ذر الغفاري ، الذي ماأظلت الخضراء ، ولا أقلت الغبراء على ذي لهجة أصدق منه ، و بين سمرة بن جندب الذي كان يكاسر معاوية في ثمن الأحاديث الموضوعة.

وإذا جاءت روايات في فضل الأصحاب فيجب تقييدها بالصادقين منهم الذين لم يحدثوا بعد الرسول ، وذلك لسببين:

أولا :لمعارضتها مع روايات أخرى مأثورة عن النبي ، تؤكد ان بعض الصحابة يحدثون من بعده ، وإنهم يذادون يوم القيامة عن الحوض كما يذاد البعير ، وأنه ستكثر من بعده القالة فمن كذب عليه فليتبوأ مقعده من النار.

ثانيا :لأننا يجب أن نجعل كتاب الله مقياسا لمعرفة حدود أحاديث الرسول ، و الله سبحانه و تعالى يقول : " قل هل يستوي الذين يعلمون و الذين لا يعلمون (1)(1) . " الزمر / ٩

"أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون "(1) . " وما يستوي الأعمى و البصير ، و الذين آمنوا و عملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تتذكرون " . (٢)" لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح و قاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد و قاتلوا وكلا وعد الله الحسنى و الله بما تعملون خبير " . (٣)و عندما بين ربنا فضائل الجيل الأول من المسلمين إشترط الايمان و الاحسان فيهم ، و لم يطلق الكلام عندما وعدهم الأجر العظيم ، بل قيده بذلك و أكد عليه بحرف " من " التبعيضية و قال:

"محمد رسول الله و الذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله و رضوانا ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة و مثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهمالكفار وعد الله الذين آمنوا و عملوا الصالحات منهم مغفرة و أجرا عظيما " . (٤)أحكام الباغين

أ / هل الآية تشمل حالة القيام ضد الحكم الاسلامي أم تخص الاختلاف بين طائفتين من المسلمين ليس بينهما إمام ؟ المعروف بين المفسرين انها تشمل الحالة الأولى و لذلك فقد تحدثوا في تفسيرها عن حكم البغاة ، و عما حدث في الصدر(١) السجدة / ١٨

(2)غافر / ٥٨

(3)الحديد / ١٠

(4)الفتح / ٢٩

الأول من اقتتال الأصحاب مما كان مظهرا واضحا للبغي ضد الامام الحاكم.

و يبدو أن هذا الفهم يستند الى ان الاقتتال بين المسلمين يكون عادة على السلطة ، حيث لا ترى طائفة منهم السلطة شرعية فتقوم ضدها ، و سواء كانت تملك حجة في ذلك ، وكما قامت طوائف من المسلمين ضد الحكام في العهدين الأموي و العباسي ، أولا كالذي حدث في عهد الامام علي عليه السلام ، فان الآية تشمل ذلك كله ، و يشهد على ذلك الحديث المفصل المروي عن الامام الصادق عليه السلام و الذي جاء فيه : " بعث الله محمدا بخمسة أسياف ثلاثة منها شاهرة فلا تغمد حتى تضع الحرب أوزارها ، ولن تضع الحرب أوزارها حتى تطلع الشمس من مغربها .. الى أن قال : و أما السيف المكفوف فسيف على أهل البغي و التأويل (ثم قرأ الآية الكريمة : و إن طائفتان ..) فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله : إن منكم من يقاتل بعدي على التأويل كما قاتلت على التنزيل ، فسئل النبي : من هو ؟ فقال : خاصف النعل ، يعني أمير المؤمنين ، فقال عمار بن ياسر : قاتلت بهذه الراية مع رسول الله ثلاثا وهذه الرابعة ، و الله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا المسعفات من هجر لعلمنا انا على الحق و أنهم على الباطل " . (١)و علق الفقيه الكبير الشيخ محمد حسن النجفي على ذلك بقوله : خبر الأسياف المروي في التهذيب و الكافي و عمل به الأصحاب و تسمعه إنشاء الله صريح فيما ذكره بعض من أنه نزل فيهم قوله تعالى : وإن طائفتان الآية . (٢)ب / لا ينبغي معاملة أهل البغي معاملة الأعداء ، بل ينبغي أن نقاتلهم لكف بأسهم و درء للفتنة فاذا فاءوا الى أمر الله عاملناهم كاخوة .. وقد جاء في تتمة(١) وسائل الشيعة / ج ١١ - ص ١٨

(2)جواهر الكلام / ج ٢١ - ص ٣٢٣ (الطبعة الثانية)الحديث الآنف ذكره : " و كانت السيرة فيهم (أهل

البغي) من أمير المؤمنين (ع) ما كان من رسول الله)ص) في أهل مكة يوم فتح مكة فانه لم يسب لهم ذرية ، وقال : من أغلق بابه فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه (أو دخل دار أبي سفيان) فهو آمن ، وكذلك قال أمير المؤمنين (ع) يوم البصرة نادى : لا تسبوا لهم ذرية ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تتبعوا مدبرا ، ومن أغلق بابه و ألقى سلاحه فهو آمن " . (١)و جاء في حديث آخر عن الامام الصادق عليه السلام : عن عبد الله بن سليمان : قال قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام : إن الناس يروون أن عليا قتل أهل البصرة و ترك أموالهم (مما يثير تساؤلا عندهم كيف يبيح دماءهم ولا يبيح أموالهم ؟) فقال : " إن دار الشرك يحل ما فيها وإن دار الاسلام لا يحل ما فيها " . (٢)ـــل نجد في حديث آخر أعظم من ذلك فقد روى مسعدة بن زياد عن جعفر عن أبيه : " إن عليا لم يكن ينسب أحدا من أهل حربه الى الشرك ولا الى النفاق ولكنه كان يقول : هم إخواننا بغوا علينا " . (٣)روى عن الامام علي عليه السلام انه سئل عن الذين قاتلهم من أهل القبلة أكافرون هم ؟ قال : " كفروا بالاحكام و كفروا بالنعم ليس كفر المشركين الذين دفعوا النبوة و لم يقروا بالاسلام ولو كانوا كذلك ما حلت لنا مناكحتهم ولا ذبائحهم ولا مواريثهم " . (٤(

(1)وسائل الشيعة / ج ١١ - ص ١٨

(2)المصدر / ص ٥٨

(3)المصدر / ص ٦٢

(4)جواهر الكلام / ج ٢١ - ص ٣٣٨ نقلا عن كتاب الدعائم.

ج /يبدو أن البغاة لا يضمنون ما أتلفوه من مال أو أراقوه من دم ، كما لا يضمن لهم ما تلف منهم من مال أو دم ، لأن الصلح يعني تنازل كل طرف عما يعتقد أنه حقه في مقابل تنازل الطرف الآخر . هذا إذا تم الصلح ، وفي حالة استمرار القتال حتى تفيء الفئة الباغيةفان مقتضى جعل العودة الى أمر الله نهاية للقتال أنه ليس هناك حكم آخر كالقصاص و الضمان ، و إلا جعلا حدا للقتال ، وهذا هو الظاهر من الروايات التي تبين أحكام البغاة إذ لم أجد فيها حديثا يتعرض لأحكام القود و الضمان و الغرامة مع أنها في مقام البيان .

كما ان هذا هو المعروف من سيرة أمير المؤمنين عليه السلام ، فلو أراد الاقتصاص منهم لقتل بعض أسراهم ممن كان يقود الجيش المعادي كمروان بن الحكم و عبد الله بن الزبير الذين لا ريب في تعلق القصاص بهم.

جاء في التاريخ ان الامام أمير المؤمنين عليه السلام لما هزم أهل البصرة ذهب الى دار عظيمة كان فيها أسرى الحرب فاذا نساء يبكين بفناء الدار فصحن به و قلن : هذا قاتل الأحبة ، فبعث اليهن واحدة وقال : " لو كنت قاتل الأحبة لقتلت من في هذه الحجرة ومنفي هذه " و أومأ الى ثلاث حجر فذهبت اليهن وقالت لهن فسكتن جميعا ، وكان في واحدة منها عائشة و خاصتها ، وفي الثانية مروان بن الحكم و شباب من قريش ، وفي الأخرى عبد الله بن الزبير و أهله(1) . " وقال القرطبي في تفسيره : وما استهلكه البغاة و الخوارج من دم أو مال ثم تابوا لم يؤخذوا به ، وقال أبو حنيفة : يضمنون ، و للشافعي قولان ، وجه قول أبي حنيفة أنه إتلاف بعدوان فيلزم الضمان ، و المقول في ذلك عندنا ان الصحابة رضي الله عنهم في حروبهم لم يتبعوا مدبرا ولا ذففوا على جريح ولا قتلوا أسيرا ولا ضمنوا(١) جواهر الكلام / ج ٢١ - ص ٣٣١

نفسا ولا مالا وهم القدوة (1) .

د /قال الفقهاء إن الباغي ذا الفئة يقتل أسيرا و يجهز عليه جريحا و يستحل ماله ، لأنه يعود الى من يجمع له السلاح و يغدق عليه الأموال و يعاود القتال .. و جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السلام أنه سئل عن الطائفتين من المؤمنين إحديهما باغية و الاخرى عادلة فهزمت العادلة الباغية قال :

" ليس لأهل العدل أن يتبعوا مدبرا ولا يجهزوا على جريح ولا يقتلوا أسيرا وهذا إذا لم يبق من أهل البغي أحد ولم يكن فئة يرجعون إليها ، فاذا كانت لهم فئة يرجعون إليها فان أسيرهم يقتل ، و مدبرهم يتبع و جريحهم يجهز عليه " . (٢(

وقال المحقق في الشرائع : من كان من أهل البغي لهم فئة يرجع اليها جاز الاجهاز على جريحهم و اتباع مدبرهم و قتل أسيرهم . فعلق عليه صاحب الجواهر بقوله بلا خلاف أجده في شيء من ذلك . (3)وهذا الحكم يستفاد ايضا من الآية الكريمة ، لأن ذا الفئة من البغاة لا يزال في حالة الحرب إذا لم ينفصل عنهم أوليست فئته تحارب المسلمين وهو لم يتبرأ منهم .. فلم يتحقق بالنسبة اليهم قوله سبحانه : " حتى يفيئوا الى أمر الله. "

و جاء في حديث مأثور أنه أتى علي عليه السلام بأسير يوم صفين فبايعه فقال علـــي (ع) " لا أقتلك إني أخاف الله رب العالمين ، فخلى سبيله و أعطاه سلبه الذي جاء بـه " . (٤)(١) القرطبي / ج ١٦ - ص ٣٢٠

(2)المصدر / ص ٣٢٩

(3)المصدر / ص ٣٢٨

(4)وسائل الشيعة / ج ١١ - ص ٥٤

و من هنا يظهر ان الأسير يستتاب فان تبرأ من قومه أطلق سراحه و الله العالم.

[10]كما النهر يطهر بعضه بعضا ، كذلك المؤمنون لا يفتأون يصلحون ما فسد من علاقاتهم ببعضهم حتى يصبحوا إخوانا.

]إنما المؤمنون إخوة[

و جاءت الكلمة بصيغة الحصر لتذكرنا بأن الايمان الذي لا يرفع المنتمين اليه الى حالة الاخوة إيمان ضعيف ناقص ، فهاهنا تقاس التقوى ، و تمحص النفوس للايمان ، و يستبين الصادقون عن المنافقين.

عشرات الأنظمة الاجتماعية ، و مئات الوصايا الأخلاقية توالت في الدين ليبلغ المسلمون حالة الاخوة الايمانية ، و متى ما خالفنا بعضها انماث الايمان في القلوب كما تنماث حبة الملح في كف المحيط .. و جاءت الروايات تترى وهي توصينا بحقوق إخوتنا في الايمان ، تعالوا نستمع الى بعضها لعلنا نخلق ذلك المجتمع الأمثل الذي يتحدى أعاصير الفتنة و الصراع.

روي عــن الإمـام علـي عليه السلام أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليـه وآله : " للمسلم على أخيه ثلاثون حقا لا براءة له منها إلا بالاداء أو العفو يغفر زلته ، و يرحم عبرته ، و يستر عورته ، و يقيل عثرته ، و يقبل معذرته ، و يرد غيبته ، و يديم نصيحته ، و يحفظ خلته ، و يرعى ذمته ، و يعود مرضته ، و يشهد ميته ، و يجيب دعوته ، و يقبل هديته ، و يكافئ صلته ، و يشكر نعمته ، و يحسن نصرته ، و يحفظ حليلته ، و يقضي حاجته ، و يشفع مسألته ، و يسمت عطسته ، و يرشد ضالته ، و يرد سلامه ، و يطيب كلامه ، و يبر انعامه ، و يصدق أقسامه ، و يوالي وليه ، ولا يعاديه ، و ينصره ظالما و مظلوما : فأما نصرته ظالما فيرده عن ظلمه ، و أما نصرتهمظلوما فيعينه على أخذ حقه ، ولا يسلمه ولا يخذله ، و يحب له من الخير ما يحب لنفسه و يكره له من الشر ما يكره لنفسه . ثم قال عليه السلام : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : إن أحدكم ليدع من حقوق أخيه شيئا فيطالبه به يوم القيامة فيقضى له و عليه " . (١(

روى عن الامام الصادق عليه السلام : " المسلم أخو المسلم لا يظلمه و لا يغشه و لا يغتابه ولا يخوفه و لا يحرمه " . (٢) وعنه عليه السلام : " المؤمن أخو المؤمن عينه و دليله لا يخونه ولا يظلمه ولا يغشه ولا يعده عدة فيخلفه " . (٣(

و عنه عليه السلام : " تقربوا الى الله تعالى بمواساة إخوانكم " . (٤)و روي عن الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال : " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره . التقوى هاهنا (و أشار الى صدره ثلاث مرات) حسب امرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه و ماله و عرضه " . (٥)و روي عنه ايضا : " لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا و كونوا عباد الله إخوانا " . (٦)و التحسس : الاستماع الى صيت القدم ، و التناجش ان تزيد في سلعة ولا رغبة لك في شرائها.

(1)بحار الانوار / ج ٧٤ - ص ٢٣٦

(2)نور الثقلين / ج ٥ - ص 87

(3)المصدر / ص ٨٦

(4)بحار الانوار / ج ٧٤ - ص ٣٩١

(5)تفسير القرطبي / ج ١٦ -ص ٣٢٣

(6)المصدر

و جاء عن الامام الصادق عليه السلام وهو يبين مدى عمق الصلة بين المؤمنين:

"إنما المؤمنون إخوة بنو أب و أم ، و إذا ضرب على رجل منهم عرق سهر له الآخرون " . (١)إنها علاقة روحية تتجاوز حدود المادة ، و تتصل بالغيب ، و جاء في حديث آخر عن الامام الباقر عليه السلام : سأله جابر الجعفي و قال : تقبضت بين يدي أبي جعفر فقلت جعلت فداك : ربما حزنت من غير مصيبة تصيبني أو أمر ينزل بي حتى يعرف ذلك أهلي في وجهي و صديقيفقال : نعم يا جابر إن الله عز وجل خلق المؤمنين من طينة الجنان و أجرى فيهم من ريح روحه فلذلك المؤمن أخو المؤمن لأبيه و أمه ، فاذا أصاب روح من تلك الارواح في بلد من البلدان حزن حزنت هذه لأنها منه " . (٢)و يبقى سؤال : لما اختار الاسلام كلمة الاخوة لبيان مدى العلاقة بين ابنائه ؟ ثم لماذا نسب هذه الحالة الى الايمان ؟

أولا : حينما اختار المبدأ الغربي كلمة (المواطن (لبيان العلاقة بين أبنائه إنطلق من فكرة تقديس الأرض و ربط الناس بها و بالمصالح المشتركة التي تشد مجموعة من البشر ببعضهم ، و حينما انتخب المبدأ الشرقي كلمة (الرفيق) فقد اعتمد على دور المسيرة النضالية في علاقاته الاجتماعية . أما الاسلام فقد اجتبى لنا كلمة الاخ لنعلم ان صلتنا ببعضنا ليست مادية قائمة على أساس تقدير الأرض و المصالح ، كما أنها لا تخص حالة النضال و رفاقة المسيرة ، و إنما هي مبدئية ناشئة من صلة كل واحد منا بدينه ، حتى ليصبح الدين كالأب الذي هو أصل وجود

(1)المصدر / ص ٢٦٤

(2)المصدر / ص ٢٦٦

الابن ، وكلما قويت و اشتدت صلتنا بالأصل كلما قويت و تنامت صلتنا ببعضنا.

ومن هنا جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السلام : " المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد ، إذا إشتكى شيئا منه وجد ألم ذلك في سائر جسده ، و أرواحهما من روح واحدة ، و إن روح المؤمن لاشد اتصالا بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها " . (١(

و إنما نسب الوحي الاخوة الى الايمان)وليس الاسلام) لأن الاسلام مجرد التسليم للدين بينما الايمان وقر في القلب يفيض على كل جوانب حياة الانسان ، و الذي يرفع الناس الى مستوى الاخوة ليس مجرد التصديق المبدئي بالدين وإنما تطبيق تلك التعاليم القيمة التيتسقط الحواجز المادية و المصلحية التي تفصلهم عن بعضهم.

]فأصلحوا بين أخويكم[

ما دمنا إخوة ، فلابد من ردم الفجوات التي تفصل بيننا ، و هدم الحواجز و سد الثغرات . أرأيت البنيان المرصوص ، وهكذا يكون بناء التجمع الايماني . أرأيت لو أمتلئ بالثغرات و الثقوب هل يكون البنيان مرصوصا ، وهل يصلح للبقاء طويلا ؟

إن التعامل اليومي بين المؤمنين يستدعي إشاعة حالة السلام و الصفاء و المودة بينهم ، وإلا فإن التعامل ليس فقط يصبح صعبا ، بل يكون متلفا للأعصاب و يسبب تراكم السلبيات . ولولا عملية الاصلاح اليومية التي يقوم بها المؤمنون تجاه إخوتهم فيما يشجر بينهم فإنتراكم السلبيات يمهد السبيل للصراعات الكبيرة التي قد تؤدي الى حالة الاقتتال ، لأن كل واحد يستقطب طائفة من المؤمنين حوله(١) بحار الانوار / ج ٧٤ - ص ٢٦٨

و ينشب الصراع بين طائفتين بينما كان في البدء بين فردين اثنين.

إن الاسلام قد سن تشريعات كثيرة في تنظيم العلاقة بين المؤمنين ، ولكن إذا لم نعرف الهدف الأسمى لها ولم نطبقها بحيث نبلغ ذلك الهدف المتمثل في تكريس حالة الاخوة بين المؤمنين فاننا لا ننتفع كثيرا بها ، بل علينا فوق ذلك أن نضيف الى التشريعات الدينية ممارسات خلقية وحتى لوائح قانونية لتحقيق الاصلاح .. كما ان الدين مثلا سن أحكاما كثيرة لرعاية الصحة الجسدية ، فعلينا : أولا : أن نطبقها بحيث نبلغ هذا الهدف ، و ثانيا : أن نشرع قوانين جديدة للوصول الى ذلك الهدف ، إذا احتاجت الصحة إليها ، مثل بناء المصحات أو تطهير الشوارع أو إيجاد مراكز الحجز الصحي وما أشبه.

إن تعاليم الدين التي تخص المقاصد العامة كالصحة و الاصلاح و العدالة و العزة و الكرامة وما أشبه ينبغي أن نطبقها و نعطيها الأولوية بالقياس الى أحكام الدين التي تهتم بسبل تحقيق هذه المقاصد ، و لا يجوز أن نهمل هذه الأوامر و كأنها تعاليم أخلاقية عامة لاتفرض حكما.

ولعل خاتمة الآية تشير الى مدى وجوب هذا الأمر الكلي حيث يقول ربنا:

]و اتقوا الله لعلكم ترحمون [

بلى . إن رحمة الله و صلواته و بركاته تتنزل على الذين يتواصلون و يتبارون ، لأنهم يطيعون الله في أداء حقوق إخوانهم.

فقد جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله : " من زار أخاه في بيته قال الله عز وجل له : أنت ضيفي و زائري علي قراك وقد أوجبت لك الجنة بحبك إياه " . (١)(١) بحار الانوار / ج ٧٤ - ص ٣٤٥

و جاء في الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وآله : " من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله بها عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما يستره الله يوم القيامة " . (١)فضيلة الاصلاح بين الناس:

ولقد أمرت الآية بالاصلاح بين الاخوة المؤمنين ، و قررت النصوص للمصلحين أجرا عظيما.

ففي وصيته عند وفاته لنجليه الحسن و الحسين عليهما السلام قال أمير المؤمنين عليه السلام : "

أوصيكما و جميع ولدي و أهلي ومن بلغه كتابي بتقوى الله و نظم أمركم ، و صلاح ذات بينكم فأني سمعت جدكما رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة و الصيام " . (٢)

و جاء في حديث مأثور عن الامام الصادق أنه قال : " صدقة يحبها الله إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا و تقارب بينهم إذا تباعدوا " . (٣)و قال عليه السلام : " لان أصلح بين اثنين أحب ألي من أن أتصدق بدينارين " . (٤)و بالرغم من إن الكذب ذنب عظيم إلا ان الدين اعتبر الكذب في الاصلاح صدق عند الله.

(1)نور الثقلين / ج ٥ - ص 88

(2)بحار الانوار / ج ٧٥ - ص ٢٤

(3)نور الثقلين / ج ٥ - ص 88

(4)المصدر

و جاء في الحديث المروي عن الامام الصادق عليه السلام : " المصلح ليس بكاذب " . (١)(١) المصدر / ص ٨٩

13 + 408

ولا يغتب بعضكم بعضا

هدى من الآيات

لكي يبني الاسلام لنا صرحا إجتماعيا متينا يوصينا بأن نكن الاحترام الكافي لاخوتنا ، فلا يحتقر قوم قوما آخرين ، ولا نساء نساء أخريات ، لأن المقياس الحق عند الله ، ولعل أولئك الذين نسخر منهم هم خير منا عند الله و أفضل) ولكنا نجهل نقاط قوتهم ، و نتعالى عليهم فلا نرى إلا نقاط ضعفهم. (

و ينهانا القرآن عن أن نعيب بعضنا لمزا (بالقول و مواجهة) أو أن نتبادل الألقاب السيئة (مما يزيل حجاب الحياء و ينشر الحالة السلبية) ، فبئس الإسم إسم الفسوق بعد أن اجتبانا الله للايمان ، و اختار لنا به أحسن الأسماء . (بلى . إن صبغة المجتمع الاسلامي هي صبغة الله التي تشع حسنا ، فلماذا نصبغ مجتمعنا بأسوء الصفات عبر التنابز بالالقاب البذيئة) ؟

ثم يوصينا السياق باجتناب الظنون (إلا الظن الذي يدعمه الدليل القاطع) ،لأن بعض الظن إثم (وهو الذي يحوله صاحبه الى موقف عملي) ، و ينهانا عن التجسس (الذي هو التحقق من الظن السيء) ، وعن الغيبة التي يعتبرها كأكل لحم الأخ ميتا ، أولسنا نكره ذلك ، و يأمرنا في الخاتمة بالتقوى (حتى لا تصبح الغيبة بتكرارها أمرا مألوفا و غيرمستقبح) و يؤملنا رحمته و توبته) حتى لا نيأس من تطهير أنفسنا و مجتمعنا من هذه الرذائل. (

بينات من الآيات

[11]بداية فساد العلاقة بين الانسان و نظيره تضاؤل قيمة الانسان كأنسان في عينه ، و آنئذ لا يحترم الناس بعضهم ، و يبحث كل عن منقصة في صاحبه يسخره بها ، و يدعي لنفسه مكرمة يفتخر بها ، بينما لو أنصفنا أنفسنا لعرفنا ان سر احترامنا لأنفسنا هو اننا بشر نملك العقل و الارادة ، و نتحسس بالألم و اللذة ، و نتحلى بالحب و العواطف الخيرة ، أفلا توجد كل هذه في أبناء آدم جميعا ، فلماذا أطالب باحترام الناس لي ، ولا أجد لاحد حرمة ؟

تعالوا ننظر لحظة ببصائرنا ، حين أسخر من إنسان نظير لي في مجمل صفاته ، أفلا يعني ذلك أني أسخر من نفسي أيضا ؟

بلى .الذين يكفرون بقيمة الارادة و العقل و الحب و العواطف في أنفسهم هم الذين يكفرون بها في غيرهم ثم يسخرون منهم . إنهم ينسلخون من إنسانيتهم ثم يسمحون لأنفسهم بانتهاك حرمات غيرهم .

من هنا يشرع السياق في اجتثاث جذور الشقاق الاجتماعي بالنهي عن السخرية بالآخرين قائلا:

]يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم[

و يخاطب المؤمنين لأن هذه الصفة لا تتناسب و إيمانهم بالله ، أوليس الايمان بالله يعني حذف القيم الأرض
طريق النهاية . كيف ؟

إن من أعظم مفاخر البشر و مزاياه صفة الحياء ، حيث يتحسس الانسان بفطرته النقية ان للآخرين حرمة لابد أن يؤديها اليهم ، ومن ملك الحياء لا يفكر في تجاوز الآخرين ، فكيف يفكر في اغتصاب حقوقهم و الاعتداء عليهم ؟

وهكذا يسعى الشيطان لازالة صفة الحياء ، و حث الانسان الى الاستهانة بالآخرين ، و تصغير قدرهم ، و التصوير بأنهم أقل منه فيحق له إذا تجاوز حقوقهم بل و الاعتداء عليهم . وهنا يقف القرآن له بالمرصاد فيأمر بالتمسك بالحياء و الابقاء على صفة احترام الآخرينحتى يقضي على التفكير في الجريمة.

أرأيت كيف يسمح المستكبرون لأنفسهم بارتكاب المذابح الجماعية بحق المستضعفين و منعهم من حقوقهم من أدنى درجات الحياة ؟ هل فكرت يوما كيف انسلخ أولئك البشر عن إنسانيتهم و اندفعوا في مثل هذه الجرائم ؟ إنهم في البدء سخروا منهم وقالوا نحن أبناء الله ، نحنالشعب المختار ، نحن ذوي البشرة البيضاء إختارنا الله لحكم هؤلاء الذين لم يؤتوا من الذكاء و العقل نصيبا مذكورا . وهكذا كونت الثقافة العنصرية أرضية الجريمة بحق الشعوب.

ولعل التعبير القرآني هنا يعكس طبيعة الاستهزاء عند الرجال ، حيث أنهم يفتخرون عادة بتجمعهم و يسخرون من سائر الناس ، فترى أهل هذا الحي يقولون من مثلنا ؟ أو أهل هذا النادي أو ذلك الحزب أو هذا المصر أو ذلك الاقليم إنهم يفتخرون بما لديهم و يفرحون بما أوتوا من نصيب الدنيا فيسخرون ممن لا يملك ذلك

حتى ولو ملك ما هو أفضل منه.

أما النساء فتجري مفاخرتهن في أمور شخصية كالجمال و الزينة أو النسب أو السبب ، و أساس الاستهزاء بالآخرين عجب كل قوم بما يملكون من ميزات ، و فرحهم بها ، ثم تعاليهم على من سواهم بذلك ، و لعل ميزات الآخرين أعظم و أنفع للناس و أبقى عند الله ، لذلك ذكرنا الرب سبحانه بالالتفات الى هذه الحقيقة ، و قال:

]عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن]وفي حديث مأثور عن رسول الله (ص) نقرأ أن من علامات عقل المرء تركه التعالي على الناس ، هكذا روي عن أبي جعفر (عليهما السلام) : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : " لم يعبد الله عز وجل بشيء أفضل من العقل ، ولا يكون المؤمن عاقلا حتى تجتمعفيه عشر خصال .. و العاشرة لا يرى أحدا إلا قال : هو خير مني و أتقى ، إنما الناس رجلان : فرجل خير منه و أتقى ، و آخر هو شر منه و أدنى ، فاذا رأى من هو خير منه و أتقى تواضع له ليلحق به ، وإذا لقي الذي هو شر منه و أدنى قال : عسى خير هذا باطن ، و شره ظاهر، و عسى أن يختم له بخير . فاذا فعل ذلك فقد علا مجده ، و ساد أهل زمانه " . (١)وفي رواية أخرى قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم " : إن الله عز وجل كتم ثلاثة في ثلاثة ، كتم رضاه في طاعته ، و كتم سخطه في معصيته ، و كتم وليه في خلقه ، فلا يستخفن أحدكم شيئا من الطاعات فانه لا يدري في أيها رضا الله ، ولا يستقلن أحدكم شيئا من المعاصي فانه لا يدري في أيها سخط الله ،

ولا يزرأن(١) بحار الانوار / ج ١ - ص ١٠٨

أحدكم بأحد من خلق الله فانه لا يدري أيهم ولي الله " (١)و جـاء في سبب نزول الآية الكريمة ان ثابت بن قيس بن شماس كان في أذنه وقر ، وكان إذا دخل المسجد تفسحوا له حتى يقعد عند النبي (ص) فيسمع ما يقول ، فدخل المسجد يومـا و الناس قد فرغوا من الصلاة ، و أخذوا مكانهم ، فجعل يتخطى رقاب الناس ، و يقول : تفسحوا ، تفسحوا ، حتى انتهى الى رجل فقال له : أصبت مجلسا فاجلس ، فجلس خلفه مغضبا ، فلمـا انجلـت الظلمة ، قال : من هذا ؟ قال الرجل : أنا فلان ، فقال ثابت : ابن فلانة ! - ذكر أما له كان يعير بها في الجاهلية - فنكس الرجل رأسه حياء فنزلت الآية (٢. (

وعن ابن عباس في قوله : " ولا نساء من نساء " نزل في نساء النبي (صلى الله عليه وآله) سخرن من أم سلمة . وعن أنس : و ذلك أنها ربطت حقويها بسبيبة - وهي ثوب أبيض - و سدلت طرفها خلفها ، فكانت تجره ، فقالت عائشة لحفصة : أنظري ماذا تجر خلفها كأنه كلب ، وقيل أنها - عائشة - عيرتها بالقصر ، و أشارت أنها قصيرة ، وهذا ما روي عن الحسن بن علي عليهما السلام (٣. (

وفي تفسير علي بن إبراهيم أن الآية نزلت في صفية بنت حيي بن أخطب - وكانت زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - وذلك أن عائشة و حفصة كانتا تؤذيانها ، و تشتمانها ، و تقولان لها : يا بنت اليهودية ، فشكت ذلك الى رسول الله)ص) ؟ قال : قولي : أبي هارونبي الله ، و عمي موسى كليم الله ، و زوجي محمد رسول الله (ص) فما تنكران مني ؟! فقالت لهما ، فقالتا : هذا علمك رسول الله (ص) فأنزل الله الآية (٤. (

(1)المصدر / ج ٧٥ - ص ١٤٧

(2)مجمع البيان / ج ٩ - ص 135

(3)المصدر

(4)تفسير القمي / ج ٢ - ص 322

]ولا تلمزوا أنفسكم[

اللمز هو العيب . وقال الطبري : " اللمز باليد و اللسان و الاشارة ، و الهمز لا يكون إلا باللسان . (1) "

وحين يعيب الواحد منا أخاه ينشر النفس السلبي في المجتمع ، و يسقط حرمته ، ممـا يسبب فـي لمـز نفسـه أيضا ، و لعله لذلك قال ربنا هنا " أنفسكم " كما قال سبحانه : " ولا تقتلوا أنفسكم " (٢) أي لا يقتل بعضكم بعضا أو قال "فسلموا على أنفسكم " (٣) أي سلموا على بعضكم . إن الاخلال بالآداب الاجتماعية أسرع شيء تأثيرا على صاحبه ، لأن الحالة الاجتماعية ستعمه سريعا ، ثم ان الذي تلمزه لا يترك العيب عليك ، فتسقط هيبة الجميع ، و يرفع حجاب الحياء و تتسع الكلمات البذيئة و ينتشر الجو السلبي . ثم ان اللمز - كما السخرية بالآخرين - خطوة في طريق إفساد العلاقات الاجتماعية ، و جرثومة الصراعات الخطيرة ، لابد أن نقف دونها بحزم حتى لا تتطور.

]ولا تنابزوا بالألقاب[

أن يلقب بعضنا بعضا بالألقاب البغيضة . وفي الروايات : أنه يستحب أن ينادي الأخ أخاه بأحب الاسماء اليه.

و إننا قد نسيء الى إخوتنا من غير قصد كأن نلقبه باسم أمام الآخرين ، بأسم لا يرضاه ، وقد نقوله له بحسن نية غير جد ، فيأخذه الآخرين مأخذ الجد و يعيروه به حتى ينطبع عليه ، و يسيء الى شخصه و

شخصيته . و تختلف تلك الألقاب باختلاف(١) القرطبي / ج ١٦ - ص ٣٢٧

(2)النساء / ٢٩

(3)النور / ٦١

المجتمعات ، و عموما فإن كل لقب لا يرضى به صاحبه يجب أن نمتنع عن تلقيبه به.

"ولا تنابزوا بالألقاب . "

أي لا تتبادلوا بينكم الالقاب السيئة التي تؤثر على سمعة المجتمع الاسلامي ، إنما ينبغي أن نختار أفضل الالقاب ، و أحب الأسماء فنطلقها على إخوتنا.

إن طهارة اللسان و نظافة الأجواء الاجتماعية تطبع حياتنا بأحسن الصور . أرأيت لو قدمت مدينة قذرة لا يأبه أهلها بنظافة أبدانهم ، أفلا تتمنى لو تخرج منها سريعا ؟ كذلك المجتمع حين يعبق طيب الكلمات الحسنة في أرجائه يستريح الانسان إليه ، أما إذا انتشر فيهريحة نتنة نهرب منها.

وقد نزلت هذه الآية - حسب المفسرين - في أن الرجل كان يعير بأصله بعد إسلامه فيقال له : يا يهودي ، يا نصراني .. وقال البعض : إن الرجل كان له الاسمان و الثلاثة فيدعى ببعضها فعسى يكره فنزلت الآية . (١)[بئس الإسم الفسوق بعد الايمان[

فالأسماء التي كانت للجاهلية لا تصلح للمسلمين الذين رفع الله شأنهم بالايمان - و لذلك روي عن النبي صلى الله عليه وآله : " من حق المؤمن على المؤمن أن يسميه بأحب أسمائه اليه " (٢. (

]ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون[

(1)القرطبي / ج ١٦ - ص 328

(2)القرطبي / ج ١٦ - ص 230

إن الحقوق الاجتماعية ليست بأقل حرمة من الحقوق المالية ، ومن يعتدي على عرض إخوانه كمن يعتدي على نفسه أو ماله ، أولا نقرأ الحديث الشريف المأثور عن النبي صلى اللـه عليه و آله : " إن الله حرم من المسلم دمه و ماله و عرضه وان يظن به السـوء "(١. (

و هذه الآية تنهى أيضا عن التعبير الذي هو من التنابز بالألقاب حسب ما يدل على ذلك سبب نزولها ، و قد وردت نصوص عديدة في النهي عن ذلك منذرة فاعل ذلك بالافتضـاح.

فقد روى الامـام الصـادق عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال " : من أذاع فاحشة كان كمبتديها ، و من عير مؤمنا بشيء لا يموت حتى يركبه. (2) "

و روي عن الامام الباقر عليه السلام : " إن أقرب ما يكون العبد الى الكفر أن يؤاخي الرجل على الدين فيحصي عليه عثراته و زلاته ليعنفه بها يوما ما " (٣. (

و جاء في حديث مأثور عن الامام الصادق عليه السلام : " إن لله تبارك و تعالى على عبده المؤمن أربعين جنة فمن أذنب ذنبا كبيرا رفع عنه جنة ، فاذا عاب أخاه المؤمن بشيء يعلمه منه إنكشفت تلك الجنن عنه ، و يبقى مهتك الستر فيفتضح في السماء على ألسنة الملائكة وفي الأرض على ألسنة الناس ، ولا يرتكب ذنبا إلا ذكروه ، و يقول الملائكة الموكلون به يا ربنا ! قد بقي عبدك مهتك الستر ، وقد

أمرتنا بحفظه ، فيقول عز وجل : ملائكتي ! لو أردت بهذا العبد خيرا ما فضحته ،(١ (تفسير نمونه نقلا عن المحجة البيضاء / ج ٥ - ص ٢٦٨(٢) بحار الانوار / ج ٧٥ -ص ٢١٥

(3)المصدر

فارفعوا أجنحتكم عنه فوعزتي لا يؤول بعدها الى خير أبدا " (١. (

[12]نهت الآية السابقة عما يفسد العلاقة بصورة علنية ، وفي حضور الطرف الآخر ، و بتعبير آخر : كانت الآية تطهر المحضر بينما تنهى هذه الآية عما يفسد العلاقة من وراء الشخص و تطهر المغيب .. و تبدأ بسوء الظن الذي تثيره وساوس الشيطان ، و يتنامى عادة بين المؤمنين في غيبة بعضهم عن البعض.

]يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم]الظن هو التصور الذي ينقصه الدليل ، وإن كثيرا من هذا الظن باطل و بعضه يصبح إثما .كيف ذلك ؟

إن قلب الانسان يتعرض لأمواج مختلفة من الهواجس و التصورات ، وأن بعضها فقط هي الحق وهي التي تبعث من مصادر المعارف الخارجية ، بينما البقية هي قياسات باطلة و تمنيات و وساوس و إفرازات العقل الباطن و ترشحات الاحباطات و .. و .. و إذا راجعت نفسك يوما و حاولت إحصاء و تقييم كل تصوراتك تقييما سليما ، فيومئذ تصل الى هذه النتيجة ان أكثرها لا تعتمد على أدلة مقنعة ، ولكن أنى للانسان أن يقيم كل ما يتعرض له ذهنه كل يوم من أمواج التصورات المتلاحقة . فماذا علينا أن نفعل ؟

علينا ألا نأبه بأي تصور يحيكه ذهننا ، بل نعتمد على الحواس و المصادر الموثوقة للمعرفة.

لذلك فان علينا أن نجتنب كثيرا من الظن ، أما القليل الذي نسعى وراءه فهو(١) المصدر / ص ٢١٦

الذي تفرزه الحواس ، و يصدقه العقل ، و يصمد أمام النقد الدقيق . أما الظن الآثم فهو الذي تفرزه حالات الحقد و الغضب و الصراع .. ولكن المشكلة ان هذه المجموعة الصغيرة متناثرة بين سائر الظن الكثير ، مما يجعلنا لا نطمأن اليه جميعا ، كما لو كان بعض الناس في بلد حاملا لفيروس الايدز و لكننا لا نعرفهم بأعيانهم فعلينا أن نجتنب كل أهل هذا البلد حتى يتميزوا عن بعضهم.

من هنا نجد الامام علي عليه السلام يكرر في وصاياه هذه الكلمة ، بعد أن يسأل عن المسافة بين الحق و الباطل يقول : " أربع أصابع " و يضع يده على أذنه و عينه فيقول : " ما رأته عيناك فهو الحق وما سمعته أذناك فأكثره باطل " (١. (

ولأن كثيرا من الظنون تطال المؤمنين بسبب أعمالهم التي قد يكون لهم عذر وجيه في القيام بها ، فقد أمرنا الدين بأن نحمل أفعال إخواننا على أفضل محمل . قال أمير المؤمنين عليه السلام : " ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك (أي تعلم يقينا غير ذلك) ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوء و أنت تجد لها في الخير محملا " (٢. (

وعن النبي صلى الله عليه وآله : " أطلب لأخيك عذرا فان لم تجد له عذرا فالتمس له عذرا " (٣. (

و بعض المؤمنين يزعمون أن من علامة إيمانهم سوء الظن بالناس و ملاحقتهم بتهمة الفسق و كأن الايمان حكر عليهم ، كلا .. إن ذلك علامة ضيق نظرهم ، و شدة عجبهم المفسد لقلوبهم . أما علامة الايمان الحق فهي سعة الصدر و سماحة(١) بحار الانوار / ج ٧٥ - ص ١٩٦

(2)المصدر

(3)المصدر / ص ١٩٧

القلب ، و صفاء النفس تجاه الآخرين.

قال الامام الصادق عليه السلام : " حسن الظن أصله من حسن إيمان المرء و سلامة صدره ، و علامته أن يرى كل ما نظر اليه بين الطهارة و الفضل ، من حيث ما ركب فيه و قذف من الحياء و الأمانة و الصيانة و الصدق. "

فهذه هي عناصر الايمان حقا ، فالمؤمن حيي أمين يصون سر الناس و يتعامل معهم بالصدق ، و أضاف عليه السلام قائلا :

قال النبي : " أحسنوا ظنونكم بأخوانكم تغتنموا بها صفاء القلب ، و نقاء الطبع "وقال أبي بن كعب : إذا رأيتم أحد إخوانكم في خصلة تستنكرونها منه فتأولوا لها سبعين تأويلا ، فاذا اطمأنت قلوبكم على أمرها ، وإلا فلوموا أنفسكم حيث لم تعذروه في خصلة سترها عليه سبعون تأويلا و أنتم أولى بالانكار على أنفسكم منه " (١. (

بلى . يصدق هذا فقط عند صلاح الزمان أو بين التجمع الصالح الذي تتسم علاقاتهم بالأخوة الايمانية . أما إذا فسد الزمان أو أردنا الحكم على تجمع فاسد أو مجتمع منحل فلا يجوز حسن الظن ، لانه نوع من الغباء و المؤمن كيس فطن.

هكذا قال الامام الصادق عليه السلام : " إذا كان زمان العدل فيه أغلب من الجور فحرام أن تظن بأحد سوء حتى يعلم ذلك منه ، وإذا كان زمان الجور فيه أغلب من العدل فليس لأحد أن يظن بأحد خيرا حتى يبدو ذلك منه " (٢. (

و كلمة أخيرة : إن تجنب الظن السيء منهج علمي رصين ، لأن وساوس(١) المصدر / ص ١٩٦

(2)المصدر / ص ١٩٧

الشيطان و هواجس الأفكار تتداخل عادة مع بصائر العقل و مكاسب التجربة ، فلابد من فرزها بتجنب سوء الظن و عدم الاعتناء به . أما إذا استرسلنا مع كل هاجسة في النفس فاننا نفقد المقياس السليم للتفكير ، كما أنها قد تقودنا الى الفتن العمياء ، فقد جاء في الدعاء:
"فان الشكوك و الظنون لواقح الفتن و مكدرة لصفو المنائح و المنن " (١. (

ومن هنا أوجب الاسلام ترك الاسترسال وراء الظنون ، و نهى عن التحقق منها و التجسس على الناس و تتبع عيوبهم وقال ربنا:

]ولا تجسسوا[

وهو البحث عن عورات الناس بمتابعتهم و كشف أستارهم . و روي عن أبي بردة أن النبي صلى الله عليه وآله صلى بنا ثم انصرف مسرعا حتى وضع يده على باب المسجد ثم نادى بأعلى صوته : " يا معشر من آمن بلسانه و لم يخلص الايمان الى قلبه : لا تتبعوا عورات المؤمنين فإنه من تتبع عورات المؤمنين تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته فضحه ، ولو في جوف بيته " (٢. (

و روي عـــن الامام الصادق أنه قال : " إذا رأيتم العبد متفقدا لذنوب الناس ناسيا لذنوبه ، فاعلموا أنه قد مكر به " (٣. (

و هكذا يريد الدين لنا حياة آمنة لا تطالها أعين الفضول ، ولا تهتك حرمتها متابعات الطفيليين .. يتحسس كل فرد فيها ببرد الامنة و سكينة الثقة.

(1)من مناجاة السجاد (ع (مناجاة المطيعين - مفاتيح الجنان ص ١٢٢(٢) بحار الانوار / ج ٧٥ - ص ٢١٥

(3)المصدر

وكما تحرم الآية التجسس الفردي تحرم تجسس الدولة على رعاياها ، إلا إذا اقتضت مصلحة الأمة ، فلابد أن يخضع ذلك للقضاء القائم على أساس أحكام الشريعة.

وقد فهم المسلمون السابقون هذه الشمولية من الآية الكريمة حسب ما نجده في القصة التاريخية التي حدثت في عهد الخليفة الثاني الذي خرج و عبد الرحمن يعسان إذ تبينت لهما دار فاستأذنا ففتح الباب ، فاذا رجل و امرأة تغني وعلى يد الرجل قدح ، فقال عمر : و أنت بهذا يا فلان ؟! فقال : و انت بهذا يا أمير المؤمنين ؟! فقال عمر : فمن هذه منك ؟ قال : إمرأتي ، قال : فما هذا القدح ؟ قال : ماء زلال ، فقال للمرأة وما الذي تغنين ؟ فقالت:

تطاول هذا الليل و اسود جانبه و أرقني الا خليل الاعبهفوالله لولا الله أني أراقبه لزعزع من هذا السرير جوانبهولكن عقلي و الحياء يكفني و أكرم بعلي أن تنال مراكبهثم قال الرجل : ما بهذا أمرنا يا أمير المؤمنين!

قال الله تعالى : ولا تجسسوا ، قال صدقت . (١(

]ولا يغتب بعضكم بعضا[

الغيبة :ذكر معايب الناس عن ظهر الغيب . وقالوا تختلف الغيبة عن الإفك و البهتان ، إن الإفك أن تقول في الناس مالا تعلم أنه فيهم ، بينما البهتان أن تقول فيهم ما تعلم أنهم براء منه . أما الغيبة فان تقول فيهم ما يكرهون مما تعلم أنه(١) القرطبي / ج ١٦ - ص ٣٣٤

فيهم .. وقد تعم كلمة الغيبة لتشمل الإفك و البهتان.

وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام : " من قال في مؤمن ما رأته عيناه و سمعته أذناه فهو من الذين قال الله عز وجل : إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم. "

و سأل مرة عن الغيبة فقال عليه السلام : " الغيبة هو أن تقول لأخيك في دينه مالم يفعل ، و تبث عليه أمرا قد ستره الله عليه لم يقم عليه فيه حد " . (١)وفي هذا النص نرى كيف تعم كلمة الغيبة لتشمل البهتان و كيف أنها تخص العيوب المستورة ، أما العيب المتجاهر به صاحبه فان ذكره لا يعد غيبة ، و هكذا جاء في رواية مرسلة عن أبي الحسن عليه السلام أنه قال:

"من ذكر رجلا من خلفه بما هو فيه مما عرفه الناس لم يغتبه ، ومن ذكره من خلفه بما هو فيه مما لا يعرفه الناس إغتابه ، و من ذكره بما ليس فيه فقد بهته " (٢)وهكذا لم يجعل الاسلام للفاسق المتجاهر بفسقه حرمة.

و جاء في رواية نبوية " : إذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس " . (٣)[أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه[

هكذا الغيبة . أرأيت أن شخصية الانسان أعظم عنده أم شخصه ؟ أليس المرء يسعى جهده من أجل الكرامة و التقدير ، فإذا اغتابه أحد فقد اغتال شخصيته ، و نال(١) بحار الانوار / ج ٧٥ - ص ٢٤٠

(2)المصدر / ص ٢٤٥

(3)القرطبي / ج ١٦ - ص 339

من كرامته وهي أعز من جسده ، و لانه ليس في محضره فكأنه أكل لحمه بعد موته.

بالله ما أروع هذا التشبيه ؟ وما أنفذه من تحذير في وجدان الانسان الحر . و كيف يقرب كتاب ربنا الحقائق العظيمة الى وعينا ، وبهذه البلاغة النافذة .. و كيف يبصرنا بأن البشر ليس كسائر الأحياء يعيش حياة مادية ضمن حدود بدنه فحسب ، بل إنه يمتد مع سمعته و شهرته أنى توسعت في أفق المكان و الزمان .. و قد يضحي الانسان بجسده في سبيل كرامته ، أو لا يدل ذلك على أن كرامة الانسان أعظم عنده من شخصه ؟ من هنا فان الاعتداء عليها ليس بأقل من الاعتداء على بدنه .. و الغيبة اعتداء سافر على كرامة الشخص فما أشدها حرمة ؟

من هنا جاءت النصوص تترى في التحذير من الغيبة باعتبارها أكلا للحم المغتاب بعد موته.

روي أن ماعزا جاء الى النبي صلى الله عليه وآله فشهد على نفسه بالزنا فرجمه رسول الله صلى الله عليه وآله فسمع نبي الله رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر : أنظر الى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب ، فسكت عنهما ثم سار ساعة حتى مربجيفة حمار شائل برجله فقال : أين فلان و فلان ؟ فقالا : نحن ذا يا رسول الله . قال : إنزلا فكلا من جيفة هذا الحمار ، فقالا : يا نبي الله ومن يأكل من هذا ؟ قال : فما نلتما من عرض أخيكما أشد من الأكل منه و الذي نفسي بيده انه الآن لفي أنهار الجنة ينغمسفيها (١. (

و روي عنه صلى الله عليه وآله أنه قال : " لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم و صدورهم ، فقلت من هؤلاء يا جبرائيل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس و يقعون في أعراضهم (1)(2) . " القرطبي / ج ١٦ - ص ٣٣٥

(2)المصدر / ص ٣٣٦

و عن الامام الصادق عليه السلام أنه قيل له : بلغنا أن رسول الله كان يقول : إن الله يبغض البيت اللحم ؟ قال : " إنما ذاك البيت الذي يؤكل فيه لحوم الناس (1) . " ...و روي عن الامام الصادق عليـــه الســـلام أنه قال : " قال رجل لعلي بن الحسين (الامام زين العابدين عليه السلام) أن فلانا ينسبك الى أنك ضال مبتدع ، فقال له علي بن الحسين عليهما السلام:

"ما رعيت حق مجالسة الرجل حيث نقلت الينا حديثه ، ولا أديت حقي حيث أبلغتني عن أخي ما لست أعلمه ، إن الموت يعمنا ، و البعث محشرنا ، و القيامة موعدنا ، و الله يحكم بيننا ، إياك و الغيبة ، فانها إدام كلاب النار ، و اعلم أن من أكثر من ذكر عيوب الناس شهد عليه الأكثار أنه إنما يطلبها بقدر ما فيه " (2) .المغتاب في ولاية الشيطان

و الغيبة تخرج صاحبها من ولاية الله الى ولاية الشيطان ، فما هي ولاية الشيطان ؟ أظهر ما فيها الفرقة و التشتت و التشرذم التي هي سبب مصائب المسلمين اليوم . و إذا أمعنا النظر فيها لرأينا أكثرها نفسية ، فبسبب النظرة السلبية الى بعضنا تنامت خلافاتنا ،و الغيبة هي المسؤولة عن انتشار النظرة السلبية . فلو كنا نتمسك بتعاليم الاسلام في التعامل مع بعضنا على أساس الثقة وكنا نستر العائبة و نشيع العارفة ، و نبث الروح الايجابية ، لكنا إخوانا متعاونين ، من هنا حذرت النصوص الدينية من الغيبة و جعلتها سببا للخروج من ولاية الله حيث الوحدة و الصفاء ،

(1)بحار الانوار / ج ٧٥ - ص ٢٥٦

(2)فبسبب كثرة ذنوبه يذكر عيوب الناس كثيرا . المصدر / ص ٢٤٦و الدخول في ولاية الشيطان .

سأل أحدهم الامام الصادق عليه السلام : قائلا : يابن رسول الله أخبرني عمن تقبل شهادته ومن لا تقبل ؟ فقال :

"يا علقمة ، كل من كان على فطرة الاسلام جازت شهادته " قال فقلت له : تقبل مقترف للذنوب ؟ فقال :

يا علقمة ، لو لم تقبل شهادة المقترفين للذنوب لما قبلت إلا شهادات الأنبياء و الأوصياء صلوات الله عليهم ، لأنهم هم المعصومون دون سائر الخلق ، فمن لم تره بعينك يرتكب ذنبا أولم يشهد عليه بذلك شاهدان فهو من أهل العدالة و الستر ، و شهادته مقبولة ، وإنكان في نفسه مذنبا ، ومن اغتابه بما فيه فهو خارج عن ولاية الله عز وجل ، داخل في ولاية الشيطان " . (١)إن الاسلام يريد أن يقوم المجتمع على أساس الثقة ، فمن زعزع هذا الأساس و أشاع جو اللاثقة بين أعضائه فقد برئ من ولاية هذا المجتمع المسلم التي هي ولاية الله ، و انتمى الى الأعداء.

ومن هنا يؤكد الاسلام أن المغتاب ينفصل عمن يغتابه ، لأنه تنقطع العصمة بينهما . فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

"من مدح أخاه المؤمن في وجهه ، و اغتابه من ورائه فقد انقطع ما بينهما من العصمة " . (٢)وفي حديث مأثور عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال : " لا يطمعن المغتاب(١) المصدر / ص ٢٤٨

(2)المصدر / ص ٢٤٩

في السلامة " . (١) ولعل السبب في ذلك ان من يتبع عيوب الناس يستثير عدوانهم ، أو لأنه يخلق المجتمع المفكك الذي لا يحلم في السلامة.

وقد جعلت بعض النصوص الدينية الغيبة أشد من الزنا ، ربما لأن اثار الغيبة الخطيرة في تفرقة الناس و النيل من كرامتهم ، و إشاعة الفاحشة أشد من اثار الزنا ، لأن الحكمة المأثورة في حرمة الزنا هي اختلاط المياه و هدم الأسرة مما يسبب في تفكك المجتمع ، وهذهحكمة حرمة الغيبة أيضا ، و لكن يبدو أن الغيبة أفتك بوحدة الامة من أختها الزنية.

وقد أمر الاسلام بأن يستحل المغتاب من صاحبه حتى يغفر الله له ، لأن ذلك - فيما يبدو - يعيد العصمة المقطوعة بينهما و يسبب في إعادة اللحمة الى المجتمع ، بالاضافة الى أن ذلك يكون رادعا للمغتاب أن يعود الى مثل ذلك مرة أخرى.

قال النبي صلى الله عليه وآله : " الغيبة أشد من الزنا " ، فقيل يا رسول الله ولم ذاك ؟ قال " صاحب الزنا يتوب فيتوب الله عليه ، و صاحب الغيبة يتوب فلا يتوب عليه حتى يكون صاحبه الذي يحله " . (٢)و لأن الغيبة تفتح ثغرة في الحصن الاجتماعي فان على الناس أن يأخذوا على يد المغتاب حتى لا يهدم حصنهم ، بأن يدافعوا عن أخيهم الغائب ، فقد جاء في الأثر عن ابن الدرداء عن أبيه أنه قال : نال رجل من عرض أخيه عند النبي ، فرد رجل من القوم عليه فقال النبي)
صلى الله عليه وآله) " من رد عن عرض أخيه كان له حجابا من النار " . (٣)(١) المصدر

(2)المصدر / ص ٢٥٢

(3)المصدر

وفي حديث آخر ، عن النبي صلى الله عليه وآله : " من رد عن عرض أخيه المسلم كتب له الجنة البتة " . (١)و روي عن الامام الباقر عليه السلام أنه قال : " من اغتيب عنده أخوه المؤمن فنصره و أعانه نصره الله في الدنيا و الآخرة ، و من أغتيب عنده أخوه المؤمن فلم ينصره و لم يدفع عنه وهو يقدر على نصرته وعونه خفضه الله في الدنيا و الآخرة " (٢)ولكي نحافظ على حصن ولاية الله المحيطة بنا ، لابد أن نذكر

أخانا المؤمن بأحسن ما فيه حتى تزداد اللحمة الاجتماعية تماسكا ، و القلوب المؤمنة صفاءا و تحابيا.

جاء في الحديث المروي عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال : " إذكروا أخاكم إذا غاب عنكم بأحسن ما تحبون أن تذكروا به إذا غبتم عنه " . (٣)الغيبة : إشاعة الفاحشة

كيف تشيع الفاحشة في الأمة مع أن المغتاب حين يذكر صاحب الذنب يذمه بذنبه و يجعله إمثولة و عبرة لا مثلا صالحا و قدوة ؟

السبب ان للذنوب هيبة في نفوس المؤمنين ، و الجو العام في المجتمع المسلم يرفضها ، فلذلك يضطر الذي قدم عليها الى التكتم ، فإذا انتهكت عصمته أمام الملأ لم يعد يخفيها ، كما أن الآخرين إذا عرفوا وجود من يرتكب الذنب لا يجدون حرجا من الاقتداء بهم ، وهكذا تشيع الفاحشة في الأمة.

(1)المصدر

(2)المصدر / ص ٢٥٥

(3)المصدر / ص ٢٥٣

من هنا يعتبر المذنب الكاتم لذنبه أقل إجراما ممن يتجاهر به ، كما يعتبر الذي يذيع الفاحشة كمن يبتدأ بها . جاء في الحديث عن الامام الصادق عليه السلام ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : " من أذاع فاحشة كان كمبتديها ، ومن عير مؤمنا بشيء لا يموتحتى يركبه " . (١(

و جاء في حديث مأثور عن الامام الكاظم عليه السلام . قال (الراوي) قلت له (الامام) : جعلت فداك ، من إخواني يبلغني الشيء الذي أكره له فأسأله عنه فينكر ذلك ، وقد أخبرني عنه قوم ثقاة ؟ فقال لي : " يا محمد ! كذب سمعك و بصرك عن أخيك ، فان شهدعندك خمسون قسامة و قال لك قولا فصدقه و كذبهم ، ولا تذيعن عليه شيئا تشينه ، و تهدم به مروته ، فتكون من الذين قال الله عز وجل : " إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا و الآخرة " . (٢)هؤلاء لا حرمة لهم

وقد أنهى الاسلام حرمة ثلاث طوائف:

الأولى :أئمة الجور الذين لابد من توعية الناس بظلمهم و سوء إدارتهم حتى يتمكن المسلمون من إزاحتهم أو لا أقل من تجنب خطرهم ، الثانية : أصحاب الضلالة كالأحزاب الكافرة و المنافقة و المبتدعين في الدين ، الثالثة : الفسقة المتجاهرين.

فقد روي عن الامام الباقر عليه السلام أنه قال : " ثلاثة ليست لهم حرمة:

(1)المصدر / ص ٢٥٥

(2)المصدر

صاحب هوى مبتدع ، و الامام الجائر ، و الفاسق المعلن الفسق " . (١)و يبدو أن المظلوم أيضا يجوز له أن يغتاب من ظلمه لقوله سبحانه : " لا يحب الله الجهر بالسوء إلا من ظلم. "

و يقول رسول الله صلى الله عليه وآله " :من عامل الناس فلم يظلمهم ، و حدثهم فلم يكذبهم و وعدهم فلم يخلفهم ، فهو ممن كملت مروته و ظهرت عدالته ، و وجبت أخوته و حرمت غيبته(2) . " هكذا

اشترط الرسول صلى الله عليه وآله توافر هذه الصفات في المؤمن حتى تحرم غيبته.

كلمة جامعة في الغيبة

وفي نهاية المطاف نقرء معا كلمة جامعة في الغيبة منسوبة الى الامام الصادق عليه السلام إنه قال : " الغيبة حرام على كل مسلم ، مأثوم صاحبها في كل حال ، و صفة الغيبة أن تذكر أحدا بما ليس هو عند الله عيب ، و تذم ما يحمده أهل العلم فيه ، وأما الخوض في ذكر غائب بما هو عند الله مذموم و صاحبه فيه ملوم ، فليس بغيبة وان كره صاحبه إذا سمع به ، و كنت أنت معافى عنه خاليا منه ، تكون في ذلك مبينا للحق من الباطل ببيان الله و رسوله صلى الله عليه وآله ، ولكن على شرط أن لا يكون للقائل بذلك مرادا غير بيان الحقو الباطل في دين الله ، وأما إذا أراد به نقص المذكور به بغير ذلك المعنى ، مأخوذ بفساد مراده وإن كان صوابا ، فان اغتبت فابلغ المغتاب فلم يبق إلا أن تستحل منه ، وإن لم يبلغه ولم يلحقه علم(١) المصدر / ص ٢٥٣

(2)المصدر / ص ٢٥٢

ذلك ، فاستغفر الله له.

و الغيبة تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أوحى الله تعالى عز وجل الى موسى بن عمران عليه السلام المغتاب إن تاب فهو آخر من يدخل الجنة ، وإن لم يتب فهو أول من يدخل النار ، قال الله عز وجل : أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه " (الآية)، و وجود الغيبة يقع بذكر عيب في الخلق و الخلق ، و العقل و المعاملة و المذهب و الجيل و أشباهه ، و أصل الغيبة تتنوع بعشرة أنواع : شفاء غيظ و مساعدة قوم ، و تهمة ، و تصديق خبر بلا كشفه ، و سوء ظن ، و حسد ، و سخرية و تعجب ، و تبرم ، و تزين ، فان أردت السلامة فاذكر الخالق لا المخلوق ، فيصير لك مكان الغيبة عبرة و مكان الاثم ثوابا " (١. (

]و اتقوا الله إن الله تواب رحيم[

ولعل هذه الخاتمة التي تفيض مغفرة و رحمة تدل إلى أن الغيبة بلاء يعم الكثير من الناس ولابد ألا تصبح مقبولة ، و يذهب قبحها ، بل نتقي الله فيها ، ومن جهة أخرى لا يجوز أن يستبد اليأس بنا إذا وقعنا فيها بل نتوب الى الله ان الله تواب رحيم.

(1)بحار الانوار / ج ٧٢ - ص ٢٥٧ عن مصباح الشريعة ص ٣٢

بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان

هدى من الآيات

بعد أن يعطينا القرآن بصيرة الوحي في العلاقات بين أبناء آدم الرافضة لكل أشكال التمايز إلا بالتقوى ، يذكرنا بأن الايمان درجة أعلى من الاسلام ، و ان ادعاء الأعراب بلوغها خاطئ ، بيد أن طاعة الله و الرسول لا تذهب سدى ،)حتى وإن لم يبلغ المرء درجة الايمان. (

و يبين الذكر مقياس الايمان الحق في الطهارة من الريب و الجهاد بالمال و النفس في سبيل الله . و يسفه أولئك الذين يدعون الايمان عن كذب أولا يعلمون أن الله محيط علما بكل ما في السموات و الارض فكيف لا يعلم مدى إيمانهم ؟

و تراهم يمنون على الرسول إسلامهم (وقد يكون الاسلام من أجل متاع الدنيا) . أما الايمان فهو منة من الله عليهم وليس العكس .. و تذكرنا خاتمة السورة بعلم الله النافذ في كل شيء.

و لعل هذه الايات تنتظم مع الآيات السابقة في أن هناك فريقا من الناس يحاولون أن يستأكلوا دينهم و يتعالوا على الناس باسم الاسلام و الايمان ، فيجعلوا الدين وسيلة لبلوغ مآرب الدنيا ، وهذا بؤرة تمايز لا يعترف به الاسلام . ولابد من فضح هؤلاء بتعريضهم لامتحان الطاعة و الجهاد.

بينات من الآيات

[13]التوحيد صبغة المجتمع الذي يبشر به الدين ، و توحيد الله سبحانه يتنافى و القيم الشركية التي يهبط اليها البشر عندما يبتعدون عن الوحي الإلهي .. من تقديس الآباء و التراث و التقاليد و التمحور حول القبيلة و العشيرة .. و تقديس الأرض و القوم و الحزب ،الى تأليه الثروة و القوة و اللون و العنصر.

كلا .. الانسان فوق ذلك جميعا إذا تمسك بحبل الله ، و اهتدى بنور الوحي و العقل.

و تلك القيم الزائلة ليست فقط شركية تقلل من قيمة الانسان - بعيدا عن تلك الاعتبارات - و تشوه رؤيته الى حقائق الخلق ، و تحجبه عن معرفة الخالق . بل هي ايضا جاهلية متخلفة ، و ما تقدمت البشرية خطوة إلا بقدر ابتعادها عن تلك القيم بمثلها.

فمن عكف على عبادة صنم الأولين ، و قدس تراثه و تقاليده أنى له أن يساير تطورات الزمن ، و يستوعب تجارب الآخرين ، و ينمو مع الأفكار التقدمية ؟ ومن عبد صنم قبيلته أو عشيرته هل يمكنه أن ينفتح على إيجابيات غيره أو يمد يد التعاون مع من يعتبرهم الأرذلينو يسخر منهم ، مهما كان عندهم من أفكار و طاقات ؟

وهكذا .. كل من حدد نفسه في إطار ضيق لا يمكنه أن ينطلق مع قطار الحضارةأنى مشت مواكبها ، ومن أبرز سيئات مثل هذه التصورات هدم الجسور الطبيعية بين أبناء آدم ، و إشاعة روح التباغض و التناحر بينهم ، مما يجعلهم في مواجهة بعضهم ، و قد يدفعهم نحو الحروب الطاحنة التي لم يتخلص منها البشرية طوال تاريخها المعروف بسبب تمسكهم بهذه القيم الجاهلية.

من أجل ذلك دعت رسالات الله الى رفض هذه القيم التي ما أورثت الانسانية إلا خبالا .. و الاستعاضة عنها بقيمة التقوى .. وقالت الآية الكريمة:

]يا أيها الناس[

و الخطاب لم يخص المؤمنين بالرغم من ان سياق السورة يقتضي ذلك ، لأنه كان ينظم العلاقة بينهم . ربما لأن هذه تنفع البشرية كما تنفع المؤمنين ، وإذا كان الناس جميعا مدعوون إليها فالمؤمنون أولى بالتمسك بها . ثم إن علاقة المؤمنين بغيرهم ينبغي أن تقوم علـى أساس هذه البصيرة ، فلا يجوز أن يعتبر العرب منهم أنهم الأعلى بلغتهم أو عنصرهم ، فتشكل هذه العقيدة الجاهلية حاجزا دون دخول سائر الشعوب في دين الله.

]إنا خلقناكم من ذكر و أنثى [

فالأصل واحد ، وإذا كنا نكرم آباءنا ، فكلما تقدمنا في الزمن فلن نتجاوز أبانا الأكبر ، و جدتنا الكبرى ، آدم و حواء . فأولى بنا أن نجعلهما محورا و نكرم كل من ينتمي إليهما من سائر البشر.

قالوا : و الآية تدل على أن خلقة الانسان ليست بماء الذكر فقط ، وإنما يشترك فيها ماء الانثى كما قال ربنا سبحانه : " خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلبو الترائب " (١) أي صلب الأب و ترائب الأم.

وهذه البصيرة القرآنية تنفي الفكرة الجاهلية التي كانت تزعم ان رحم الأم مجرد وعاء لنمو نطفة الأب ، و صادروا بذلك حق المرأة في انتساب الطفل اليها وقال قائلهم:

بنونا بنـــو آباءنا و بناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعدكلا .. الأم أحد الشريكين في الخلق ، و احترامها يساوي او يفوق احترام الأب في الشريعة.

و هكذا تنفي الآية العنصرية الجنسية التي ابتلى بها الجاهلون العرب قبل الاسلام ، و نادى بالمساواة بين الذكر و الانثى فيما يرتبط بأصل الخلق.

]و جعلناكم شعوبا و قبائل[

قالــوا :الشعب مجموعة القبائل كمضر و عدنان ، بينما القبيلة هي تفرعات الشعب ، و قال بعضهم : الشعب من ينسب الى الأرض ، بينما القبيلة تنسب الى أصلهم . وقال آخرون : الشعب هم قبائل غير العرب .. و أنى كان فان هذا التقسيم الذي يبتدء بوحدة الأسرة ثم يتوسع الى العشيرة ثم الفخد و البطن حتى يصل الى العمارة و القبيلة ثم الشعب ، لم يكن عبثا ، و إنما بهدف التعارف.

]لتعارفوا[

فمنطق الصراع الذي إختلقه داروين مرفوض في الحياة البشرية ، إنما الناس(١) الطارق / ٦ - ٧

إختلفوا ليمارس كل دوره بحرية و لتتنامى تجربة البشرية عبر تنوعها ، ولكي يغني كل فريق تجارب غيرهم بما اكتشفه من تجارب .. و بالتالي ليتعارفوا.

بلى إن ذات الحكمة التي شرعت الأسرة من أجلها قائمة في بناء الوحدات الاجتماعية الأخرى كالعشيرة و القبيلة و الشعب.

وهذه البصيرة تهدينا:

أولا :الى مشروعية هذه التقسيمات الطبيعية و انها - في الأساس - نافعة ، و علينا أن نعيدها الى طهرها ، بعيدا عن كل ألوان العصبية و التعالي لنجني ثمارها الطيبة.

وهذا ما يدعو اليه الاسلام كما جاء في النصوص الدينية من ضرورة صلة الرحم و التواصل مع العشيــرة جاء فـــي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : " لايدخل الجنة قاطع رحم " (١. (

وقال " :لما أسري بي الى السماء رأيت رحما متعلقة بالعرش تشكو رحما الى ربها ، فقلت لها ، كم بينك و بينها من أب ، فقال : نلتقي في أربعين أبا " (٢. (

و جاء في رواية مأثورة عن أمير المؤمنين - عليه السلام - أنه خطب في الناس فحمد الله و أثنى عليه ثم قال : " لا يستغني الرجل وإن كان ذا مال و ولد عن عشيرته ، وعن مداراتهم و كرامتهم و دفاعهم عنه بايديهم و ألسنتهم ، هم أعظم الناس حياطه له من ورائه، و المهم لشعثه ، و أعظمهم عليه حنوا ، إن أصابته مصيبة ، أو نزل به يوما بعض مكاره الأمور ، و من يقبض يده عن عشيرته ، فانما(١) بحار الانوار / ج ٧٤ - ص ٩١

(2)المصدر

يقبض عنهم يدا واحدة ، و تقبض عنه منهم أيد كثيرة ، و من محض عشيرته صدق المودة ، و بسط عليهم يده بالمعروف إذا وجده إبتغاء وجه الله ، أخلف الله له ما أنفق في دنياه ، و ضاعف له الأجر في آخرته " (١. (

ثانيا : أن التعارف بين الناس واحد من أهم مقاصد الشريعة الغراء ، لماذا ؟ لولا معرفة الناس لما اكتملت حكمة الابتلاء في الخلق أوتدري لماذا ؟ لأن الابتلاء لا يتم إلا بالحرية و المسـؤولية فلو اختلط الناس ببعضهم كيف يميز الصالح فيثاب عن المجرم فيعــاقب ؟ أم كيف تتراكم مكاسب المحسنين و تحصن من أن يسرفها الكسالى و المجرمون ؟ كلا . لابد أن يميز الناس عن بعضهم تمييزا كافيا ليأخذ كل ذي حق حقه ، فيشجعه ذلك على المزيد من العطاء ، و يأخذ التنافس دوره في دفع عجلة الحياة قدما الى

الامام.

ثالثا : إن حكمة الاختلاف هو التكامل - بعد التنافس على الخيرات - وليس الصراع و التطاحن ، وقد قال ربنا سبحانه : " و تعاونوا على البر و التقوى " ومن دون التعارف كيف يتم التعاون ، إن على الناس أن يكتشفوا إمكانات بعضهم ليتبادلوا الخيرات ، أماإذا تقوقعت كل طائفة في حدودها الجغرافية أو الاجتماعية ولم يتعارفوا فكيف يمكن التعاون بينهم ؟.

ولعل هذه البصيرة تهدينا الى أهمية التعارف بين الشعوب في عصرنا الراهن ، لأن إمكانات التعاون بينهم لا تزال غير مستغلة حتى بنسبة (١٠%) ولو ضاعفنا المؤسســات العالمية في كافة المجالات عشرات الأضعاف لكانت فرص التعاون لا تزال أوسع.

]إن أكرمكم عند الله أتقاكم [

(1)المصدر / ص ١٠١

حينما تسقط القيم الزائفة ، و العصبيات الجاهلية المتخلفة ينفتح أفق التنافس الشريف على الخيرات التي يلخصها القرآن هنا بكلمة " التقوى " و يفصلها في آية مشابهة قائلا:

"و أنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب و مهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة و منهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في مآ آتاكم فاستبقوا الخيرات الى اللهمرجعكم جميعا فينبؤكم بما كنتم فيه تختلفون " (١. (

و نستلهم من لحن القول في هذه الآية : إن التنافس على العمل الصالح و التسابق في الخيرات هو هدف اختلاف الشعوب ، وإن لكل منهم شرعة و منهاجا ، بل إن هذا الاختلاف و التنوع مطلوب إذا كان وسيلة للتنافس البناء ، و التعارف و التعاون ، كما أن الاختلاف بينالناس في مجتمع واحد هدفه التسارع الى الخيرات ، و التعاون فيها كذلك التفرع بين الشعوب و المجتمعات المتنوعة أليس يقول ربنا سبحانه:

"أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا و رفعنا بعضهــم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا و رحمت ربك خير مما يجمعون . (2) "

و إذا كان الهدف من هذا التنوع التسارع في الخيرات ، فإن أكرم الخلق عند الله من استبق إليها ، فالأقرب الى الصراط المستقيم ، و الأسبق في الصالحات هو الأكرم ، لأنه الذي يحقق الهدف دون غيره ، و الى هذه تشير كلمة التقوى .. أليست(١) المائدة / ٤٨

(2)الزخرف / ٣٢

التقوى هي المعرفة بالله و العلم بشريعته ، و الاجتهاد في تنفيذها ؟

و أصل الكلمة من الوقاية ، أي التحصن ضد أسباب الهلاك و لا تحصل هذه الوقاية من دون معرفة الطريق و الاستقامة عليه ، بعيدا عن أمواج الفتن ، و ضغوط الهوى و رياح الشهوات ، لذلك كانت التقوى ارفع درجة من الايمان ، كما إن الايمان أرفع درجــة من الاسلام ، وقد قال الامام الرضا - عليه السلام " : - الايمان فوق الاسلام بدرجة ، و التقوى فوق الايمان بدرجة ، و اليقين فوق التقوى بدرجة ، و ما قسم في الناس شيء أقل من اليقين " (١. (

وإنما رفع الاسلام قواعد المجتمع الفاضل على أساس التقوى ، لأنه من دونها تمزق العصبيات الجاهلية التجمع البشري ، ولا تدعه يتكامل ، بل في كثير من الأوقات يتقابل مع بعضه ، و يسير في طريق الهدم .

قال الله سبحانه " :إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله و على المؤمنين و ألزمهم كلمة التقوى و كانوا أحق بها و أهلها و كان الله بكل شيء عليما (2) " .

إن كلمة التقوى هي صبغة التجمع الايماني و محوره ، و عماد تماسكه ، و مبعث قوته ، بينما العصبيات الجاهلية هي صبغة سائر المجتمعات غير الايمانية .. و حين حارب الاسلام هذه العصبيات استطاع أن يصهر المجتمع الجاهلي المتشرذم في بوتقة التوحيد ، و يبني منه تلك الحضارة التي لم يشهد التاريخ لها مثيلا.

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية : ان النبي صلى الله عليه وآله أمر بني(١) تفسير نمونه عن بحار الانوار / ج ٧٠ - ص ١٣٦

(2)الفتح / ٢٦

بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم ، فقالوا لرسول الله - صلى الله عليه وآله : - نزوج بناتنا موالينا ؟ فأنزل الله عز وجل الآية . (١)و يظهر من هذا الحديث و الذي يليه مدى الصعوبة التي عاناها رسول الله في انتزاع روح العصبية من ذلك المجتمع الجاهلي المتخلف ، وقد روي عن ابن عباس أنه لما كان يوم فتح مكة أمر النبي - صلى الله عليه وآله - بلالا حتى علا على ظهر الكعبة فأذن فقال عتاب بن أسير بن أبي العيص : الحمد لله الذي قبض أبي حتى لا يرى هذا اليوم ، و قال الحارث بن هشام : ما وجد محمد (ص) غير هذا الغراب الأسود حتى يؤذن له ، و قال سهيل بن عمر : إن يرد الله شيئا يغيره ، و قال أبو سفيان : إني لا أقول شيئا أخاف أن يخبر به رب السماء ، فأتى جبرئيل النبي - صلى الله عليه وآله - و أخبره بما قالوا : فدعاهم و سألهم عما قالوا فأقروا فأنزل الله تعالى هذه الآية . (٢)و حتى آخر أيامه كان النبي - صلى الله عليه و آله - يكافح ضد الحمية الجاهلية ، فقد ذكر الرواة أنه خطب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بمنى في وسط أيام التشريق)حيث تجمع الحجاج من كل البلاد) وهو على بعير فقال:

"يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على أعجمي و لا أعجمي على عربي ، ولا لأسود على أحمر ، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ قالوا نعم قال ليبلغ الشاهد الغائب " (٣. (

وهكذا تجاوز المسلمون السابقون عقبات التخلف الجاهلي حين تجاوزوا حواجز(١) القرطبي / ج ١٦ - ص 341

(2)المصدر

(3)المصدر / ص ٣٤٢

الدم و اللون و الاقليم و وحدوا طاقاتهم المتشتتة تحت راية التوحيد ، و جعلوا التقوى محور تنافسهم البناء.

وقد اشتهرت عن أمير المؤمنين -عليه السلام - في ذلك مقطوعة رائعة:

الناس من جهة التمثال أكفاء أبوهم آدم و الأم حواءنفس كنفس و أرواح مشاكلة و أعظم خلفت فيهم و أعضاءفان يكن لهم من أصلهم حسب يفاخرون به فالطين و الماءما الفضل إلا لأهل العلم انهم على الهدى لم استهدى أدلاءو قدر كل امرء ما كان يحسنه و للرجال على الأفعال سيماءو ضد كل امرء ما كان يجهله و الجاهلون لأهل العلم أعداء (١)[إن الله عليم خبير[

و تأتي هذه الخاتمة لبث السكينة في قلوب المؤمنين ألا يقلقوا إن رأوا تكالب الناس على الدنيا و تدابرهم عن أهل التقوى ، فان الله عليم بهم و خبير و بيده أزمة الأمور وهو يكرم المتقين ، و كفى به شاهدا و كفى به مثيبا عادلا .

[14]لأن تجاوز الحمية الجاهلية صعب مستصعب خصوصا على الأعراب الذين عاشوا دهرا يسبحون بأمجادهم و مفاخرهم ، فان القرآن الكريم يذكرنا بأن الايمان ليس مجرد التسليم الظاهر للدين الجديد ، بل هو تغيير عميق للشخصية يتجلى في الممارسات العملية ، ومن زعم أنبامكانه الجمع بين قيم الجاهلية و الدين فانه لم يفهم معنى الدين . أوليس الدين شفاءا من أمراض الجاهلية .. و بديلا صالحا للقيم الفاسدة فكيف يجتمعان ؟

(1)المصدر

الدين الحق جهاد متواصل ضد سلبيات البشر . ضد حواجز الدم و اللون و الأرض . ضد قيم الأنساب و التقاليد و الأعراف البائدة . ضد الهوى و الشهوات و الجهل و التحزب .. فمن استطاع أن يخلص طاعته لله و للرسول (دون تقاليده و تراث سلفه) ، و جاهد في سبيل إصلاح مجتمعه ، فهو الذي ارتقى الى مستوى الايمان.

]قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا [و الفرق بينهما ان الاسلام هو التسليم للدين تسليما ظاهرا .. بقبول الشهادتين و الخضوع للأحكام الشرعية ، بينما الايمان انقلاب حقيقي لنفس الانسان.

]و لما يدخل الايمان في قلوبكم[

تدل كلمة "لما " على أن من أسلم يرجى له الايمان ، و لعلها تشير أيضا الى التأخير ، مثل ثم في الايجاب ، مما يوحي بان المسافة بين الاسلام و الايمان ليست بسيطة ، وأن على الانسان المسلم أن يقطع هذه المسافة بجهده المتواصل .فاذا كان الاسلامبمثابة القبول في معهد علمي راق ، فان الايمان هو التخرج منه بنجاح . جاء في الحديث المأثور عن رسول الله - صلى الله عليه وآله - : " الايمان إقرار باللسان و معرفة بالقلب و عمل بالأركان " (١. (

وفي حديث آخر مروي عن الامام الصادق عليه السلام : " الايمان يشارك الاسلام ، و الاسلام لا يشارك الايمان " (٢. (

]وإن تطيعوا الله و رسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم [(١) بحار الانوار / ج ٦٧ - ص ٦٦

(2)المصدر / ج ٧٢ - ص ٢٣

وكيف ينقص الله الغفور الرحيم شيئا من أعمال عباده التي تحصن بالطاعة لله و للرسول ؟ و نستلهم من هذه الآية ان مقياس الايمان الحق هو الطاعة ، ذلك أن الطاعة امتحان صعب ، إنها خروج عن زنزانة الذات الى رحاب الحق ، و تجاوز لحواجز المادة ، و انطلاق في ميادين الخيرات.

[15]و جاءت الآيات التالية تبين شروط الايمان أوليس الايمان هو القوة التنفيذية لكل تعاليم الوحي ، وهو روح المجتمع الدافعة من دونها تصبح أنظمتها حروفا بلا معاني ؟!

]إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله و رسوله ثم لم يرتابوا [متى يرتاب المؤمن ؟ عندما يكلف بمهمة صعبة توسوس له نفسه في صدق إيمانه ، أما من محض الايمان فانه كالذهب الخالص كلما تعرض لنيران الصعاب كلما ازداد جلاءا و نورا.

]و جاهدوا بأموالهم و أنفسهم في سبيل الله[

إن الجهاد بذل ما يسعه من الجهد في سبيل الله ، ولا يكون ذلك إلا عندما يخلص القلب من شوائب الكفر و الشرك و النفاق.

]أولئك هم الصادقون[

إنها حقيقة الايمان التي تتجلى في الطاعة و الجهاد ومن دون الوصول الى هذه الحقيقة لا يمكن تصديق إيمان الفرد ، أما إسلامه فهو صادق بمجرد قبوله دين الاسلام و التزامه به.

[16]و الذي يكابر و يدعي أنه مؤمن برغم كل ذلك فانه قد سفه نفسه ، كيفيزعم بانه يعلم الله دينه أوليس الله محيطا علما بكل شيء ؟؟

أولئك قوم من أعراب بني أسد - حسب المفسرين - قدموا على رسول الله في سنة جدبة ، و أظهروا الشهادتين (رغبة في عطاء الرسول ليس إلا) ، لم يكونوا مؤمنين في السر و أفسدوا طرقات المدينة بالمخدرات ، وأغلوا أسعارها ، و كانوا يقولون لرسول الله - صلى الله عليه وآله - (وهم يمنون عليه) أتيناك بالاثقال و العيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، فاعطنا من الصدقة و جعلوا يمنون فأنزل الله " قالت الأعراب " الآية . (١)[قل أتعلمون الله بدينكم[

بأنكم مؤمنون حقا.

]و الله يعلم ما في السموات وما في الارض و الله بكل شيء عليم][١٧] الايمان نعمة كبرى لا تساويها نعمة ، و حين يزكي الانسان نفسه و يروضها بالتقوى ، و يسعى لرؤية الحقائق ، حينئذ يتجلى الله لقلبه ، فيرى الله بنور الايمان و يرى بنور الله كل شيء.

]يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم[

لأن الاسلام إذا كان لهدف مادي فهو إذا لمصلحتهم ولا يستدعي المنة ، وإن كان إخلاصا لله ، فان الله يمن عليهم به و بما يليه من الايمان.

(1)القرطبي / ج ١٦ - ص 348

]بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين]في ادعائكم الايمان و يبدو أن السياق يتناول قصة أعراب بني أسد الآنفة الذكر بالرغم من انها تعم كل أولئك الذين يدعون الايمان و يجعلونه وسيلة للتعالي على الناس ، و اكتساب الشهرة و الثروة و السلطة.

[18]ولكي يوجد القرآن وازعا نفسيا للانسان ألا يزكي نفسه و يدعي الايمان كاذبا ، أو يحاول ابتزاز الآخرين باسمه ، فان الله يحذرنا نفسه ، و يذكرنا بأنه محيط بكل شيء علما.

]إن الله يعلم غيب السموات و الأرض و الله بصير بما تعملون]فالأعمال يزنها بقدر الاخلاص فيها .. و بهذه الآية تختتم سورة الحجرات التي يحتاج المسلمون اليوم أكثر من أي يوم مضى الى أن يعوها وعيا ، و بالذات الطليعة الرسالية التي قد تتسرب إليه أيضا الحمية الجاهلية ولو بألوان جديدة كالتحزب و التفاخر ، نسأل الله ان يقينا شرور أنفسنا ، و يصون ديننا من كل شائبة شرك أو ظلم أو نفاق.

سورة ق

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي جعفر الباقر (ع) : " من أدمن في فرائضه و نوافله قراءة سورة " ق " وسع الله عليه في رزقه ، و أعطاه كتابه بيمينه ، و حاسبه حسابا يسيرا. "

نور الثقلين / ج ٥ - ص ١٠٤

الإطار العام

حجب كثيرة تمنعنا من ملامسة الحقائق الكبرى ، و التي منها المسؤولية و الجزاء ، و حين يسقط الانسان عن نفسه هذه الحجب يشاهد الحقائق بوضوح يدعه متسائلا كيف و لماذا أنكرتها من قبل ؟!

وفي سورة " ق " يعالج القرآن الحجب النفسية التي تمنع البشر عن الايمان بالآخرة ، ثم يسرد شواهدها و مشاهدها وما يجري لأهلها من صعقات هائلة ، بيد أن السياق - كما يبدو - يركز على حجاب التعجب الذي هو تيار عند الكفار ، عندما يذكرون بالبعث و يقولون : هذا شيء عجيب ؟! كيف يمكن أن نعود أحياء بعد أن نمسي ترابا ؟ إنها عودة مستبعدة ، و تتلاحق بصائر الذكر في تقريب هذه الحقيقة:

أولا : يعلم الله ما تأكل الأرض من أجسامهم ذرة ذرة ، خلية خلية ، و عنده كتاب حفيظ ، لا يدع شيئا إلا و يحفظه.

ثانيا : إن وراء تكذيبهم بالحق حالة نفسية (خشية تحمل المسؤولية ، و الخلود الأرض الشهوات) وهذا يجعلهم في أمر مختلط.

ثالثا :هذه السماء بما فيها من متانة البناء أليست دليلا على قدرة الرب ، أولا تكفي وسيلة لتوسيع أفقنا العلمي حتى نعترف بقدرة الرب على رجعنا من جديد.

رابعا : الأرض ، ألا ترى كيف مدها الله و أركزها بالراسيات و أنبت فيها من كل زوج بهيج.

بلى .إنها أدلة كافية ولكن لمن ؟ لكل عبد منيب ، مهيأ نفسيا لمثل هذه البصائر و الآيات ، و مثل ذلك الغيث الذي ينبت به الله جنات من الأشجار و مروج حب من - حب الحصيد - . أرأيت النخل باسقات لها طلع نضيد ؟ إن كل ذلك أنشأه الله ليكون رزقا للعباد ، و بكلمة صادعة يفجر السياق ينبوع المعرفة في القلوب الصافية و يقول : و أحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج .. إنها تحرق حجب التعجب و الاستبعاد ، أرأيت النواة كيف تختزل حياة شجرة باسقة حتى إذا أنزل الله عليها الماء و أمدها بوسائل النمو أصبحت شجرة باسقة كيف لايمكن أن يفعل مثل ذلك بالانسان بعد موته ؟

ثم يصب حمم الغضب على الكاذبين لكي يزيل عامل اللامبالاة عند الكفار بالبعث ، و الذي قادهم الى التعجب و يذكرهم بمصير قوم نوح و أصحاب الرس و ثمود وعاد و فرعون و إخوان لوط و أصحاب الأيكة و قوم تبع كيف نزل بهم وعيد الله حين كذبوا الرسل.

و يستشهد بالخلق أول مرة الذي يهدينا متانة نظمه و تنوعه الى إقتدار خالقه و أنه كان عليه يسيرا .. أفلا يدل على أنه قادر على الخلق الجديد.

وفي آيات متواصلات يزرع القرآن خشية الرب في نفس الانسان ، لكييتحسس بمسؤولية تجاه ما يتحدث

به ، فيذكره بأنه خلقه و يعلم حتى ما توســوس به نفسه ،)بالرغم من ادعاءاته الكاذبة) لأنه أقرب اليه مما به حياته ظاهرا و هو حبل الوريد.

فحين يتلقى المتلقيان - و لعلهما الملكان أو المتحدثان أنى كانا - ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، وهو الى كل ذلك لا يملك دفاعا عن نفسه حين تهجم عليه سكرة الموت بالحق فلا يدفعه بالرغم من أنه كان يحاول أبدا الحيد عنها ، أما حين ينفخ في الصور فهويوم الجزاء الذي وعد الله يومئذ يؤتى بكل نفس يسوقها السائق و يرافقه الشاهد .. - هذا ما كان يتعجب منه ظاهرا ، و انما كان غافلا عنه - بينما اليوم يراه ماثلا أمام عينيه (فبصــره حديــد) أما قرينه (وهو الملك حسب بعض المفسرين (فيقول هذا (كتابه) لدي عتيد (قد حفظته منذ أيام حياته الأولى هنالك يأمرهما الله بإلقائه في جهنم مع كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب ، و هكذا تحمل جزاء ريبه النابع من تهربه عن المسؤولية ، الذي جعل مع الله إلها آخر . أما قرينه - وهو هنا الشيطان الذي أغواه - فانه يتبرأ منه ويقول ربنا ليس أنا الذي جعلته يطغى ، محاولة منه للهروب من مسؤولية إغوائه ، إلا أن الرب يأمر بالقائه ايضا في جهنم ، و مسؤولية أحدهما لا تنفي مسؤولية صاحبه ، وما الله بظلام للعبيد ، و إن جهنم تسع المزيد من المجرمين ، فلا تظنن أن إلقاءك مسؤولية غفلتك علىالآخرين يبرئ ساحتك أو أن جهنم لا تسع إلا هو أو أنت.

وفي جانب آخر نجد مشهد المتقين الذين تزدلف إليهم الجنة و يبشرون بها ، أوليسوا قد وعدوا بها لما تميزوا به من التوبة و التقوى و خشية الرحمن بالغيب و إنابة القلب ، فاليوم يقال لهم أدخلوا الجنة بسلام خالدين فيها أبدا ، ولهم كل ما يشاؤون من النعم فيها ،و يعطيهم الله من فضله المزيد.

و يبقى الغرور حاجزا آخر أمام الايمان ، ولكن ألا يقرؤون التاريخ ليروا كم أهلك الله من قبلهم من قرن كانوا أشد منهم بطشا و حاولوا الهرب من مصيرهم فلم يفلحوا ؟ ولكن القلوب المريضة و الأسماع الصم لا تستوعب هذه الحقائق . ولا يزال يقول الكافر : كيف يحييالله الناس بعد موتهم ؟ أفلا ينظرون كيف خلق الله السماوات و الأرض في ستة أيام بلا أي تعب.

وفي خاتمة السورة يأمر الله رسوله -ومن ثم المؤمنين - بالصبر على ما يقولون ، لكي لا يحرجوا به ، أو يتخذوا كلامهم مأخذ الجد ، و تسبيح الله صباح مساء ، وفي الليل وعند الأسحار و انتظار ذلك اليوم الذي ينادي المنادي من مكان قريب ، و ينفخ في الصور ، و ينادون للخروج . إنهم حين يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج .. هنالك حين يحيي الله الموتى ليرجعوا اليه - في ذلك اليوم - تتفتق عنهم الأرض سراعا ، ذلك حشر يسير على الله ، و دع كلامهم فالله أعلم بما يقولون ، و لست مسؤولا عنهم ، تجبرهم . كلا .. ما أنت بجبار عليهم ، إنما أنت نذير تذكرهم بالوحي فذكر بالقرآن و سوف يستجيب من يخاف الوعيد.

وما أنا بظلام للعبيد

هدى من الآيات

في البداية يحدثنا الدرس الأول من السورة عن جانب من علاقة الناس بالقرآن المجيد الذي يضم في سوره آيات الوحي ، بينما يذكرنا شطره الآخر بآيات الله في الآفاق التي تهدينا هي الأخرى كما الوحي إلى المزيد من المعرفة بالحق ، و ترفعنا الى درجات الايمان . و في الخاتمة نجد حديثا عن مستقبل الانسان في الدنيا حيث تنتهي حياته بالرغم منه . و كيف انها سلسلة من المسؤوليات التي يحاسب عليها ، و يتكون جزاءه بحسب التزامه بها.

بينات من الآيات

] [1]ق و القرءان المجيد[

)ق) من الكلمات الرمزية وقال البعض إن معناها : المجد أي الشأن العظيم ، و كتاب الله بما يشتمل عليه من الآيات و المناهج ، كفيل بأن يعطي لمن يتبعه العزةو الكرامة ، و يرفعهم الى قمم التقدم و الكرامة ، لانه منطلق ذلك كله .و لكن الكفار و المشركين أغفلوا هذه الحقيقة و تركوا ذلك المجد بسبب نفسياتهم و ثقافتهم السلبية ، و ساروا في نفق التساؤلات و المواقف القشرية السخيفة التي أفقدتهم ذلك المجد.

و الأمة الاسلامية إنما قصرت عن بلوغ الحضارة ، و توقفت عن التقدم الذي بدأته في نهضتها الاولى ، بل و تراجعت أمام الأمم الأخرى بالرغم من امتلاكها لهذا الكتاب العظيم بسبب تعاملها الخاطئ معه ، فاذا به عند بعض المسلمين كتاب تفؤل و تبرك ، بينما انصرف البعض الآخر عن قيمه و مناهجه الحضارية الى حروفه وما تشابه منه ، وهكذا هجروا كتاب الله ، فلم يبلغوا شيئا من المجد ، ليس لأن القرآن استنفذ أغراضه فلم يعد كتاب المجد ، و إنما لأنه لا يعطي ذلك إلا لمن اتبعه بحق.

[2]إن الكفار رفضوا مجد القرآن ، و أصروا على مسيرتهم المنحرفة ، لأن القرآن شيء جديد ، ولأن القائد الذي أمروا باتباعه بشر مثلهم ومن وسطهم . وهذا يدل على أنهم لا يتبعون الحق و هدى العقل في حياتهم ، و إنما يتبعون الأهواء و المصالح . و حيث ان قيم القرآن و قيادة الرسول يتعارضان مع تلك الأهواء فهي عجيبة و مرفوضة عندهم.

]بل عجبوا أن جآءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب [أي لم تكن نظائر سابقة ليكون مألوفا عندهم ، فهو شيء عجيب ، و الحال إن بلوغ المجد لا يمر عبر الشهوات ، بل يتطلب مخالفتها و التنازل عنها.

[3]لقد أثار تعجب الكفار إنذار القرآن بيوم القيامة .. قالوا كيف يجمع الله أعضاء الانسان بعد الموت و تحولها الى ذرات في التراب ؟ و أغرب من ذلك كيف تصير إنسانا سويا ؟

]أءذا متنا و كنا ترابا ذلك رجع بعيد[

إنهم لا يؤمنون بإله قادر يدبر شؤون الخلق ، فعارضهم القرآن ، ولا يؤمنون بالمسؤولية في الحياة ، فجاءهم بخلاف هذه العقيدة ، فرفضوه لعدم الفتهم به ، وما ذلك سوى منهج الجاهلين الذين يعادون مالا يعلمون ولا يصدقون إلا بما يألفون من حقائق ، بينما العلماءو أولو العقل يبحثون عن الحقائق و يقولون : نحن لا نحيط علما بكل شيء ، إذا دعنا نبحث بايجابية . فربما كان هذا واقعا ونحن لم نعرفه ، أو لم تكن هذه إلا حقائق كنا نجهلها ثم عرفناها ولم نكن نألفها ثم ألفناها ، فلماذا ننكر رأسا كل ما يقال لنا أليس ذلك من الغباء ؟

و عموما التعجب من الجهل و قلة الوعي ، و متابعته من الجهالة و الحمق.

[4]ولكن القرآن يعالج هذا التعجب ، و يبين قدرة الله على جمع أجزاء الانسان و بعثه مرة اخرى بلى . قد يتحلل كيمياويا في التراب ، و تتبعثر عناصره الـ (130) هنا و هناك في صورة ذرات تنقلها الأيدي ، أو تذرها الرياح ، و لكنها تبقى معلومة عند الله عز و جل ، و محفوظة في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى.

]قد علمنا ما تنقص الأرض منهم[

إذ تتحلل أوصالهم في ترابها .

]و عندنا كتاب حفيظ[

يسجل فيه كل شيء بدقة متناهية ، أوليس الله هو الذي خلق الانسان من بعد العدم ؟ فكيف يعجز عن جمع أوصاله و بعثه بعد الموت ؟ إنه يعلم كم أكل التراب من جسم هذا الانسان ؟ وما هي الذرة من التراب التي كانت سابقا جزءا من بدنه ؟ و كيف تحللت منه ؟ وحين مات كمكان يحتوي عليه جسمه من الحديد ، و الأملاح ، و الماء و سائر العناصر بنسبها و وزنها و مساحتها التي تشغلها ، و كم في كل عضو منها و .. و .. الخ ؟!

إن الانسان ليتعجب لو نظر الى صندوق يحوي ملايين القطع التي يتكون منها محرك الطائرات العسكرية ، أو جهاز معقد آخر ، و ربما لا يصدق ان أحدا قادر على جمعها و تركيبها لتصير الى ذلك مرة أخرى ، أما

الخبير الذي اخترعها و صنعها فليس كذلك ، إنه ينظر للأمر على انه ممكن ، بل هو أمر يسير ، فكيف بالله الذي خلق الأشياء ، و الذي كان أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ؟

[5]إن مشكلة الكفار انهم لا يتبعون الحق ، بل لا يريدون اتباعه ، لهذا تراهم لا يفقهون هذه الحقائق ، ولا يثبتون على رأي واحد في الحياة لاتباعهم أهواءهم ، إذ الحق واحد و ثابت في كل زمان و مكان بينما الهوى متغير.

]بل كذبوا بالحق لما جآءهم فهم في أمر مريج[

و الذي يؤكد هذه الفكرة موقفهم من الرسول (ص) ، فهم يسمونه ساحرا تارة و مجنونا أخرى ، و شاعرا ثالثة ، و أمينا و صادقا و .. و .. الخ ، ولو أنهم اتبعوا الوحي لكان يعطيهم بصيرة و جوابا لكل سؤال ، حتى سؤالهم هذا عن البعث ، و لكنهم تركوه للهوى و المصالحفصاروا الى الهرج و المرج ، و لعل هذا يفسر بروز النظريات المختلفة و المتناقضة في مختلف الحقول الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية.

[6-7]ولو أن الكفار الذين يشكون في البعث نظروا الى الخلق و تفكروا فيما عليه من النظم و التدبير لما تعجبوا من فكرة البعث ، لأن عقدة هؤلاء الأساسية هي شكهم في قدرة الله على ذلك . و شكهم هذا تعبير عن جهلهم ، فاذا تفكروا في خلق الله و ازدادوا معرفةبه و بآياته المتجلية في الكائنات ، لهداهم ذلك الى الايمان بقدرة الله . أترى السماء على سعتها و متانة خلقها وما فيها من الابداع ، و الارض التي ذللها الله ، و ألقى على ظهرها الجبال العظيمة تحفظ توازنها ، و أوجد فيها كل ما يحتاج اليه ليصلح عيشنا فيها.
كل ذلك أفلا يهدينا إلى قدرة الله على إحيائنا بعد الموت ؟!

]أفلم ينظروا الى السمآء فوقهم كيف بنيناها و زيناها]بالكواكب التي تتناثر على بساطها البديع ليلا ، و اللون الأزرق الهادئ بالنهار.

]و مالها من فروج[

فهي محكمة في بنائها ، لا ثغرة ولا كسرة.

]و الأرض[

لننظر اليها هي الأخرى ، و نتفكر في خلقها.

]مددناها و ألقينا فيها رواسي[

ولم يقل جبالا ، لأن كلمة الجبال لا تعبر عن دور الجبال في حفظ توازن الأرض كالمرساة التي تثبت السفينة في عرض البحر وفي أطراف الموانئ.

ومع ذلك ما كانت الأرض تصلح لعيش الانسان عليها لو لم يتوفر فيها مايحتاجه البشر من ضروريات و كماليات . لهذا كان من الحكمة الإلهية أن يوجد الرب انواع الخلق على ظهرها.

]و أنبتنا فيها من كل زوج بهيج[

من الحيوانات ، و النباتات و الناس وكل شيء . و كلمة زوج تنطوي على معان كثيرة من أبرزها التكامل ، و الذي يدل - بدوره - على دقة النظم و حسن التدبير . أترى كيف جعل الله النبات و الأحياء و البشر أزواجا ، الذكر و الأنثى ، ثم الشعوب و القبائل ، ثم جعلالناس يتفاضلون ليحتاجوا إلى بعضهم ، ثم جعل كل شيء في الحياة بحاجة الى غيره لتتكامل دورة الحياة بما يدع أدق العقول حائرة في هذه الدورات التكاملية التي توازنت و تعادلت و شهدت على حكمة بارئها سبحانه.

ثم جعل الزوج بهيجا يجتذب بجماله الطرف الآخر حتى يسهل التفاعل و يكون أكرم من مجرد حاجة متبادلة.

[8]وهذه كلها آيات بينات على حكمة الله التي تقتضي البعث للجزاء وعلى قدرته التي تجعل الأمر ممكنا بل محتملا . وهي لا تغيب عن بصر أحد من الناس فالكل يراها بعينيه ، و لكنها تغيب عن بصائر الكفار و مرضى القلوب . تغيبها عنهم حجب الذنوب و الجهل و الغفلة ،و تعيها أذن واعية و قلوب طاهرة من المؤمنين .

]تبصرة[

تزيدهم علما و فهما و وعيا و رؤية.

]و ذكرى لكل عبد منيب[

تزيدهـم إيمانا و موعظة و عبرة و تقوى ، و نهتدي بهذه الآيات الى فكرة أساسية ،وهي ان الايمان بالله مركز العلم الحق ، و منطلق الايمان بسائر الحقائق ، فالمؤمن يهتدي من خلال نظره الى الأشياء ، الى المعارف و العلوم المختلفة ، فاذا به ذو بصيرة نافذة في الحياة ، كما يزداد يقينا بالحق ، لأنه ينظر الى الحياة بنور الايمان بالله عز وجل ،وهو رأس المعرفة و عماد الايمان ، بينما ينظر الكافر الى ذات الأشياء ، فلا يزداد إلا جهلا و كفرا ، و تبقى الآيات الواضحة ألغازا في قلبه لأنه لا نور له في الحياة " ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور " (١) . لهذا جاء في الحديث المأثور عن أمير المؤمنين (عليه السلام) : " أول الدين معرفته ، و كمال معرفته التصديق به " . (٢)إن المنهج السليم هو الذي يجعل الايمان بالله و معرفته منطلقا لسائر المعارف ، و ليس الذي يجعل المعارف و الحقائق الأخرى دليلا إلى الله ، لان الله أجلى و أظهر من كل شيء . قال الامام الحسين (ع) : " إلهي ما أقربك مني و أبعدني منك ، وما أرأفك بي ، فما الذي يحجبني عنك ؟! إلهي علمت باختلاف الآثار ، و تنقلات الأطوار أن مرادك مني أن تتعرف إلي في كل شيء ، حتى لا أجهلك في شيء .. - الى أن يقول - إلهي ترددي في الآثار يوجب بعد المزار ، فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك ، كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك ؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك ؟! متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟! ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك ؟! " ثم إن الامام يخاطب ربه بطريقة توحي الاعتذار منه تعالى جعله المخلوقات دليلا على الله ، مبيناانه لم يكن يعمد إلى ذلك لولا أمره عز وجل بالنظر إليها ، وهو مع ذلك يطلب منه أن يرفعه الى الدرجة الأصح و الأفضل من المعرفة ، فيقول : " إلهي أمرت بالرجوع الى الآثار فارجعني اليك بكسوة الأنوار ، و هداية الاستبصار ، حتى أرجع(١) النور / ٤٠

(2)نهج / خطبة (١(

إليك منها مصون السر عن النظر اليها ، مرفوع الهمة عن الاعتماد عليها (1) "ولا يرتقي الى هذه المعرفة إلا من عبد الله حق عبادته و تاب اليه كلما أخطأ.

[11-9]ثم لينظر الانسان الى قطر السماء حينما ينزله الله فيحيي به الأرض ، إن ذلك مثل قريب على البعث يوم القيامة.

]و نزلنا من السمآء مآء مباركا[

ينطوي على الخير و الفضل ، و البركة في اللغة تعني النماء و التكامل ، وهو بالفعل فور ما ينزل الغيث يفجر خيرات الأرض ، فاذا بها بعد أن كانت صحراء قاحلة تنفرش بحلة خضراء.

]فأنبتنا به جنات و حب الحصيد[

و الجنات هي الأشجار الكبيرة التي تدوم كالرمان و العنب ، بينما حب الحصيد إشارة الى الزروع التي يحصدها الانسان كل عام ليزرع غيرها في الأعوام اللاحقة كالحنطة و الشعير و الذرة.

]و النخل باسقات[

أي طويلة مرتفعة بسوقها.

]لها طلع نضيد[

و الطلع هو عروق النخل أول طلوعها بين الليف و السعف . أما النضيد فهو المنظم وهو حال الطلع مما يجعله أفضل في نمائه.

(1)مفاتيح الجنان / دعاء عرفة / ص ٢٧٢ (طبعة دار إحياء التراث العربي. (

و نستفيد من الآيتين ان مجرد نزول المطر لا يكفي لخروج الجنان و الحب و النخيل من الأرض ، بل لابد من عناية إلهية في الأمر . فلو كانت الأرض التي يهطل عليها الماء غير صالحة ، أو كانت صالحة ولكن أهلها مشغولون عن زراعتها ، فهل كان ذلك يحولها الى جنات و زروع ؟ كلا .. فهي محتاجة الى إنبات الله عز وجل لها برحمته ، ليجد العباد رزقهم فيها ، و لتكون صالحة للسكن فيعمروها.

]رزقا للعباد و أحيينا به بلدة ميتا[

إنك ترى الأرض هامدة لا حراك فيها وقد هجرها الناس ، فاذا بها بعد نزول الماء تحكي الحياة في كل جوانبها ، وبكل أشكالها ، فبعد أن يؤمن الناس رزقهم ينشطون لبناء مدينتهم و توفير سائر مظاهر الحضارة فيها.

ولعل هذا شاهد على أن الزراعة أصل كل حضارة ، و هذه إحدى النظريات الحضارية حيث قالوا : إنها ناشئة من تراكم المحصولات الزراعية التي تتراكم الثروة بعد بيعها و تبدأ بها دورة الحضارة .. ولا ريب أن حضارات عديدة في التاريخ نشأت بهذه الطريقة.

أترى إن الذي أحيا البلاد بعد موتها يعجز عن أحيائنا بعد الموت ؟!

]كذلك الخروج[

وفي الروايات إشارات الى ان الانسان يتلاشى في التراب ، و يبقى منه مقدار ذرة واحدة (خلية) حية تتعلق بها الروح في عالم البرزخ ، فاذا أراد الله بعثه امطر السماء أربعين صباحا ، و جعل الأرض كرحم الأم ، فتنمو فيه تلك الذرة ، ولكن بصورة سريعة ، فاذا بالأرض تنشق عن بشر سوي . و ليس من عجب أن يحدث ذلك ، فهذا هو الانسان يبدأ حياته من نطفة صغيرة جدا تنطلق من صلب الأب إلرحم الأم ، و هكذا تبدأ حياة كل شيء على وجه الأرض . فلتنظر الى كل حبة تحسبها ميتة ، ولكن حين تدفنها في التراب تنشق عن زرع أو شجرة عظيمة . و إلى هذا التشابه تشير الآية الكريمة : " و الله أنبتكم من الأرض نباتا (1) " ، و نحن مع ذلك نؤمن بقدرة الله على الخلق و البعث بعد الموت بطرق لا تحصى عددا.

وفي الخبر قال الصادق (ع) : " إذا أراد الله عز و جل أن يبعث الخلق أمطر السماء أربعين صباحا ، فاجتمعت الأوصال و نبتت اللحوم (2) . "وقال عليه السلام لما سئل عن الميت يبلى جسده ؟: " نعم حتى لا يبقى لحم ولا عظم إلا طينته التي خلق منها ، فانها لا تبلى ، تبقى في القبر مستديرة حتى يخلق منها كما خلق أول مرة " (٣. (

[14 - 12]إن الآيات التي مضت كلها علاج لاستبعاد فكرة البعث من قبل الكفار ، حيث قالوا " :أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد " . والآن يبين القرآن بأن هذا الضلال لم يكن جديدا في تاريخ البشرية ، لأن الماضي ينطوي على أمثال كثيرة من تكذيب الأقوام السالفة.

]كذبت قبلهم قوم نوح و أصحاب الرس[

وهم أصحاب البئر التي رسوا نبيهم فيها بعد أن قتلوه (عن عكرمة) ، وقيل الرس بئر قتل فيها صاحب ياسين (عن الضحاك) ، و قيل هم قوم كانوا باليمامة على آبار لهم (عن قتادة) ، وقيل هم أصحاب الأخدود ، و قيل كان سحق النساء في اصحاب الرس (عن أبي عبد الله (ع)) و الذي يبدو لي انهم كانوا في اليمامة

(1)نوح / ١٧

(2)بح / ج ٧ - ص ٣٣

(3)المصدر / ص ٤٣

و الرس اسم البئر التي دفنوا فيها نبيهم بعد أن قتلوه.

]و ثمود[

وهم قوم صالح (ع. (

]و عاد[

أي قوم هود (ع. (

]و فرعون و إخوان لوط[

و سمي أخاهم لأنه انتسب اليهم بالزواج و الله العالم.

]و أصحاب الأيكة[

يعني قوم شعيب الذين اشتهرت حضارتهم بالزراعة و البساتين ، و الأيكة في العربية الأشجار المزدحمة التي تلتقي أغصانها ، و فيها تبني الحمام أعشاشها غالبا.

]و قوم تبع[

وهو رجل صالح ملك اليمن ، إلا ان قومه كانوا فاسدين.

]كل كذب الرسل فحق وعيد[

لقد بادت حضاراتهم نتيجة تكذيبهم الحق ، أولا يهدينا ذلك الى تحقق الجزاء في الآخرة كما تحقق في الدنيا ، و حق الشيء أي ثبت ومنه الاستحقاق . و هؤلاء ثبت عذابهم ، وتحول من القدر الى القضاء ، ومن الوعيد الى الفعل.

[15]و يستنكر الله على هؤلاء تكذيبهم بالبعث ، و شكهم في قدرته تعالىفيقول:

]أفعيينا بالخلق الأول[

أي هل أعجزنا الخلق الأول من العدم عن أن نبعث الانسان مرة أخرى ؟ كلا . وفي الآية بيان الى حقيقة تحل شبهة هؤلاء حول البعث ، وهي ان القادر على الخلق من العدم أولى بالقدرة على جمع أشلاء

البشر و نفخ الروح فيه مرة ثانية . وهذا دليل عقلي بصير على الرجعةللحساب ، وإن كان كلا الامرين سواء عند الله الذي لا يمسه نصب ولا لغوب . و القرآن يعبر عن هذه الفكرة في موضع آخر بصيغة ثانية ، يقول تعالى : " أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين * و ضرب لنا مثلا و نسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قال يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون * أوليس الذي خلق السموات و الأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * " (١. (

وفي تفسير هذه الآية سأل جابر بن يزيد أبا جعفر (ع) عنها قال : " يا جابر تأويل ذلك ان الله عز وجل إذا أفنى هذا الخلق وهذا العالم ، و سكن أهل الجنة الجنة و أهــل النار النار ، جدد الله عالما غير هذا العالم ، و جدد خلقا من غير فحولة ولا إناث يعبدونه و يوحدونه ، و خلق لهم أرضا غير هذه الأرض تحملهم ، و سماء غير هذه السمــاء تظلهم ، لعلك ترى ان الله إنما خلق هذا العالم الواحد ؟ أو ترى أن الله لم يخلق بشرا غيركم ؟ بلـى ، و الله لقد خلق ألف ألف عالم ، و ألف ألف آدم ، أنت آخر تلك العوالم و أولئك الآدميين " . (٢(

(1)يس / ٧٧ - ٨١

(2)نور الثقلين / ج ٥ - ص 108

إن هذه الحقائق لا تخفى على عقل الانسان ، ولكن الجهل البشري و ضلال الأفكار و هوى النفس كل ذلك يحجبه عنها ، فاذا به يشك في قدرة الله على الخلق ثانية بعد الموت.

]بل هم في لبس من خلق جديد [

أي إن الأمر ملتبس عليهم فهم في حيرة و ريبة ، و سبب ذلك هو جهلهم بكيفية حدوث البعث ، بيد أن ذلك لا يعني إستحالته ، أترى لو كان يقال لشخص قبل ألف عام عن حديد يطير في الهواء (تعني بذلك الطائرات و الصواريخ) هل كان يصدق ؟ طبعا لا ، ولكن لو قيل له تفصيل ذلك لعله كان يذعن أليس كذلك ؟ وهذه من طبيعة الانسان أنه ينكر الأشياء التي يقصر عن الاحاطة بتفصيلاتها . أما العقل المحض و البعيد عن المؤثرات ، فهو لا ينكر الأشياء لمجرد انتفاء إحاطته بالتفاصيل ، بل ينكرها ما دامت لا تصدق لانتفاء الأدلة عليها . و الحال إن الأدلة قائمة على الرجوع للحساب.

[16]ومن ذلك ترى الكفار مرتكزين في أوحال الشك و الريب من هذا الحق ، فهم بين التصديق و التكذيب تتردد نفوسهم في الوسواس المنبعث من طبيعة البشر ، كما من وساوس الشيطان الذي يسعى لاضلاله.

]ولقد خلقنا الانسان[

فلم نتركه سدى ، لانه مسؤول و محاسب في الدنيا و الآخرة ، بل بقي تحت الرقابة الإلهية التي لا تقتصر على ظاهره من الكلام و الفعل ، و إنما تنفذ الى أخفى و أبعد شيء عنده وهو حديثه مع نفسه.

]و نعلم ما توسوس به نفسه[

فخطرات القلب و هواجس النفس و أفكارها كلها مسجلة عند الله عز وجل ، فربما قام يوما للصلاة فتردد هل يؤديها الآن أم بعد قليل فهذا مسجل لك أو عليك ، يسجله الله الذي هو أقرب للانسان حتى من نفسه.

]و نحن أقرب إليه من حبل الوريد[

وهي الأوداج التي تربط الرأس بالجسد . إن الانسان قد يندفع الى تصرف أو فكرة ما بعوامل لا يدركها ، وقد يقوم بشيء ثم ينساه ، ولكنه تعالى يحفظ كل صغيرة و كبيرة وكل ظاهر و باطن " في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى " (١) ، و المتقون يعون هذه الحقيقة بعمق " إذا زكي أحد منهم خاف مما يقال له ، فيقول أنا أعلم بنفسي من غيري ، و ربي أعلم بي مني بنفسي " . (٢)و نجد في العلم الحديث الآن بحوثا عن آفاق العقل الباطن ، و موضوعه دراسة القرارات و التصرفات التي تصدر من الانسان لمعرفة أسبابها الخفية.

] [17]إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين و عن الشمال قعيد]و لهذه الآية تفسيران:

الأول :إن المقصود " بالمتلقيان " ملك الحسنات و ملك السيئات ، وفي الخبر عن الرسول (ص) انه قال : " كاتب الحسنات على يمين الرجل ، و كاتب السيئات على شماله ، و صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال ، فاذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر " (٣) وفي خبر آخر " إن صاحب الشمال ليرفع(١ (طه / ٥٢

(2)نهج / خ ١٩٣

(3)نور الثقلين / ج ٥ - ص 111

القلم ست ساعات عن العبد المخطئ أو المسيء ، فان ندم و استغفر منها ألقاها ، و إلا كتب واحدة " (١) وفي كتاب سعد السعود : " إنهما يأتيان المؤمن عند حضور صلاة الفجر ، فإذا هبطا صعد الملكان الموكلان بالليل ، فاذا غربت الشمس نزل اليه الموكلان بكتابة الليل ، و يصعد الملكان الكاتبان بالنهار بديوانه إلى الله عز وجل ، فلا يزال ذلك دأبهم الى وقت حضور أجله ، فاذا حضر أجله قالا للرجل الصالح : جزاك الله من صاحب عنا خيرا ، فكم من عمل صالح أريتناه ، وكم من قول حسن أسمعتناه ، ومن مجلس خير أحضرتناه ، فنحن اليوم على ما تحبه شفعاء الى ربك . و إن كان عاصيا قالا له جزاك الله من صاحب عنا شرا ، فلقد كنت تؤذينا ، فكم من عمل سيء أريتناه ، وكم من قول سيء أسمعتناه ، ومن مجلس سوء أحضرتناه ، ونحن لك اليوم على ما تكره ، و شهيدان عند ربك " . (٢)الثاني : وقد يكون المعني بذلك النفس الأمارة بالسوء و الأخرى اللوامة التي يضل الأولى منهما الشيطان ، و يرشد الأخرى ملائكة الله ، و لعل وسوسة النفس و حديثها من ذلك.

قال الصادق) عليه السلام) : " ما من قلب إلا وله أذنان ، على احداهما ملك مرشد وعلى الآخر شيطان مفتن ، هذا يأمره و هذا يزجره ، الشيطان يأمره بالمعاصي و الملك يزجره عنها وهو قول الله عز وجل " عن اليمين و عن الشمال قعيد " ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد " (٣. (

و قال (ع) : " ما من مؤمن إلا و لقلبه أذنان في جوفه ، أذن ينفث فيها الوسواس الخناس ، و أذن ينفث فيها الملك ، فيؤيد الله المؤمن بالملك ، فذلك قوله(١) المصدر

(2)المصدر / ص ١٠٩

(3)اصول الكافي / ج ٢ - ص 266طبعة الأخوندي.

"و أيدهم بروح منه (1) . "

و قال أمير المؤمنين (ع) : " إن الله تبارك و تعالى أيد المؤمن بروح منه تحضره في كل وقت يحسن فيه و يتقي ، و تغيب عنه في كل وقت يذنب فيه و يعتدي ، فهي معه تهتز سرورا عند إحسانه ، و تسبح في الثرى عند إساءته ، فتعاهدوا عباد الله نعمه باصلاحكم أنفسكم تزدادوا يقينا و تربحوا نفيسا و ثمينا ، رحم الله امرء هم بخير فعمله ، أو هم بشر فارتدع عنه ، ثم قال : نحن نؤيد الروح بالطاعة لله و العمل له " . (٢)[١٨] و الانسان يبقى يتأرجح بين الاستجابة لنداء الحق (الفطرة و العقل و الوحي و إمام الحق)

، و بين الانصراف عن كل ذلك إلى نداء الباطل (النفس الأمارة و الشيطان ، و إمام الضلال) ، وهو في ذلك غير محاسب على أفكاره ، و لكنه إذا حسم الصراع بين هذه القوى ، و التردد في نفسه بالارادة سجل عليه موقفه.

]ما يلفظ من قول[

خيرا كان أو شرا.

]إلا لديه رقيب عتيد[

يكتب كل ما يصدر منه ، و يضمه الى كتابه الذي يتقرر مصيره على ضوء ما فيه ، فاما تغلب الحسنات السيئات فيتسلمه بيمينه و تسوقه ملائكة الرحمة في زمرة المتقين الى الجنة ، و ربما أخذ إلى النار قليلا ليطهر ، وأما تغلب الأخرى فيأخذه بشماله ، و تسوقه ملائكة العذاب الى جهنم ليلبث فيها أحقابا أو يخلد في العذاب(١) المصدر / ص ٢٦٧

(2)المصدر / ص ٢٦٨

مهانا .حتى إن البشر ليذهلون من دقة الكتاب : " و عرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم ألن نجعل لكم موعدا * و وضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه و يقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها و وجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا. (1) "

[19]بلى . إن الانسان يخشى من الموت ، و يحاول جهده الفرار من ساحته ، و لكن متى كان مصيره في يده ، أو كان قادرا على رد قضاء الله ؟ كلا . إن سكرة الموت تأتيه فتذهله عما يحيط به ، كما تذهل سكرة الخمرة شاربها و يومئذ يعرف ان محاولاته في الهروب من الموت و التي استغرقت أكثر مساعيه باءت جميعا بالفشل.

]و جاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد[

[20]و حينما يموت الانسان تبقى بينه و بين الجزاء الحقيقي مسافة البرزخ ، فاذا كان يوم القيامة ، أمر الله ملكا عظيما من ملائكته يقال له إسرافيل بالنفخ في الصور فيحدث عندها صوت عظيم مهيب يقوم الناس بسببه من الأجداث باذن الله عز وجل : " و نفخ فيالصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون " (٢ (و تلك النفخة إيذانا منه تعالى ببدء أعظم و أرهب محكمة في عالم الانسان حيث تقف الانسانية و بكل أجيالها التي تعاقبت على هذه الأرض ، تزدحم بهم آفاقها ، أحسنهم حالا يومئذ من وجد لقدميه موضعا و لنفسه متسعا، يسبحون في بحر من العرق الذي تنفصد به أبدانهم . و هناك تتقطع بينهم الأسباب و الوشائج فيتبرأ الواحد من أقرب الخلق اليه ، من ولده و زوجته و أمه و أبيه و أخيه.

(1)الكهف / ٤٨ - ٤٩

(2)يس / ٥١

]و نفخ في الصور ذلك يوم الوعيد[

فمهما لقي الكفار و الظالمون من جزاء كما هو حال الأقوام السالفة التي ذكرتهم الآيات (١٢-١٤) إلا أن الجزاء الحقيقي الذي يتوعدهم به الله يلقونه في الآخرة ، التي تبدأ بنفخة إسرافيل (ع) في الصور.

إسرافيل:

وفي دعاء الامام زين العابدين (ع) في الصلاة عن حملة العرش قال : " و إسرافيل صاحب الصور الشاخص ، الذي ينتظر منك الاذن ، و حلول الأمر ، فينبه بالنفخة صرعى رهائن القبور " . (١)وقال رسول اللـه (ص) : " خلق الله الصور من لؤلؤة بيضاء في صفاء الزجاجة ، ثم قال للعـرش خذ الصور ، فتعلق به ، ثم قال ، كن ، فكان إسرافيل فأمره أن يأخذ الصور ، فأخذه و به ثقب بعدد كل روح مخلوقة ، و نفس منفوسة ، لا تخرج روحان من ثقب واحد ، وفي وسط الصور كوة كاستدارة السماء و الأرض ، و إسرافيل واضع فمه على ذلك الكوة ، ثم قال له الرب تعالى : قد وكلتك بالصور ، فأنت للنفخة و للصيحة ، فدخل إسرافيل في مقدم العرش ، فأدخل رجله اليمنى تحت العرش ، و قدم اليسرى ، ولم يطرف منذ خلقه الله ينظر متى يؤمر به " (٢. (

[21]فاذا جاء أمر الله لاسرافيل و نفخ في الصور ، انبعث الناس من قبورهم و بدأ يوم القيامة ، وهناك توضع الموازين الحق ، و تخشع الأصوات للرحمن فلا تسمع(١) بح / ج ٥٩ -ص ٢١٧

(2)المصدر / ص ٢٦١

إلا همسا من هول الموقف ، و تأتي كل نفس بمفردها منقطعة عن كل شيء سوى ما اكتسبت و سعت ، كما يصف القرآن " و كلهم ءاتيه يوم القيامة فردا " (١) .. نعم . هناك اثنان يشايعانه تنتهي مهمة الأول عند إصدار الحكم المصيري بحقه وهو الشهيد الذي يدلي بافاداته أمام المحكمة الإلهية بالحق ان لصالح الشخص أو عليه ، سواء كان ذلك الشهيد الملك الذي كتب أعماله ، أو طرف آخر من البشر و سائر الخلق ، أو كان عضوا منه أو جارحة ، بينما تنتهي مهمة الآخر على باب الجنة إذا كان الشخص من الصالحين أو على باب جهنم إن كان منأصحاب السعير ، وهو السائق ، وهذا الأخير ينتظر حكم الله في من يسوقـه ، فاما يزفه باللطف و الترحاب إلى الجنة ، و أما أن يسوقه بمقامع الحديد إلى النار.

]و جاءت كل نفس معها سائق[

من الملائكة.

]و شهيد[

لقد بينت النصوص الدينية أسماءهم من هم الشهداء الذين يرافقون كل نفس يوم الحساب ؟ ونحن نذكر طائفة منهم:

-1القيادة الرسالية شاهد على الانسان . قال تعالى : " يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا و مبشرا و نذيرا " (٢) . و قال : " إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا الى فرعون رسولا " (٣) و قال يحكي عن شهادة عيسى)ع) : " بل رفعه الله إليه و كان الله عزيزا حكيما * وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل(١) مريم / ٩٥

(2)الاحزاب / ٤٥

(3)المزمل / ١٥

موته و يوم القيامة يكون عليهم شهيدا " (١) ، و قال : " فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد و جئنا بك على هؤلاء شهيدا " . (٢)٢- جوارح الانسان و أعضاؤه تشهد ، قال تعالى : " و يوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم و أبصارهم و جلودهم بما كانوا يعملون * و قالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة و إليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم و لكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون (3) " وقال في موضع آخر : " اليوم نختم على أفواههم و تكلمنا أيديهم و تشهد

أرجلهم بما كانوا يكسبون " (٤.(

-3و الكتاب هو الآخر شاهد علينا بما يحتويه من قيم و مفاهيم إلهية ، قد تتفق معها مواقفنا و سلوكياتنا و أفكارنا و قد تخالفها . قال تعالى : " أفمن كان على بينة من ربه و يتلوه شاهد منه (يعني القرآن) ومن قبله كتاب موسى إماما و رحمة أولئك يؤمنونبه " . (٥(

-4و الملائكة يشهدون . قال تعالى : " رسلا مبشرين و منذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل و كان الله عزيزا حكيما * لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه و الملائكة يشهدون و كفى بالله شهيدا " (٦) كما أنهم يسجلون سعي الانسان في كتابه . قال تعالى " : إنا نحن نحيي الموتى و نكتب ما قدموا(١) النساء / ١٥٨ - ١٥٩

(2)النساء / ٤١

(3)فصلت / ٢٠ - ٢٢

(4)يس / ٦٥

(5)هود / ١٧

(6)النساء / ١٦٥ - ١٦٦

و آثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين " (١. (

-5و تشهد على الانسان كل لحظة من عمره ، إذ ينطبع فيها أثر كل سعي و تفكير يقوم به ، و ربما مر عليه الزمان دون أن ينتفع منه ، فهو يشهد عليه يوم القيامة بذلك ايضا . قال الامام علي (ع) : " ما من يوم يمر على ابن آدم إلا قال له ذلك اليوم : أنا يومجديد و أنا عليك شهيد ، فافعل في خيرا و اعمل في خيرا ، أشهد لك به يوم القيامة ، فانك لن تراني بعد هذا أبدا. (2) "

-6و كذلك يشهد أولياء الله على غيرهم ، لأنهم باعمالهم الصالحة ميزان لأعمال الناس ، و حجة يرفعها الله على الآخرين ، فالمجاهدون حجة على المتقاعسين و القاعدين ، و المهاجرون حجة على الذين رضوا الذل و العيش في ظل الظلمة ، و المتواضعون حجة على المتكبرين و هكذا ، يقول الله : " إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله و تلك الأيام نداولها بين الناس و ليعلم الله الذين آمنوا و يتخذ منكم شهداء و الله لا يحب الظالمين " (٣) وقال في سورة الحج : " و جاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم و تكونوا شهداء على الناس " . (٤)٧- و تبقى الشهادة العظمى لربنا الجبار الذي لا تخفى عليه خافية : " يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله و نسوه و الله على كل شيء شهيد * ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو(١) يس / ١٢

(2)نور الثقلين / ج ٥ - ص 112نقلا عن من لا يحضره الفقيه.

(3)آل عمران / ١٤٠

(4)الحج / ٧٨

رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم " (١) ، " قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيدا بيني و بينكم " (٢) و قال عز من قائل " : إن الله يفصلبينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد " (٣) و

قال مؤكدا هذه الشهادة يخاطب رسوله (ص) : " وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين " . (٤(

[22]و هؤلاء الشهود و ذلك السائق كلهم حاضرون اليوم كحضور أي حقيقة أخرى في الواقع ، إلا أن حجب الجهل و الغفلة و الشهوات ، ومن ثم غياب بصيرة الايمان ، تمنع الانسان من الرؤية ، فاذا ما تكشفت له الحقائق و بلغ عين اليقين في معرفتها ، هنالك يأتيه الخطاب من الله:

]لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطآءك فبصرك اليوم حديد]إن الحقائق التي طالما أنكرها المشركون تبدو لهم يومئذ أوضح من الشمس في رابعة النهار .ولقد صدق الامام علي عليه السلام إذ قال : " الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا " أما المؤمنون الصادقون فقد تعرفوا على هذه الحقائق بفضل اتباع وحي الله و أوليائه ، و إنهم كما يصفهم الامام زين العابدين (عليه السلام (إذ يناجي ربه قائلا : " إلهي فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق اليك في حدائق(١) المجادلة / ٦ - ٧

(2)الانعام / ١٩

(3)الحج / ١٧

(4)يونس / ٦١

صدورهم ..فهم إلى أوكار الأفكار يأوون وفي رياض القرب و المكاشفة يرتعون .. قد كشف الغطاء عن أبصارهم ، و انجلت ظلمة الريب عن عقائدهم ، و انتفت مخالجة الشك عن قلوبهم و سرائرهم ، و انشرحت بتحقيق المعرفة صدورهم ... و اطمأنت بالرجوع الى رب الأرباب أنفسهم ،و تيقنت بالفوز و الفلاح أرواحهم " (١ (وهذا اليقين ممكن لكل إنسان لو استشار عقله و اتبع هدى الرب ، إلا أن الغفلة - ومن ثم الاسترسال في الجهل و الشهوات - كل ذلك يحجبه عن الايمان و المعرفة.

[23]و يوم القيامة يرفع الله كل الحجب فاذا بالحقائق واضحة كعين الشمس لا يعتريها شك ولا ريب ، ولكن هل تنفعه المعرفة شيئا ؟ ...كلا . فالكلمة حينها للشاهد الذي رافقه لحظة بلحظة ، و مصيره مرهون بما أعده و سجله عليه وله ، حيث يعرضه على الله.

]و قال قرينه هذا ما لدي عتيد[

أي معد بدقة و حق فهو يعتد به في الحساب.

[25 - 24]وعندما توضع أعمال الانسان في الميزان يصدر الله حكمه الحاسم في حقه ، فان ثقلت موازينه أدخل الجنة صالح البال راضي النفس ، وإن خفت أمر الله السائق و الشهيد أن يأخذانه إلى النار .

]ألقيا في جهنم كل كفار[

أنكر فضل الله ، ولم يؤد شكر نعمائه بعبادته و التسليم له.

(1)الصحيفة السجادية / طبعة دار الأضواء - ص ٤٢٠

]عنيد[

خالف آياته و أوامره و عاكسها في حياته.

وهكذا يدخل النار كل مانع للخير ، و الخير كلمة واسعة تضم اليها الكثير من المفردات ، فقد يكون الخير المال الذي ينعم به الله على الانسان فلا يخرج منه الحقوق الواجبة ، ولا ينفق منه على المحتاجين ، وقد يكون الخير هو العلم الذي زكاته نشره بين الناس ولكنصاحبه لا يتحمل رسالته في الحياة ، و هكذا يمتد ظل هذه إلى كثير من المفردات الأخرى . ولكن أهم معاني الخير القيادة الصالحة ، و أي خير أعظم من قيادة يهتدي بها الانسان السبيل الحق في مرافق الحياة المختلفة ؟ وكم يكون الانسان آثما حينما يحارب أولياء الله ويصد الناس عنهم ؟

وفي الخبر عن علي بن إبراهيم قال : " و الخير ولاية علي (ع) و حقوق آل محمد (ص) " (١) و لا شك ان محاربة العلماء و الفقهاء و القادة الرساليين جزء لا يتجزأ من محاربة الرسول و الأئمة عليهم السلام ، بل هي محاربة الله ، أولم يقل عز وجل : "من أهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة " ؟؟ وهكذا يحاربه الذي ينال من سمعة أوليائه فيصنع حاجبا بين الناس و بينهم.

]مناع للخير معتد مريب[

و المعتدي هو الذي يتجاوز الحدود و الحقوق ، أما المريب فهو الذي لا قناعة عنده بالقيم و ربما ادعى الايمان لأغراض خبيثة.

[26]وكل هذه الصفات التي تستوجب جهنم (الكفران و العناد ، و منع الخير و الاعتداء و الارتياب) كلها مظاهر للشرك الخفي أو الظاهر.

(1)نور الثقلين / ج ٥ - ص 114

]الذي جعل مع الله إلها ءاخر[

المشرك ليس الذي يعتقد بإله مع الله ، بل الذي يخضع لقيادة لم يأمر بها الله فالذي يرضى عمليا بالحاكم الظالم ، أو يطيع أمره في معصية الله مشرك ، وإن لم يعتقد بأنه رب و إله ، كما ان من يطيع هواه فهو عابد له ، وهو بذلك يستحق العذاب ، و ربنا يأمر الملكين بالقائه في جهنم.

]فألقياه في العذاب الشديد [

و الإلقاء لا يكون إلا من الأعلى الى الأسفل ، و إنما يفعل بأهل النار كذلك ، لان الله خلق الانسان في مرتبة عالية فضله بها على الكثير من خلقه ، فاذا أشرك به و انحرف عن الصراط بدأ سيرته التسافلية و الالقاء في جهنم من الأعلى إلى الأسفل هو تجل لهذه الحقيقة التي تبينها سورة التين في قوله تعالى : " لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين " (١ (أما حينما يستمر على خط الفطرة و يتمسك بحبل الله المتمثل في رسالته و أوليائه ، و يستزيد من عمل الصالحات فانه ينطلق في مسيرة تصاعدية نحوالأعلى ، يتقرب الى الله درجة بعد أخرى " كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين * وما أدراك ما عليون * كتاب مرقوم * يشهده المقربون " (٢. (

[27]و حيث يلقى المشرك في جهنم يظل يهوي إلى الأسفل مدة من الزمن حسب انحرافه و سيئاته الى أن يحل في مكانه المعد له بين يدي عذاب إلهي شديد ، و هناك كما عند الحساب يلقى قرناءه عملا فيدور بينهم خصام شديد يلقي كل طرف فيه اللوم على الطرف الآخر محاولا بذلك التهرب من المسؤولية ، فاذا بالذي

(1)التين / ٤ - ٥

(2)المطففين / ١٨ - ٢١

جعل مع الله آلهة أخرى - وقد أمر به الى النار - يريد التخلص من عذابها بالقاء مسؤولية انحرافه و ضلاله على قرينه.

]قال قرينه ربنا ما أطغيته [

إنه كاذب في ادعائه بانني السبب في طغيانه ، ثم يستدل قائلا:

]و لكن كان في ضلال بعيد[

ربمـــا يكون للآخرين دور في انحراف مسيرة الانسان و لكنه لا يعدو كونه مساعدا ، أما الدور الأكبر و السبب الحقيقي مرهون باختياره و إرادته للباطل دون الحق ، فلأنه أساسا اختار الضلال تجد مساعي الآخرين و الظروف المتجانسة مع اختياره موقعا مؤثرا في حياته.

[28]ثم إن التخاصم عند الله لا ينفعهم شيئا و ذلك لما يلي:

أولا :إن المصير الذي صاروا اليه لم يكن مفاجئا ولا غامضا بالنسبة لهم . و كيف يكون كذلك وقد أقام الله الحجة البالغة عليهم ، و أنذرهم من هذه العاقبة ، عبر كتبه و رسله ؟

]قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد[

و أنذرتكم من أن الشرك و الضلال يستوجب العذاب الشديد ، و ضربت لكم المثل تلو المثل من حياة الأقوام السابقة (الآيات ١٢ إلى ١٤) و لكنكم كذبتم النذر ، و استهزأتم بالوعيد ، و القرآن يفصل هذه الحقيقة في موضع آخر ، يقول تعالى : " تكاد تميز من الغيظكلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا و قلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير *و قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير " . (١)[٢٩] ثانيا : إن لله سننا و قيما في هذه الحياة ، جعلها حاكمة و جعلها الميزان في كل قضية ، و على أساسها يكون حساب الناس و مصيرهم ، وهي ثابتة لا تتغير . و منها ان جزاء الكافر و المشرك النار ، و جزاء المؤمن الجنة ، و لا يمكن أن يكون العكس و إلا فما هيحكمة الحياة الدنيا ، وما هو دور النذر إذا لم يجعل الله للثواب و العقاب نظاما محددا ؟!

]ما يبدل القول لدي[

ومن القول الثابت الذي تعنيه هذه الآية ما جاء في سورة (ص) عندما أقسم الشيطان أن يغوي العباد فرد الله عليه : " قال فالحق و الحق أقول * لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين " (٢. (

ثالثا : إن العدالة الإلهية تأبى ذلك ، إذ كيف يستوي المحسن و المسيء ؟! أم كيف يصير الظالم إلى جانب المظلوم في الجنة دون أن يقتص من الأول ، و ربما فات الأخير الثأر في الدنيا ؟! أترى من العدالة أن يدخل الجنة المانع للخير و الممنوع عنه ؟! أو المعتدي والمعتدى عليه ؟! أترى يدخل ابن ملجم الجنة مع الامام علي وقد فجع المسلمين بقتله ؟! أم يدخل يزيد الجنة مع الحسين وقد ذبحه كما تذبح الشاة وهو ابن خاتم الأنبياء ، و سيد الأوصياء ، و سيدة نساء العالمين ؟! .. كلا . و حاشا لله عز وجل وهو العادل أن يفعل ذلك، وهذا كتابه ينطق عنه قائلا:

]وما أنا بظلام للعبيد[

(1)الملك / ٨ - ١١

(2)ص / ٨٤ - ٨٥

و إلى هذا المعنى يشير دعاء الامام علي (ع) حيث يناجي ربه قائلا " : فباليقين أقطع صادقا لولا ما حكمت به من تعذيب جاحديك ، و قضيت به من إخلاد معانديك ، لجعلت النار كلها بردا و سلاما ، وما كان لأحد فيها مقرا ولا مقاما ، لكنك تقدست أسماؤك أقسمت أنتملأها من الكافرين من الجنة و الناس أجمعين ، وأن تخلد فيها المعاندين ، وأنت جل ثنـــاؤك قلـت مبتدئـا و تطولت بالانعام متكرما ، أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستـــوون. (1) "

[30]رابعا : و أخيرا يثير القرآن في أذهاننا و بصورة غير مباشرة تساؤلا هاما وهو لماذا خلق الله النار ؟ هل خلقها عبثا و كيف يصدر منه ذلك وهو الحكيم الخبير . وقد قال في كتابه : " وما خلقنا السماء و الأرض وما بينهما لاعبين * لو أردنا أن نتخذ لهوالاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين * بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون " (٢) ؟!

إذن ماهو هدف خلق النار ؟؟ و الجواب واضح نجده في كثير من آيات القرآن إلا وهو مجازاة العاصين لله ، كما إن الجنة خلقت لاكرام المطيعين.

]يوم نقول لجهنم هل امتلأت و تقول هل من مزيد[

و هذه الآية و آيات أخرى في القرآن تفند ما ذهب اليه البعض من انه لا يوجد عذاب عند الله و عللوا ذلك بأنه عز وجل رؤوف خلق عباده ليرحمهم لا ليعذبهم ، ومن هذا المنطلق راحوا يؤولون الآيات التي جاءت بصدد التحذير و الوعيد بأنها لمجرد التخويف حتى يطيع الناس ربهم ، و إلا فهي لا واقع لها.

(1)مفاتيح الجنان / دعاء كميل - طبعة دار إحياء التراث العربي المخطوطة / ص ٦٦(٢) الانبياء / ١٦ – ١٨

فذكر بالقرآن من يخاف وعيد
هدى من الآيات

لا تزال الآيات القرآنية تعالج العجب الذي اعترى الكفار من حديث البعث ، وهي في هذا الدرس تصور لنا بعض مشاهد القيامة ، لتكشف لنا جانبا من أسرار النشأة الأخرى التي لا وسيلة للتعرف عليها إلا من خلال القرآن لكن الهدف الأهم من ذلك لهذا اللون من الحديث هوالتربية ، ذلك أنه لو ترك الانسان الحجب الشهوانية ، و الاجتماعية ، و التربوية ، و الوراثية ، لرأى الحقيقة بوضوح تام ، لأن هذه الحجب و الأغلال هي التي تمنع عقله من الانطلاق في آفاق الايمان و المعرفـة . و لكن كيف يقتحم البشر هذه العقبات ، و ينفذ بعقلهإلى ما ورائها عن الحقائق ؟

إن ذلك لا يمكن إلا بهزة عنيفة تتعرض لها نفسه ، فتسقط عنها أستارها ومن شأن الآيات القرآنية بحديثها عن مشاهد القيامة السلبية و الايجابية ، و بالاسلوب البلاغي و النفسي الرائع أن تحدث هذه الهزة.

إن مجرد سماع الانسان حديث القيامة يكفي أن يبعثه نحو التفكير ، وإذا فكر تفكيرا سليما اهتدى الى الحقيقة ، و نضرب على هذه الفكرة مثلا فنقول : لو كان شخص يسير باتجاه حفرة في طريقه ، فان مخاطبته بكلمة إنتبه وحدها ، حري بأن يرفع عنه الغفلة و يوقظ عقله وحواسه ، فيكتشفها دون أن يحتاج الأمر الى بيان مفصل . و هكذا لو كنت في سيارة تسير بسرعة وقد غفل سائقها في حين اعترضته سيارة أخرى ، فان رفع الغفلة عنه قد لا يحتاج إلا الى كلمة واحدة ليضغط على الفرامل . وهكذا القرآن يهز ضمير الانسان لينتبه من غفلته ، ويستثير عقله في مسيرة الحياة ليفكر فيهتدي للحق ، لأن مشكلته الأساسية أنه لا ينتفع بعقله.

ثم إن القرآن جاء ليحقق هدفين هما : تزكية نفس الانسان بهدايته الى الحق و دفعه للالتزام به في كل جوانب الحياة ، كما جاء ليزيده علما بالحقائق من حوله وفي نفسه " هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته و يزكيهم و يعلمهم الكتاب و الحكمةو إن كانوا من قبل لفي ضلال مبين " (١)

لذلك فالآيات كلها تنتهي إلى أحد هذين الهدفين أو إليهما جميعا في موضع واحد ، ومن هنا ينبغي لنا أن نقرأها مرة للتعلم و مرة للاتعاظ.

بينات من الآيات

[31]إن الله لم يخلق ولا شبرا واحدا من النار عبثا ، إنما ليتعذب فيه واحد من المجرمين ، ولم يخلق الجنة إلا ليكرم بها فريقا من عباده هم المتقون ، و ليس يفصل بين الجنة أو النار و بين أي واحد منا إلا عمله ، فان شاء نقلته سكرة الموت الى غضب الله و عذابه ، و إن صلح نقلته الى رضوان الله و ثوابه .و الانسان حر في عمله فاما يختار الضلال (الكفر و الفساد و منع الخير و الاعتداء على الآخرين و الارتياب في(١) الجمعة / ٢

الحق (فيكون مصيره النار ، و اما يختار التقوى (الأوبة الى الله ، و حفظ حدوده و أحكامه ، و خشيته بالغيب ، و تصفية القلب من الأدران بالانابة و التوبة (فيكون مصيره الجنة.

]و أزلفت الجنة للمتقين[

و نتساءل كيف تزلف الجنة للمتقين ؟ و الجواب إن لهذه الآية تفسيرين:

الأول :إن الجنة بما فيها من نعيم و رضوان من الله منزلة رفيعة ، و مهما سعى الانسان و بالغ في عمل الصالحات فانه لا يرتقي اليها بعمله وحده ، وإنما يقربه منها أو يقربها منه فضل الله و رحمته ، قال النبي (ص) : " و الذي نفسي بيده ما من الناس أحد يدخل الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟! قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه و فضل " (و وضع يده على فوق رأسه و طول بها صوته) (١. (

و حين يدخل المؤمنون الجنة تتبين لهم هذه الحقيقة كما أدركوها ببصيرة الوحي في الدنيا ، فهم يعتبرون نجاتهم من العذاب بفضل الله و منه لا بعملهم " قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين * فمن الله علينا و وقانا عذاب السموم * إنا كنا من قبل ندعوه إنه هوالبر الرحيم " (٢. (

الثاني : إن الجنة قمة سامقة لا يصلها الانسان حتى يتصف بما يجعله لائقا لها ، فهي بعيدة كل البعد على الكافرين و العاصين ، و لكنها أقرب ما تكون إلى المؤمنين و المطيعين ، و ان الذي يقربها أو يبعدها إنما هو مقدار عمل الانسان و مجمل صفاته(١) موسوعة بحار الأنوار / ج ٧ - ص ١١

(2)الطور / ٢٦ - ٢٨

الايمانية التي نقرأها في الآيات التالية.

وهذا التفسير لا يتعارض مع التفسير السابق بل يلتقي معه و ينتهي إليه ، فرحمة الله التي هي العامل الأساسي و المباشر في الدخول الى الجنة ، و لكنها لا تشمل أحدا بلا سبب ، بل لابد أن يكون هو في مستوى استيعاب الرحمة.

و لان من عقد البشر النفسية استعجال النتائج فتراه يكفر بالآخرة ولا يسعى للجنة سعيها لأنها في نظره جزاء بعيد ، فقد أكد القرآن على الجنة:

]غير بعيد[

[32]ولكن ماهي الأعمال و الصفات التي تقربنا الى الجنة ؟

إن جميع الاعتبارات الشيئية تسقط يوم القيامة ، و تبقى القيم و الأعمال الصالحة هي الميزان . فلا يقرب أحد من ربه لسانه العربي ، ولا لونه الأبيض ولا نسبه الشريف ، و إنما تنفعه الحقائق التالية:

أ - الإياب إلى الله و الإياب يعني لغة الرجعة ، قال تعالى : " إن جهنم كانت مرصادا * للطاغين مآبا " (١) و قال حاكيا عن سليمان (ع) : " و الطير محشورة كل له أواب " (٢) و تسمى التوبة أوبة لأنها عودة الى الفطرة السليمة بعد الانحراف عنها قال تعالى : " ربكم أعلم بما في نفوسكم أن تكونوا صالحين فانه كان للأوابين غفورا " (٣. (

إن الناس كلهم خطاؤون ينحرفون عن الحق إلى الباطل في حياتهم عنادا ، أو(١) النبأ / ٢١ - ٢٢

(2)ص / ١٩

(3)الاسراء / ٢٥

بسبب الضغوط أو حتى من دون شعور ولكن المؤمن يتميز عن الآخرين بأنه أولا لا يمارس الانحراف عن جحود و عناد ، و ثانيا بأنه لا يستمر على الخطأ بل يسعى لتصحيحه و علاجه في أقرب فرصة ممكنة ، فاذا به يستغفر بعد الذنب ، و ينتبه بعد الغفلة ، و يستقيم بعد الانحراف ، و يتذكـــر بعد الجهل ، فكلما أبعدته ذنوبه عن الله تقرب اليه بالتوبة ، وكلما استغفلته طبيعته المركوزة في الجهل تعينها ضغوط الحياة تذكر بآيات الله و استعان بارادة الايمان على الاقلاع من الانحراف ، فهو يبالغ في التوبة الى ربه و يكررها حتى بالنسبة بالذنب الواحد ، الذي يتوب عنه ثم يعود إليه ثانية و ثالثة ، دون أن يدع اليأس يسيطر عليه ، لايمانه برحمة الله الواسعة و غفرانه و لماذا يقنط ، اليأس من صفات الكافرين ؟ و لماذا ييأس وهو يسمع نداء ربه في كتابه : " قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهملا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم " (١) أو قوله عز وجل : " ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون " (٢) فالمؤمن يرى مجرد غفلته عن ربه ابتعادا عنه فيؤوب اليه مآبا ، فهو دائم الأوب و دائم التسامي و دائم العروج إلى الله بتأنيب الذات.

ب - المحافظة على حدود الله ، (مناهجه و شرائعه (في الحياة الفردية و الاجتماعية بجميع أبعادها ، فاذا بك ترى الحق يتجلى في كل حركاته و سكناته . فهو كما وصفه الامام علي (ع) إذ قال : " قد نصب نفسه لله سبحانه في أرفع الأمور من إصدار كل وارد عليه، و تصيير كل فرع إلى أصله ... قد أخلص لله فاستخلصه ، فهو من معادن دينه ، و أوتاد أرضه ، قد ألزم نفسه العدل ، فكان أول عدله نفي الهوى عن نفسه ، يصف الحق و يعمل به ، لا يدع للخير غاية إلا أمها ، ولا مظنة إلا قصدها ، قد أمكن الكتاب من زمامه ، فهو قائدهو إمامه ، يحل

(1)الزمر / ٥٣

(2)الحجر / ٥٦

حيث حـــل ثقله ، و ينزل حيث كان منزله " (١) فلا يضيع لديه حكم سنة الله ، ولا حق لأحد ، فعهد الله له بالاستقامة على الحق محفوظ ، يصدق مع الناس ولا يغش ، و يرعى الامانة و .... " و الحافظون لحدود الله و بشر المؤمنين. (2) "

إن المتقين يعتبرون أنفسهم شهداء في تطبيق النظام الاسلامي ، و حدود الشريعة المقدسة . لذلك فهم لا يعطون لأنفسهم الحق في تغيير الحدود الدينية بتبرير أنهم ثوار و مجاهدون ، بل إنك تراهم يلتزمون قبل غيرهم بتفاصيل المناهج التي بينها لهم ربهم سبحانه ، و لذلك فان الله يعدهم برحمة منه واسعة ، و يبدو أن القرآن يشير الى هذين الأساسين للتقوى بقوله سبحانه:

]هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ[

[33]و تسأل متى يؤوب الانسان الى الله و يحفظ حدوده ؟ و الجواب حينما يخشاه بالحق ، و ذلك ان الانسان قد يظهر إمارات الخوف لأهداف و مصالح دنيوية يرومها ، إلا أنها لا واقع لها ، و الخائف الصادق

من الله هو الذي يخشاه حينما يكون بعيدا عن الأنظار ، فاذابه و قد تهيأت له اسباب المعصية يقاوم شهوته و يتركها إيمانا منه برقابة الله التي هي في نظره أهم من أية رقابة أخرى.

]من خشي الرحمن بالغيب[

و الاسلام يسعى قبل كل شيء لزرع الوازع الديني - الخوف من الله - في نفوس أتباعه كضمانة للالتزام بأنظمته و أحكامه ، ذلك أن أثر هذا الدافع أبلغ من سائر الروادع.

(1)نهج / خ ٨٧ - ص ١١٨

(2)التوبة / ١١٢

]و جاء بقلب منيب[

و تشير كلمة جاء الى شرط الجنة الاستقامة على الحق حتى لقاء الله (المجيء له بقلب طاهر سليم . (

[34]و إذا أحرز الانسان هذه الصفات صار في زمرة المتقين الذين يدخلون الجنة بسلام.

]ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود[

الانسان في الدنيا لا يصل الى ما يريد إلا بالجهد و التضحية ، ثم إن أجله محدود فيها مما يجعل لذته بنعمها قصيرة على خلاف الجنة ، فان ما يحصل منها لا تعب فيه ولا لغوب ولا صراع ولا منافسة ولا يورث مرضا أو غصة ، بينما الدنيا بعكس ذلك تماما (لا سلام فيها) بل هي قائمة على أساس الفساد فلا ينال المرء فيها نعمة إلا بترك أخرى ، ولا يتمتع بلذة إلا و تسبب له منغصة ، ولا يستقبل يوما من عمره إلا بوداع يوم من أجله حتى قال الشاعر:

زيادة المرء في دنياه نقصان و ربحه غير محض الخير خسران[٣٥] ومن الفوارق بين الدنيا و الجنة ، ان الانسان مهما بلغ من التمكن و القدرة في الدنيا لا يصل الى كل أهدافه و أمانيه ، بل يقصر عن تحقيق الكثير منها ، على عكس ما في الجنة التي يتحقق له فيها ما يريد بمجرد أن ينوي ذلك ، بل و يزيده الله من فضله ساعة بعد ساعة.

]لهم ما يشاءون فيها و لدينا مزيد[

قال الامام الصادق (ع) : " إن لله كرامة في عباده المؤمنين في كل يوم جمعة ، فاذا كان يوم الجمعة بعث الله الى المؤمن ملكا معه حلتان فينتهي الى باب الجنة فيقول : استأذنوا إلي على فلان ، فيقال له : هذا رسول ربك على الباب فيقول لأزواجه : أي شيء ترين علي أحسن ؟ (١) فيقلـــن : يا سيدنا و الذي أباحك الجنة ما رأينا عليك أحسن من هذا ، قد بعث اليك ربك فيتزر بواحد و يتعطف بالأخرى ، فلا يمر بشيء إلا أضاء له حتى ينتهي الى الموعد ، فاذا اجتمعوا تجلى لهم الرب تبارك و تعالى ، فاذا نظروا إليه أي الى رحمتهخروا سجدا ، فيقول : عبادي ! ارفعوا رؤوسكم ليس هذا يوم سجود ولا عبادة ، قد رفعت عنكم المؤونة ، فيقولون : يا رب وأي شيء أفضل مما أعطيتنا ؟ أعطيتنا الجنة ، فيقول ، لكم مثل ما في أيديكم سبعين ضعفا ، فيرجع المؤمن في كل جمعة بسبعين ضعفا مثل ما في يديه ، وهوقوله : " و لدينا مزيد " (٢. (

[36]ثم إن القرآن و ضمن علاجه للكفر بقدرة الله على البعث - يدعو الكفار الى التفكر في آثار قدرته و هيمنته على الحياة من خلال قراءة التاريخ البشري المليء بالشواهد على ذلك ، ليعلموا أن الحياة ليست عبثا ، بل تسير وفق حكمة مقدرة ، فالأقوام السابقة إنماأهلكوا لتكذيبهم بالحق.

]و كم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا[

و هذه سنة جارية في الحياة لا يعطلها شيء ، ولا يمنعها البشر مهما أتوا من قدرة ، و لفظة أهلكنا مضافة الى كلمة " كم " التي تفيد الاستفهام عن العدد ، تنطويان على تأكيد بأن ما حدث في التاريخ ليس مفردة جرت من باب الصدفة ، و إنما هي ظاهرة مستمرة تدل على سنة حاكمة تلتقي فيها تلك الشواهد ، و يتضح(١) يستشيرهن في أفضل ثيابه ليتزين بها عند لقاء رسول ربه.

(2)نور الثقلين / ج ٥ - ص 115

فيها الفعل الإلهي المقصود . ثم إن بعض الأقوام وصلوا من القوة أكثر مما صار اليه المجتمع العربي يوم نزول القرآن ، و لكن الله أهلكهم فهل يتصورون على أنهم قادرون على دفع الهلاك إذا حل بساحتهم . و امتزاج الضمائر و الاشارات في هذه الآية بين أولئك و هؤلاء يحمل طياته إنذارا للمشركين باهلاكهم بطريقة أو بأخرى إذا ما حذوا حذو السابقين ، ولن يجدوا حينئذ مخرجا ولا سبيلا الى النجاة.

]فنقبوا في البلاد هل من محيص[

و المحيص من حاص يحيص ، وهو المكان الذي تحفره البطة لتضع فيه بيضها ، و قد سعت تلك الأقوام ليجدوا لأنفسهم مخرجا ولو بمقدار المحيص فلم يقدروا ، و وقع بهم العذاب.

[37]وما في التاريخ من دروس و عبر آيات تستثير عقل الانسان و تهديه الى الحق ، و لكن بشرط أن يتجاوز الأغلال و الأثقال التي تمنع النفس من التحليق في سماء الهداية و المعرفة ، و تعيق العقل من العبور عبر الشواهد و الآيات الى الحقائق.

]إن في ذلك لذكرى[

تستنقذ البشر من الغفلة و الضلال ، و تعود إلى الحق الذي فطر عليه أن آيات الله سواءا التي تتضمنها رسالته ، أو تلك التي تتجلى في نفس الانسان وفي الآفاق ، أو التي تجلت ولا زالت تتجلى في تاريخ البشرية ، إنها كلها تشع بأمواج الهداية و التذكرة ، ولكن منالذي تنفعه هذه الآيات فتكون له ذكرى في الحياة ؟ انما صاحب القلب.

]لمن كان له قلب[

يعني العقل (الذي هو جوهر النفس) وإنما سميت النفس قلبا تقلبها من حال إلى حال أو بسبب تقليب المعلومات سعيا وراء المعارف الجديدة.

و صاحب القلب هو الذي يقلب الامور بتفكيره على وجوهها المتعددة ليتبع أحسنها بعد نظرة عميقة شاملة . يقول تعالى : " الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله و أولئك هم أولو الالباب " (١) و لعل المقصود لأولي القلوب هم العلماءالذين يفقهون معاني الآيات باستشارة عقولهم مما نجد لهم إشارة في قوله تعالى : " وما يعلم تأويله إلا الله و الراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب " (٢) قال الامام الكاظم (ع) : " يا هشام إن الله يقول في كتابه : " إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب يعني عقل " (٣) ولا ريب ان أهل بيت العصمة و أئمة الهدى عليهم السلام أئمة العقلاء و الراسخين في العلم فهم أجلى مصاديق هذه الآية الكريمة ولا غرابة أن يقول أمير المؤمنين (ع) : " ألا و اني مخصوص في القرآن بأسماء احذروا أن تغلبوا عليها فتضلوا في دينكم ، أنا ذو القلب ، يقول الله عز وجل : " إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب " (٤. (

وإذا لم يكن الانسان عالما يستطيع التذكر و الاهتداء الى الحق بنفسه ، فانه يجد سبيلا الى ذلك بالاستماع الى آيات الله و اتباع أئمة الحق و الهدى و العلماء الصالحين.

]أو ألقى السمع وهو شهيد[

(1)الزمر / ١٨

(2)آل عمران / ٧

(3)نور الثقلين / ج ٥ - ص 116

(4)المصدر

إن المشكلة الحقيقية للانسان الذي لا يهتدي ليست عدم وجود القلب أو السمع ، و إنما هي توظيفه لهما ، كما جوارحه و إمكاناته الأخرى في الأمور السافلة أو التافهة . يقول تعالى : " و لقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن و الإنس لهم قلوب لا يفقهون بها و لهم أعين لا يبصرون بها و لهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون " (١. (

و لوجود هذه المشكلة يشرط القرآن على الانسان شرطين حتى ينتفع بسمعه من كلام الآخرين و تجاربهم من آيات الذكر ، فأولا أن يوظف سمعه " يلقي السمع " ثانيا أن لا يكون السمع بذاته هدفا فيقف الواحد عند الحروف أو عند حدود العلم ، بل يعتبر السمع وسيلة الى هدف هو العمل بالحق ، و الحروف و العلم طريقا الى الموعظة . و بكلمة لابد أن يكون مسؤولا (شاهدا) على ما يصله من العلم ، قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله و رسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون * ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون * إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون " (٢. (

وقال مبينا هدف السمع و بعض الجوارح " و الله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا و جعل لكم السمع و الأبصار و الأفئدة لعلكم تشكرون " (٣. (

و يضرب القرآن مثلا للمستمع الشهيد من واقع المؤمنين الذين يذكرون الله على كل حال وفي كل حين فيقول حاكيا عنهم : " ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا " (٤) إن السمع الذي لا يملك صاحبه الاستعداد لتحمل(١) الأعراف / ١٧٩

(2)الأنفال / ٢٠ - ٢٢

(3)النحل / ٧٨

(4)آل عمران / ١٩٣

مسؤوليته لا ينفع شيئا ، و ماذا يستفيد من سماع الحق ذلك الانسان الذي يتهرب من مسؤوليته بالتكبر أو التبرير أو الاستهزاء : " ويل لكل أفاك أثيم * يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم * وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذهاهزوا أولئك لهم عذاب مهين " (١) و تجارب التاريخ البشري تحملنا مسؤولية الايمان بالله فاذا لم يتجاوز سماع هذه التجارب الى الايمان فما قيمة سماعنا لها ؟

[38]و كما تتجلى آيات قدرة الله في التاريخ البشري بصورة إهلاك الأقوام المكذبة ، فانها تتجلى في الطبيعة بصورة أخرى تتجسد في الخلق و الابداع و التفكر في تلك الآيات هذه تفكيرا عميقا (بالقلب السليم و السمع الشهيد) كفيل بأن يجعل فكرة البعث فكرة واقعية ، و يدفع الانسان للتصديق بالرجوع بعد الموت فلا تصبح الفكرة عندها أمرا شاذا (عجيبا) ، ولا البعث مستحيلا (بعيدا) كما يعتقد الكافرون .

دعنا ننظر نظرة عميقة الى الطبيعة من حولنا ، و لنركز الفكر في خلق الأرض التي تقلنا ، و السماء الواسعة التي تظلنا ، و لنتساءل أيها أعظم ، هل خلقهما أم خلق الانسان هذا الذي لا يكاد يبين بالقياس إليها ؟! لا ريب انهما أعظم خلقا و أعقد " لخلق السموات و الأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون " (٢) ومع ذلك فان خلقهما وما بينهما تم في ستة أيام ولم يكن مضنيا.

]و لقد خلقنا السموات و الأرض وما بينهما في ستة أيام]و لعلنا نتساءل لماذا لم يتم الله ذلك الخلق في مدة أقل ؟ و ربما يذهب بعضنا الى(١) الجاثية / ٧ - ٩

(2)المؤمن / ٥٧

القول بأنه كان يتعب فيستريح كلا.

]و ما مسنا من لغوب[

إن الله قادر على خلق كل شيء في مدة يتلاشى فيها الحساب الزمني ، و إنما جعل الخلق في ستة أيام لحكمة يعلمها ، أنه أراد بيان حقيقة مهمة لنا ، وهي ان كل شيء في الحياة لم يخلق كاملا منذ أول لحظة ، وإنما هو يسير نحو التكامل ، وحتى أنت أيها الانسان في مسيرة البناء الذاتي أو الحضاري ينبغي لك التحرك نحو الأسمى.

ومادام الله خلق السماوات و الأرض وما بينهما في هذه المدة ومن دون أن يمسه شيء من التعب أو التكلف ، فهل يصعب عليه بعثنا يوم القيامة ؟ وما نحن بالنسبة لذلك الخلق حتى يصعب على مبتدعه خلقنا مرة أخرى ؟! " أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها * رفع سمكهافسواها * و أغطش ليلها و أخرج ضحاها * و الأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها و مرعاها * و الجبال أرساها * متاعا لكم و لأنعامكم - ثم مباشرة يحدثنا عن يوم القيامة فيقول : - فإذا جاءت الطامة الكبرى " (١) و الصلة المختصة بين الحديث عن آيات الطبيعة وعظمتها ، و الحديث عن يوم القيامة لاثبات فكرة البعث من خلال تلك الآيات و العظمة صلة صميمة تتجلى في كل آيات القرآن.

[40 - 39]و يكاد قلب المؤمن يتفطر من تكذيب الكفار بحقيقة البعث و الجزاء التي يتلمسهما المؤمن وراء كل ظاهرة وفي كل أفق وفي كل لحظة من حياته ، الأمر الذي قد يستدعي منحة زخة من الصبر.

(1)النازعات / ٢٧ - ٣٤

]فاصبر على ما يقولون[

و نجد في موضع من القرآن توجيها مشابها من قبل الله للرسول (ص) و للمؤمنين ، يقول تعالى : " واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا " (١. (

ولابد للانسان حتى يقاوم مختلف الضغوط المضادة للحق من الاتصال بالله بالصلاة و العبادة ، ليتعرف على ربه أكثر فينزهه عن الأباطيل ، و ليستمد منه العون و التوكل لذلك يقول تعالى هنا:

]و سبح بحمد ربك[

و هكذا يقول في سورة الاسراء وصلا بالشاهد المتقدم : " أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل و قرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا * ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا * وقل رب أدخلني مدخل صدق و أخرجني مخرج صدق واجعل لي منلدنك سلطانا نصيرا " (٢. (

إن هذا التأكيد على الاتصال بالله بالصلاة و بالقرآن و بالدعاء في حال تعرض الانسان المؤمن للضغوط المضادة هو تعبير بصورة أخرى عما تنطوي عليه هذه الآية من سورة " ق. "

ولأن القرآن يفسر بعضه بعضا فاننا نجد تفسيرا للعلاقة بين الصبر و الصلاة و دورهما في مقاومة الضغوط في قوله تعالى :" و استعينوا بالصبر و الصلاة و إنها لكبيرة إلا على الخاشعين. (3) "

(1)المزمل / ١٠

(2)الاسراء / ٧٨ - ٨٠

(3)البقرة / ٤٥

وفي هذه السورة يدعو الله نبيه ومن خلال ذلك المؤمنين عبر الزمن و الأجيال الى الاتصال به بالصلاة وفي مرات عديدة كل يوم.

]قبل طلوع الشمس[

يعني بين الطلوعين ، طلوع الفجر و طلوع الشمس ، و تسبيح الله يكون بالذكر و بالصلاة و بالقرآن ، و هنا تأكيدات عديدة في النصوص الاسلامية على ضرورة استثمار هذه الفترة بالاتصال بالله ، قال تعالى : " أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل و قرآن الفجرإن قرآن الفجر كان مشهودا " و قال النبي الأعظم (ص) : " ما عجت الأرض الى ربها كعجها من ثلاثة (إلى أن قال) و النوم عليها (يعني الصلاة) قبل طلوع الشمس " (١) و قال أمير المؤمنين)ع) : " و اطلبوا الرزق فيما بين طلوع الفجر الى طلوعالشمس ، فانه أسرع في طلب الرزق من الضرب في الأرض ، وهي الساعة التي يقسم الله فيها الرزق بين عباده " (٢) و سئل الصادق (ع) عن الآية فقال : " تقول حين تصبح و حين تمسي عشر مرات ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك و له الحمد ، وهو على كلشيء قدير " (٣. (

وهكذا ينبغي أن يفتتح الانسان المؤمن يومه الجديد بالذكر و الصلاة و القرآن ، يستمد من كل ذلك زخما روحيا يزيده نشاطا في عمله ، و إرادة يتحدى بها شبهات الكفار و أضاليلهم ، و كل الضغوط التي يواجهها في حياته اليومية ، و لأن الانسان قد يتعرض لتحدي الضغوط، و ربما ضعف أمامها أكثر من مرة في اليوم الواحد ، لذلك تأتي الدعوة اليه في طرفي النهار و طرفي الليل.

(1)نور الثقلين / ج ٥ - ص 118

(2)المصدر

(3)المصدر

]و قبل الغروب[

الظهر و العصر.

]و من الليل فسبحه[

يعني أوله حيث صلاة المغرب و العشاء.

]و أدبار السجود[

يعني النافلة التي تعقب صلاة المغرب (الأربع أو الغفيلة) قال الامام الرضا)ع) : " أربع ركعات بعد المغرب " (١) و قال الامام الصادق (ع) : " ركعتين اللتين بعد المغرب هما أدبار السجود " (٢. (

[42 - 41]و بالاضافة الى الصبر و التسبيح ينبغي للمؤمن لكي يقاوم تحديات الأعداء أن يفكر في الآخرة وفي المصير الذي ينتهون اليه في الدنيا حينما يظهر المؤمنون بدولة الحق.

]واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب * يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج]قال علي بن أبراهيم (رض) : " ينادي المنادي باسم القائم و اسم أبيه " وعن الصيحة قال " : صيحة القائم من السماء " (٣) ان العاقبة السوء التي تنتظر أعداء الرسالة تكون في الآخرة متجسدة في ألوان العذاب الإلهي ، و لكنها تتجلى دنيويا في

(1)المصدر

(2)المصدر

(3)المصدر

دولة الحق التي يظهر بها قائم أهل البيت عليهم السلام.

وكما أن دولة القائم (عج) هي تجل أصغر لعذاب الآخرة على الظلمة ، فان دولة الحق الأخرى التي تظهر على أيدي المؤمنين هي تجل محدود لهذه الدولة ، والى هذه الفكرة نجد إشارة في قوله تعالى : " فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون * يوم لا يغني عنهمكيدهم شيئا ولا هم ينصرون * وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون " (١) ولعل كلمة الخروج في الآية التي نحن بصدد تفسيرها تعني - بالاضافة الى الخروج الى البعث - خروج دولة الحق.

[43]ثم يعود السياق الى تأكيد الحقيقة التي يكذب بها الكافرون فكانت سببا لانحرافات بعيدة أخرى في حياتهم ، وهي البعث بعد الموت ، وقد تقدمت الاشارة اليها في قوله تعالى ، حاكيا عن الكفار " : أإذا متنا و كنا ترابا ذلك رجع بعيد " (٢. (

]إنا نحن نحي و نميت و إلينا المصير[

بلى .قد تكون هناك أسبابا طبيعية ظاهرية للحياة و الموت ، و لكن الواقع الذي يغيب عن أذهاننا انهما و البعث بيد الله ، و هذه الحقائق الثلاث (الحياة +الموت + البعث) تثبت بعضها بعضا . ولو أن الكافرين تفكروا في وجودهم و حياتهم لاهتدوا الى أن الله هوالذي أوجدهم و أنه الذي يميتهم و أنهم يبعثون ، وليس كما زعموا : " و قالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت و نحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون " (٣. (

(1)الطور / ٤٥ - ٤٧

(2)ق / ٣

(3)الجاثية / ٢٤

[44]إن مشكلة الانسان العميقة التي تجعله يكفر بالبعث أو يشك في الآخرة ، هي شكه في قدرة الله ، بسبب نظرته المحدودة الى الحياة ، فاذا به يستبعد كما في هذه السورة أن يرجع الانسان سويا بعد

تحوله الى تراب أو رميم من العظام لذلك يؤكد الله يسر الأمر عليهفيقول:

]يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير[

كما تشقق عن الفطر و النبات ، ولكن العملية تتم في فترة زمنية وجيزة جدا ، فاذا بالناس جميعا وقوف ينظرون ، وهذه من أصعب الساعات على البشر ، قال الامام علي (ع) : " أشد ساعات ابن آدم ثلاث (منها) الساعة التي يقوم فيها من القبر " (١) و قال:
"لا تنشق الأرض عن أحد يوم القيامة إلا و ملكان آخذان بضبعه (عضده) يقولان : أجب رب العزة . (2) "

[45]و يختم الله السورة بالتأكيد للنبي - و لكل داعية الى الحق - بأنه ليس مسؤولا عن الناس وليس عليه أن يجبر الناس على قبول الحق ، وإنما مسؤوليته تتلخص في تبليغ رسالته اليهم ، أما الحساب الفصل فهو عند الله ، الذي هو أحرص على رسالته ، و أعلم بمواقف الناس تجاهها.

]نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرءان من يخاف وعيد]وما هي قيمة الايمان الذي لا يأتي عن قناعة راسخة بضرورته ؟ إنه لا ينفع صاحبه ، ولا يخدم الرسالة ، وفي هذه الآية بيان لجانب من الحرية في دين الله.

(1)نور الثقلين / ج ٥ - ص 119

(2)المصدر / ص ١٢٠